

كولين ويلسون

إله المتناهية

ترجمة: عبد الإله الناصر



إله المتناهية، رواية تناقض السائد المتوارث، وتدفع بالتأثير
التغريبي نحو سياقات وفضاءات روائية واسعة، خاصة وأنها
إتخذت من أدب الجنس منطلقاً حقيقياً، للإنتلاق بهذه الروى
التغريبية نحو تلك الفضاءات الرحبة الواسعة.

من هنا فلا يمكن اعتبار هذه الرواية من روايات الأدب الداعر
التي تسعى لتدمير التأثير التغريبي. وقد جاءت الرواية على شكل
مذكرات إعترافية، تتخذ من الجنس منطلقاً لأفكارها ورواها من
دون أن يكون الركيزة الأساسية لبناءها الروائي، وبذلك فقد
شكلت بحق تحدي ممتع وكبير، لأن رواية الأدب الداعر أكثر
صراحة من الناحية الشكلية من أي نوع روائي آخر، أن الرواية
تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي تصف بها الباليه من دون أن
تنتهك حرمة هذا الفن الراقي والرائع.



كله يشير إلى وجود صلة بنيتشه، في حين أن دراسة التشاؤم تربط للوضوع بشوبنهاور وشبثفلر.

حاول ولسون في اللامنتمي أن يبين بأن الوجودية، التي ينتمي إليها فكراً، قد انحرفت عن طريقها الحقيقي، وأن بعض الفلاسفة والمفكرين الوجوديين حاولوا إلباس تعصبهم وفشلهم الذاتيين لغة مؤثرة ومجردة ولا معقولة، فأغرقوا في تعقيد الأمور، وهو الأمر الذي جعل ولسون يحاول أن يقاوم هذا الإنحراف ويواجهه على الرغم من إدراكه للسبق بأن مقاومته ستكون متواضعة وغير مؤثرة، ولكنها حتماً ستكون جديرة بالاهتمام في التفكير الوجودي.

وهكذا سلطت الأضواء بشكل مؤثر وكبير على ولسون بعد نشره لكتابه (اللامنتمي)، حتى أن ولسون نفسه تعجب أشد العجب من النجاح الكبير الذي أحرزه الكتاب في الساحة الأدبية والفكرية، يقول ولسون: "لن أنكر بأن فقدان (اللامنتمي) من المكتبات قد أصابني بمفاجأة، فقد أخطأت حين افترضت أن الوجودية موضوع لا يستهوي إلا القلة من الناس".

النجاح الباهر والكبير الذي حققه ولسون في كتابه (اللامنتمي) دفعه إلى التفكير جدياً في إصدار كتاب آخر، خاصة أن كتابه المشار إليه تناول الإشكالية المطروحة (إنحراف الوجوديين) بتوسع وبيان من دون إعطاء تحليل حقيقي لها، ولذا فقد فكر ولسون بالحاجة الشديدة إلى فكرة أشمل وأعمق. وبنا ولسون بالفعل في مشروعه هذا، متوقفاً نجاحاً أكبر، أو يوازي في أسوأ الأحوال، كتابه (اللامنتمي)، ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

ففي تلك الفترة الصقت بكون ولسون تهمة الانتماء إلى مجموعة (الشباب للتمرد)، التي أطلقها بعض الكتاب المعاصرين في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم (القرن العشرين)، وكان المفكرون والأدباء والناس عموماً لا ينظرون لتلك الحركة بعين الارتياح والقبول، سواء في فكرهم أو أديهم. وهي واقعاً التهمة التي أثرت كثيراً على حياة ولسون الأدبية، أجبرته مرعماً رغم ما يتمتع به من ذكاء وإبداع أدبي وفكري، في الجلوس على مقاعد المبدعين والمفكرين من الدرجة الثانية، وختم عليه بذلك، حتى أنه عندما أزيحت عنه هذه التهمة بقي ولسون في مكانه في الصف الثاني، وكان الأدباء والمفكرون والناس يتشككون في كل ما يطرحه كون ولسون.

مقدمة

■ كولين ولسون كاتب دخل الأدب والفكر المعاصرين من باب عريض وواسع، وهو واقعاً لا يدعي ذلك. أثار حوله العديد من الضلال والعارك النقدية والجدل العميق، سواء أكانت المشجعة أو المثبطة، انطلق بنجاح مذهل في ولوج هذا العالم الرائع (الأدب والفكر)، بعد انصراف غريب إلى المطالعة والبحث والمناقشة والحياة الجدية الدائبة، على حساب رزقه وراحته وصحته وتفوقه المدرسي، لقد كان يتأرجح في سلم الحياة العملية بين ضابط في سلاح الطيران وعامل في تعبئة الطرقي والأزقة، بين موظف محترم في شركة كبيرة وعامل للغسيل والتنظيف، لكنه كان دائماً ذلك الفكر الذكي القلق الباحث عن الحقيقة والهدف والسعادة النفسية العالية. وبعد إصداره لكتابه الإشكالي (اللامنتمي) عام ١٩٥٥، والذي لقي قبولاً واسعاً وانتشاراً مدهلاً، وطبع عشر طبعات خلال أربعة أشهر، يقول ولسون عن الكتاب: "استطعت ذات صباح أن أضع خطة كتاب ما خلال نصف ساعة، وكنت مزماً أن أسميه (اللامنتمي في الأدب)، وأردته أن يكون بحثاً لمختلف أنواع القلق الإنساني. وأعددت قائمة بأنواع الناس الذين كنت أميل إلى بحثهم، وأهديت في الحال إلى بعضهم... وكان هنالك طبعاً عدد كبير من مختلف أنواع اللامنتمين، كان هنالك بعض العمليين بينهم، وكان هنالك أيضاً سلبيون تماماً، وكان في وسعي أيضاً أن أخصص جانباً من الكتاب للشخصيات الدينية، التي كانت جميعها عاصية ضد التقاليد الشائعة، وهكذا يتشعب اللامنتمي إلى ناحيتين، ناحية الضعف، وناحية العصيان، ثم أعقب بالوجوديين الفرنسيين، وكان ذلك

عندما نشر ولسون كتاب (دين وتمرد)، وهو رؤية أكثر شمولية واتساع من كتاب (اللامنتمي)، وهو ملحق لكتاب، وجه الكاتب والكتاب بسخط كبير وغريب بين الناس، ولم يلقى من الصحف الأدبية غير الأزدراء، حتى أن أحد النقاد في ذلك الوقت وصفه بأن (العاب السيد ولسون الأدبية قد انتهت أجلها)، فيما وصفت نافذة كتابه (دين ومرد) بأنه كتاب (تافه حقاً). يقول ولسون أن السمعة السيئة التي ألصقت باسمه في العام ١٩٥٦، (لا تزال تصبغني بلون غريب يجعل النقاد لا يتخذون حتى خطوة قصيرة بالنسبة لكتاباتي، عليهم قد يكتشفون بأنني أملك شيئاً يستحق الكتابة. وهكذا مرت جميع كتبي دون ملاحظة تذكر).

هذا الأمر لم يقف عائقاً أمام ولسون في الاستمرار بالكتابة الإبداعية، ولذا فقد كتب (عصر التخاضل)، والذي لم يلق أية ملاحظة تذكر من قبل النقاد والأدباء، حاول فيه ولسون خلق وجودية جديدة، لترت الموضوع (الفلس) الذي أوجده سارتر وهيدغر، إذ أن السقوط الفجائي من قمة الشهرة بشل الحركة، وأن (الإشكال الثقافي ما هو إلا مغلوطة (اللامعنى) وهو شكل فلسفي لذلك الغلوطة الذي قاد الوجودية إلى طريق مسدود).

وبذا استمر ولسون بالكتابة والإبداع الأدبي والفكري، فكان أن نشر (القوة على الحلم) و(أصول الدافع الجنسي) و(ما بعد اللامنتمي) و(ما بعد الحياة) و(ضياح في سوهو) و(الشك) و(المعقول واللامعقول في الأدب الحديث) و(القفص الزحاجي) و(طقوس في الظلام) و(سقوط الحضارة) و(رحلة نحو البداية) و(الشعر والصوفية) و(الحالم)، إلى آخر ذلك.

ما تجدر الإشارة إليه أخيراً أن كتابات كولن ولسن على الرغم من السمعة السيئة التي ألصقت وتعلق رذاذها به شخصياً وكتاباته طوال حياته الأدبية والفكرية، إلا أنه يتميز بظاهرة قلما انتبه لها أي ناقد أو كاتب، وهي أن كتابات ولسون مرتبطة مع بعضها البعض بسلسلة متشابكة واحدة، يصعب على أي كان أن يجزئها أو أن يختار جزء من تلك السلسلة لدراستها والاطلاع على أفكارها، من دون الأجزاء الباقية، فالرؤية في تلك الحالة ستكون قاصرة وغير دقيقة، فالكاتب الكبير كولن ولسون يتناول في جميع كتبه المنشورة موضوعاً واحداً من زوايا مختلفة، حتى تصل إلى الفكرة التي تستقطبها الكتب السابقة كلها، ومن الممكن القول ببساطة بأن الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها جميع كتب ومؤلفات كولن ولسون، تقوم على محاولته لخلق (فلسفة جديدة) تركز بقوة على الأفكار الوجودية

والرومانسية. ربما نجح ولسون في إيجاد هذه الفلسفة الجديدة من خلال كتبه العديد، وربما استطاع أن يقول في كتبه بكل ما يريد أن يقوله في شرح تلك الفلسفة، إضافة إلى رؤاه الفكرية، إلا أن المؤكد أنه لم ينجح كل النجاح في إيصال فلسفته إلى جميع الأدباء والفكرين والناس، وبقي فكره محصوراً في فئة معينة، دون الفئات الواسع والأكبر.

رغم أنني كنت محروماً بشكل كامل من أي موهبة أدبية، فإن الكتاب لم يكن منحطاً ولا مسيئاً للأخلاق من الناحية الفنية.

وبعد بضعة أسابيع من ظهور مقالة التلغراف، طلب مني أحد مكاتب المحاماة أن أتقدم إلى إحدى المحاكم كشاهد اشهد في صالح ناشر كتب من برادفورد، كان يحاكم بتهمة بيع كتاب "حياتي السرية" وهو ترجمة ذاتية كتبها أحد كتاب العصر الفيكتوري المجهولين، وأجبت على هذا الطلب بأنني مشغول لدرجة تمنعني من الذهاب إلى يوركشاير - وهذه رحلة تستغرق يومين من كورنوال حيث أقيم - ولكنني رحبت بأن يعتمدوا على قولتي بأن الكتاب لم يكن من نوع الأدب الداعر، وأنه من الممكن أن ينشر علناً في إنكلترا. وأشارت إلى أنني مستعد لأن أكتب خطاباً بهذا المعنى. وحينما بدأت كتابة الخطاب، اكتشفت صعوبة المهمة الملقاة على عاتق الدفاع. إن كتاب "حياتي السرية" ليست له أية قيمة أدبية. وحينما نشرته دار نشر "جروف بريس" في أمريكا، قال المسؤولون عنه أنه وثيقة اجتماعية ثمينة عن العصر الفيكتوري، ولكن هذا أيضاً غير صحيح. إن عالم الاجتماع يستطيع أن يعرف من عشر صفحات من كتابات تشارلز بوت أو هنري مايهيو أكثر مما يمكن أن يعرفه من الثلاثة آلاف صفحة التي يضمها كتاب "حياتي السرية". إن مؤلفه لم يكن سوى الصورة الذكورية لامرأة مصابة بالفلمة الجنسية nymphomaniac ولم يكن الجنس عنده سوى نوع من التنفيس عن طاقة مكبوتة. لقد جرب كل نوع ممكن من أنواع التجارب الجنسية لما يزيد عن أربعين سنة أو نحوها، ثم قرر أن كل ما فعله كان شيئاً ساحراً فائتاً وأنه ينبغي أن يكتب عنه. فمن الذي يستطيع أن ينكر أنه كان على حق؟ من الصحيح أنه لن يقبل على قراءته كل الناس، ولكنني أقول أنه ليس كل الناس يقبلون على قراءة الزاجم الذاتية التي يكتبها جنود أو سياسيون أو رحالة، وليس هذه حجة تؤخذ ضدهم.

بل إن المرء لا يستطيع أن يقول أن كتاب "حياتي السرية" قد كتب دون نية بذينة ودون قصد الإساءة إلى الأخلاق، أو أياً كانت العبارة التي استخدمت ضده. كان الرجل قد استمتع بالجنس، ولقد استمتع بالكتابة عنه. وكان الرجل شخصاً مضجراً فذر العقل، طالما أنه كتب كل تلك الصفحات عن الجنس مدافعاً عن فراغ العقل بصورة كاملة. ورغم كل شيء فإن الكتاب واقعي، إنه حياة رجل، إنه "حقيقة"، تماماً مثلما كانت "حقيقة تلك المجلدات الهائلة التي قراها ويب وزوجته ودرساها من "الأوراق البيضاء" من أجل كتاب

حول (إله المتاهة)

□ في وقت ما من عام ١٩٦٨، نشرت جريدة الديلي تلغراف مقالة افتتاحية تنتقد فيها تزايد كمية المشاهد للكشوفة فيما ينشر من أعمال أدبية، وأشارت إلي وإلى ميس بريجيد بروفي Brigid Brophy باعتبارنا كاتبين "جادين" يهدهان إلى المزيد من المبيعات بأن يضمنا كتبهما ببهارات قوامها مشاهد ومواقف كان يمكن أن تؤدي إلى إدانتنا في أزمة أقل تحراً. ولم اتحفظ بشيء على هذه المقالة، لأنه من الصحيح أنني كتبت عن الجنس في عدد من كتبي بطريقة ما كانت تواجه بالقبول أو يسمح بها منذ خمسين عاماً. ولكنني لا أفكر في نفسي باعتباري من كتاب الأدب الداعر Pornography ولكن إذا رغب شخص آخر في أن ينظر إلي بهذه الصفة، فلا شك أن هذه مسألة تتعلق بوجهة نظر صاحبها. ولكن حدث بعد بضعة أسابيع قليلة، أن أعيد نشر مقالة التلغراف اللندنية في جريدة نيوزيلاند، فكتب قارئ نيوزيلاندي خطاباً يدافع فيه عني بقوة. أشار هذا القارئ إلى أن أكثر من نصف كتبي تدور حول موضوعات من مثل الفلسفة والفن والموسيقى والأدب، وأنه من بين رواياتي السبع، لا تحتوي أربع منها إلا على القليل من الجنس، أو لا تحتوي شيئاً منه على الإطلاق. وقد افتنعت حينما قرأت هذا الخطاب، أنني لست من كتاب الأدب الداعر. حقاً أن ناشر كتب من نيوزيلاند قد قدم إلى المحاكمة بسبب عرضه كتاب "يوميات جيرارد سورم الجنسية" في واجهة مكتبته، ولكن هذه المحاكمة لم تؤد إلى إدانته. وكان رأي القاضي أنه

مؤلفهما في التاريخ. إنني أوافق الآن - رغم هذا - على أن هناك شيئاً ما يقف ضد نشر أنواع معينة من الحقائق غير السارة - على سبيل المثال، تفاصيل هجوم جنسي قد تظهر في أثناء محاكمات جرائم القتل، فإن نشر تلك التفاصيل قد يؤدي إلى ارتكاب جرائم مماثلة يقلدها فيها المجرمون، ولكن أي شخص يمكن أن يقلد ما قام به مؤلف "حياتي السرية" فإنه لن ينزل بأحد ضرراً حقيقياً ولن يقترب من إلحاق مثل هذا الضرر، وبذلك فإن اعتراضني لا ينطبق عليه، إنني لا أستطيع أن أفكر في أي أساس يصلح لأن أستند إليه من منع الكتاب - وبالتأكيد لا أجد ما يبرر الحكم على من باعوه بقضاء عامين في السجن - مثلما حدث لبائع الكتب في برادفورد.

ولكن حجة "الحقيقة" يصعب أن تطبق على أعمال دي صاد و"فاني هيل Fanny Hill" التي يمكنني أيضاً أن أدافع عن نشرها وخاصة إذا كانت أسعارها مرتفعة، حتى تعمل الأسعار المرتفعة عمل "الرشح" بالنسبة لصغار السن من القراء. إنني لا أحب دي صاد. وأنا لا أظنه "هاماً" أو ذا دلالة خاصة، بالطريقة التي تظهر بها أهمية ودلالة جان بوليهان والأنسة دي بوهوار^(١). إن الروح الأساسية السائدة في كتبه هي روح تمرد يقوم به تلميذ - يشبه كتابة الكلمات القذرة على الجدران. ولكنني لا يمكن أن أفهم في صف منع نشر كتبه. أما بالنسبة لكتاب "فاني هيل" فإن كليفلاند يعترف بأنه كتبه لكي يحصل على المال، وهذا الكتاب مثال نموذجي للكتب التي دعاها سانت بوف بأنها "الكتب التي يقرأها المرء بيد واحدة". إنه كتاب مسل، كتب بشكل جيد، وليس فيه شيء لا يعرفه بالفعل أي قارئ تجاوز سن الرشد. إننا لا بد أن نعرف بأن منع إصدار أي كتاب - وأن نعلن أنه ليس صالحاً لأن يستهلكه الجمهور - هو الشبيه الأدبي لعملية إعدام مجرم، أو إحراق ساحرة، أو إلقاء معارض سياسي في السجن. وأنه لمن الصعب أن ندافع عن مثل هذا الإجراء دون تحيز - وفي تباعد أو انعزال موضوعي. إنه لا يمكن الدافع عن مثل هذا الإجراء إلا على أساس من التعصب الفكري وضيق الأفق، مثل الأساس الذي قام عليه "فهرس الكنيسة الكاثوليكية" أو إحراق النازيين للكتب، أي على أساس تقديم عقائد جامدة لا بد من القبول بها. يمكننا أن

(١) سيمون دي بوهوار، زميلة سارتر ورفيقته، مؤلفة العديد من كتب الفلسفة والأدب والإبداع والنقد. مثل سارتر بدأت مدرسة للفلسفة متأثرة بوضعية هيوم وبوجودية هيدغر وباسيرز، ولكنها سبقت سارتر إلى التأثير بالماركسية.

نهاجم عملية بيع العقاقير المخدرة دون رقابة، أو مزج عصير الفاصكهة بالكحول لكي يشتره صغار السن، على أساس نفعي وعملي، فإن هذه الأعمال يمكن أن تنتج تدمير الأجساد. ونحن نعرف كل شيء تقريباً عن إمكانيات الجسد، ولكننا لا نعرف شيئاً عن إمكانيات العقل. فهذا النوع من الحجج "النفعية" لا يستطيع أن ينتقل إلى مجال الكتب.

إنني أوافق على أن كل هذا يبدو في صورة التماس خاص - مثل التماس يقدمه محام ماسكر يعرف أن قضيته لا يمكن الدفاع عنها، فيقرر أن يحاول خلط الصفوف المستقلة ومزج القيم التي لا تمتزج. يجتاحني هذا الإحساس وأنا أقرأ عدداً كبيراً من آراء معارضي الرقابة. ولكنني حينما أنظر داخل نفسي، أحسني مالكا لنوع بالغ الوضوح والتحدد من الجنس الذي ينتمي علي ما يكون الأدب الداعر وعلى ما لا يدخل في تكوينه. فاسمحوا لي بأن أحاول توضيح طبيعة هذا الجنس.

وقد يمكنني أن اتخذ نقطة انطلاقي من فقرة جاءت في ترجمتي "الذاتية"، "رحلة نحو البداية"،

إن بطل رواية "طقوس في الظلام" سيطر عليه الإحساس بأن "ثمة" معنى في الوجود الإنساني، وأن هذا المعنى يمكن أن يصل إليه العقل - فقط إذا عرف العقل الطريق المؤدي إلى العنور عليه. وأن واحد من أكثر "تجارب المعنى" شيوعاً تأتي عن طريق الجنس، ولهذا فإن الجنس يقدم "نقطة بداية" ثمينة في سبيل البحث عن المعنى. وإنني أضع خطأ تحت عبارة "نقطة بداية" لأنه يبدو لي أنه لا شيء يمكن أن يكون أكثر عمقاً من الجنس إذا مارسه الإنسان كنوع من التنفيس عن الطاقة - مثلما فعل كازانوفا أو فرانك هاريس.

"يمكن" أن يكون الجنس نقطة بداية "للبحث عن المعنى"، إنكار ما أكدته سارتر من أنه، "لا معنى لأن نحيا ولا معنى لأن نموت". ومن الواضح أن هذه الحجة تنطبق على د. هـ. لورانس كما تنطبق على كتبي التي كانت التلغراف تعنيها في مقالها. إن الدفاع عن دي صاد أيضاً أمر ممكن لأنه هو الآخر رأى أن الجنس يحتوي بشكل ما على معنى الوجود الإنساني. من الحق أن ثمة أخطاء جوهرية في تفكيره - الفشل في التفكير في "قانون ردود الأفعال المتلاشية"، هذا الفشل الذي يفسد عمله ويخيب مسعاه في التحليل الأخير، وهذا أثر عجيب من آثار الأخطاء الشهيرة، مثل نظرية الكون التي تقول بأن الأرض هي مركزه، أو نظرية عنصر الفلوجيستون الذي قبل يوماً أنه أساس الخليقة، ويبقى هذا الخطأ في صورة

رمز نافع للخط الذي يمكن أن يكتسب شيئاً من الأهمية. والجنس يقدم أيضاً نقطة بداية ممتازة لفلسفة وجودية. يقول "كيريلوف" أحد أبطال دوستوفسكي أنه إذا لم يكن هناك إله، إذن فإن الإنسان إله، وعليه أن يثبت هذا، ثم ينطلق بهذا المنطق حتى يصل إلى الانتحار. لما دي صاد فإنه ينطلق به حتى يصل إلى الدفاع المطلق عن اللا أخلاقية. وفي كلتا الحالتين يستطيع المرء أن يبدأ في مناقشة مثمرة.

إنني أحس بأدب الدعارة الحقيقي حينما أقرأ كتباً معين لن يفكر أحد مطلقاً في منعها - كتب من نوع، "لا زهور أوركيد من أجل ميس بلانديش" أو "صانعو الأيسطة" أو حتى بعض روايات جيمس بوند. يتهم فورستر جيمس جويس بمحاولة تغطية الكون كله بالوحل. ولكنه كان مخطئاً. إن ما يبدو في رواية "يوليسيز" من عنف وقذارة وضع عمداً وقد قصد به أن يؤثر تأثيراً عكسياً، مثل دواء قابض، ويعترف جويس نفسه بقرابته للكاتب سوفيت. أما جيمس هادلي تشيز وهارولد روبينز فقد مارسا الكتابة لكي يتمتعوا القراءة فقط ولكي يربحوا النقود عن طريق الإمتاع. إن الجنس والعنف - والعنف بشكل خاص - يقصد منهما أن يجعلوا الوحبة أكثر لذة وشهية. إنهما مثل حراس بيوت الدعارة وملاكها الذين يبدون استعدادهم لخدمة أي شخص مستعد للدفع. فإذا جرأه حجبهم إلى ضوء المناقشة، يجدها نسخاً أخرى من حجج دي صاد، مثل هولتير أو أي وضعي منطقي حديث آخر، الذي كان يهاجم الأفكار "الليثايزيقية" عن الطيبة والخير. إنه يقول قولة مؤثرة، "يقول الناس أن الفضيلة، وإنكار الذات، والتضحية بالنفس، والروح العامة والشرف والشجاعة، كلها خير. أما أنا فأقول أن هذا ليس سوى تفكير مختلط مشوه. فاللذة وحدها هي الخير بالنسبة لأي واقعي معتدل التفكير". إن ما يوشك حينئذ أن يفعله هو أن يرفض نفسه بمحاولة توضيح فكرته في أقصى امتداد له. والشيء الوحيد الذي يدهشنا هو أنه لم يصب هو نفسه بالضجر إلى حد المرض قبل وقت طويل من إكمال روايته "كوليت". على أنه من الواضح أنه كان يدرك القيم التي كان يحاول أن يفرسها وأن يبعث فيها الحياة.

لا أحد الآن ينتقد كونان دويل^(١) أو رايدر هاجار^(٢) لأنهما لا يتمتعان بالتعمق الذهني الذي تمتع به توماس مان أو الدوس هكسلي. فلقد خرجا إلى الناس باعتبارهما "مسليين" أو

(١) سير آرثر كونان دويل ١٨٥٩-١٩٢٠ رواي إنكليزي اشتهر بسلسلة رواياته التي كان "شرلوك هولمز" بطلها. ولكنه اشغل بالأسئلة الروحية وكتب تاريخاً لها، كما كتب عدداً من الروايات التاريخية لشهرها "البرفاندر جيز" و"البروفيسور تشالنجر".

(٢) سير هنري رايدر هاجار ١٨٦٥-١٩٢٥. كاتب رواي إنكليزي بدأ حياته في البحرية البريطانية واشترك في كشف منطقة الزانغال الأفريقية، واشتهر بروايات الغامرات الأفريقية. أشهر أعماله هي "سكنوز تلك سليمان" عام ١٨٨٥ ثم "هي" ١٨٨٧، وكتب عدداً من الروايات التاريخية العاطفية مستعمداً من التاريخ الفرعوني.

مسامرين و"القيم" التي دافعا عنها، الشرف والشجاعة وما إلى ذلك، هي من القيم التي لا يمكن الاختلاف حولها بأي حال. ومنذ زمن ظهورهما، أصبح الكاتب السلي أو "المسامر" أكثر واقعية، وأكثر تعقيداً من الناحية الثقافية. ولكنه لسوء الحظ لم يصبح أكثر تعمقاً في التحليل الذهني - إنه يرفض القيم الأقدم عهداً - ولكنه لا يفعل ذلك باسم عقل باحث لا بكل عن طرح الأسئلة، وإنما فقط باسم تسلية، "إعطاء الناس ما يريدون". ولكن رفض القيم - إذا كان لهذا الفرض أن يكون نشاطاً مفيداً - يجب أن يكون واعياً تمام الوعي بطبيعته الخاصة. إننا حينما نلتقي بأناس يؤمنون بآراء لا يريدون التفكير فيها، فإننا ندعوهم بحق أغبياء أو متعصبين. والاعتراض على مثل هذا النوع من الغباء أو التعصب، هو أنه بشكل ما نوع من "إنكار الحياة". إنني أملك جهازاً هضماً ومخارج للتعامل مع الطعام الذي احتاجه لكي يبقى على حياتي. وأملك أيضاً جهازاً هضماً عقلياً ومخارج للتعامل مع تجريبي. ونموي باعتباري كائن إنسانياً إنما يعتمد على هذا الجهاز مثلما يعتمد نمو الجسدي على الجهاز البدني. فإذا ما انغلق أو انسد أي من الجهازين، فإنني سأكون عرضة للتسمم البطيء. إن كتاباً من نوع إيان فليمنج^(١) أو هارولد روبينز لا يملكون أجهزة هضمية ومخارج للتعامل مع القيم التي يرفضونها. والنتيجة هي أن تفوح رائحة التعفن والتحلل، رائحة جهاز تسده فضلاته التي ينتجها بنفسه. فإذا ما قرأ شخص ما أعمالهما لمدة طويلة، كانت النتيجة هي الإحساس بالصنع، بتسرب الدم من الدماغ، بالعقم، هذه هي نتيجة الإمساك القاسي.

وهذا القانون ينطبق بالطبع على عدد كبير جداً من الأعمال الأدبية. يشعر المرء بنفس الإحساس بالعقم إذا قرأ طويلاً رواية رومان رولان "جان كريستوف" أو رواية بوديس "الذنب المنفرد" أو حتى "الحرب والسلام" هذه الكتب تمتلك جهازاً هضماً، ولكنه ليس كبيراً إلى الدرجة الكافية للتعامل مع مثل تلك التجربة الكبيرة. ومن الجدير بالملاحظة أن الجهاز الهضمي ليس - ببساطة - هو القدرة على التفكير المجرد. إن أمثال هكسلي أو مان الذكاء وعلى عمق ذهني كاف، ومع هذا فإن كتبهما تتصف بجمود غريب. إن الشيء الهام هو قدرة الكاتب على "مهاجمة" تجربته، وليس مجرد أن "يعانيها"، وإنما أن يتجاوزها. لا يمكن أن يبعث دوستوفسكي على الضجر، على الرغم من أسلوبه الوعر الثقيل وإصلااته

(١) إيان فليمنج - أشهر كتابات القصة البوليسية المعاصرة، بدأ حياته في أوروبا ثم في الشرق الأقصى حتى تركها بعد الحرب العالمية الثانية. خلق في أعماله شخصية "جيمس بوند".

للسهبة، بسبب ما نشعر بما لديه من هذه النيران الملتهبة التي تحاول أن "تأكل" مادته، مثل أتون يصهر خام الذهب...

هذا هو ما يحدد ما قلت عنه إنه حدسي لطبيعة الأدب الداعر. إنه مرتبط بمسألة الجهاز الهضمي، إننا لا نطعم طيور البط بالأرز، ولا نرضع الأطفال الصغار بالحلوى الثقيلة، لأننا نعرف أن أجهزتهم الهضمية لن تصمد لمثل هذه الأطعمة، فإذا فعلت هذا وأنا أعرف ما ستكون عليه النتيجة، فإنني أكون مداناً بتهمة الإهمال الإجرامي. وهذا هو ما ينطبق على كاتب ينتج خليطاً لزجاً رديء الطهو من الجنس والعنف، هادفاً بذلك إلى الوصول إلى "أكثر الفئات الهابطة شيوعاً" من القراء.

وهذا هو أيضاً ما يفسر السبب الذي يجعلني لا أعتبر كتاباً من نوع "حياتي السرية" و"فاني هيل" أو أعمال دي صاد من الأدب الداعر الحقيقي. والمحك الحقيقي هو التساؤل عما إذا كانت تحتوي على هذا العنصر السام، عنصر إنكار الحياة. إن كتاب "حياتي السرية" بالغ الكابة مليء بالتكرار بعد عدد قليل من الصفحات الأولى، ولكنه ليس أكثر تسميماً من كتاب "هانسارد"^(١) أو "سجل المؤتمر". فالقاص، أو الروائي في هذا الكتاب خشن وغبي، ولكنه ليس قاسياً ولا وضيقاً. وقد يعترض المرء على قيمه الأساسية، على شعوره بأن الجنس هو أكثر التجارب الإنسانية أهمية، ولكن يستطيع المرء أن يؤمن بهذه القيمة أو أن يرفضها. وليس هناك شيء يمنع القارئ من أن يضع إحدى رباعيات بيتهوفن على الحاكي بعد أن يقرأ اثنتي عشر صفحة أو نحوها، وينطبق نفس الشيء على رواية "فاني هيل". أما بالنسبة لدي صاد، فإن قراءته تثير رد الفعل الذي يمكن بالفعل أن يوسع من اتفاق رباعية لبيتهوفن. أما المشكلة التي نواجهها مع هادلي تشيز أو هارولد روبينز، فهي أنه بعد قراءة عدد قليل من الصفحات، فإن المرء لا يعود قادراً على الاستمتاع بسماع بيتهوفن. فإذا حاول المرء سماعه مع ذلك، فإن بيتهوفن سوف يبدو شيئاً غير متناسب مع هذا العالم الفارغ الشرير الخطير العنيف الذي نعيش فيه، سوف يبدو في صورة "ملاك جميل لا فاعلية له"، يعيش في عالم أحلامه الموسيقي السخيف.

(١) الإشارة هنا لـ "هانسارد" الأسبوعية التي يصدرها البرلمان الإنكليزي والتي تضم النص الحر في مناقشات مجلس العموم واللوردات.

باختصار، يتضمن الأدب الداعر إحساساً بالتحقير من شأن القيم ومهانتها. وإذا كان الفن معركة بين عقل الإنسان والعالم المادي، إذن فإن كتاب أدب الداعة يقف إلى جانب العالم ضد عقل الإنسان. ومن المهم أن نلاحظ أن كلاً من فليمنج وهارولد روبينز وهادلي تشيز يستغلون الجريمة مثلما يستغلون الجنس، وكثيراً ما يبدو عليهم أنهم يساوون بين الاثنين باعتبارهما نوعاً من النشاط الهدام المدمر.

وقد أشار برناردشو إلى أننا نحكم على الفنان من خلال أعلى ذروة يبلغها، ونحكم على المجرم بادنى قاع يهبط إليه. وهذا يعني أن الفن قد ينظر إليه باعتباره دفاعاً عن أعلى ذروة يمكن أن يبلغها الإنسان ضد أدنى قاع يمكن أن يتدنّى إليه. والكاتب الذي يستغل الجريمة والجنس، لا لشيء إلا لأن يثير القارئ ويستفز مشاعره إنما قد أصبح مدافعاً عن أدنى تلك القيعان المظلمة. أما إذا مضى إلى معالجة الجنس بالطريقة التي تجعله في سلة واحدة مع الجريمة باعتباره لحظة من أكثر لحظات الإنسان انحطاطاً، فإن اتهامه يصبح اتهاماً مركباً.

ولكن، فلننتقل الآن إلى المرحلة التالية من المناقشة. سوف نلاحظ هنا أن كلاً من توماس مان والدوس هكسلي قد انشغلا أيضاً بالعرفه بين العالم المادي وبين العقل، وأن كلاً منهما قد اتجه إلى أن يكون انهزامياً، مؤمناً بانهزام العقل في تلك المعركة. وأنا شخصياً كثيراً ما أشعر بأن هكسلي كاتب مقبض مثل جراهام جرين^(١) لأن العالم المادي عندما يبدو دائماً قادراً على أن يكسب السباق بمقدار طول رأس واحد. إنه يتحدث عن تأكيد الحياة، ولكن شيئاً من هذه الحياة المؤكدة - بشكل ما - لا يستطيع أن يصمد حتى النهاية في كتبه، إن اسمه "لؤكدين" أو الإيجابيين يبدو دائماً غير مبهيحين وأغبياء. وأصحاب الحساسية من شخصياته دائماً ضعفاء. ونفس الشيء يصدق أيضاً على توماس مان، ولكن "موضوعيته" تجعل تلك السمات أقل في تأثيرها المقبض.

(١) جراهام جرين (١٩٠٤-...) أحد كتاب الرواية الإنكليزية الكبار في هذا القرن. عرف بمعالجته للشخصيات ذات التكوين النفسي الشاذ واليالة إلى الشر أو إلى التمرد الاجتماعي. ويعتبر أحد أساتذة أدب التوتر. أهم أعماله كانت "القوة والجد".

إذن، فإن إنكار الحياة، بينما يكون عنصراً أساسياً من عناصر الأدب الداعر، فإنه ليس مقصوداً على هذا الأدب. وهذا يثير التساؤل عن المدى الذي يصل إليه صدق العكس. هل يكون الأدب الداعر ممكناً إذا لم يكن إنكاراً للحياة قائماً؟

وهذا السؤال أكثر أهمية من مجرد مظهره، فإن هذا التساؤل عن الأخلاقية واللاأخلاقية، عن الصحة والانحلال قد ظل يشغلنا لمدة تقرب من قرن كامل، منذ أن بدأت مناقشات إبسن^(١) وزولا^(٢) في ثمانينات القرن الماضي. وقد كانت حجج كل من الجانبين هي نفس الحجج تقريباً على الدوام. فقد كتب توماس جيفرسون منذ عام ١٧٨٢، يقول: "هؤلاء الذين يعملون في الأرض هم شعب الله المختار... إن فساد الأخلاق بين جماهير المرابين والمهذبين لهو ظاهرة لم يخل من بعض نماذجها عصر ولا أمة من الأمم". إن تلك المجتمعات البسيطة البدائية شبيهة بالجسد القوي الصحة. وإن رفض "الفساد" هو وظيفة آلهة من وظائف الصحة. وحينما يبدأ الشيء "الريب"، غير الصحي، الفاسد، في العثور على موطنه قدم، فإن هذا يعني - بحكم الأمر الواقع - إن الانحلال قد بدأ. إن جسدي العضوي إذا ما بدأ يصبح أكثر سرعة في التأثر بالجراثيم، فإنني جدير باتخاذ الخطوات اللازمة لمعالجته، لكي يستطيع أن يلفظ الجراثيم، ومن المؤكد أنني لن أقبل تلك الجراثيم على اعتبار أنها تقدم فرصة لإحداث تغيير ممتع بديل لحالة الصحة الثابتة الدائمة المضجرة. وهذا هو الخط الذي يتبعه ماركس نوردوفي كتابه "الاضمحلال" عام ١٨٩٣. فلماذا أن نعرف الانحلال بصفاته الحقيقية، فلا نتسامح معه أو نشجعه. إن كتاب شو الهجومي المضاد "صحة الفن" كان

(١) هنريك جيون إبسن (١٨٢٨-١٩٠٦) الشاعر السرحي والكاتب النرويجي العظيم، خالق تيار الدراما الواقعية الاجتماعية الحديثة وأحد أعظم الكتاب السرحيين في كل العصور. كان له تأثير فني وفكري كبير، فتممه كتاب كثيرون في لشكاليه الفنية ومضامينه، خاصة منذ كتب جروج برنارد شو كتابه عن "الإبسنية" حيث كشف عما تحتويه أعماله من قيم فنية واجتماعية عظيمة. ومن ناحية أخرى اعتبره أصحاب الاتجاهات السيكلولوجية الصوفية في الفن من أعظم روادهم بأعماله الشعرية الرمزية الكرى وخاصة مسرحيته "بيرجنت" و"براند" حيث تجلت حساسيته النفاذة في دراسة النماذج البشرية ومطامح الإنسان في التمرد الروحي الشامل.

(٢) إميل إيوارد تشارلز انتوان زولا (١٨٥٠-١٩٠٢) الروائي الفرنسي الكبير، أشهر برايته للمدرسة الطبيعية في الأدب الفرنسي (وخاصة في الرواية) في القرن لثاني. تميزت أعماله بدقة غير عادية في رسمها للمخلفات الاجتماعية، واللهجات والخصائص النفسية وبخوض الشخصيات الفنية لنوع من الحمية القائمة على الورثة وتأثير البيئة.

يحمل عنواناً فرعياً يقول: "كشف وفضح للهرء الشائع عن كون الفنانين من عناصر الاضمحلال". ومن الممكن أن نلخص الحجة التي ساقها في الكلمات التالية: "ليس اضمحلالاً، وإنما هو تطور". أما توماس مان، الذي كان يكتب أولى أقاصيصه في تلك الفترة، فقد اتخذ موقفاً أقل إيجابية (وهو الموقف الذي تسمك به طيلة حياته) يقضي بأنه، بينما يصبح الفن أكثر حساسية ورقة، فإنه "يتطور" و"يضمحل"، فالتطور هنا يعني الاضمحلال، إذا ما مضى إلى وراء نقطة معينة. وقد قال شبنغلر نفس الشيء في كتابه "اضمحلال الغرب".

ولا يتفق شو مع هذا الرأي بصورة أساسية. لقد كان جديراً بأن يقول: "بالطبع، أن التطور "يمكن" أن يعني الاضمحلال، إذا ما زالت الحساسية على الحيوية. ولكن هذا لا يتبع ذلك بالضرورة". ومن الواضح أن هذا شكل آخر للسؤال الذي أثارناه نحن بالفعل، لقد كان مان وهكسلي كاتبين زادت عندهما الحساسية على الحيوية، فإنها يجب - في النظرية - أن تكون قادرة على أن تزيد الحيوية إلى الدرجة المناسبة لها. ولكن لم يؤمن أحدهما بإمكان ذلك. ولكن هل هذا صحيح؟ ولنفترض أن لدي رأياً فحاً وبالع البساطة عن شيء ما. إن النتيجة هي أن يصطدم رأسي بالحقيقة صدمة تجعلني أكثر حكمة - أي أكثر حساسية - ولكنها صدمة ستجعلني - في لحظة وقوعها - أقل ثقة وأقل قدرة على اليقين والتأكيد. فهل ينبغي أن أظل على هذه الحالة طوال ما بقي من حياتي؟ من الواضح أن لا. إنني أبذل مجهوداً عقلياً، إنني "أتمثل" التجربة أو أهضمها، وأتأملها حتى أمتص كل معانيها ودلالاتها، أي حتى يمكنني السيطرة عليها. حينئذ تعود الثقة وتفيض ينابيع الحيوية مرة أخرى. وهذا يعني القول بأن الأمر يعتمد على نفس عملية "الهضم" التي ناقشتها بالفعل أثناء الحديث عن الأدب الداعر.

وهذه النظرة تقدم بديلاً للموقف الجيفرسوني: إن البساطة والصحة والشباب تمضي كلها معاً وتصبح إحداها الأخرين. إنك إذا قلبت ميزان الثبات، فسوف تقلب ميزان البساطة والصحة، ولكنك عن طريق مجهود معين وقدر معين من التفاؤل، فإن هذه الموازين يمكن أن تستعاد في مستوى أكثر سمواً، وسوف تكون النتيجة تطوراً حقيقياً وأصيلاً، إن البدائل ليست محافظة أشبه بانغراس الإقدام في الوحل أو اضمحلال سريع لا مناص منه.

قد تلبو النتيجة مجردة أو مطلقة، ولكنها بالنسبة لي كانت ذات أهمية عملية مباشرة، فإنني حينما بدأت كتابة روايتي الأولى، في أواخر سنوات العقد الثاني من عمري،

كانت تسبب علي المشكلة التي دفعت جويس إلى اختيار ملحمة الأودية لكي يستمد منها بناء روايته المتداخلة الأطراف والتي تسودها الفوضى والتي تحدثت عن ديلين الحديثة، وقد عبر بيتس^(١) عن هذه المشكلة في الأبيات الثلاثة التالية:

سمكة شكسبيرية تسبح في البحر، بعيداً عن اليابسة،

سمكة رومانتيكية تسبح في الشباك لتتقرب من يد الصياد،

ولكن، ما كل تلك الأسماك الراقدة تشهق على رمال الشاطئ؟

ومعنى هذا هو أن الفن الشكسبيري قد رفع مرة في مواجهة الطبيعة، أو ربما كان على اللز أن يقول أنه رفع في مواجهتها عدسة مكبرة، وكانت وحدتها الأساسية هي الحدث أو القصة. الشخصية مهمة، ولكنها مهمة فقط "في إطار" القصة، فإن الأمر - على أي حال لن يهم حقاً - سواء إذا كان هاملت هو الذي استبدت به الغيرة فقتل زوجته، أم أن لير هو الذي أصبح أمير كودور. أما شخصية فيرتر عند غوته، أو "أوبرمان" عند سينانكور، أو هيرتون عند هولدرلين^(٢) فإن أحداً لا يستطيع أن يحل محل أي منها، لأن كل واحد منهم "هو" القصة. إن العدسة المكبرة تقترب أكثر، حتى لا يعود الحدث هو الوحدة الأساسية، وتصبح الوحدة الأساسية هي الشخصية.

إن قصة ما، سوف تحكي نفسها لك إذا أنت سمحت لها بذلك. أما الشخصية فلا بد أن يعيشها المؤلف. لقد كان على غوته أن "يصبح هو" فيرتر أو ويلهلم مايسر بطريقة لم يعرفها شكسبير في مطابقة نفسه مع هاملت أو الملك لير. ومع هذا، إذا ولج المؤلف الروائي "داخل" الشخصية، فإن الأحداث سوف تتطور حينئذ بشكل طبيعي، فيصبح ويلهلم مديراً لفرقة مسرحية، ويصبح هاوست محسناً عاماً ومشرفاً على مؤسسات خيرية.

(١) ويليام تيلر بيتس (١٨٦٦-١٩٢٩)، شاعر ومكاتب درامي، بل إنه رائد حركة الإحياء الإيرلندية، تأثر بكل من ويليام بليك وشيللي وبنزعة الإيمان الهندي بالقوى الخفية وبالرمزية الفرنسية، وبيتس أحد مؤسسي حركة الأدب والمسرح الإيرلنديين في أواخر القرن الماضي، فاز بجائزة نوبل عام ١٩٢٢ م.

(٢) جوان كريستيان فريدريش هولدرلين (١٧٧٠-١٨٤٣) أحد كبار الشعراء الألمان. كان صديق شيلر وتلميذ حتى تخلص من تأثيره وخلق لنفسه موسيقاه وأبنته الشعرية والفكرية. ولكن تم اكتشافه متأخراً كشاعر عظيم في القرن العشرين على أيدي الناقدين هيلينجرات وبيستر. مزج بين ثقافته الإغريقية وتصوره الوثني عن الطبيعة في البداية، ثم تحول إلى التصورات المسيحية وعبادة المسيح لكي يصبح واحداً من أهم المعبرين عن روح الثقافة الغربية للمسيحية وتجسيد الفكر التأملي في الشعر.

هذا، مع ضرورة أن تكون الشخصية واضحة الملامح محددة القسمات. ولكن جوهر النزعة الرومانتيكية كان هو انقسامها الذاتي، إحساسها بالافتقار إلى هوية محددة وواضحة. وببساطة، يخلي فيرتر السبيل لكي يأتي ستيفن ديدلوس، ولكن يأتي "مائي لوريدس بريجي" عند ريكسه، ولكن يأتي روكانتان عند سارتر وميرسو عند كامب، ثم يأتي أخيراً البطل الاستاتيكي الكامل - "ك" عند كافكا، فالسمكة لم تعد تملك قوة تعينها على السباحة، ولا حتى على التقلب على جانبها، فهي لا تفعل عند بيكيت أكثر من أن تشهق وهي تضرب بذيلها. هناك كسب تحقق في التفاصيل - فالعدسة المكبرة الآن أصبحت على بُعد بوصة واحدة من أنف السمكة - ولكن لم تعد القصة ممكنة القيام. وبدون "القصة"، كيف يمكن أن تكون هناك رواية؟

لم يكن الحل الذي تقدم به جويس قابلاً للتطبيق بشكل عام، وفي الحقيقة، وبقدر ما أعلم، كان هو الشخص الوحيد الذي حاول استخدام "المنهج الميثولوجي". لقد كفت الرواية عن محاولة حل المشكلة، وقد ارتدت إلى مرحلة أحدث عهداً، وتصالحت مع ما حدث لها من خسارة في وضعها ومكانتها.

وقد عبرت الدراما بأزمة مشابهة في القرن العشرين، عندما انجرفت هي الأخرى نحو النزعات الذاتية والرمزية والتعبيرية، بل وإلى نوع من الكابوس التعمد في مسرح القسوة عند آرثو. ولقد كان بريخت^(١) هو الذي حاول أن يقيم اتصالاً جديداً مع البدايات، مع منبع المجري ومصدره. لقد بدأت الدراما بوصفها استعراضاً، بوصفها قصة تروى على جمهور من المشاهدين يعرف أنها ليست حقيقة من الواقع. إذن فلماذا تحاول أن تتناهض مع السينما؟ لماذا لا تحاول أن تحصل من اتفاقها المحدودة على أفضل ما فيها، أي في الحقيقة أن "تؤكد" وجود الفجوة القائمة بين النظارة والممثلين؟ كان بيتس يداعب نفس الفكرة - فكرة مسرح الطقوس - ولكن بريخت كان يملك عبقرية المزج بين مسرح الطقوس وبين منصة المحاضر، بين صالة الموسيقى والرقص وبين صندوق الصابون.

(١) برتولت بريخت (١٨٩٨-١٩٥٦) الشاعر والكاتب المسرحي الألماني الكبير. واحد الشخصيات البارزة في المسرح للعصر إن لم يكن أبرزها جميعاً، لا بأعماله المسرحية الغضة فقط، وإنما بأفكاره الأصلية عن فنون التأليف والإخراج والتمثيل لمسرحية هذه الأفكار التي بلورت شيئاً مسرحياً جديداً معارضاً للتيار الأرسطي الذي ساد في الدراما الأوروبية منذ القرن الخامس ق. م. من أهم أعماله المسرحية هي: "الأم شجاعة" عام ١٩٤١ ثم "حياة غاليليو" عام ١٩٤٨ ثم "دائرة المطايعين الخوفانية" عام ١٩٤٨، ثم "السيد بونتيلا وتابعه مائي" عام ١٩٥٢.

كنت قد كتبت عدداً من الروايات قبل أن يخطر لي أن ما كنت أفعله هو أن ادفع تأثير "التغريب" الريختي إلى مجال الرواية. لقد بدأت روايتي الأولى "طقوس في الظلام" ببناء ميثولوجي مستمد من الكتاب المصري، "كتاب الموتى"، حتى طرأ لي أنني إذا لم يكن في نيتي أن أستخدم إطاراً نابعاً بشكل طبيعي من المعاني الداخلية في القصة، فإن الأجدد بي أن أستخدم إطاراً يمكن أن يقبله القارئ العادي وهكذا اخترت قصة جرائم قتل جاك الخناق، وبينان القصة السيكلوجية المثيرة، ولكنها كانت ما تزال بشكل أساسي رواية واقعية تقوم على تقاليد دستوفسكي في الواقعية. وفي الرواية الأخيرة، قصصنا إلى "عامل الغريب" بشكل واع أكثر عن طريق اختبار أشكال تقليدية، هادفاً في نفس الوقت إلى تأثير قريب جداً من تأثير الاستعراض، ففي رواية "ضياء في سوهو" كان الإطار هو إطار الرواية التصويرية، وفي رواية "الشك الضروري" كان الإطار هو إطار "الرواية البوليسية"، وفي رواية "عالم العنف" كان الإطار هو إطار "الرواية الكبيرة" الألمانية مع نغمات كوميدية مصاحبة تتخلل البناء، وفي رواية "طفيليات العقل"، "حجر الفلاسفة" كان الإطار هو القصص العلمي الخيالي، وفي رواية "الحجرة العتمة" كان الإطار هو رواية الجاسوسية، وفي رواية "القصص الزجاجي" علت مرة أخرى إلى إطار الرواية البوليسية.

أما الآن، فإن الخطاب الذي دافع عني ضد اتهام كتابة الأدب الداعر قد انار في ذهني سؤالاً: هل يستطيع المرء أن يستخدم شكل الرواية الداعرة التقليدية، بطريقة كليلاند أو أبولونير، باعتباره الإطار الأساسي لإحدى الروايات، ثم يصل إلى نفس التأثير التغريبي؟ لقد حاولت شيئاً مشابهاً في رواية "رجل بلا ظل"، التي تم تغيير اسمها فيما بعد دون استشارتي إلى "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" وقد لاحظت في ذلك الحين أن الكتابة عن الجنس تميل إلى تدمير التأثير التغريبي لأن القارئ يصبح منغمساً وداخلاً فيما يقرأه. ولكن "اليوميات الجنسية" لم تستخدم "شكل" الرواية الداعرة، وإنما شكل المذكرات الاعترافية، لقد كانت رواية أفكار لا تأخذ الجنس إلا باعتباره نقطة انطلاقها. ولكنه نوع من التحدي الممتع، لأن رواية الأدب الداعر أكثر صراحة من الناحية الكلية من أي نوع روايتي آخر يمكنني أن أتذكره، إنها تتمتع بشيء من الصراحة الرمزية التي يتصف بها الباليه. وهذا شيء أفضل ما يكون من أجل إنتاج التأثير التغريبي. والتحدي للوجود هنا بالطبع، هو أن تضفي الحياة على البناء. والمشكلة القائمة في رواية الأدب الداعر التقليدية - ورواية "جوستين" يمكن أن تؤخذ هنا كمثال - هي أن المرء يعرف أنها سلسلة من "القطع المستقلة" يربطها خيط قصصي

معتف مفروض عليها، مثل إحدى أوبرات مونتفيري. وأنا أكثر اهتماماً بكثير بالقصة والأفكار مني بالقطع المستقلة المتعلقة الارتباط. ولابد لي أيضاً من الاعتراف - ونحن بصدد الحديث عن الشكل - بأن هذا الكتاب (إله المتاهة) لا يخضع لقواعد رواية الأدب الداعر بقدر ما يخضع لقواعد القصة البوليسية - وبوجه خاص لقواعد القصة البوليسية الأدبية من النوع الذي شاع في روسيا على يدي الكاتب إيراسكلي أندرونيكوف. وحكاية "جماعة العنقاء" فمت بتطويرها اعتماداً على إشارة عابرة وردت عند جورج لويس بورجيس، وفي الحقيقة، إذا صح أن يقال أن روايات "طفيليات العقل"، "حجر الفلاسفة" قد استعارتا الميثولوجيا التي وضعها "ه.ب. لوفركرافت"، فإن هذا الكتاب يمكن أن يقال عنه أنه قام على أساس من إشارات بوجريس ذات الطابع الميثولوجي.

إن نجاح هذه الرواية أو فشلها باعتبارها تمريناً في المعالجة التغريبية، لا ينبغي أن ينظر إليه كمقياس لقيمة هذا النوع من المعالجة. وأنا مقتنع بأن حل مشكلة السمكة الشيكسبيرية، ومشكلة السمكة الطروحة على الشاطئ إنما يكمن في تطبيق طريقة التأثير التغريبي على الرواية، سواء نجحت هذه الطريقة أو فشلت في هذه الحالة بعينها أو تلك، ولكنني يمكنني أن أقول - محتجاً - بأنها إذا "مكن" أن تنجح في هذه الحالة، فإنها يمكن أن تنجح في أي مكان آخر.

هناك نقطة أخيرة، أثيرها بشيء من التردد، طالما أنها تبدو لي واضحة. فنحن حينما ننمو لكي نخرج من طور الطفولة إلى الرجولة، فإننا نجد مجالات جديدة من التجربة يمكن ألا تكون عملية أو غير مرغوب فيها بالنسبة للطفل، من شرب الكحوليات والتدخين، إلى تسلق الجبال والاستماع إلى الرباعيات الوترية. إن الجنس يقف خارج كل أنواع التجارب الأخرى باعتباره تجربة لابد أن تعالج في شكل سر من الأسرار، كما لو كانت طقساً قديماً غريباً يتضمن اسماً لا يصح أن ينطقه اللسان.

وقد يكون هذا أمراً جوهرياً بالنسبة لبعض القبائل البدائية أو المجتمعات الأبوية (البطريكية)، ولكن إلى أي مدى يمكن أن يكون أمراً مرغوباً فيه بالنسبة لحضارة مثل حضارتنا، هدفها الأساسي (مهما كانت كتابة وتناقضية ما يقوله المؤرخون) هو "الحلاوة والنور"؟ لقد كان تطور الحضارة الغربية هو تطور العقل، رفض العنصر القطعي الجامد والسلطوي المتعسف في الدين، وأيضاً (فيما نرجو) في السياسة، وهذا التطور لم يتوقف حينما

رفضت إنكلترا سيطرة البابا - أو حينما رفض فولتر المسيحية. وحتى رسالات نيومان وأوكسفورد ينبغي أن ينظر إليها باعتبارها تطوراً لنفس الاتجاه، إصراراً على مطالب عقل أكثر رقة وتهذيباً وعمقاً متعلقة باحتياجات الإنسان الميتافيزيقية. وقد كان على فرويد أن يخوض نفس المعركة، كان عليه أن يكبح سيطرة المحرمات الاجتماعية والقيود الضاغطة وأن يقهرها بمطلب الصراحة وانفتاح العقول، وكذلك فعل د. ه. لورنس. ويمكن أن ننظر إلى معسكرات الإبادة النازية باعتبارها محاولة للعودة إلى شكل للمجتمع أكثر بدائية - وغير معقد - حيث تحل المشاكل عن طريق القوة والعقائد الجامدة القاطعة، وليس عن طريق العقل.

يبدو لي أن هذا التطور يفترض بشكل مسبق فرضاً إنسانياً هاماً؛ إن "التحريم" رديء في حد ذاته، رغم أنه قد يؤدي في بعض الأحيان إلى الخير في مجال محدود. فعلى سبيل المثال، فإن جرائم القتل الجنسية لا يرتكبها أناس يفكرون في الجنس ويتحدثون عنه دون كبت، وإنما يرتكبها أناس تصاعد عندهم الإحباط حتى وصل إلى درجة الشيء المحرم الشديد الإغراء. ولذلك لا ينبغي أن نخلط بين "التحريم" والنظام الذي هو بشكل أساسي عنصر محرر. إن جيشاً جيداً يشبه آلة جيدة التشحيم، ونظامها هو العنصر الذي يسمح لها بأن تدور دون عوائق أو عقبات.

وإذا كان كل هذا صحيحاً - وإنني لأجد أنه من الصعب أن أتصور أي شخص عاقل يمكن أن ينكره - إذن فلا بد أن يتلو ذلك أنه ينبغي للراشدين الناجحين أن يكونوا قادرين على التفكير في التجربة الجنسية مثلما يفكرون في أي شكل آخر من أشكال التجارب - في الفن أو العلم أو الرياضة أو الغامرة. حينما قرأت رايدر هاجارد في طفولتي - شعرت بالانفصال والمشاركة في وقت واحد. جاء الانفصال من الجلوس على مقعد وأنا أقرأ كتاباً جامداً الحركة، ولكن الاستثارة جاءت من السير عبر الأعراس المليئة بالنعابين مع البطل آلان كاترمين. وهذه هي الخاصية الجوهرية للتجربة المتحضرة، "الانفصال" و"المشاركة". ولكن حيث يتعلق الأمر بالجنس، لا تزال هذه الفكرة بعيدة عن القبول. فمن المفترض حينما إما أن نكون مشاركين بشكل مباشر - في الفراش مع شريكنا في الجنس - أو بعينين منفصلتين بشكل كامل، أي مثلما يحدث حينما أقرأ عن حالتي في كتب هافلوغ أليس ثم أغمغم قائلاً: "يا له من أمر ممتع!" هنا يبدو عنصر سخيف ولا معنى له. لقد عاش معظم القراء

الراشدين التجربة الأساسية التي وصفها كليلاند أو د. ه. لورانس، وعلى العكس القسوة أو الجريمة، لا ينظر إلى هذه التجربة باعتبارها شيئاً غير مرغوب فيه من الناحية الاجتماعية. فهل هناك حقاً مثل هذه الهوة بين موضوع الجنس وموضوعات من مثل التاريخ أو الغامرة أو الرياضة؟ هل هناك أي سبب يمنع الراشدين، إذا كان هذا هو احتياجهم العقلي، من القراءة عن الجنس مع الإحساس بالانفصال، أو التفكير، أو حتى مع قدر معين من الإحساس بالمشاركة؟ إننا إذاً كان بوسعنا أن نقول عن شيء ما إنه "صادم" دون أن نعني أنه قبيح أو شرير، إذن فإنها تبدو لي كفكرة ممتازة أن أستخدم هذا الشيء لكي أصدم أكثر عدد ممكن من الناس، حتى يفقد تأثيره الصادم، وحتى يمكن أن ننظر إليه بهدوء ودون تشويه. في مجتمع متحضر حقاً - ونحن ما نزال بعينين عنه - لن تكون هناك كتب محرمة، ولا أفكار محرمة.

أعود لهما لقضاء عطلاتي الأسبوعية إذا ما كنت قريباً من نيوهافن، أو وجدت متسعاً للرحيل إلى نيوهافن. وبعد شهرين متواصلين من التنقل والاستقرار في مكان واحد، بدا لي متوتراً جداً، وكان عليّ أن أخفف من ذلك التوتر، وأن أكافح من أجل الحصول والمحافظة على درجة بسيطة من العزلة لكي أتمكن من كتابة مذكراتي الشخصية اليومية في كراستي التي أعددتها لذلك، وحينما شرعت أخيراً في إعادة قراءة تلك المذكرات، كان واضحاً لي أنه لن تكون هناك بداية أكثر بساطة وسهولة لكتابي هذا من أن أقتبس تلك المذكرات بذات الصورة التي كتبتها تماماً.

- ١ -

١٠ أبريل ١٩٦٩...

□ كنت متكناً على فراشي في غرفة الضيافة بالحرم الجامعي، أشرب الشاي وأكل كعكاً صغيراً مصنوعاً من دقيق القمح، عندما تطلعت إلى الساعة، وكانت تقارب الثامنة والنصف صباحاً حسب توقيت الساحل الشرقي، والخامسة والنصف بالنسبة لي، وكان عليّ في التاسعة والنصف أن أتحدث في اجتماع.

لقد قالوا لي أن ديLAN توماس^(١) قد نام في هذه الحجرة، وأشار فضيحة حينما سمح لأعضاء فريق كرة القدم من جامعة كويوكول - وهي جامعة الشبان على الناحية الأخرى من المدينة - بالنوم على الأرض وبأن يتقياوا في حوض الاغتسال. ولابد أن نشاط هذا الرجل وطاقته كانا خياليين.

بعد تسعة أسابيع من التحوال عبر أمريكا وإلقاء المحاضرات أصبحت في حالة من الإجهاد أشعر معها بأنني عيني قد تحولنا إلى زجاج بارد متجمد. إنني أستطيع دائماً أن أشعر مقدماً بما سيحدث حينما أكون على وشك الانتهاء، كان الأشياء تكتسب فجأة خاصية

(١) ديLAN توماس (١٩١٤-١٩٥٢) شاعر إنكليزي حديث، يتميز شعره بامتزاج التصورات السريالية مع عناصر من الخيالات الأسطورية الكلاسيكية، وخاصة تلك المتعلقة بهواجس النفوس وتلبس الأرواح للأجساد.

توطئة

□ كان إيزموند دونيللي في الرابعة والثمانين من عمره حينما داهمه الموت في شهر ديسمبر عام ١٩٣٢، وكان في أواخر حياته مولعاً تماماً بعلم الأرقام، حتى أنه تبادل عدة رسائل مع العالم الرياضي كارل جوس^(١). وفي إحدى رسائله إلى جوس يتحدث إيزموند عن الخصائص "السحرية" للرقم ١٣٧ - وهو رقم - بالطبع - لا يقبل القسمة. وبشكل عابر، صادقت نسخة من هذا الخطاب في اليوم السابق، كانت موجودة في محفوظات مستر إكسالايد نوري، وقد ثارت خواطري حينما تبين أن هذا الكتاب سوف يطبع ويصدر بعد ١٣٧ عاماً بالضبط من موت إيزموند. واعتبرت هذه المصادفة علامة قال حسن.

لا أستطيع أن أحدد بدقة متى بدأ اهتمامي بالبحث عن إيزموند دونيللي، ففي أحد الأشهر، واعتقده شهر يناير ذهبت بالطائرة إلى نيويورك مفتتحاً جولة طويلة ومرهقة من المحاضرات، أخذتني من فلوريدا إلى مين، ومن نيومكسيكو إلى سياتل. وكنت قد اصطحبت أسرتي معي؛ زوجتي ديانا وابنتي مورين التي تبلغ الثالثة من عمرها.

إلا أنني أدركت سريعاً بعدم جدوى اصطحابهم معي في جميع تلك المدن والأماكن التي تنقلت إليها خلال تلك الفترة، ولذا فقد أبقيتهم مع بعض الأصدقاء في نيوهافن، وكنت

(١) كارل فريدريك جوس (١٧٧٧-١٨٥٥) عالم رياضي وفلكي لاني. ولد في برونزويك ولكنه عاش أكثر حياته في غوتينغن حيث شيد مرصداً كبيراً ونشر أغلب أعماله.

عجيبة ذات أعماق غامضة. كانت ديانا قد وضعت في حقيبتي قطعة كبيرة من صابون الطبخ العادي الآخر - فالفنادق الصغيرة لا تهين لك سوى قطع صغيرة تنزلق من بين يديك تحت الدش - ، وعندما ذهبت هذا الصباح لكي أخذ قطعة الصابون من الحقيبة كان علي أن ألق في مكاني لكي أحقق في الأشياء. من الصعب أن أشرح ما شعرت به. أن قطعة الصابون لم تبد لي ببساطة كأنها قطعة من حجر المالاخيت الأخضر، ولكنه بدت أيضاً رخوة، بزرخفة، غائمة كما لو كانت تريد أن تختفي عن الأنظار. إن الأشياء التي أراها في مثل تلك اللحظات، تبدو كما لو كانت قد اكتسبت بعداً إضافياً أو معنى جديداً، سوى ما يتعلق بالصلاية واللون والرائحة والطعم... ثمة شيء آخر^(١) أيضاً، يختلف تماماً عن تلك الخصائص. لابد لك أن تدعو هذا الشيء - بالنسبة للإنسان - الشخصية، أو الروح.

وكنيت أدور حول الغرفة وأنا في تلك الحالة الأقرب إلى الحلم، شاعراً كأنني طفل ولد لتوه، عاجزاً عجزاً غريباً، ومع ذلك فأنا سعيد سعادة غريبة. حينما بدأت بصب الماء الساخن في كؤوب الشاي الذي أرسلته إلينا محلات "فيندلاتر" في دبلين - انتابني إحساس عابر للحظة واحدة بأنني أذوب في البخار المتصاعد، وأصبحت رائحة الشاي غريبة، تكاد أن تكون مخيفة أيضاً.

تلك الجولات قاتلة. يريد وكيلي أن أقوم بجولة أخرى في العام القادم، ولكن هذه الفكرة تنير ذاكرتي. أن أفضل ما يمر بك من اللحظات في أثنائها هي لحظات الجلوس في المطارات، وتناول شطائر الهامبرغر وشرب عصير الفاكهة أو عصير البرتقال الطازج. وأحياناً في مثل تلك اللحظات، أتمكن من الوصول إلى حالة جميلة من التباعد والنظر إلى الأمور في انفصال كامل عن اللحظة الراهنة، فأحس بالحجم المجرد لتلك البلاد، وأشعر هجاء بالرضا والسعادة. لقد وصلت إلى تلك الحالة أيضاً منذ ليلتين، حينما كنت أجلس في مشرب الفندق الصغير في بورتلاند، انظر إلى السيارات والحافلات العامة تمر سريعة عبر خيوط المطر السوداء، ممزقة انعكاسات إعلانات النيون محيلة إياها إلى مزق حمراء مثل شظايا القنابل لحظة الانفجار. ولم يحدث أبداً أن غاب عني ذلك الشعور الخاص بالابتهاج عندما كنت أقرب من محل بيع الكتب في أحد المطارات، حتى ولو لم يكن لدي أكثر من خمس دقائق لتغيير الطائرة، وفي نفس الوقت يكون لدي من الكتب ذات الأغلفة الورقية (من الطباعات الرخيصة)

ما يزيد على ما أستطيع أن أحمله. وفي مطار أوهارا بالأمس، اشترت كتاب أبو لليتير^(٢) "السيد الفاسق" وهو مؤلف سريالي من الأدب المكتشف، ورحت أقرأ عن حياة الشيطان المسكين التعيسة بينما كنت أنتظر الطائرة. وحينذاك أدركت الحقيقة بوضوح كبير، أن عملي وعمل كل الكتاب هو أن نرفض أن نكون جزءاً من الحياة اليومية العادية، أن نقف جانباً بعيداً عن تيارها، حتى لو تطلب ذلك أن نتخذ موقفاً مشبعاً بالقسوة أو القومية. يجب ألا تمتعنا هذه الحياة ولا تغرق نحن فيها. هناك علاقة بسيطة كاملة بين العقل وبينته. البيئة تحملنا معها وتدفعنا مثل التيار في المجرى السريع، والعقل يشبه الآلة التي يمكن أن تدفع القارب في اتجاه معاكس لاتجاه التيار، أو على الأقل فإنها تساعد على البقاء في نفس المكان. فإذا استمرت الآلة في العمل، كان الإنسان صحيح الكيان بشكل جوهري، أما إذا توقفت الآلة، فإنه لن يكون في وضع أفضل من وضع قطعة الخشب الطافية فوق التيار.

■ مضت الاجتماعات والمحاضرات في سبيلها بشكل جيد بصورة كافية - وتحدثت كثيراً عن طبيعة الشعر والنزعة الصوفية. وكان أن جرتني ست فتيان، بعد انتهاء إحدى المحاضرات ورحن يطرحن علي الأسئلة. كن جميعاً قد قرأن كتاب يومياتي الذي أصدره الناشر الأمريكي تحت العنوان المقلز، "اليوميات الجنسية لجيرارد سورم" (وقد كلفني القضية التي رفعتها بهذا الصدد في بوستن كل مليم لعين أخذته من حقوق النشر). وكانت الفتيات الست يحملن الكثير من الأسئلة عن كاتينفهام. وكان من الغريب أن أرى أن شخصية كاتينفهام ما زالت تخلق الباب الفتيات رغم الصفحات غير المسلية التي كتبتها عنه. كنت أحب أن أراه يتجول حراً في إحدى الكليات الأمريكية للفتيات - وأظن أنه كان سيلتقي هناك بكفؤه الحقيقي. إن أكثر الدوافع الجنسية عدوانية في العالم، يمكن أن يفرق

(١) جيوم أبوليتير - الاسم الأدبي للشاعر الفرنسي ويلهلم كوسرويهيتسكي (١٨٨٠-١٩٨٠). كان من أهم شخصيات حركة الطليعة في الأدب والفنون التشكيلية أوائل القرن الماضي. تميزت كتاباته بالغموض والنزعة الجنسية واحتوت آخر أعماله على الكثير من عناصر النزعة السريالية التي استشهد بها لتريه بريوتون فيما بعد في البيان السريالي.

في هذا البحر من العذرية الأمريكية غير الناضجة. ففي جامعة ولاية بورتلاند، عندما كنت أعقد ندوة، أحصلت تجمع من الطالبات حتى أنني لم أعد أرى سوى هذه الشاشة العريضة الملاى بالسيقان الطويلة، والتنانير البالغة القصر، وحينما أخذتني مجموعة منهن لتناول الغداء، تبين أن الفتاة الأمريكية لم تتغير منذ كتب هنري جيمس عن شخصية ديزي ميلر. إن التفاحات تبدو شبيهة بما فيه الكفاية، ولكن المرء يكتشف أنها قد صنعت من الخشب.

وفي وقت لاحق، وعندما كنت أتناول الغداء مع مرفين ديلارد، رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة بورتلاند، سألتني إن كنت أعرف أي شيء عن إيزموند دونيللي. ومن الواضح أن هذا كان شخصاً إيرلندياً اشتهر بفسقه وخلاعته، وكان معاصراً لشيريدان، أمضى حياته كلها في صحبة الأوغاد في منطقة "جال واي". وقد نشرت بعض مراسلاته مع روسو في برن حوالي عام ١٨٠٠ تحت عنوان "افتراع العذاري" رغم أنه يبدو أن أسرته قد أعلنت أن هذا الكتاب ليس إلا نتيجة نوع من التزييف وكان سبب سؤاله، أن مؤسسة (غروف بريس) للنشر تحاول إصدار الكتاب في أمريكا، مع مقدمة يكتبها مرفين ديلارد. وقد أخبرته بأنني أقمت في "جال واي" لمدة سبع سنوات ولكنني لم أسمع أبداً باسم دونيللي هناك. فاما أن يكون قد نسي تماماً، وإما أن تكون ذكراه قد أهملت عن عمد.

وحينما عدت إلى غرفة الضيافة، كان هناك مظروف (غلاف مغلق) جاءني من وكيل ملي مملوءاً بالبريد، وكان يتضمن خطاباً من بعض الناس يدعون "مؤسسة ليندن للنشر"، جاء فيه،

مؤسسة ليندن للنشر، ٥٦٥ الشاعر الخامس،

نيويورك. ن. ي. ١٠٠١٦ في إبريل ١٩٦٩.

عزيزي مستر سورم.

عرفت من اللقاء معك الذي نشر في باب عرض الكتب في صحيفة نيويورك تايمز أنك تقوم بإلقاء بعض المحاضرات هنا. ويقول اللقاء المنشور أنك تنوي أن تعود قريباً، ولذلك أرجو أن يصلك هذا الخطاب سريعاً.

لقد كنت من المعجبين بكتابك "اليوميات الجنسية" منذ صدوره. وقد تذكرت بالأمس، أنك أشرت في المقدمة إلى "موي كوللان". وفي كتاب "مذكرات هاسق إيرلندي"

الذي نرزع أن نشره في الخريف، يصف إيزموند دونيللي عملية إغواء لكل من ابنتي القسيس غير الشرعيتين في مدينة موي كوللان، وهو الأب ربوردان.

وبالنظر إلى معرفتك بالمكان الذي دارت فيه تلك الأحداث، اتساءل إن كنت ترغب في كتابة مقدمة للطبعة التي نرزع إصدارها؟ وأحب أيضاً أن أضيف أنني سأكون سعيداً إذا اتفقت معك على تأليف كتاب عن دونيللي إذا شعرت بأي ميل إلى القيام بمثل هذا العمل.

فإذا حدث أن تسلمت هذا الخطاب قبل مغادرتك البلاد، اتساءل إن كان سيممكنك الاتصال بي في الرقم المذكور على الفور، حتى يمكننا أن نتناقش في أمر لقائنا؟

وإذا انتظر بشوق أن أسمع صوتك فإنني أنقل إليك تحياتي.

الخلاص لك

هوراد هليشر."

ولما كنت املك ساعة فراغ قبل أن تقلني السيارة إلى المطار، طلبت بالهاتف الرقم الذي أعطاني إياه. بدا لي الرجل - من صوته - ودوداً بما فيه الكفاية. ولم يبد عليه الاستياء من أنني لم أسمع أبداً عن دونيللي قبل اليوم. وشرحت له أنني لن أصل إلى نيويورك قبل يوم الجمعة المقبل، وفي وقت متأخر، فقال أنه سيقابلني في مطار كندي لكي يأخذني إلى بيته في "لونغ آيلاند". واثرت في هذه المصادفة المتعلقة بدونيللي. أن مثل تلك الأشياء تحدث أحياناً بكثرة مضحكة. فقد حدث بالأمس أن سمعت اسم الشاعر الروسي لومونسوف في مذياع السيارة، وبعد عدة ساعات رايت الاسم أمامي في إحدى دوار المعارف حينما كنت أبحث عن شيء آخر. وتركتني هذه المصادفة وأنا أعجب، ولذلك ففي أول مرة ذهبت فيها بعد ذلك إلى محل لبيع الكتب في الحرم الجامعي، سألت المديرة إن كان لديها أي شيء عن الشاعر لومونسوف. فقال لي:

"من المضحك أن تسأل عن ذلك. فقد وصلني كتاب يضم الكثير من قصائده بالأمس".

واشترت الكتاب، وقرأت المقدمة، وعلى الفور أدركت بأنني قد وضعت يدي على شخصية رائعة تصلح لبناء رواية. ومنذ عشر سنوات، كنت، جديراً بأن أنظر إلى مثل تلك

العملية نظرتي إلى السحر والأعمال الخرافية. وأما الآن، فإنني أقتفي أثر سبيل المصادفات بلهفة زائدة.

- ٣ -

١١ إبريل، مطار ويلكس - بار

□ كان قد بقي عشرة دقائق على بداية محاضرتي في هذا الصباح، عندما سلمني ديلارد البريد الخاص بي. كان هناك خطاب من جيم سميث من سان فرانسيسكو يخبرني فيه أن هيلغا نابزي قد انتحرت - قفزت من فوق برج بيركلي، بعد أن تسلقت بطريقة ما فوق الأسلاك الواقية التي وضعوها هناك لمنع حدوث مثل تلك الأشياء. كنت أشعر بالتعب، وقد تملكني الضجر بعض الشيء حينما وصلني الخطاب، ولكن، حالاً قرأته، بدا لي أنني استيقظت، وأصبح الإجهاد كأنه لم يكن إطلاقاً.

شعرت أيضاً بالذنب، رغم أنه إن لم لا أساس له ولا معنى. كنت قد التقيت هيلغا من خلال جيم الذي كان يقيم حفلات للعرافة يتناول فيها الجميع عقاقير منشطة وترسم الفتيات على أجسادهن أشكالاً مختلفة. كانت طويلة القامة، سوداء الشعر على شيء من الكسل، وكانت قد أمضت الليلة السابقة مع جيم. أمضينا معاً ساعتين، نأكل السمك وشرائح البطاطس القلية ونشرب أقداحاً من نبيذ قلعة بريمنفهام بينما راح جيم يتحدث عن التنجيم والفلك. قال أن الحرب في فيتنام سوف تستمر على الأقل لمدة عام آخر لأن النجوم تتصارع وتتصادم. وفعلاً قالت هيلغا، "راك تهتم بتأثير النجوم على الوجود الإنساني، وكان الأجدد بك أن تعلم بأن الوجود الإنساني - بصورة أساسية - لا معنى له؟" ألا يكون من الأفضل أن نترك كل شيء للصدفة؟ وحينما قلت أنا أنني سألقي محاضرة في بيركلن في منتصف نهار الغد، عرضت علي أن تأخذني بسيارتها إلى هناك.

وفي صباح اليوم التالي جاءت إلى فندقتي وقالت أنها أمضت الليلة الماضية في قراءة كتابي، "وسائل وأساليب الإيهام الذاتي". ومن المؤكد أنني لاحظت عليها إمارات السهر طوال الليل. وأنا أتقن مناقشة كتابي، كان هناك شعور يملكني بأنها كانت على وشك الانتهاء وأن من واجبي أن أحاول مساعدتها. كان ما أدهشني - وخدعني - هو أنها كانت تسلم

تسليماً مطلقاً بأن الحياة لا معنى لها. وقد قالت لي ذلك كما لو كانت تقول أن الماء مبلل بالרטوبية. وحينما حاولت أن أشرح لها أنني لا أشاركها هذا الرأي، قالت أن المعنى الذي استخلصته من كتابي هو، أن البشر عاجزون عن أن يكونوا صادقين أو أمعاء مع أنفسهم، ولذلك فإن كلاً منهم يحول حياته إلى مسرحية صغيرة يصبح هو فيها الشخصية الرئيسية، إنهم يخترعون الخيالات والأوهام التي تدعى الأديان والفلسفات وما إلى ذلك. وحاولت أن أوضح لها أنها حتى تلك النقطة فإن تفسيرها كان دقيقاً بما فيه الكفاية، ولكنني إنما كنت أتخذ هذا الموقف التدميري فحسب لكي أمهد الأرض أمام التفكير الحقيقي. إن ما يمارسه المتصوفون ليس هو الدين ولا الفلسفة، وإنما الحقيقة. فاطعتني بنغمة يائسة تكاد تكون مفعمة بالضيق، "ما هي الحقيقة؟". فقلت، إنها ما كان لها أن تسأل هذا السؤال لأنها تعرف الإجابة بالفعل. إنك إذا كنت ظمآن ثم شربت مشروباً بارداً كبيراً، فإن إحساسك بالمشروب وهو ينزل على حلقك هو الحقيقة. وهذا شيء يختلف تماماً عن الحديث عن المشروب، أو التفكير في مشروب آخر. والبشر أيضاً يملكون قدرة غريبة على ممارسة نوع من الحقيقة الوجدانية (متميزة عن الحقيقة الجسدية - المادية - ومقابلة لها). إنها من ذلك النوع الذي جربته بالأمس مع قطعة الصابون، أو ما أجريه مرة واحدة على الأقل في كل عام حينما أشم رائحة الربيع لأول مرة. ففي تلك اللحظات تهدأ الحواس هدوءاً شديداً، ويجتاحك شعور بأنك ترى الأشياء حقاً، بالطريقة التي رأى بها ووردزورث جسر وستمينستر^(١). وثمة إحساس آخر يتماثل تماماً مع مذاق الحقيقي للماء البارد وهو ينزل على حلقك. وقلت لها إن إحساسها بالعقم واللامعنى لم يكن سوى نوع من الجوع إلى الحقيقة، يولد نفس النوع من الإجهاد والبؤس الذي يولده الإجهاد الحقيقي أو البؤس.

والتقيت محاضرتي في بيركلي، وأخذتني مجموعة من الطلبة لتناول طعام الغداء، وجاءت معي هيلغا أيضاً. وبعد ذلك أخذونا إلى قمة برج الساعة، وأخبرنا مراهقنا بأن عدداً كبيراً من محاولات الانتحار قد حدثت من هذا المكان خلال العام الماضي - وأن هذه المحاولات

(١) ويليام ووردزورث (١٧٣٠-١٨٥٠) شاعر إنكليزي. كان إلى جانب صديقه كولريدج من قادة حركة الرومانتيكية في إنكلترا. عرف عنه أنه كان عابداً للطبيعة، متعاطفاً مع الديمقراطية الليبرالية، واهتمامه بدقائق حياة الناس والحياة اليومية العادية، واستخدام اللهجات المحلية للناس العاديين، وإيمانه بفكرة وحدة الوجود على أساس أفلاطوني.

تزيد بمحاولة واحدة عن مثيلاتها التي وقعت في برج ستانفورد. واعتقد أن هذا الكلام هو ما أعطاهم فكرة الانتحار من ذلك المكان.

لم تتوقف هيلغا عن الكلام طول طريق عودتنا بالسيارة إلى البلدة، وبعد أن وصلنا إلى المدينة، أخبرني بأنها تريد شراء بعض الأشياء من السوق، طالبة مني مرافقتها إلى السوق، تعذرت لها بأني أريد الركوب إلى الراحة، بعد الساعات الطويلة من الكلام والمحاضرات، التي أجهدتني حقاً. ووعدها نيابة عن ذلك بأننا سنخرج معاً في وقت لاحق لتناول وجبة من الطعام في (تشينا تاون). قرأت بعض أعمال هولدرلين ثم استسلمت إلى النوم حتى الساعة. وجاءت هي إلى الفندق في الثامنة، فاحتسبنا بعض النبيذ في غرفتي ثم خرجنا فسرنا على الأقدام حتى الحي الصيني. قالت لي أنها أمضت فترة ما بعد الظهر في التجول حول المتزهات. فأدركت سبب الإجهاد الواضح عليها. احتسبنا شيئاً من نبيذ كاليفورنيا مع وجبتنا، فبدأ عليها الاسترخاء. وراحت تتحدث عن مشاكلها وفشلها عن (إصلاح) زوجها المصاب بالشذوذ الجنسي، وعن تجاربها العاطفية مع عدد كبير من اللدعين الزنابقين - فإنها لا تستطيع أن تقاوم أي شخص يشبه الشاعر أو الرسام أو الفيلسوف. وحينئذ بدأت في رؤية المشكلة الحقيقية: الكسل، والضعف، والرغبة في أن "يحدث" لها شيء ما، أن يظهر حكيم ما لكي يمنحها الإجابة. وحينما بدأنا في شرب الزجاجات الثانية من نبيذ "الليدان" أصبحت هجاء رقيقة رقة بالغة ومجاملة للغاية، وقالت لي أنها كانت تحاول أن تلتقي بي منذ أن كنت هنا في شهر يناير الماضي. وقالت أنها لا تطلب مني شيئاً أكثر من أن أكون صديقاً لها، أكتب لها الرسائل من حين إلى آخر، وما إلى ذلك. وأخبرتها بأنني سأبذل أقصى ما أستطيع. فقالت: "ليست المسألة أنني أريد أن أنام معك، فانا أنام مع الكثيرين"، وكان شعوري هو أنني لا أجد ما أشغل رغبتني فيه عن النوم معها. كنت في مساء اليوم الماضي قد ظننتها جذابة، بل وحسدت جيم على الليلة التي قضاها معها، ولو أنني قابلتها منذ عشر سنوات لكنت قد نمت معها على أية حال، دون تفكير في النتائج. أما الآن فقد كنت أدرك بوضوح أنها كانت تحاول أن تعقد معي صفقة، بأن تمحني شيئاً ما "في مقابل" شيء آخر أستطيع أن أمنحها إياه. ولم أشا أن أكون دائئاً لها.

أمضينا ساعة في "مكتبة أضواء المدينة" وقابلنا عدداً من أصدقائنا، ثم انتقلنا إلى مقهى يقع عبر الطريق لشرب الزيد من النبيذ. وفي منتصف الليل، قلت لها أن علي أن أعود

إلى غرفتي، فقد كان علي أن أستيقظ في الصباح التالي لكي ألقى محاضرة في "بالوالتو". فقالت أنها تود أن تسير معي حتى حي "ساتر" لأنها بحاجة إلى استنشاق الهواء النقي. وعند ناحية شارع ساتر، حاولت أن أقنعها بأن تستقل إحدى سيارات الأجرة، فقالت أنها بحاجة إلى قُدح من القهوة لكي تنتعش. وهكذا دعوتها إلى حجرتي وأنا شديد الامتناع. (كان الكاتب الليلي في الفندق صديقاً لي، ولم يفعل أكثر من أن غمز لي بعينه. ولم أعرف في أنها تحمل في ذهنها فكرة إغواشي - فإنها لم يبد عليها أكثر من أنها تعاني من الشعور بالوحدة. ولكنني كنت مصمماً على أن لا يحدث شيء مع هذا على أي حال). أمضت عشر دقائق في الحمام بينما كنت أعد القهوة، ثم ذهبت إلى الحمام، وتركتها لكي تصب القهوة، فوجدت الحمام يسبح في رائحة العطر - وحتى اللحظة لم يكن يوسعي أن أتخيل ما كانت تفعله بهذا العطر، لأنها لم تكن تحمل منه شيئاً. وحينما خرجت من الحمام، كانت راقدة على أحد السريرين المتقابلين وقد أغمضت عينيها، وبدأ عليه الشحوب الشديد. سألتها إن كانت تشعر بأنها على ما يرام، فقالت أنها ليست كذلك، ولكنها ستتحسن في لحظات. وضعت القهوة على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير، فمدت يدها تبحث عن يدي حتى أمسكت بها وقالت:

- "هل تسمح بأن تقبلني، مرة واحدة، من فضلك؟"

كنت ما أزال أشعر نحوها بتلك العاطفة الأبوية. فرحت أربت على رأسها قائلاً: "أجل، أجل، بالطبع". واتحنت فوقها. كان همها ليناً وجذاباً، رغم أن شفتها السفلى كانت مشققة قليلاً. كان تقبيلي لها نوعاً من الصدقة - شعور يشبه ما كنت أحدثها عنه من قبل عن ابتلاع مشروب بارد ومجرد التفكير فيه. أنت هي بعد أن قبلتها، ورفقت في مكانها دون أن تفعل شيئاً، وحينما حاولت أن أراجع عنها، سمعت في حلقها صوتاً يشبه الأنين من جليد. ولم يكن هذا الوضع مريحاً - كانت رقبتني تؤلني - ولذلك فقد وضعت ركبة واحدة على السرير. وفجأة بدأت تتنفس بعمق وبانتظام، كما لو كانت قد استراحت راحة هائلة، وبدأت يدها تمسح سروالي، كما لو كان هذا بالمصادفة، استقرت في مكانها هناك. وحدثت الاستجابة الحتمية. وكنت أتساءل طول النهار إن كانت ترتدي جوارب أو سراويل ضيقة. وكنت أعرف أن هذه هي فرصتي الأخيرة. فلو أنها كانت ترتدي السراويل الضيقة، وحتى إذا كانت ترتدي حمالة جوارب مشدودة إلى سروالها الداخلي، لأمكنني أن أعبت قليلاً بأدب، ثم أطلب منها أن تحتسي قهوتها، بينما تخبو رغباتي الطارئة وتنتظني جذوتها. أما إذا لم

يكن ذلك.. تباعد فخذاها حينما لمست يدي ركبتها، وحينئذ لمست اللحم العاري فوق الجورب. وبعد لحظة، وصلت يدي إلى ملتقى الطرق، فوجدت أنها لم تكن ترتدي سروالاً داخلياً. ولابد أنها قد خلعت في الحمام... وفي خلال ثوان قليلة كنت قد أصبحت داخلها ولابد أن أعترف بأنه كانت هناك دفعة غامرة من البهجة الخالصة. كان هذا نوعاً من الامتزاج المجرد بين الذكر والأنثى، دون وجود لشخصية كل منهما. وبدا لي أن دفعتها حينما أحاطتني بساقها، كان دفناً طال إعداده من قبل. ولكن امتزاجنا لم يستغرق سوى وقت قصير. كان كل منا مستثاراً بشدة لردة أننا بلغنا ذروة نشوتنا في ثوان معدودة. رقلت وأنا في داخلها للحظة أخرى، وأنا أنظر إلى وجهها، فبدت لي مسألة تماماً وهادئة. وحينئذ قالت:

- "فلنخلع ملابسنا وندخل إلى الفراش".

وكان هذا القراحاً معقولاً، نفذناه على الفور. ولكن ما تبقى من الليل لم يشبه تلك اللحظة الأولى. كانت قد حصلت على ما أرادت الحصول عليه، وكنت أنا قد وصلت إلى ما كنت حريصاً على أن أتجنبه. ولكن أكثر ما أزعجني هو أنها بدت لي عاجزة عن التعاطف. كانت تستمتع بالجنس في تفان جسدي لم يتح لي أن أعرف مثله كثيراً - كان هذا برهاناً جديداً لي على أن النساء اللواتي لا يميزن كثيراً في علاقاتهن الجنسية لسن بالضرورة باردات أو فاترات. ولكنها في اللحظات التي تخللت دورات امتزاجنا، كانت تريد أن تتحدث عن مشاكلها، وعني، وعن علم النفس، وعن محاضرتي... وكان علينا أن نتبادل الحديث بالهمس حتى لا نزعج النزلاء في الغرف المجاورة.

في القطار المتجه إلى "بالو ألتو"، لعنت نفسي لأنني لم أجلب معي كراسة مذكراتي، لئلا أكتب الأشياء التي أود تسجيلها فيها. لم أكن أرغب في النوم مع هيلغا لأنني كنت أعرف مقدماً أن هذه التجربة لن تخلف شيئاً وراءها. إذن فلماذا لا أحصل بالفعل على مثل تلك النعمة من ديانا رغم أنني تزوجتها منذ سبع سنوات؟ لقد مضت علي عدة سنوات حتى الآن، وأنا أحاول تحديد أسس الدافع الجنسي. لماذا "ينبغي" لرجل ما أن يرغب في إيلاج عضوه للتنصيب داخل امرأة ما؟ لابد أن ثمة سبباً ما، والقول بأن هذه "غريزة" ليس جواباً حقيقياً. حينما كان موبسي (ابنتي) طفلة صغيرة، كنت أتساءل دائماً، لماذا ترضع دماً إبهام يدها بينما تمسك أذنها بيدها الأخرى. ثم لاحظت أطفالاً آخرين يفعلون ذات الشيء. وأنني

لأتساءل إن لم يكن هذا مرتبطاً بالرضاعة من الثدي - وما إذا كان الطفل يمد يده بصورة أوتوماتيكية لكي يمسك بالحلمة الأخرى بينما يكون مشغولاً بتناول طعامه من الحلمة التي في فمه، فهو يعامل أذنه معاملته للحلمة؟ وهكذا لابد أن يكون هناك تفسير مشابه للدافع الجنسي.

قصت علي هيلغا قصة غريبة، فحينما ذهبت إلى الكلية لأول مرة، كانت سيدة شابة مكبوتة كبتاً شديداً قد جاءت من الغرب الأوسط وتحمل آراءً متشددة حول ممارسة الجنس قبل الزواج، خاصة وأن أمها كانت قد أخبرتها بأن الرجل يستطيع دائماً أن يخمن إن كانت زوجته عذراء أم غير عذراء، وإنه من المحتمل أن يهجرها على الفور. وطوال ستة شهور أو نحوها، ظلت تخرج مع أولاد عديدين، وتسمح لهم ببعض اللامسات القليلة، ولكنها كانت توفقهم عند حدهم إذا حاولوا أن يخلعوا سروالها. وفي بداية عامها الأول، انتقلت لكي تسكن مع فتاة أخرى. أخبرتها بأنها حلت المشكلة باستخدام عضو أنثوي صناعي. وبثبت هذا الشيء حول الفخزين بواسطة حزام، وكان شيئاً يزيد قليلاً عن أنبوبية صنعت من نوع ما من المطاط تثبت فوق العظم العاني، ويجب أن يربط بمدخل الأنبوبية ببعض من زيت الزيتون. وقالت هيلغا أنها لا تظن أنه يمكن أن يكون عملياً، ولكن صديقها كان قد قال لها بالفعل أنه سوف يقطع علاقته بها إن هي لم تتنازل عن رأيها. ولكنها جربت هذا الجهاز بعد أن استعارته من صديقها. ولشد ما دهشت حينما وجدت أن الولد لم يهتم أقل اهتمام بذلك. كانا ينمان سوياً في الفنادق الصغيرة أثناء عطلات نهاية الأسبوع. وكانت هي تصر على الإبقاء على سروالها دون أن تخلعه، حذراً من أن تشتعل شهوة الفتى. ولكنها قالت أنه حتى لم يحاول أن يقوم بمصاحبتها بشكل طبيعي، فقد كان بعد أن يبلغ نشوته، يلاطفها قليلاً ثم يتركها. وبعد ذلك استخدمت هي نفس الجهاز مع صديقين آخرين، معتقدة أنها بهذا الشكل سوف تكون فاضلة بصورة زائفة، حتى جاءت ليلة ما فاشتعلت بالرغبة وطلبت من صديقها أن يمارس معها الجنس بشكل عادي.

تذكرت حينذاك أن ديانا كانت قد أخبرتني بشيء مشابه لذلك حول تجاربها الجنسية الأولى. فقد حدث مرة أن تشاجرت مع صديقها، فذهبت إلى الفراش مع رجل كانت قد قابلته عصر ذلك اليوم نفسه، لكي تغيظ صديقها ولكنها قبل أن تذهب إلى غرفة

الرجل قالت له انها عناء وانها تود ان تظل كذلك. فوافق عل الفور، وظلا طوال الليل يربت أحدهما على الآخر ويلاطفه، ولكن دون أن يمارسا العملية الجنسية بشكل طبيعي.

خطر في ذهني في تلك اللحظة بأن هذا يمكن أن يكون مفتاحاً هاماً. إن الرجل "طبعاً" لم يكن رزيناً ولا محتشماً. كان هناك ديانا، وهي فتاة جميلة، من الطبقة المتوسطة ذات جسد رشيق وأخلاق محتشمة. أما هو فريد أن "يعرفها" أنها بالنسبة له مثل شيء وضعت في صندوق زجاجي داخل المتحف وكتب عليها، "ممنوع اللمس". وهناك قصة لوباسان عن مجرم هرب من سجنه وتنكر في ملابس النساء، وعمل كخادمة في منزل إحدى السيدات، وظل يساعدها على خلع وارتداء ملابسها طيلة شهور. "هذه" هي كيفية رغبة الرجل في معرفة المرأة التي تجلس أمامه في مترو الأنفاق، أو تقف أمام قسم العطور في أحد المحلات الغالية. إن الإيلاج الفعلي في عضوها هو أقل أجزاء المسألة أهمية بالنسبة إليه، إنه ليس سوى الرمز النهائي للاستسلام. إنه يستطيع أن ينتظر إليها فيقول لنفسه، "كم أود أن أحصل عليها". لكنه يكون قد حصل عليها بطريقة تكاد تقترب من حصوله عليها إذا ما قضى معها ليلة كاملة في حجرتها، فظل يراها وهي تخلع ملابسها، وراح يتجول ببذنه فوق جسدها كلها، ويشعر ببذنها فوق بذنه، ويراقبها وهي ترتدي ملابسها وتمشط شعرها، ويرى الأساليب التي تستعمل بها أدوات ومواد التجميل، وتوع معجون الأسنان الذي تستخدمه (إن جوع الذكر للأنثى هو جوع لأتوثنتها، أتوثنتها الغريبة عنه، وإلى كل شيء فيها).

مرة أخرى أحب أن أقول أنني كنت شديد الإعجاب على الدوام بقصة كلايست^(١) عن اللاركينز هون، وفيها أن بعض الجنود الروس يغزون بلدة صغيرة فيها خدون الكونتيسة الشابة لكي يختصبوها. وينقذها ضابط روسي، فيغمى عليها بسبب ما شعرت به من الرعب. وبعد شهور قليلة تدشن عندما تكتشف أنها حامل، ولكنها واثقة من براءتها ثقة كاملة لدرجة أن تعلن في الصحف مطالبة والد طفلها بأن يتقدم ليعرفها بنفسه. وبعد قليل، يتقدم

(١) برنارد هابريش ويلهلم فوق كلايست Kleist (١٧٧٧-١٨١١) شاعر وكاتب درامي ألماني. يعتبر واحداً من رواد حركة "العاصفة والاندفاع" التي طبعت الرومانتيكية الألمانية بطابعها وفقاً لطوبلا. ورغم قصر حياته وضال ما كتبه فقد كانت لقصصه أهمية كبيرة لدرجة قبل معها أن تثير على فرانز كافكا مكان قويا للغاية. ولكن حياته نفسها كانت أبعد أثراً، فبعد أن وصل إلى حالة الجنون أطلق النار على حبيبته "هيزبيت نوجيل" ثم انتحر.

الوالد بالفعل - إنه الضابط الشاب الذي أنقذها. وكان كلايست من حسن التقدير بحيث حاول أن ينهي القصة نهاية سعيدة، ولكن أكثر الرومانتيكيين كانوا جديرين بأن يجعلوها تنتجر فراراً من العار، ثم يدخل الضابط الدير بدافع الندم لكي يصبح راهباً فيكفر عن ذنبه. ولكن غوته تحدث بخشونة واضحة عن قصة كلايست، مصرحاً بأنها من السخف بحيث لا يمكن أن تقترب من الحياة الحقيقية. الأمر الذي يوضح أن كلايست كان يعرف عن الطبيعة البشرية أكثر بكثير مما يعرفه غوته - أو على الأقل فيما يتعلق بالجنس. ليست هناك حاجة إلى إظهار أن الضابط كان أفاقاً لا أخلاق له. إنه ينقذها بروح فارس من فرسان المائدة المستديرة. وحينما يغشى عليها، يرقدها برقة فوق أريكة ناعمة. وترتد هي بسكون كما لو كانت نائمة، ويشعر هو بنوع من الفضول إلى معرفة كيف يبدو النصف الأسفل من جسدها إذا خلعت ملابسها، وهو يعرف أن ليس عليه سوى أن يرفع ذبل ثوبها إلى وسطها لكي يراها عارية - فقد كانت تلك هي الأيام السابقة على اختراع السراويل الداخلية، ويقوم هو بهذا العمل في حذر، خشية أن تستيقظ، ويدس يده بين فخذيها لكي يبعد ما بين الساقين. ثم لا يكون من الهم أن تستيقظ أو لا تستيقظ، ففجأة يصبح كل ما يهمه حقاً هو أن يخلع بنطلونه الضيق وأن يلمس عريها بعريه. ويقوم بذلك ويكتشف أن الإيلاج سهل، ويصل إلى ذروة نشوته على الفور. ثم ينسحب، شاعراً بالخجل، متوقفاً أن يراها تقفز في مكانها مفزعة. ولكنها تظل راكدة في مكانها في سكون. ويعيد ترتيب ملابسها، ثم يرتب ملابسها، ويخرج بحثاً عن بعض الماء لكي يغتسل. حينما يعود، يجدها جالسة، تنظر إليه بامتنان. هذه هي الفظة، هل ستعلم أن غريباً قد زار أكثر أعماقها ظلاماً؟ ولكنها مليئة بالكدمات تشعر بالرحمة نتيجة لهجوم الجنود، لدرجة أنها لا تشعر بشيء من فعلته، أجل، لقد أدرك كلايست فضول الذكر الثائر الذي يتلظى إلى معرفة الأنثى كما تتعطش الأرض الجافة إلى الماء. ولابد أن غوته قد أدرك شيئاً من هذا هو الآخر. وإلا فأي شيء آخر دفع فاوست إلى إغواء مارغريت؟ إنها فتاة ريفية عادية، ليس فيها ما يلمع أو يخطف الأبصار بصورة غير عادية، ولو أنه كان طبيبها الذي يعالجها لشعر إزاءها بنوع من عاطفة الأبوة. ولكنها أجنبية عنه، غريبة، إنه حتى لا يعرف ما ترتديه الفتاة الريفية تحت تنورتها الواسعة التي لا تلبسها إلا في أيام الأحاد، وهو بحاجة ملحة إلى أن يعرف.

وهذا ما يفسر لا مبالاتي النفسية إزاء هيلغا في صباح اليوم التالي، كانت قد سلمت نفسها عارية إلي بالفعل، سلمت هزيمتها، وكسلها، واشتياقها إلى الاهتمام واستعادة الثقة

بالنفس. ولم يكن هناك سوى شيء واحد آخر ينبغي اكتشافه، هل كانت ترتدي جوارب ضيقة أم سروالاً داخلياً؟ وكان الإبلاج الأول فيها مجرد جنس محض. ذلك النوع من الجنس الذي تمارسه الحيوانات بالقطع حينما تتسافد فيما بينها. ولكن بعد ذلك، برز عقلنا لكي يقطعاً الطريق على ذلك الجنس ولكي يضللاه...

وقد كتبت لي بعد ذلك مرتين، المرة الأولى لكي تصف انغماسها في علاقة مع مدير متوسط العمر لإحدى الشركات، والمرة الثانية لكي تعلن لي خطبتها إلى طالب من ولاية سان فرانسيسكو. ولم أكن قد تمكنت بعد من الإجابة على خطابها الثاني حينما سمعت بانتحارها.

جعلتني أخبار انتحارها أشعر بقوة الاصطدام بالحقيقة. تبين أن إجهاد هذه الجولة من المحاضرات كان إجهاداً زائفاً. إن نتيجة الافتقار إلى الاحتكاك بالحقيقة هو ما أدى بها إلى الانتحار. كانت آخر مرة رأيته فيها في شقة جيم سميث، فقد غادرت سان فرانسيسكو على طائرة الليل في نفس اليوم. وكان قد وضع اسطوانة تسجيل على جهاز الحاكي لديه وقرب منه إبرة اللاقط، ولم يحدث شيء في تلك المرة - ليس سوى الصمت. واختير مكبرات الصوت بأن وضع أذنيه عليها، وحدث جيداً في إبرة اللاقط لكي يتأكد من أن شيئاً من الرغبة لم يعلق بها. ثم أسقط ذراع اللاقط مرة أخرى. ولم يصدر أي صوت. ثم لاحظت أن الذراع كان يسقط على جزء من الآلة صمم بحيث يمنع الإبرة من خدش الاسطوانة فقلت له أن هذا الجزء ربما يمنع الإبرة من الالتصاق بالاسطوانة بشكل كامل. وهبط جيم على يديه وركبتيه ونظر إليها من أسفل. وقال أن لا، فالإبرة تلمس الاسطوانة بالفعل، ومع هذا فقد عدل من وضع الجزء الصغير بعض الشيء، وعلى الفور امتلأت الحجرة بالموسيقى. كان قد أسقط الإبرة مسافة إضافية لا تزيد عن جزء واحد من مئة جزء من البوصة لكي يلمس الاسطوانة - فكانت قريبة منها لدرجة أن العين المجردة لم تكن تستطيع أن تلاحظ المسافة الدقيقة التي تفصل بينهما. ومع هذا فقد كانت المسافة كافية لكي تخلق الفارق بين الصمت والموسيقى.

إن ما يشغلني حقاً هو (المسافة التي تفصل بين العقل والحقيقة)، إن الضجر المسرف بوسع من هذه المسافة، وكذلك الإرهاق. ولكن هذه المسافة الفاصلة يمكن أن تكون ضئيلة إلى الدرجة التي تجعل كل المدارك والحواس تتوهم أنها تحتك بالحقيقة احتكاكاً مباشراً.

ثم يحدث أن تقع صدمة مفاجئة قيمتلي الوجود الداخلي بالموسيقى، فتعرف أنه لم يكن هناك احتكاك حقيقي. كنت مخدوعاً. كنت وحيداً في فراغك الخاص، تختنق ببطء حتى الموت.



فيما بعد - في الطريق إلى نيويورك.

أشعر بأنني مدين بشيء من الامتنان لهيلغا، لقد اختطفني انتحارها أو انتزعني بقسوة لكي أخرج من حالة الافتقار إلى الإرادة التي كنت أترك نفسي لكي أنساق فيها. إن الكائنات البشرية تتشابه إلى حد كبير مع إطارات السيارات، فلكي تحصل منها على أحسن النتائج، ينبغي أن تحتفظ في حالة من الامتلاء المناسب. فإذا كان إطار سيارتك فارغاً من الهواء، وقعدت السيارة لمسافة ميلين، فإنك سوف تدمره تماماً. ويحدث ذات الشيء إذا كانت الإرادة خاوية. كنت اتعمد ترك لرادتي تزداد خواءً بانتظام طوال الأسبوع الماضي أو نحوه، وكنت أتساءل لماذا كنت أشعر بالإجهاد إلى هذا الحد.

يقول دي صاد أن الناس ساديون، فحتى أفضل الناس يحصلون على نوع معين من الإشباع من تأمل ما أصيب به الآخرون من خيبة أمل أو صدمات قاسية. وإنه لعلى حق، ولكن ليس لهذا أية علاقة بالسادية. إنه لسبب غريب ما، يجعلنا الضجر نفقد كل ارتباط بالحقيقة. إنك قد تظن، على سبيل المثال، أن رجلاً تم إنقاذه من خيمته النائية الباردة في القطب الجنوبي، قد لا يكون قادراً على الضجر طوال ما تبقى من حياته، لأنه في كل مرة يبدأ فيها في التسليم بالأشياء على ما هي عليه، فإنه، ببساطة سيستعيد اللحظة التي كان فيها قريباً من الموت كل القرب، ثم يرى كيف أن ظروفه الحالية جميلة إلى أقصى حد، بصرف النظر عن قناعتها. ولكن في الحقيقة، فإن مثل هذا الرجل جدير بأن يشعر بالضجر بنفس القدر الذي يشعر به رجل انفق جل حياته في مزرعة ريفية، وربما كان ضجره أكبر. إن سوء حظ الآخرين، أو ما يقابلهم من قسوة الحياة، قد يوقظنا من سباتنا الغريب.

هذا الجريان السائب في الطبيعة البشرية هو ما يسحرنى - إذ يخرسه في قلوبنا وجود الضجر. اجتث هذا الضجر وهذا التسبب، وسوف تحصل على السوبرمان.

السبت، ١٢ إبريل، جريت نيك، لونج أيلاند.

□ الإجهاد يجعل من عملية اتخاذ أيًا من القرارات الجيدة أو المحافظة على تلك القرارات أمراً في غاية الصعوبة. وصلت إلى كينيدي في وقت متأخر من الليلة الماضية، وقابلني هوارد فيلنر، كان ضئيل الحجم، إيطالي اللامح، مليئاً بالحماس والرغبة في الاقتحام، قادني إلى منزل جميل على قمة تل صخري، يقول أنه اشتراه من أرملة رجل مشهور من رجال الملاهي قتل في جريمة لم تكشف الغازها. إن فيلنر هذا واحد من أولئك الناس الذين توحى طريقته في التصرف بأنك لا بد أن تحبهم، فانت تشعر ببساطة بأنك وهو تشرع كان بالكثير من الأشياء... ظلمت أتوقع منه أن يضع ذراعه حول كتفي وأن يناديني "يا ولد". ومن الواضح أنه يشترك في عدد كبير من الأعمال الضخمة خلاف النشر - وفي الحقيقة، لقد راودتني الشكوك في أن دار ليندن للنشر ليست سوى عمل جانبي أنتجه لأغراض ضرائبية. وبينما كنا عاتدين بالسيارة، قال بوقار بأنه قد عرف فور اطلاعه على كتابي "اليوميات الجنسية" أن هذا الكتاب ليس نوعاً من الأدب المكشوف الداعر. وأني شخص مخلص يحمل أفكاراً ويريد أن يعبر عنها. وقد انكمشت أنا وحافظت على صمتي. وعندنا إلى المنزل في حوالي الحادية عشرة والنصف، وفتح الباب، فوجدت فتاة سوداء ذات جمال مذهل قدمها إلي باعتبارها سكرتيرته. وكانت هناك أيضاً فتاة أصغر سناً، اسمها بيغري، بدت خابية الجمال بالمقارنة إلى الفتاة الأولى، وقال أنها تشترك في السكن مع سارة (السكرتيرة) وأنها تدرس في إحدى مدارس السكرتارية. ووضعت الفتاتان على المائدة عشاءً يازداً ممتازاً، تضمن سرطانات البحر وجراد البحر أيضاً. وبعد أن تناولت الطعام، وشربت قديح من البيرة، شعرت بأنني أقل عداء نحو مضيفي، ولكنني كنت متعباً لدرجة أنه كان من الصعب أن احتفظ بعيني مفتوحتين. ولكن هوارد (وقد أصغر علي أن نتخاطب بالأسماء الأولى على الفور) أصبح في الحقيقة أكثر تقحماً وحماسة بعد منتصف الليل. تحدث عن الحرية الجديدة في الأدب، وعن التمرد في الجامعات، وقال أن هناك جيلاً جديداً لا بد من البحث عن ملامحه ودراسته، وأنه جيل جائع إلى الأفكار، وإلى حرية التعبير، وإلى الحديث المباشر المخلص. وحاولت أن أكتشف ما يعنيه بالأفكار وحرية التعبير، ولكنني لم أستطع أن أكتشف إلا أنه كان يعني حرية التعبير عن الدوافع العدوانية دون قيود ومن خلال التعبير الداعر الذي لا يكبته شيء.

كان علي أن أؤدي اهتماماً وحماساً بكلام هوارد الذي استمر في الكلام دون انقطاع إلى ما بعد منتصف الليل، وفي حوالي الثالثة صباحاً، قادني إلى غرفتي، وبينما كان يتهاى لمقادرتي، غمز لي بعينه وأشار إلى باب الغرفة المجاورة وقال، "بيغري في هذه الحجرة، إن كنت تريدنا". وغمغمت بكلمات عنيت بها أن هذا تعطف شديد منه علي، ورحت بعد هذا في سبات أشبه بالإغماء. وقبل أن أغرق في النوم مباشرة تذكرت أنني نسيت أن أطلب ديانا بالتليفون في نيويورك.

في الصباح التالي، أيقظتني بيغري في حوالي الساعة التاسعة وهي تحمل طعام الإفطار. وسألتي إن كنت قد نمت جيداً... ظننت أنني رايت تعبيراً خاطئاً على وجهها يدل على السخريّة، وتساءلت - في داخل عقلي - إن كانت باردة متحفظة كما تبدو. وكنت أشعر بالانقباض. كان الإصغاء لهوارد طوال ثلاث ساعات في الليلة السابقة قد دفعني إلى حالة لم أكن أريد إلا أن أخرج منها لأفقت من قبضته. كنت أريد أن أصرخ، "أتركني وشائي. إنني أكره كل شيء لعين تدافع أنت عنه". ولا أظن أن هذا كان من الممكن أن يقضيه أو يجيره على السكوت. كان من الممكن أن يقول، "كلا. إنك لا تكره شيئاً من ذلك. إنك فقط تظن أنك تكرهه...". ثم يمضي فيتحدث بسرعة أكبر مما كان يتحدث في البداية.

دخل إلى حجرتي بينما كنت أتناول طعام إفطاري - إفطاراً إنكليزياً يضم البيض ولحماً من فخذ من خنزير ومربي بالزبدة - فناولني مخطوط كتاب دونيللي. ولم يكن حجمه يزيد على ستين صفحة كتبت بخط اليد. سألته عما حدث لبقية الكتاب فقال، - "أجل، حسناً، إيه.. هذه هي المشكلة".

وبعد نصف ساعة من التفسيرات الكثيرة المتضاعفة، والتأكيدات بأنه يقف دائماً إلى جانب أصدقائه، بدأت في إدراك ما كان ينبغي علي أن أتبينه في الليلة السابقة. إنه يشعر بالغيرة من دار "كروف للنشر" لأنها نشرت بعض كتب دي صاد، وخاصة كتاب "حياتي السرية" قبل أن يفكر في هذا الكتاب أي شخص آخر. ولكنه لم يكن يرى ما ينبغي أن يمنعه من التقدم إلى ما هو أفضل من ذلك بأن ينشر كل كتاب جاء ذكره في القائمة التي وضعها اللورد آشي عن "ببيلوغرافيا الكتب المتنوعة". وهو يبدأ هذا المشروع بالفعل بنشر ترجمة

لاعترافات الأخ، أخازيوس من مدينة دورين، وهو راهب من طائفة الكابوتشان^(١) Capucin
كون جمعية كان يجلد بناء على تعاليمها تابعاته من النساء قبل أن يضاعجهن. وأعارني
هوارد مخطوطة الكتاب التي كتبت على الآلة الكاتبة، ومن المؤكد أنه كان واحداً من تلك
"الكتب التي تقرأ بيد واحدة". وكان قد شرع أيضاً في طبع كتاب يدعى "القساوسة
الفاضحون" وإن كان لم يوضح لي من أين حصل على مادة الكتاب.

وأخيراً وصلنا إلى الهدف من كل هذا الحديث. إنه مستعد لأن يدفع لي خمسة آلاف
دولار مقابل كتابة بحث حول "مويكولان وباليكاهين" - مسقط رأس دونيللي - وهو مبلغ
يكفي لتغطية تكاليف المقدمة. فإذا كان باستطاعتي أن أنتج "مادة" إضافية للكتاب نفسه -
أي إذا كان باستطاعتي أن أكتشف مزيداً من الكتابات التي تركها دونيللي نفسه، أو أن
أزورها بنفسه - فإنه سيدفع لي عشرة آلاف إضافية من الدولارات. ومن الواضح أنه لم يكن
يبالي كثيراً بما إذا كنت سأكتشف هذه الكتابات أم سأقوم بتزويرها. وأشار إلى أن اليكس
تروتشي قد كتب بقلمه أكثر من خمس الكتابات المنسوبة إلى فرانك هاريس تحت عنوان
"حياتي وتجاربي في الحب" وأنه منذ ذلك الحين كان يطبعه باسمه هو لا باسم هاريس.
والسؤال الرئيسية هي أن أكون مستعداً لأن اتحمل أي نقد يوجه إلى الكتاب، إذا حدث ووجه
إليه مثل هذا النقد.

كان الحصول على مثل ذلك المال كله أمراً مغرباً. وكنت سأعتبر نفسي سعيد
الحظ لو تبقى لي خمسمائة دولار من مجموع المال الذي وصلني مقابل تلك الجولة من
المحاضرات. وقلت لفليشر أنني سأفكر في الأمر، فغادرني مع المخطوط بين يدي.

أمضيت ما تبقى من فترة الصباح في الفراش، بينما كان يتزايد انقباضي كلما
توغلت في قراءة دونيللي. إنني لا أفهم كيف استطاع أن يحافظ على صداقته لأشخاص
مرموقين مثل شريدان وروسو. إنه يبدو في صورة لا تزيد عن صورة متشرد قدر العقل.
والأسوأ من هذا، هو أنني أشك في ألا يكون ببساطة، كاذباً. فالنساء اللواتي أغواهن - بدءاً من
شقيقته وخادمة المنزل - يبدون جميعهن كما لو كن نسخاً مختلفة من نفس الصورة
الخيالية للرغبة في التحقق. إنهن يبدن جميعاً بالمقاومة بشكل يوحي بالفضيلة وهن يقلن،

(١) طائفة من رهبان الفرنسيسكان انشئت عليها وكونت جماعة جديدة للرهبنة في عام ١٥٢٨.

"أواه، يا للعار!" وحينما يدفع إصبعه إلى داخل "الشق الرجائي المستطيل"، يتنهدين، بينما
أفخذهن: "تنفج كما لو كان ذلك يتم بصورة تلقائية". ومنذ تلك اللحظة، تمضي كل
قصة إلى الأمام دون انحناء واحدة حتى تش كل امرأة منهن منتشية في الفراش. إن فليشر
إما أن يكون أبليها غيباً أكثر مما يبدو عليه، وإما أنه يعلم تماماً بأنه قد خدع ولا يبالي
بذلك أدنى مبالاة.

جاء إلى غرفتي وقال إننا نتوقع وصول ضيوف يتناولون معنا طعام الغداء. وكان
ذلك أشبه بالقشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل - لم أكن أشعر أبداً بأنني على استعداد
لاستقبال الناس في ود لطيف. ذهبت إلى الحمام، وفتحت "الدش" فوق رأسي. فجأة شعرت
بدوار، وكان عليّ أن اتعلق بعمود ستارة الحمام. جلست على مقعد المرحاض، وحدثت في
مفرش الحمام للزركش بالورود، شاعراً بموجات الانقباض تتلاحق فوقني وتراكم. فكرت
في هيلغا، في ذلك الصباح الأخير، بينما كانت قد جلست على حافة الفراش، ترتدي حواربها
وتجدها إلى أعلى ساقيها. قالت حينذاك: "إنني سعيدة لأننا نمتنا معاً، ربما كان علينا أيضاً
أن نأخذ أي متعة نستطيع أن نحصل عليها". ولم تزد على ذلك حرفاً، ولكنني فهمت ما
كانت تريد أن تقول. كانت تعني أن الحياة لا معنى لها. كنا قد صعدنا إلى الفراش معاً،
وتضاجعنا مثل حيوانين، وغرقنا في النوم وصحونا من جديد، ولكننا كنا غريبين، أكثر
أمانة من أن تراودنا أية أوهام عن الحب أو الحنان - كل منا غريب عن الآخر وعن الكون.
وفجأة أردت أن أشرح لها ما يدور برأسي. أردت أن أقول لها أن العالم يبدو لها بلا معنى لأن "لا
وعبها" قد غرق في سبات عميق. وحينما نكون سعداء، تظل فقاعات المتعة تتصاعد من
أعماق اللاوعي - ذكريات وروائح وأمكنة. وحينما يتملك الإجهاد، يكف اللاوعي عن القيام
بعمله، وتكون النتيجة هي الحالة التي يدعوها سارتر، "الغثيان". ساعته ترى الأشياء دون
ظل المعنى القصير الذي يلقيه على الأشياء في أعماق العقل. يقول سانت أوغسطين، "ما
هو الزمن؟ حينئذ لا أسأل نفسي هذا السؤال، أعرف الجواب". تماماً إن عزل شيء ما في داخل
الوعي ينزع عنه معناه. إن حقيقة أن الوعي يرى العالم خالياً من المعنى إنما هي حقيقة لم
تبلغ شيئاً من شيء. فليس من المفروض في الوعي أن يدرك المعنى، المفروض فيه أن يدرك
"الأشياء"، الموضوعات الخارجية المستقلة عن الذات. ولكن كيف كان لي أن أشرح ذلك لفتاة
سقطت تحتبط دون مهرب في حالة من الإجهاد العصبي الكامل؟ وكان المفروض - من أجل
إخراجها من هذه الحالة - أن يتم إقناعها بأن تبدل شيئاً من الجهد. وهي لن تبدل أي مجهود

لأنها تقول أن كل جهد لا معنى له ولا هدف ولا نتيجة. لقد وقعت في شرك دائرة مقفلة، مفرغة.

كنت مصمماً على ألا أقع في نفس الخطأ. أخرجت نفسي من هذا الجمود كما لو كنت أصحو من إغماءة، وخطوت إلى تحت مياه "الدش" الساخنة، ورحبت أفكر في أنني سوف أرى ديانا غداً، وأن بإمكاننا العودة إلى بيتنا بعد عشرة أيام.

لم أتفاجأ من رداءة طعام الغداء فقد كنت أتوقع ذلك. كان من الواضح أن الضيوف جيران أغنياء، وكان فليشر قد دعاهم إلى مائدته لا شيء إلا لأنهم جيران أغنياء. وفكرت في كثرة ما يحدث في أمريكا من مثل هذه الأشياء - أناس يشربون ويتبادلون الأحاديث دون أن يكون بينهم أي شيء مشترك - وغرقت مرة ثانية في حالة من الانقباض المزعج. شعرت بأن فليشر لا يملك الحق في أن يصب على رأسي كل هذه الصور اللعينة من أنواع الضجر. رجال الأعمال السمان وزوجاتهم البلهاء، وثرثرتهم عن "الفيلا" للخصصة للعطلات والتي اشتروها في فلوريدا أو على هضبة الكارميل. وكانت بيغرلي جالسة في الطرف البعيد من الحجرة، مع شاب سمين من النوع العملي النموذجي، كانت زوجته قد رحلت بعيداً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وأزعجني هذا أكثر من أي شيء آخر لأنني شعرت أنها لم تكن موجودة هنا إلا لكي تسليني - حتى ولو لم أكن راغباً في النوم معها. إنما أردت أن يكون هذا "اختياراً" مني أنا.

خرجت إلى الشرفة القائمة إلى جوار بحيرة السباحة الصناعية الساخنة وألقيت ناظري عبر الأصوات المتصاعدة إلى أراضي كونيكتيكان. كان الهواء دافئاً ومعتدلاً، وحقاً قررت أن علي أن أدلي برأي لفليشر. أنني لا أريد أن أفعل أي شيء في كتابه اللعين. بل أنني حتى لا أستطيع أن أتحمل مسؤولية كتابة المقدمة دون نوع من عدم الأمانة، لأن دونيللي بدا لي في صورة شريرة مملّة. لا بد لي من مغادرة هذا المكان بعد الغداء مباشرة لكي ألق الحق السيارة العامة بعد الظهر فأذهب إلى نيويورك...

كنت على وشك الخروج لكي أقول لفليشر كل شيء حينما خرجت بيغرلي إلى الشرفة حاملة لي صحناً من سمك السالون للدخن وقدحاً من البيرة. قالت:

- يبدو عليك الضجر -

قلت - بشيء من الغضب كما لو كنت ألومها - : "إنني ضجر حقاً. إنني أشعر بالغثبان من كل هذه المسألة اللعينة". وقلت لها أنني نويت أن أغادر المنزل بعد الغداء مباشرة. وأدهشني اهتمامها. قالت:

- "كلا. ليس لك أن تفعل هذا. انتظر حتى يذهب الآخرون".

أثار انتباهها لي غروري، فوعدها بالانتظار. وبعد خمس دقائق، جاء هوارد وسألني عن حالي وما أشعر به. فقلت أنني بخير وإنني أفكر في الرحيل في اليوم نفسه، وثار اهتمامه جداً هو الآخر، وهرع إلى داخل المنزل.

أكلت السالون وبعض اللحم البارد، وصعدت إلى حجرتي. كنت جالساً على الفراش أقرأ في مخطوطة دونيللي حينما دخلت بيغرلي. بدت غير واثقة تماماً من نفسها. وقالت: "جئتك بشيء من فطيرة التوت البري".

شكرتها، فجلست إلى جوارتي على السرير. قالت:

- يقول هوارد أن علي أن أقنعك بالترحيل".

- "لماذا؟"

ترددت، ثم قالت: "هذا يعني الكثير بالنسبة لي. أريدك أن تبقى".

قلت ثانية، "لماذا؟" وقد ازدادت دهشتي.

تكلمت بكلمات غامضة عن أنها لم يبق لها سوى عام واحد في الدراسة، قبل أن تتمكن من الحصول على وظيفة ذات راتب جيد، وأوضح لي بالتدريج أن فليشر كان يدفع لها مصروفات دراستها، وأنها بدورها، كان عليها أن "تسلي" ضيوفاً مثلي. وافترضت أن كل شيء يتفق مع هذا الاستنتاج. كانت سارة سكرتيرة فليشر وعشيقتة. وكانت بيغرلي تشترك في شقة مع سارة. ثم أدركت أن فليشر قد غضب منها لأنها لم تمنح الليلة معي. قلت: "ولكن ألم توضحي له أنني كنت غارقاً في نوم عميق؟".

قالت: "أجل، أعرف ذلك. فقد جئت إلى حجرتك في الليل".

كنت أكل فطيرة التوت البري - رغم أنني لم أكن أريدها - إنما أكلتها بدافع الحرج. كان الموقف واحداً من تلك المواقف المحرجة الغريبة. لم يكن بمقدوري أن أقول: "حسناً، اخلمي ملابسك، وسوف تعوض ما فاتنا من الوقت".

قلت: "ولكنني وضحت لهوارد أن زوجتي وابنتي ينتظرانني في نيوهاغن".

قالت في تعاسة: "أجل، أعرف هذا".

قلت: ولكن ما لفرق بين أن أكون قد قضيت الليلة معك أم لا؟".

ولكنني في الحقيقة كنت قادراً على تخمين الفارق. كان فليشر واحداً من أولئك الرجال الذين يصممون على أن يمضوا في طريقهم إلى غايتهم. وكان قد قرأ كتابي وقرر أنني الشخص الذي كان بحاجة إليه لتقديم كتاب دونيللي في صورة تبعث على الاحترام. فإذا كنت قد أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في منزله، مع فتاة جليها من أجلي، فإنني أكون تحت نوع من الالتزام نحوه بشكل ما.

قلت: "اسمعي. لا أظنني قادراً على قبول هذه المهمة. إن هذا الكتاب مجرد مؤلف من الأدب المكشوف. وهو حتى ليس أدباً مكشوفاً كتب بطريقة جيدة. إنه لا يقنعني". قرأت لها الشهد الذي يمضي فيه إلى الفراش مع شقيقته وهي في فترة الطمث، وتسمح له شقيقته بأن ينال عذريتها. ثم قلت: "فتاة إيرلندية في ثمانينات القرن الثامن عشر ما كانت تسمح لأخيها حتى بأن يعرف أنها في فترة الطمث".

ومع هذا فقد وجدت أن قراءة هذا الشهد بصوت مرتفع قد أنتجت إحساساً قلقاً في أعلى الساقين جعل من السير أمراً لا يبعث على الارتياح، ولذلك فقد جلست على حافة النافذة العريضة بشكل كاف. واعترضت هي على أساس أن الأخلاق كانت أكثر مما ظننت حرية في القرن الثامن عشر، وأنه من المحتمل أن يكون دونيللي ببساطة كاتباً مهملاً أغفل الخطوات الهامة في عملية الإغواء. قلت:

- "حسناً، فما رأيك إذا في هذا الشهد؟".

تحولت إلى الشهد الذي يصف فيه إغواءه لزميله شقيقته في المدرسة تحركت بيفرلي لتقريب من كتفي، وتركت نهديها بضغط عليه. كان الشهد يصف كيف كانت الفتاة

تقف معه، تشاهد استعراضاً يسير أمامهما. ويحل هو رباط ثوبها العلوي ويمص حلمتها. ثم يلبس إصبعه في "الشق الرجائي المستطيل". وينتهيان بأن يتضاحجا وهي جالسة على ركبتيه؟ وقلت أنني أظن في هذا الشهد نوعاً من الاستحالة النافية للعقل، ولكنني كنت أشعر بأن صوتي قابضاً متوتراً. كان ارتباط الشهد الداعر، بنهدها الضغط بقوة على كتفي قد دفعني إلى حالة من التوتر، كان من الممكن أن تظهر واضحة للعيون لو أنني لم أكن قد وضعت المخطوطة في حجري. كانت ترتدي صدارة من الصوف، الكت القرمزي، تكشف عن كتفيها، وكانت الصدارة تتناسب جداً مع بشرتها الذهبية. وحينما انتهت من القراءة، بللت إصبعها الأوسط بلعابها، ودارت بذراعها حول رأسي، فوضعت برقة في أنفي. لا أعرف أين تعلمت هذه الحيلة، ولكن تأثيرها كان مروعاً. فجأة أصبح الموقف ملكها هي، وكانت هي تعرف ذلك. وكان الحرج الذي ساد الموقف في البداية قد اختفى. مددت يدي وجذبت صدارها ليكشف عن كتفيها، ثم جذبت دائرتي حمالة صدرها إلى أسفل، وكانت الدائرتان صغيرتين، لا تزيدان عن "بقعة" ضئيلة من مادة ناعمة. كانت حلمتاها منتصبتيين وشديديتي الاحمرار، أخذتهما في فمي واحدة بعد الأخرى، ورحت أدلكهما بلساني، انزلقت لتجلس على ركبتي، ودفعت المخطوطة لتقع على الأرض. جلسنا كذلك في هذا الوضع، وقد ثقل تنفس كل منا. تساءلت ببني وبين نفسي إن كانت تريد أن تنتقل إلى الفراش، ولكن أصابعها راحت تربت عليّ بنوع من المهارة جعلني أرغب في البقاء ساكناً في مكاني، لأتركها تمضي في عملها. كان يوسعي أن أرى ما وراء كتفها، ما خارج النافذة، المخطوط الخارجية السوداء للأشجار على صفحة البحر، بينما فروعها فقط تنغطي ببراعم أوراق خضراء صغيرة. بدت الأوراق والأغصان صلبة صلابة رائعة، كما لو كانت قد صنعت من معدن ما، يتراوح بين الفضي والأسود. حينذاك بلغت ذروة نشوتي، وتمايلت الأشجار، وتصلب في داخلي شيء ما صلابة لا حد لها، حتى لقد كان كل ما نظرت إليه يمثل هذه الصلابة، صلباً وجميلاً جميلاً خارجاً، جميلاً كما لا يتبغي لغير الصلب أن يكون. انحنت فوقي، ودست لسانها في فمي، وتركتني في مكانه حتى تراخيت بالتدريج في يدها. جنبتي من يدي، فنحرتنا إلى الفراش. وببساطة رقدنا عليه، بكامل ملابسنا، كنت على وشك أن انحرق في النعاس حينما سمعت صوت إضاءة مصباح ما ففتحت عيني في البراءة، رايت صورة الباب وهو بفتح. خطف فليشر نظرة إلى الداخل، ورأنا، ثم انسحب ثانية على الفور. كانت بيفرلي نائمة، وقد انفرجت شفتاها. وهجاء شعرت بالإشفاق عليها، وغمرني إحساس دافق، كان

هو "الحب" بشكل أساسي. كان فليشر قد أمرها بأن تأتي إلي لكي تمنحني نفسها. وقد بذلت أفضل ما في وسعها. حاولت أن تمنحني المتعة دون تفكير في متعتها هي، ومنديلي يحمل النتيجة. قبلت شفتيها النفرجتين، وحينما جففت قليلاً، قبلت جبهتها.

عندما هبطت إلى الطابق السفلي، قلت لفليشر أنني أريد أن أرحل على الفور، ولكنني سأقبل التعاقد معه. قال:

"بالتأكيد يا رجل. هذا هو رجلي". ووكزني في كتفي يود.

نفس اليوم، فيما بعد.

تركنت (جريت نيك)، مسافراً إلى نيوهافن للحاق بديانا، وقضاء بضعة أيام معها، في سفري هذا شغل ذهني تعثر وتلعثم بيرجسون^(١). وهو يحاول الإجابة على إحساس هيلفا باللامعنى. ففي إحدى مقالاته، وصف كيف أن ساحراً من سحرة الاستعراضات السرحية (هاودين)، كما أظن قد درب ولده الذي كان يبلغ الخامسة من عمره، على الملاحظة الفورية الخاطفة. حيث هاودين يطلع ولده على قطع لعبة "الدومينو" ولكنه لم يكن يسمح له بأن يحصي عند ما رسم عليها من نقاط سوداء. ثم يسأله بعد هذا أن يتذكر كم كان عدد النقاط، أي أنه كان عليه أن يحصي النقاط "في خياله". ثم كان يطلعه على مجموعتين من قطع الدومينو، ويأمره بالآلا يحصي النقاط، ومرة أخرى، كان عليه أن "يتخيل" تلك النقاط بعد أن تبعد عنه القطع ويطلب منه أن يتذكر عند ما كان عليه من نقط سوداء. كان الصبي - بهذا الشكل - قد درّب على أن يلتقط صوراً فوتوغرافية منظرية (مرئية) بذاكرته. وفيما بعد، كان يؤخذ لكي يقف لمدة ثمانية واحدة أمام واجهة لمحل من

(١) هنري بيرجسون (١٨٥٩-١٩٤١) فيلسوف فرنسي معاصر حاز على جائزة نوبل للأدب عام ١٩٢٧، عرف عنه اعتماده على الحس المباشر كوسيلة للحصول على المعرفة بدلاً من وسائل العلم القائمة على التجربة والملاحظة والاستدلال، من أهم أعماله كتاب (التطور الخلاق) عام ١٩٠٧، وكتاب (الادة والذاكرة) عام ١٩٩٦، وكتاب (الضحك) عام ١٩٠٠.

محلات بيع دمي الأطفال، ثم يطلب منه أن يكتب أسماء أربعين أو خمسين من تلك الدمي، من الذاكرة. كان هاودين يدرب الصبي على التظاهر بأنه يملك حاسة سادسة. وكان على الصبي أن يصعد إلى المسرح، فيختطف لحظة سريعة على المتفرجين لمدة دقيقة واحدة أو نحوها بينما يقدمه والده إلى الجمهور. وفي تلك المدة القصيرة، يكون الصبي مشغولاً بـ "تصوير" كل الأشياء المرئية التي يستطيع أن يراها - سلاسل الساعات وما إليها. ثم تغطي عيناه بغطاء محكم، وبإشارة ما من والده، يكون قادراً على أن يتبين الشيء - أو يتعرف عليه - بشكل عام. كان يمكنه - بالطبع - أن يسمع صوت الرجل الذي ناول الشيء إلى أبيه، فيكون قادراً على تقدير موضع جلوسه في صالة المسرح.

ويشير بيرجسون إلى أن جوهر هذه الطريقة هو "عدم" السماح للصبي بأن يحصي النقاط السوداء. وبدلاً من أن "يفسر" ما رآه، مثلما نفعل نحن جميعاً في أثناء استيعابنا اليومي لما يحيط بنا، لم يكن يطلب منه سوى أن يسمح للمستوى الأعلى من عقله بأن يصور هذا الذي رآه في لحظة خاطفة. وأصبح للمستوى الأعلى من عقله منفصلاً ومستقلاً عن حواسه، وحده، وأحكامه.. الخ، وأصبح قادراً على أن يتحرك بسرعة أكبر بكثير، كان أشبه بـ "الضوء المتحرك".

إن الصغار من الناس - والهرة منهم بالتحديد - سرعان ما يتعلمون هذه الحيلة - خاصة إذا كانوا يتعرضون لنوع من الامتحانات. إنهم يتعلمون كيف يفصلون بين مستويات العقل. ولكن لاحظ ما يعني هذا. إنك تعلم نفسك أن تصور "الحقائق" دون معناها. فإنني لو سئلت أن أتذكر محتويات واجهة لأحد محلات بيع لعب الأطفال لقلت، "هناك آلة إطفاء في الوسط، ودمية عروس في ذلك الركن، ودب أسمر في الركن الآخر..." ثم لا أكون قادراً على تذكر أكثر من شيئين أو ثلاثة أشياء في عدة نوان.

ومن السهل أن تصبح عادة، إدراك الأشياء دون معناها. ويصبح من الصعب أن تعيد ربط مستويات عقلك العليا بفرانزك وحواسك. إن الجواد سرفاض أن يعاد لكي يربط إلى العربية مرة أخرى مثلما كان في البداية. إنك تمضي فلا تفعل أكثر من أن "تري" الأشياء دون أن ترى معانيها. ثم تقول: "إن العالم لا معنى له".

الاثنين ١٤ إبريل. شارلستون. س. س.

□ إن يوماً من أيام الأحد قضيته مع ديانا وموبسي جعلني أشعر بأنني أكثر عقلاً. قضيت يوم أمس في مداعبة فكرة تمزيق الشدات التي كتبها دونيللي وكتابة كتاب كامل - لفليشر - عن مذكرات دونيللي. ولكن حدث هذا الصباح، وقبل أن أغادر نيويورك مباشرة أن اتصل بي فليشر تليفونياً. كان قد تذكر لتوه أنني كنت ذاهباً إلى "باتون روج" وأراد أن يقول لي، أن واحداً من سلالة دونيللي - الكولونيل مذبزو دونيللي - يعيش في مدينة "دينهام سبرينغز". وسوف أكون هناك لمدة ستة وثلاثين ساعة، على أن أحاول الاتصال به.

ظللت أفكر في سيفرلي، لم أكن أفكر فيها فقط، وإنما فيما حدث للأشجار حينما حدثت فيها. حاولت التعبير عن ذلك بالكلمات. كان ذلك شديد الشبه بما يحدث حينما تشعر بالتعاسة، فيبدو كل ما تنظر إليه ممتزجاً بتعاستك - يصبح نوعاً من "الرمز" لتعاستك، مثل السماء الرمادية أو تساقط أوراق الخريف - كذلك هو الأمر في اللحظة التي تلوي فيها النشوة كل جزء من أجزاء الجسد، إذ يصبح كل شيء رمزاً للإحساس بالقوة. وهذا ما يفسر السبب الذي جعلني أرفض دونيللي، إن لحظات نشوته الفاترة الخالية من أي طعم، لا تؤدي إلى أي مكان. إنه لم يحاول أبداً أن يقتفي آثارها بحثاً عن منبعها في ذاته.

(يوميات الأسبوع التالي تم حذفها)

□ في صباح يوم السبت الماضي، ومرة أخرى في مساء اليوم نفسه، أقيمت محاضرة في جامعة ولاية لويديانا - وكانت محاضرة جيدة رغم هذه العبادة من التعب التي تفرمني دون أن أستطيع خلعيها أو التخلص منها. (إنني لا أستمتع كثيراً بالقاء المحاضرات. إنني أصر على تذكر ذلك التعليق الذي قاله ماركيز هاليفاكس: "إن الغرور الذي تبعه عملية

تعليم الآخرين في النفس، ليفري الرجل دائماً بأن ينسى أنه صاحب عقل مغلق". وفي ساعة باكراً من صباح يوم الأحد، تناولت إفطاري في غرفة الفندق الصغيرة واستأجرت سيارة لتقلني إلى منطقة "دينهام سبرينغز"، التي تبعد مسافة عشرة أميال (وكان فليشر قد عرض عليّ أن يدفع هو أية تكاليف). ولذا فقد استأجرت سيارة لهذا الغرض وقد صممت أن تكون من سيارات "دينهام سبرينغز" نفسها. وكان سائق السيارة زنجياً متوسط العمر. سألته إن كان يعرف أين يسكن الكولونيل دونيللي. قال، "أوه، نعم". وكان يعرف الكولونيل بالفعل، وقال إن الكولونيل يسكن على بُعد ميل واحد خارج المدينة. وسألني إن كنت صديقاً للكولونيل، فقلت له إنني لم أقابل له من قبل أبداً، ولكنني أمل أن أجد في بيته. فقال،

"طيب، اسمع، في هذه الحالة قد يقابلك وقد لا يسمح لك بمقابلته. فإنك لا تستطيع أبداً أن تتنبأ بما سوف يفعله الكولونيل".

وانتبت الرجل لي أنه ثرثار بدرجة لا تقل عن ثرثرة أكثر سائقي سيارات الأجرة في أمريكا، وفي خلال عشرين دقيقة كان قد أخبرني بالكثير عن دونيللي، ولم يكن فيما نقله إليّ من المعلومات ما يمكن أن يهمني كثيراً، كان قد جاء إلى ولاية لويديانا قادماً من ولاية مكسيكو بعد الحرب بفترة قصيرة، فاشترى مساحة من الأرض خارج البلدة. وقد حصل على الأرض بثمن بخس لأنها كان سبخة مليئة بالنعابين. فاستأجر بعض المعدات الثقيلة، حتى جفف الأرض ونظفها، ثم بدأ في الزراعة، فاستنبت الأرز، وقصب السكر وغرس أشجار البرتقال. كان يدفع أجوراً طيبة، عرف عنه أنه كان يقسو على نفسه وعلى عماله. فقد كانت الأيدي العاملة - ومعظمها من الزوج - تعيش في أبنية خشبية ككنكات الجنود القديمة. وكان دونيللي طاغية تماماً، رغم ما عرف عنه من هوس بالعدالة والحق. كان يقضي في المنازعات بنفسه، وكان أحياناً يأمر بجلد بعض العمال، بل كان يقوم بعملية الجلد بنفسه. وكان بوسع من يريد الرحيل أن يرحل. كان يسكن بمفرده، ولم يعرف عنه أبداً أنه نام مع امرأة. وكان خادمه الوحيد رجلاً مكسيكياً كتوماً، هائل الجثة. وكانت هناك شائعات تقول بأنه يضرب الرجل - فقد كانت أصوات الضربات واللعنات تسمع أحياناً من داخل مبنى المزرعة - ولكن الخادم لم يشك الأمر إلى مخلوق على الإطلاق. ثم مات بمرض التيفوئيد بعد عدة سنوات.

وفي عام ١٩٦٢، اكتشفت شركة "ستاندارد أويل"، التي كان لها مركز كبير في "باتون روج"، البترول في أرضه، فعرضت عليه ثمناً كبيراً لها. ولكن دونيللي وافق على أن يؤجر لهم قسماً من الأرض. ورغم أنه احتفظ بقسم كبير منها يصلح للزراعة، فإنه أفلح عنها، وصرف عماله، وعاش حياة ناسك وحيد. وكان يعيش بمفرده منذ ذلك الحين، يزداد نحولاً وحساسية. وكان يختفي عدة مرات في كل عام - وكان يعتقد أن يذهب إلى نيو اورليانز. وزعم أحد سكان "دينهام سبرينغز" أنه رآه هناك في بيت للدعارة، ولكن لم يصدق ذلك إلا القليلون.

كنا قد أصبحنا على بعد أميال قليلة من "دينهام سبرينغز" ونصحني السائق بأن أرفع زجاج نافذتي. وفسر لي الأمر بأننا كنا على وشك أن نمر بعمل لتفريخ الدواجن ونبحها كان قد احترق منذ فترة قصيرة، وأن أجساد الطيور الميتة لم تكن قد دفنت بعد أو نقلت من المكان. وعبر بالمكان عن يميننا - ولم يكن "العمل" أكثر من سقيفة خشبية كبيرة، بقدر ما كنت قادراً على الحكم من خلال ما رأيته من بقايا تعلوها آثار الحريق. ورغم إغلاق النوافذ، فإن الرائحة الكريهة تسربت إلينا. وأخبرني السائق بأنهم يواجهون الكثير من الحرائق في المنطقة. فإن مساكن العمال في مزرعة دونيللي قد احترقت، كما احترقت حظيرة ملائ بجزم القش المضغوط.

لم يدهشني هذا. فإن الشيء الوحيد الذي يدهشني في القسم الجنوبي من أمريكا الشمالية، هو أن المنطقة نفسها لا تلتهم مشتعلة بالنار في منتصف الصيف. ورغم أن الوقت لم يكن قد تجاوز الحادية عشر صباحاً، فإن الهواء كان ساخناً مثل الفرن.

سارت بنا السيارة عبر شوارع البلدة الصغيرة الناعسة، حيث بدأ كل شيء خالياً تماماً ومكتمل الهدوء في صباح يوم الأحد، ثم دارت السيارة إلى اليمين هابطة منحبراً معشياً كان يتعرج أسفل المدينة. وبعد نصف ساعة من القيادة المحاذرة البطيئة - بهدف تجنب قفزات السيارة - وصلنا إلى أبنية مزرعة خشبية تقاوم القدم. وقد بدت كالمهجورة. دفعت للسائق أجره وخرجت من السيارة. فقال:

- "أفضل أن أنتظرك لأرى إن كان سيسمح لك بالدخول أم لا؟. فإنه قد يقرر ألا يستقبلك".

وهكذا عبرت الفناء التراب، ماراً بمعدات المزرعة التي علاها الصنا، متجهاً نحو المبنى الرئيسي. نبح في وجهي كلب ضخمة أصفر اللون، ولكنه لم يبذل أية محاولة للنهوض من رقبته.

فتح الباب قبل أن أصل إليه، ووقف دونيللي على عتبة. عرفت أن هذا الرجل لابد أن يكون هو دونيللي - فقد بدا أوروبياً إلى درجة أكثر من أن يكون أي شخص آخر. إنه رجل من النوع الذي اعتاد أن يرى الإعلانات القديمة في الصحف عن شاي "بلاتر" وقهوة "كامب"، نحيل القامة، لوحات الشمس جلده، يحمل وجهاً تظهر من خلال بشرته كل عضلة من عضلاته. راقبني وأنا أقرب دون أن يتكلم، ثم قال:

- "أنت مستر سورم؟"

وكان هذا باعناً على الراحة. فقد كنت أتوقع أن يقول: "من أنت بحق الجحيم؟" أجبت بآني أنا سورم. أو ما إيماءة مختصرة للغاية، ثم فتح الباب على سعته لكي يسمح لي بالدخول.

كانت الحجرة عارية ونظيفة ومرتبعة، مثل قمرة ضابط في سفينة. ولم يكن دونيللي قد ابتسم أو حاول مصافحتي. ولكنني التفت حينما دخل خلفي من الباب - وكان قد وقف قليلاً يراقب السيارة وهي تبعد - فخيل إلي أنه كان يرمقني وقد بان على وجهه تعبير غريب. وراح يتأملني مثل قطعة تراقب قنفذاً برياً. قال:

- "أيمكنني أن أقدم لك الشاي؟".

قلت نعم بحماس، خرج، وغادرني بمفردي. كان من الواضح أنه يعيش في تلك الحجرة الوحيدة. كان هناك سرير من أسرة العسكرات، ومقعد ذو مسندتين غير مريح ومقعد آخر عادي مصنوع من الخشب، ومائدة صغيرة يمكن طيها. وكانت أرضية الحجرة عارية ونظيفة، وهناك خزانة خضراء قديمة في ركن الحجرة، وست صور طباعية على الجدار، تمثل عدداً من الملاكمين يتبادلون الضربات بالقبضات العارية، وتمثل أيضاً جياداً جميلة. ولم تكن هناك كتب.

عاد دونيللي يحمل الشاي، وصحناً ملاء بشطائر صغيرة مقددة دهنت بالزبدة. راودني إحساس بأنه يريد أن يتحرر قليلاً من تخشبه، وأن يقول شيئاً ما بطريقة ودية، ولكنه كان قد نسي كيفية القيام بمثل تلك التصرفات. وبينما كان يصب الشاي سألتني إن كنت قد قمت برحلة طيبة حتى منزله. فأجبته: نعم. قاومت الإغراء بالكلام لكي املاً فراغ الصمت، وبينما رحت أرتشف الشاي - الذي كان قد صنع بطريقة جيدة - تذكرت عبارة هايتي في تعريف الصمت باعتبارها الحوار بين الإنكليز، فوجدت أنه من الصعب ألا ابتسم. وأخيراً، توقفت عن مقاومة الإغراء بالابتسام. نظر إلي دونيللي في تلك اللحظة، فحولت ابتسامتي إلى تعبير ودي، وقلت: "حسناً، إنه لمن الممتع حقاً أن يعثر المرء على سيد إنكليزي في هذه البقعة القاحلة".

قال بصرامة: "إنني أيرلندي".

- "إنهما شيء واحد على هذا البعد". هكذا أجبته، وأنا اتساءل إن لم يكن قد قنطني بشيء ما. ولكنه ابتسم ابتسامة باردة كالثلج وقال:

- "أجل، أظن هذا".

ولسبب غريب ما، تحطم الثلج، قال:

- "وهكذا فانت تقيم في موي كوللان؟ أين بالضبط؟".

فوصفت له الكوخ الذي استأجرناه، والمنزل الذي انتقلنا إليه. فسألني إن كنت أعرف شيئاً عن جريمة قتل "دومينيك"، الفتاة التي كانت جنيتها قد وجدت عند قاع مرتفع (موهير) الصخري منذ عامين. وكنت أعرف كل ما يتعلق بهذه القضية، فوصفتها له بالتفصيل. كانت فتاة أمريكية قتلها عاشقها لكي يحصل على ما كانت تحمله من تحويلات مالية تصرف للمسافرين. وكنت أعرف صياد الأسماك الذي عثر على الجثة، وعضو الحرس المحلي الذي استدعي لكي يلقي عليها نظرة لعله يتعرف عليها. ومن الواضح أنه لم يمكن التعرف على وجهها، ولكن القاتل كان قد ارتكب خطأه الوحيد بتركه قطعة ثياب واحدة على الجثة - وكانت هذه القطعة سروالاً من النايلون الأسود. وكان السروال يحمل علامة واسم الصانع الأمريكي، وبالتالي قاد هذا إلى معرفة هويتها. وكنت أيضاً قد بادلت الحديث مع مفتش الشرطة السري في دبلين الذي كان قد حمل مسؤولية تحقيق

القضية، فأخبرني ببعض التفاصيل عن الأساليب التي لجأ إليها في التحقيق. وسحرت كل هذه المعلومات المباشرة دونيللي، فبدأت أمل في أن يتعرف بطريقة ودية فيما يتعلق بموضوع أسلافه.

وعندما انتصف النهار كانت حرارة الجو قد أصبحت قاتلة لا تقاوم، فخلع دونيللي صدره الصوفي وجلس أمام المائدة لا يرتدي غير القميص - الذي كان مفتوحاً حتى وسطه - والبنطلون. وخلعت أنا سرتي. واقترح هو أننا ربما كان علينا أن نتناول مشروباً، فوافقت. وجاء دونيللي بزجاجة من الروم الأسود. وكنت أعرف أنني لن ألقى أي محاضرات حتى يوم الثلاثاء، ولذلك فقد وافقت دون شعور بالحرج. وجاء دونيللي بالزبد من شطائر المقددة الدهونة بالزبد، وفتح بعض علب السردين المحفوظ. وبعد أن تبادلنا كلمة "صحتك"، اتدفع إلى موضوع إيزموند دونيللي. قائلاً،

- "أظن أن هذا الولد الناشئ قد أخرك بانني قلت له أن يذهب إلى الجحيم؟".

- "كلا. لم يخبرني".

كان هذا هو تصرف فليشر النموذجي - أن يقترح علي الذهاب إلى دونيللي دون أن يوضح لي أنه قد تلقى استقبلاً عادياً. وربما كان هذا تصرفاً حسناً من جانبه، فإني ما كنت ساتي إليه لو أنه أخبرني بذلك.

سألني "هل رأيت تلك المخطوطة؟".

- "أجل. وقد جئت بها معي". أخرجتها من الجيب الداخلي لسرتي، فتناولها بلهفة. وبعد أن قرأ نصف صفحة، ألقى بها على المائدة مع إشارة تدل على الاهتمام.

- "تماماً كما كنت أظن. تزوير. مجرد تزوير غبي لعين".

دهشت كالمصعوق، سألته: "أنت متأكد؟".

- "أنا متأكد طبعاً. ألم تقرأ يوميات إيزموند؟".

- "خشى أن أصارحك بانني لم أقرأها. بل إنني لم أكن أعرف بوجودها قبل الآن. هل نشرت؟".

- "إنها منشورة بالطبع. نشرت في دبلن عام ١٨١٧".

خرج من الحجرة. وبعد دقائق قليلة عاد وقذف على السرير مجلداً صغيراً ذا غلاف من الجلد. وكان العنوان، "يوميات إيزموند دونيللي". وكان الناشر هو "دار تيلفورد" في دبلن. وكان الإهداء الرسمي موجهاً إلى اللورد تشستر فيلد - وهذا نصه:

"سيدي اللورد، لقد كان لدي دائماً من الأسباب ما يدعوني إلى أن أتذكر قولك بأن أسوأ الرجال تربية في أوروبا، إذا سقطت مروحة إحدى السيدات، لجدير بالتاكيد بأن ينحني هيئناول المروحة ليعيدها إلى صاحبها، وإن أفضل الرجال تربية في أوروبا لا يستطيع أن يفعل أكثر من هذا. وقد كانت هذه الفكرة الناقبة، حول تشابه اللواهب بين العظيم والوضيع في إطار مجالات محددة للنشاط، هي ما دفعني إلى أن أقدم إلى سيادتك هذا المجلد الخالي من الادعاء..".

ولم تكن هناك حاجة إلى المضي في القراءة بعد هذا، فإن الرجل الذي كان باستطاعته أن يكتب هذا النثر الأنيق الجيد الصياغة لا يمكن أن يكون هو ذلك الصبي الأبله الذي كتب يقول، "وفي خلال ثوان قليلة كان خنفسائي الكبيرة المحظوظة، قد اندست داخل محرابها العذري، وسألني المنوي يجعل خصيتي تنتفخان كالبالونة". وهذه العبارات الأخيرة التي اقتطفتها هنا تشير بوضوح إلى جوهر أسلوب المخطوطة التي قدمها لي فليشر. وإنني لعاجز عن المجادلة دفاعاً عن فكرة أن رجلاً واحداً هو الذي استطاع أن يكتب الإهداء الرسمي إلى اللورد تشستر فيلد والجملة الأخيرة. ولكن حنساً طارئاً تصاعد إلى مستوى اليقين جعلني أشعر بأن الأمر لا يصح أن يكون على هذا النحو. قلت،

- "استطيع أن أرى ما تعنيه. إنك لا تظن أنه من الممكن أن يختلف أسلوب مذكرات خاصة اختلافاً شديداً - بالضرورة - عن يوميات يكتبها المرء أثناء السفر؟".

- "إنه أسلوب يختلف أيضاً عن أسلوب يومياته غير المنشورة".

- "هل رأيت أنت تلك اليوميات إذن؟" كذلك سألته وأنا أحاول ألا تظهر في صوتي رنة لهفة الشديدة.

- "أوه، أجل" قالها بطريقة عابرة، وصبب لنفسه مزيداً من الشراب أكلت ستاً من أسماك السردين، وكعكة جاهزة مدهونة بالزبد قبل أن أشرب المزيد، وفكرت في أنني أستطيع أن أمضي ما بعد الظهر والنساء نائماً في غرفتي بالفندق الصغير.

وحينئذ أخبرت دونيللي بلقائي مع فليشر، ووضحت له أنني لم أكن قد سمعت باسم جده أبداً قبل تلك القابلة. ووافقتي هو على أن ذلك لم يكن بالأمر الفاجئ بالنسبة له، فإن يوميات دونيللي لا تزيد في قيمتها عن العشرات من أمثاله في ذلك العصر الذي كتبت فيه، يوميات أشخاص مثل توماس ترنر، وماري كاوير، وإيرل إيجمونت، وهي ببساطة لا يمكن أن توضع في نفس المكانة التي توضع فيها يوميات فاني بيرني. كان إيزموند دونيللي معروفاً لطلبة الأدب الإيرلندي، ولكن ذكره لم يرد حتى في مجلده، "تاريخ كامبريندج للأدب الإنكليزي".

وبدافع من رغبتني في الكشف عن دوافع فليشر أشرت إلى أنه من النادر أن يكون هناك دخان من غير نار، وإنه إذا كانت هناك شائعة تقول بأن دونيللي كان يدوم على كتابة "يوميات جنسية"، فمن المحتمل جداً أن يكون ثمة أساس لهذه الشائعة. حذق في وجهي بعينييه الباردتين. وليس على وجهه أي تعبير، وقال لي،

- "افترض أن لهذه الشائعة بعض الأساس، فهل تفترض أن أحفاده يتلهفون على رؤية مثل تلك الأشياء مطبوعة منشورة على الناس؟ أنك تعرف إيرلندا".

أدركت ما يرمي إليه. فالإيرلنديون لا يتساهلون فيما يتعلق بأمور الأخلاق. من المؤكد أنهم يتمتعون بشيء من الرونة. ولكن مرونتهم تقف عند أمور الأخلاق ولا تستطيع تجاوزها على الإطلاق. وهناك الكثير من حوادث منع الكتب، والفهرس ما يزال شيئاً لايد من التفكير فيه. وكان يوسعي أن أدرك أن عائلة دونيللي القاطنة في بلدة "باللي كاهين" قد تجد نفسها فجأة ذات سمعة سيئة محرجة، حتى ولو كانت مريحة.

وحينما اقتربت الساعة من الواحدة، كنت مخموراً بشكل واضح، وقلت أنه أصبح علي أن أرحل. ولشد دهشتي اعترض على ذلك قائلاً،

- "لا. لا. يمكنك أن تتناول طعامك هنا. سأطهو بعض البيض ولحم الخنزير. فإذا لم يعجبك هذا، لدي بعض القمح الطازج الأخضر". وذهب إلى المطبخ، ورحلت أنا اقرأ بعض

يتكلم لم ينم عن أية نوابها سادية. وتذكرت فجأة حكاية أنه قد عاش وحيداً لمدة طويلة. كان جائعاً إلى الجنس معزولاً في وحدته عن البشر. ولا شك أنه استمتع بالحصول على من يبادلته الحديث. ولم يكن في هذا أي شيء غير طبيعي.

ولكنني بدأت أتمنى لو أنني كنت قد أخرجت موعد زيارتي إلى وقت متأخر من هذا اليوم. فقد بدأت أشعر بأنه ينوي أن يحتفظ بي هنا طوال فترة ما بعد الظهر والمساء. كان بوسعي أن أرحل، بالطبع. ولكن دونيلي كان هو المصدر الوحيد للمعلومات عن جده بالنسبة لي، وكنت سأحصل على خمسة آلاف دولار إذا كتبت عن هذا الرجل. كان بوسع الإحساس بالذنب وحده أن يبقيني جالساً في هذا المكان، طالما أنني كنت ألقى الترحيب.

وحينما انقضت فترة العصر وأقبل المساء، بدأت أتأهب مرة كل دقيقة. لكن يبدو أن دونيلي لم يلاحظ ذلك. كان قد أتى بمقعد لا ظهر له ولا مساند. وجلس عليه، ورفع ساقيه على المقعد الخشبي. وأصر على أن أجلس أنا على المقعد غير المريح ذي السندين، ورفع ساقي على السرير. كنا في تلك اللحظة نشرب البيرة - من نوع البادوايزر المعبأة في علب من الصفيح. وكان يدخل سيجاراً من نوع الشيروت. وحاولت من حين إلى آخر، أن أعيد الحديث إلى موضوع دونيلي، ولكنه كان يتجنبه. وأخيراً في حوالي الساعة الرابعة، سألتني إن كنت بحاجة إلى بعض المشي. فوافقت على اعتبار أنها محاولة لكسر هذا الدوار الشبيه بالتنويم المغناطيسي. كنت قد بدأت أشعر بالانزعاج في صحبتته. وكان بوسعه أن يرى أن النعاس بدأ يسيطر عليّ، وربما كان من واجبه أن يقترح عليّ أن أنام لمدة نصف ساعة على الأقل، أو أن يتركني لكي أقرأ مذكرات إيزموند دونيلي، ولكنه كان يريد أن يتكلم، ومن الواضح أنه لم يكن يهتم بما إذا كنت أريد أن أنام أم لا.

رغم حرارة الجو، ارتدي دونيلي قميصاً نظيفاً ووضع رباطة عنق، وارتدى ستر رياضية. أما أنا فحملت سرتي على كتفي. وأصبح هو في هيئة من يتخذ طريقه إلى ناديه الخاص في لندن ليحتسي كاساً في فترة ما بعد الظهر، أما أنا فشعرت بالاحلال الإرادة، وأنا عاجز عن اتخاذ قرار ما، غارها في عرق. ولما كنت قد أصبحت واعياً لأنه يتحدث بدافع داخلي قاهر، فإنني لم أعد التفت إلى ما يقول إلا نادراً، وإن كنت مضيت في سري إلى جانبه على أرض الحقول المهجورة التي تصلبت تربتها. وتبعنا الكلب الأصفر الضخم، وكان ساقاه من الطول بحيث بدا لي كما لو كان صورة سينمائية تعرض بالحركة البطيئة. وسار

دونيلي بخطوات واسعة، مشيراً بعصاه إلى أشياء مختلفة تنير الاهتمام. "هذه الشجرة تعرف باسم شجرة الإعدام الفوري. لقد أعدمت عصابة "الكلان" ثلاثة من الزوج هنا منذ سنوات قلائل".

- "ماذا كانوا يفعلون؟"

- "كانوا يشعلون النار في مخازن القش".

كانت بعض المناطق العشبية التي سرنا فوقها جميلة، ولكنني دهشت بسبب كمية الصفائح الصغيرة الصدئة وزجاجات الكوكاكولا الفارغة التي كانت ملقاة في كل مكان. أتكأنا على سور قائم للرقب حفارات البترول، وفجأة لاحظت أن دونيلي كان يحمل مسدساً في حزام معلق بكتفه تحت سترته. سألته،

- "لماذا تحمل هذا السلاح؟"

- "بسبب الأفاعي".

ومن الواضح أنه شعر بأن ضجة الحفارات كانت تغطي على الحديث، لأنه سارع باجتماعي بعيداً. ولاحظت أنه ظل ينظر إلى ساعته من حين إلى آخر سألته،

- "أنت ذاهب إلى مكان بعينه؟"

توقف طوفان الكلام للحظة ثم قال، "كلا". وبدأ أنه كان صادقاً. بدأت أشعر بالعطش، وكان توتره ينتقل إلي بالتدريج. قلت،

- "إلى أين نحن ذاهبان؟"

- "أوه، ظننت أنه من المستحسن أن نسير مسافة ميل آخر أو نحو ذلك، ثم نعود إلى البيت".

وكانت كلمة "نسير" غير مناسبة على الإطلاق للتعبير عن سرعة مشيته حتى أنني ابتسمت. وقلت، "ينبغي أن أفكر الآن في العودة". ولكنه تجاهل ملاحظتي، وإن كان قد عاد فنظر مرة أخرى إلى ساعته. كان الكلب الأصفر الضخم ينبح ويزجر أمام دغلة كثيفة من الحشائش في إحدى الحفر الكبيرة. نظرت في الحفرة، فرأيت أفعى كبيرة سوداء تتلوى

حول نفسها وتفتح، وحينما رأته، انتصبت برأسها واقفة. وتوقعت من دونيللي أن يطلق عليها النار. ولكنه اكتفى بأن قال، "هيا بنا".

تسلقنا سوراً واطناً فتخطيناها إلى طريق ضيق قذر. كانت هناك ابنية لمزرعة على بعد عدة مئات قليلة من الiardات، ورأيت صندوقاً للريد أشار إلى أننا الآن نسير فوق أرض شخص آخر.

هجاءة قال دونيللي:

"يبدو أن هناك حريقاً".

- "أين؟"

أشار إلى حقل مجاور لمبنى المزرعة، ولكن كان كل ما استطعت أن أراه خيطاً واهناً من الدخان يتصاعد من حظيرة مفتوحة ملأى بالقش. ولكن بعد دقائق قليلة، كانت السنة اللهب تتصاعد بعنف في الهواء، والدخان الأسود يتكاثر ويتلوى مثل جني يوشك أن يتجسد خارجاً من قمقمه الصغير. هجاءة كان دونيللي يجري ومسدسه يتأرجح ليرتطم بمؤخرته، والكلب الكبير يجري إلى جواره وقد لوى رأسه نحو سيدة مثل جواد السباق الأصيل الصغير إذ يجري إلى جوار أمه. تسلقنا جداراً واطناً آخر وعبرنا حقلاً تناثرت فيه الخنازير التي تحفر الطين بأقدامها بحثاً عن غذاء. وكان هناك أيضاً رجال يجرون من اتجاه مبنى المزرعة.

أدركت سريعاً بعدم جدوى جريتنا بهذه الصورة، فقد أصبح واضحاً أنه لم يكن بوسعنا أن نفعل أي شيء، ومن المؤكد أن النار ما كان يمكن أن تتمد قبل وصولنا إليها. وهكذا خففت من سري وبداًت أسير ببطيء، عبر الحقل، وبداًت في جيبي. وبعد خمس دقائق كنت قد لحقت بدونيللي. ومن المؤكد أن الحريق كان ضخماً. كانت السنة اللهب من القوة بحيث كانت تحمل أجزاء كبيرة من أعواد القش المشتعلة التي بداًت تمطرنا بأجزائها الصغيرة المتساقطة، أو تطير مع الهواء في بقع رمادية. وكان من المستحيل أن يقترب أحد من الحظيرة المشتعلة لمسافة تقل عن خمسين ياردة، فقد كانت الحرارة هائلة. انفجر شيء ما - ربما كان برميلاً - وسقط جزء من السقف. تصاعدت دفقات الشرر كما لو كانت نوعاً من الألعاب النارية. قلت شيئاً ما لدونيللي، ولكنه تجاهلني. نظرت إلى وجهه، ثم صرخت نظري بسرعة. كان فكاه الأسفل بارزاً ومتصلباً، وكانت عيناه تحدقان في جمود كما لو

كانتا مصنوعتين من زجاج أزرق. كانت حالته أقرب ما تكون إلى من يقنع بطوفان الضجة والدخان الذي نشاهده أمامنا. وحتى عندما هب الدخان ناحيتنا، ودمعت عيناى منه، ظل هو يحدق كما لو كان منوماً. كانت قبضاته متصلبتين داخل جيبي بنطالونه. كان هناك شيء ما في بروز وجهه جعلني أتحقق من أن عاطفة مروعة تجتاحه من الداخل. وبشكل ما، كان بوسعي أن أفهم هذه العاطفة. كانت النيران جليلة وهائلة، وكانت هناك سمة موسيقية متناغمة تجمع بين أصوات التشقق والحرارة وطوفان الشرر.

شعرت بأن بعض المتفرجين الآخرين كانوا ينظرون إلينا بشيء من النفور، كما لو كنا لا نملك الحق في الوقوف في ذلك المكان، ولذلك فقد تراجعت نحو السور وجلست فوقه. وبعد نصف ساعة، حينما لم يكن قد بقي شيء من الحظيرة سوى بعض القوائم المعدنية، وصلت سيارة الإطفاء.

قال شخص ما من خلفي: "اتسمح ياخباري باسمك؟" ووجدت شريطاً ضخماً الحثة ينظر إلي بطريفة تنم على الرفض الكامل. وكان رجلان يقفان خلفه، يحملان البنادق، وبدا عليهما أنهما من عمال المزرعة. أعطيته اسمي، وقلت أنني كنت مع الكولونيل دونيللي. عندها قال أكبر الرجلين الواقفين وراء الشرطي:

- "أوه، إنك مع دونيللي، اليس كذلك؟"

دهشت للنغمة العدائية في صوته. تجهم الشرطي في وجهه، ثم قال لي:

- "اتسمح بأن تخبرني كم من الوقت ظللت هنا؟"

- "بعد بداية النيران بقليل. كنا نتمشى".

ادهشتني الأسئلة التالية، ولكنها بدت أكثر سهولة. سألتني:

- "من أنت؟" وحينما وضحت له أنني أحاضر في جامعة "باتون روج" أصبحت لهجته

أكثر تهديباً. كان عقد قيامي بالمحاضرات في جيبي، وبطاقة هوية كنت أحملها في أمريكا على الدوام. وكنت على وشك أن أسأل إن كان من الأمور الخارجة على القانون أن أتوقف لأراقب حريق، ولكن بدالني أن هذا السؤال لا جدوى منه. فحص الشرطي أوراقي، وشكرني بأدب، ثم سار بخطوات واسعة نحو دونيللي، يتبعه الرجلان. وقف الكلب الأصغر الضخم إلى

جوار دونيللي، وحينما اقترب منه الرجلان بدأ ينيح نباحاً خافتاً، كما لو كان يتهايم للقفز. أمسك دونيللي بحزام رقبة كلبه. وكانت المحاورة قصيرة، ورايته يشير نحو. ثم جاء إلي وهو يتثائب وقال، "حسناً، أعتقد أنه من الفضل لنا أن نعود".

كانت آلة الإطفاء قد راحت أخيراً تصب الماء فوق البقايا الملتهية، وتصاعدت سحبات البخار حاملة ذرات الرماد وشظايا صغيرة من الخشب المتفحم.

- "قيم كان كل هذا؟"

- "أوه، إنهم يشكون بشدة في الإغراب في هذه المنطقة".

- "ولكن ما كان بوسعهم أن يشكوا في أننا نحن الذين أشعلنا الحريق".

هز كتفيه ثم بدأ يصفر بفمه لحناً إيرلندياً. سار عائداً بنفس الخطوات الواسعة. ولكن بدا لي أنه لم يعد متوتراً. كان خلال القسم الأول من مسيرتنا يتكلم ويسير كأنسان آلي، أو مثل رجل تركز عقله بنبات على شيء آخر سوى ما يتحدث عنه. أما الآن فكان بشراً سوياً، مستريحاً. وحينما دخلنا المنزل، بالغ في سروره وبهجته، فوضع يده فوق كتفي وقال، "حسناً، أضل أننا نحن الاثنين نستحق مشروباً بارداً كبيراً".

جاء بزجاجات من الجعة الإنكليزية - من نوع "وورثينغتون". وبينما كنت أرقبه وهو يصب الجعة في الكوبين، ويترنم لنفسه بلحن ما، طرأ شيء ما، أبله، على رأسي. كان الإجهاد قد غمرني بإحساس من اللامبالاة. أضلعت هذا الدافع الداخلي الغلاب وقلت،

- "لا أعتقد أن لك علاقة بهذه المسألة، اليس كذلك؟".

للحظة سألت نفسي إن كنت قد أسرفت في البوح بما شعرت به. ولكنه قدم إلي كأس الجعة وهو يبتسم ابتسامة التلميذ البريئة السعيدة، وقال،

- "يا له من سؤال غريب. كيف كان يمكنني ذلك؟".

وهجأة، وبقين لا يمكنني أن أشرح أسبابه، عرفت أنه كان على علاقة بالحريق. ربما كان السبب هو طريقة نطقه لإجابته على سؤالي، أو فهمه الفوري للسؤال. إن رجلاً بريئاً كان جديراً بأن يتردد قليلاً، وأن يتساءل إن كان قد فهم السؤال على النحو الصحيح.

جلست في المقعد ذي المسندين، وشربت الجعة باستغراق ونهم. وحينما نظرت إليه مرة أخرى كان ذلك اليقين قد اختفى. وكان شكّي مبعثه أن الرجل كان معي طوال اليوم... سمعته يقول،

- "اشرب في صحة إيزموند دونيللي".

شربت، وبدا لي هذا النخب دون مناسبة.

ذهب إلى المطبخ وسمعت أصوات إعداد الطعام. كان قد أدار مفتاح الذباج - وهذه علامة أخرى تدل على الارتياح. هبت نسمة باردة من خلال النافذة المفتوحة. وكلما أمنت في التفكير في المسألة، كلما زاد ميلي إلى تصديق إنه كان على علم مسبق باشتعال النار في ذلك الموعد. كل شيء يتناسب تماماً مع هذا الافتراض، محاولته بإقناعي بالبقاء، الحديث الميكانيكي الخالي من الرغبة الحقيقية، السيرة الطويلة الخالية من المعنى في عصر يوم حار، للسدس الذي حملته، والكلب الضخم الذي اصطحبه معه، تزايد اتساع خطوته حينما اقتربنا من دغلة القش ونظراته المتلاحقة إلى ساعته، إن الرجل ولا شك مصاب بهوس الحرائق. ومن المحتمل أن يكون هو الذي أشعل النار بنفسه في مباني مزرعته. وربما كان هو الذي أحرق معمل تفريخ الدواجن أيضاً. وهجأة شعرت بصدمة باردة حينما قلت لنفسي إنه من المحتمل أن يكون هو الذي أشعل الحريق الذي أعدم من أجله الزنجان. ولكن كيف استطاع أن يفعل ذلك؟ أكان شريكاً له هو من أشعل النار حينما اقتربنا من المبنى. إن في هذا خطراً عظيماً، بالتأكيد. إذن أكانت وسيلته أداة للاشتعال ذات توقيت. لابد أن هذا هو الجواب.

انتهيت من كأس الجعة وبنات أشعر بالنعاس. صحت حينما جاء بالطعام - بطاطس مشوية بالطريق الفرنسية وسحق من لحم البقر، صب لنفسه مزيداً من الجعة. وأكلت على صينية وضعتها فوق ركبتني، كان من الواضح أنه شديد الجوع ولم يكن يشبه الكونت درايكولا في شيء، وهو حريض على سره المرعب وإنما بدا مثل رجل متعب أنهكته سنواته الخمسون، اعتاد أن يقسو على نفس بشدة ولم يكن يهتم بأن يتناول وجبات من الطعام الجيد. وعرفت أن من واجبي أن أدلي بشكوكي إلى شخص ما - ربما إلى رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعة لويديانا. ولكنني كنت أعرف أنني لن أفعل هذا. لقد كان مضيفي. ولم يكن لي إلا أن أمل أن يقبض عليه في وقت قريب.

كانت الساعة قد قاربت التاسعة حينما انتهيت من تناول الطعام. ثم قلت،

- "لقد كنت شديد العطف حقاً، ولكن لا بد لي بالفعل من التفكير في العودة..."

كان يجمع الصبحون فوق صينية، قال بطريقة عابرة،

- "ماذا؟ تر حل قبل أن ترى مخطوطة دونيللي؟"

كنت عاجزاً عن تصديق أنني سمعت بطريقة سليمة، سألته، "مخطوطة؟"

- "هذا هو ما جئت لأجله، اليس كذلك؟"

- "أتملك حقاً شيئاً من مخطوطاته؟"

أوما برأسه وهو يحمل الصينية ويخرج بها. وحينما عاد، أخرج مفتاحاً من جيبه،
وفتح الخزانة الخضراء في الركن، قال،

- "ليست هذه الذكريات للنشر، بالطبع."

كان هناك صندوق خشبي في القسم العلوي من الخزانة، وعلى الرف السفلي عدد من
الظارييف المنتفخة، تناول أحد تلك الظارييف وناولني إياه. كان يحتوي على ملف ضخمة من
الأوراق ربطت بخيط شمعي. كان الخط متميزاً شديد الخصوصية، ولكنه سهل القراءة إلى
الدرجة الكافية،

"فالماوث، ٦ مارس، ١٧٨٧"

الزحاجة تفرق. الرياح الغربية تهب برهق فوق المياه، والدخان يتصاعد يهدوء إلى
سقف الحجرة، والبحارة يتشاءمون بضجر على باب كل حانة من حانات الجعة. لقد غادرني
بيكفورد لكي يذهب للبحث عن سيدة قلبه فوق التل. وبقيت أنا هنا، يداعب النعاس جفوني
وأنا في هذه الحالة من السكينة الهادئة، أرقب فتاتين شابتين، جميلتي التكوين، ترتديان
برشافة أنواعاً جميلة من الثياب المحلية، وتسيران على حافة البحر، يا لتلك المخلوقات اللذيذة

المجيدة! من الذي يستطيع أن يجادل فيما أكده زوزيموس البانوبوليتاني^(١) من أن المرأة لم
تنبت من نفس الجذر الذي أثبت الرجل، وإنما خلقت للناس من كوكب آخر بعيد، ثم
سمح لها بأن تعيش في كوكبنا هذا، كوكب الذكور، كما لو كانت خاطرة من
خطرت الخيال! ليست المرأة هي لغز الخلق الجليل، الحضور الرئي للسحر في هذا العالم المتحلل
البيوطي؟^(٢)

قال جودوين أن أسقف كامباري الشهير كان أفضل وأكثر قيمة من خادمته،
ولكنني لست على استعداد لأن أبادل الجميلة الصغيرة التي شاركتني الفراش في الليلة الماضية
بعشرة من الأساقفة. كانت الغادة - التي تسمى كلارا - قد خدمتنا على العشاء ليلة الفصح،
وقال بيكفورد - الذي لا يروق للوقه نوعها - أن للفتاة مؤخرة كمؤخرة الصبي. وقلت أنها
مؤخرة مستديرة بأكثر مما يمكن لفتى، على الأقل، إذا كان لي أن أحكم بناء على النهدي
الصغير الذي كان بوسعي أن أراه حينما انحنت على المائدة لكي تصب الزبد الذائب على
قطعة اللحم أمامي. وحينما اقتربت مني همست لها بأنني على استعداد لأن اتنازل عن تاج
ملكة في مقابل قبلة منها، فضحكت واحمر وجهها. ولم أكن قد أوليتها إلا القليل من
الاهتمام حتى تحدث بيكفورد عنها. ولكن تركزت الآن أفكاري عليها، وتسلسل إلي المتعة
الشتافة الصغير إلى صدري وجعل قلبي وسادة لرأسه. في كل مرة كانت تدخل فيها إلى
الحجرة كنت أنظر إليها كما لو كنت قد وقعت في الحب منذ برهة وجيزة. ومن المؤكد
أنه لا بد قد لاح لي أن الزواج بها ليس بالثمن الباهظ في مقابل أن أتفحص مفاتها فحصاً
أكثر دقة. ورغم أنني أعتقد أنني أتمتع بقدر من صفات الأنوثة أقل مما يتمتع به بيكفورد،

(١) زوزيموس البانوبوليتاني، مؤرخ يوناني عاش تحت رعاية الإمبراطور نيمو ديسيوس الثاني وألف عدداً من
الكتب عن انهيار روما من سيطرة أوغسطس حتى عام ٢١٠م متجاهلاً الفترة من حكم بروبروس حتى عام ٢٠٢
م. لم يكن كتابه الأخير قد اكتمل حتى عام ٢٢٥م. واعتمد في كتابته على مصادر موثوق بها مثل المؤرخين
ديكسيوس وأونانيوس ولم يكن عمله يخلو من أحكامه التاريخية ولا من الحس الأسلوب، وإن لم يكن دقيقاً
في ذكر التواريخ وكثيراً ما تناول عصوراً طويلة بطريقة عابرة.

(٢) البيوطي نسبة إلى "بيوطيا" مملكة مدينة أسيرطة الإغريقية القديمة التي كانت مهنة رجالها الأساسية هي
الزراعة والحرب.

فإنني مدين لفضول بانديورا^(١) للهلك بقدر يستطيع أن يدفعني إلى تجاهل كل الاعتبارات الأخرى. وحينما اقتربت مني لكي تعيد ملء كاسي، مددت ذراعي من حولها وسمحت ليدي بأن تستقر فوق فخذه، عارفاً بأنها إذا اعترضت على هذه الخطوة، فإننا لن نتقدم إلى ما هو أبعد منها. ولكنها وقفت بهدوء، مثل جواد أحسن تدريبه. ثم دخل صاحب البيت بمزيد من خمر الليمون والسكر، وسحبت يدي. ولم تتح لي فرصة أخرى للاصطفها خلال تناول الطعام. ولكنني عندما غادرت الحجرة، دسست في يدها جنيها ذهبياً، وهمست لها: "هذا لك يا عزيزتي. وهناك خمسة أخرى تنتظرك إذا أنت جئت إلى غرفتي حينما يأوي كل من بالبيت إلى فراشه". ولم تقل شيئاً وهي تخفض عينها، ولكنها أخلت النقود. وقال لي بيكفورد فيما بعد أنه قد اكتشف أنها متزوجة من صياد، وأنني ربما أكون قد أضعت نقودي سدى. فأجبتته بأن النقود التي تعطى لفتاة جميلة لا تضيع أبداً سدى، إذا ما كانت هائلة، لأن هذه النقود لا بد أن تعتبر قرباناً يقدم إلى افروديت، التي سوف تعترف بهذه الصلاة وهذا الثناء، حينما يطيب لها، وفي أي وقت تشاء.

لم تمضي على مقولة بيكفورد بأنني أضعت نقودي سوى عدة ساعات حتى تهدمت تماماً، وثبت بالدليل على خطأ تصور بيكفورد، لأن العروس الجميلة انزلت تحت غطائي في الساعة الثالثة من الصباح. بعد أن كنت قد تخلت عن كل أمل، ولم تنكسر علي شيئاً بعد ذلك. سألتها هامساً عما كان من أمر زوجها. فقالت أنه كان قد خرج مع أسطول الصيد. كانت ترتدي ثوباً فضفاضاً من التيل الخشن، سرعان ما رفعته إلى ما فوق رقبته. قبلتها ودعوتها بالكثير من الكلمات الرقيقة، لأنني ما كنت أبدأ أطيق صبراً مع الأصدقاء الذين يسلبون فتاة فضيلتها، ثم يعاملونها بعد ذلك كما لو كانت عملية السلب قد حرمتها من كل حق في التقدير والحنان. يضاف إلى هذا، إنني عرفت أن الفتاة كانت هبة من هبات الربة التي ولدت من زبد البحر^(٢)، وأنها تستحق قسماً من الصلوات الواجبة لقاء عطيتها

(١) بانديورا - في الميثولوجيا اليونانية هي شبيهة حواء، أم البشر التي خلفها زيوس كبير الآلهة لكي يفسد حياة الإنسان (الرجل) الذي خلفه بروجينيوس بأن أرسل معها صندوقاً هدية للرجل وأمرها ألا تفتحه. ولكن فضولها (الذي زرعه فيها زيوس) دفعها إلى فتح الصندوق فانطلقت منه خفافيش الآلام والعذابات مع قرانة "الأمم" البيضاء الوحيدة.

(٢) هي "فينوس" أو "افروديت" ربة الحب والجمال والزواج في الميثولوجيا اليونانية التي خلفها أبوها زيوس من زبد البحر وخرجت من صدفة لؤلؤة في البحر قرب قبرص.

الثمينة. وهكذا فقد لاطفت أذنيها بالكلمات الناعمة وبطرف لساني، ثم سمحت لفصاحة هذا اللسان بأن تتحدث إلى نهديهما، بل وبأن تتحدث حتى مع الجدران القטיפيية للمعبد نفسه. وفي ذلك الحين، كانت تقلصات ردهيها تنطق بالرغبة، وحينذاك، نقلت لساني إلى مستقره الصحيح في فمها، وأخذتها بنعومة تسلس الرجل إلى فراشه (..) وظللت أقبل شفتيها كما لو كنت أعوض ما فات من عمر بأكمله من الإمساك والزهد، وقد صعب علي أن أصدق أن هذه الكاهنة البيضاء كاللبن كانت هي كلارا ذاتها التي صبت الدهن على قطعة اللحم للشوية أمامي ومنحتني لحة خاطفة من حلمتين لاحقاً لي وكانما تشكلتا منذ لحظة وجيزة. ورغم أن ردهيها كانا ساكنين الآن - هذان الردهان اللذان كانا مستديرين بأكثر مما ينبغي لغلام - فقد ارتعش جوادي في داخلها، كما لو كان عاجزاً عن أن يصدق أنه آمن في داخل مثل هذا المسكن اللذيذ... ومضينا في رياضتنا حتى انبلج الصبح حينما غادرتني. رقيت في مكاني ورحت أفكر في المناقشة التي دارت بيني وبين بيكفورد في العربة بالأمس؛ حول الأسلوب الإغريقي في الحب أكثر روحانية وجلالاً من ذلك النوع المعروف بين الرجال والنساء. وفي خلال طوفان إخلاصي كان بوسي أن أتمنى لبيكفورد صحة زوج كلارا - صياد السمك - على أن يحملته معه في عربته ذات الجياد الأربعة. ولكن أما كان من الممكن لثل هذا اللقاء أن يكون لقاء نافر العروق مشبعاً بالشهوة، كما لو كان أنداد الفرسان يتصادمون بحراب من اللحم؟ إن مثل هذا اللقاء قد يكون جزءاً من عالم سيد الشمس المتين العضلات^(١)، وليس جزءاً من عالم الماء السحري الأخضر الذي تحكمه أرتميس^(٢).

كنت أقرا ناسياً وجود دونيلي. وقد جعلتني ملاحظته عن أن هذا المخطوط لم يكن للنشر، جعلتني أقيد ما شعرت به من توتر في إطار ضيق. ولكنني شعرت بأنني قد مارست مثل ذلك من قبل، في لحظات حرجة أخرى من حياتي (مثلاً حينما قابلت أوستين في معرض أعمال دياجليف). كان شعوري أن يكون إحساساً بتكرار مشهد كنت قد جربته من قبل.

(١) هو هيليوس (أبوللو) رب الشمس والفنون، عائله عالم الحساسية والانسجام الكوني.

(٢) أرتميس ربة القمر، أخت هيليوس أو أبوللو واسمها الروماني ديانا وهي ربة الصيد والغابة للجللة بالضباب، عائلها هو الليل والضباب، عتراء لينة لم تتج في أي حب رغم جمالها.

كان دونيللي قد عاد إلى زجاجة الشراب. ورفضت الكأس التي عرضها علي منه، ولكنني قبلت كؤوباً من جعة البادوايزر. وحينما بلغت نهاية المشهد، وضعت المخطوطة المجلدة على المائدة. سألته:

- "أنت واثق تماماً من أنك لن تكون راغباً في نشر هذا المجلد؟"

- "أظن هذا".

قلت: "سيجعل هذا الموقف من المشروع كله مجرد هراء. إنني أهتم الآن ما عنيته من أن نسخة فليشر كانت من قبيل التزوير. ولكنني لا أتبين كيف استطيع أن أوصي فليشر بأن ينشر نسخته. سيكون هذا نوعاً من العبث".

- "أوافقك على هذا".

- أليست هناك فرصة للالتقاء في منتصف الطريق؟"

أشعل سيجاراً جديداً. قال،

- "ستغضب الأسرة للغاية إذا نشرت هذه الأوراق".

- "ولكنك قلت أنك لست على علاقة طيبة بالأسرة".

- "كلا. لست على علاقة طيبة بهم. ولكن لا أريد أن يكون هذا سبباً لإثارتهم".

لم أستطع احتمال هذا الموقف، خاصة أنه جاء من نفس الرجل الذي أحرق مخزن شخص آخر منذ وقت قصير، ولكنني تمألت نفسي واستطعت جاهداً أن أغير أسلوب معالجاتي للموقف، وسألته كيف وصلت الأوراق إلى حوزته. ولاح عليه أنه يفكر في الإجابة على السؤال اللحظة، ثم قال،

- "أجل، أعتقد أنه لا ضرر من إخبارك بهذا. حينما قام دونيللي بزيارة روسو في

نيوشاتل عام ١٧٦٥ - وكان دونيللي في نحو السابعة عشرة من عمره في ذلك الوقت - أهدى

إليه مقالاً، مكتوباً بالفرنسية، يرفض فيه فلسفة هيوم^(١) ودالامبير^(٢) وقد ورد ذكر هذا اللقاء وما دار فيه، في كتاب جون مورلي عن "حياة روسو". وأصبح دونيللي وروسو صديقين، رغم فارق السن بينهما. ولكن روسو كان يجتاز في تلك الفترة مرحلة صعبة من حياته. فقد كان كل القساوسة في نيوشاتل يملأون عظامهم بالهجوم عليه، وجرى اتهامه بأنه سحر رجلاً كان قد مات بالتسمم الكحولي. وذات صباح، اكتشف دونيللي أن شخصاً ما قد وضع صخرة ضخمة على باب منزل روسو من الخارج في وضع متوازن بحيث تسقط فوقه لحظة خروجه - ومن المؤكد أن الصخرة لو سقطت عليه لقتلته. وأزاح إيزموند الصخرة، وفي الليلة التالية نصب بنفسه الفخ القاتل خارج منزل الحداد - الذي كان عدواً بارزاً لروسو، وكان أيضاً الرجل الوحيد الذي تسمح له قوته العضلية بأن يرفع الصخرة فيضعها في مكانها الأول دون معونة من أحد. وحطمت الصخرة ذراع الحداد وعظم ترقوته. ولكن هذا الأمر لم يكن ذا جدوى بالنسبة لروسو السكين ومن كل الوجوه، فقد كان عليه أن يغادر البلدة على أي حال - وكان الناس قد وصلوا إلى مرحلة قذفه بالأحجار في الشوارع. وبعد ذلك بعامين، حينما كان روسو يعيش في لندن كضيف على ديفيد هيوم، سأل دونيللي عما كان من أمر مخطوطته، فقال روسو أنه ترك مخطوطة المقال وراءه في باريس، وأنه سيعيدها حينما يعود إلى هناك. ولكنه لم يفعل ذلك أبداً.

"وقد حلت بعد الحرب بفترة قصيرة، إن كنت مقيماً في مدينة لوزان وتعرفت ببائع كتب يدعى كلوزو كان له عمل ما في نيوشاتل. وأخبرته - بقصة مخطوطة مقال دونيللي فقال لي أنه قد يكون قادراً على مساعدتي. وبعد ستة شهور، كتب إلي خطاباً وعرض علي أن يبيعني المخطوطة - بسعر معتدل إلى حد كبير - وهذا ما ينبغي علي أن أضيفه هنا. وأظن أنه عثر عليه في منزل الرجل الذي كان روسو قد استأجر منه منزله، في

(١) ديفيد هيوم ١٧١١ - ١٧٧٦ - فيلسوف اسكتلندي ومؤرخ. مؤسس النزعة الوضعية التجريبية في الفلسفة الحديثة،

عرف عنه تفهيمه للمعرفة الإنسانية بممارسة التجربة والانطباعات ممارسة جزئية وفردية، وكان ذا تأثير بالغ الخطورة في الفكر الليبرالي الحديث.

(٢) جان لوروند دالامبير ١٧٣٢ - ١٧٨٣ - عالم رياضي وفيلسوف فرنسي. اشترك مع ديدرو في تحرير "دائرة المعارف" وكان من مؤسسي النزعة المادية العلمية الحديثة، للنهضة بالفهم التاريخي والجدلي لحركة الكون والجمع.

صندوق قديم للأشياء المهمة والتالفة وقد عثر أيضاً هناك على كراسة لمذكرات الرحلات كان دونيللي قد كتبها.

"وبعد ذلك بعدة سنوات، كتب إلي كلوزو ليسألني إن كنت ما أزال مهتماً بمخطوطات دونيللي. وكان قد عثر بالصدفة على مخطوطة أخرى في جنيف. وكنت أعرف أن إيزموند قد استأجر منزلاً في جنيف فأمضى هناك الجانب الأكبر من العشرين عاماً الأخيرة من حياته. ولكنه كان قد انتقل عائداً إلى إيرلندا قبل عام واحد من موته في عام ١٨٢٠، وأخذ معه معظم ممتلكاته الشخصية. وليست لدي أية فكرة عن كيفية تركه لهذه المخطوطة بالذات في جنيف عند رحيله عنها، رغم أنني أملك بالفعل نظرية لتفسير هذه الواقعة قد تكون على شيء من الأهمية. كان بابرون قد زار إيزموند في جنيف - وكان قد التقى به عن طريق شريدان. وبعد هذه الزيارة ببضعة أسابيع، كان بابرون يكتب لصديقه "هوب هاوز" من مدينة بيزا الإيطالية، ليقول له أنه يقرأ الآن "كثير المخطوطات التي راها عهراً وتشويقاً بقلم إيزموند العجوز". وأنا افترض أن "إيزموند" المذكور في رسالة بابرون كان هو دونيللي - وفي هذه الحالة، يكون بابرون قد استعار المخطوطة من إيزموند دونيللي ونسي أن يعيدها".

كان علي أن أعجب بالطريقة الحاذقة التي روى بها دونيللي قصته، ورغم أنه كان قد شرب معظم زواجه الثانية من الشراب، فقد كان يتحدث ويتناقش مثل كاهن محترف يتناقش في موضوع بعث الجسد والروح بعد الموت.

ولكن الشيء الغريب هو أنني كنت قد بدأت أشعر فجأة باللامبالاة الكاملة بالموضوع كله. وقد أقول أنني رفضت أن تكون لدونيللي مثل هذه السيطرة علي. وكنت بالفعل قد قررت أن أعيد إلى فليشر مبلغ الخمسة آلاف دولار وإن أنسى الموضوع كله. وهكذا لم اهتم أدنى اهتمام بما إذا كان من الممكن إقناع دونيللي بأن يغير رأيه أم لا. وحالاً قررت ذلك لم أعد اهتم، شعرت بالحرية واللامبالاة. وقررت أنه مهما حدث، فإنني سأرحل عن هذا المكان في خلال نصف ساعة فأعود إلى فندق الصغير. سألت دونيللي عن كيفية بداية اهتمامه بجده الأول. فقال أنه كان قد اكتشف مذكرات الرحلات للنشورة في بيت الأسرة في باللي كاهان. سألته كم من السنوات من عمره قضاه هناك.

- "سنوات قليلة جداً. لقد انتقلنا إلى دبلين حينما كنت في الخامسة من عمري، ورحلنا إلى اللابيو وأنا في التاسعة".

- "هل فكرت في كتابة يوميات لرحلاتك؟"

طرحت هذا السؤال من دون أدنى اهتمام حقيقي، فقد كان السؤال مجرد شغل الوقت بأي شيء، مهما يكن، وكانت النتيجة طوفاناً من البوح والكشف عن الذات لا يكاد يصدق.

قال وهو يتنفس بصعوبة،

- "لم أداوم أبداً على كتابة يومياتي، لأنه كان هناك الكثير جداً من الأشياء التي لم أحرز أبداً على تسجيلها".

- "ولكن هذا السبب لم يمنع إيزموند من كتابة يومياته".

ابتسم ابتسامة غريبة، مفتضبة، وقال،

- "كانت حياة إيزموند الجنسية من النوع الذي كان يوسع أن يكتب عنه. أما حياتي أنا الجنسية فليست كذلك".

ظننت أنه كان يشير إلى إحراق مخزن القش. أو مات بتعاطف وقلت أنني أدركت ما يعنيه وفهمته. فقال بنوع من التخابث الذاتي المجهد،

- "أشك في أنك قد فهمت ما أعنيه تماماً. حينما كنت في الثامنة من عمري، كانت لدينا مربية اعتادت أن تضربنا على مؤخرتنا وأن تعبت بأعضائنا الجنسية".

- "من تعني بصيغة الجمع هذه؟"

- "أخي إيزموند، وأنا. وكان إيزموند يكرمني عام واحد. كانت هذه الفتاة اسكتلندية من مدينة كلاسكو - واحدة من أولئك الخادومات ذوات الأحساد الضخمة والصحة الجيدة. لقد أحبها كل منا إلى حد العبادة منذ اللحظة التي رأيناها فيها. كنا نتبعها أينما ذهبت مثل كلاب الراعي. وذات يوم كنا نجري ويطارد أحداً الآخر حول مائدة وضعت فوقها مزهرية من البورسلين الثمين، ووقعت المزهرية وتحطمت. كان والدنا

بالخارج، ورجونا بريدجيت ألا تخبرهما بالأمر. فوافقت على أن تقوم بإخفاء الشظايا، ولكن بشرط أن تعاقبنا هي بنفسها، فابتهجنا كلانا، لهذه الفكرة. فأمرتنا بأن نصعد إلى حجرتنا وأن يخلع كل منا بنطلونه. وحينما عادت بالعصا كنا عاريين بالفعل. جلست على السرير وأمرت كلا منا بأن ينحني على ركبتيها، ثم ضربت كلا منا عشر ضربات رديفة.

- "هل أثارك هذا جنسياً؟"

- "ليس بصورة حقيقية، على الأقل لم تثرني العقوبة البدنية. أما ما أثارني فهو كوني عارياً أضغط بجسدي على ركبتيها".

لن أحاول أن أسجل هنا بقية قصته بكلماته نفسها، لأنه راح يرد كل التفاصيل الصغرى التي لم تكن ذات أهمية حقيقية. وكان ما قاله، أنه وأخيه اتفقا على أنهما استمتعا كثيراً بذلك العقاب، وأنهما قررا أن تبقى تعاقبهما بريدجيت لمرات عديدة، ولذا عندما انفردا معها في المنزل في المناسبة التالية، تعمد أن يكسرا شيئاً ما، ثم قاما بنفس العملية بكاملها مرة أخرى. كان هذا في عام ١٩٢٨ - عصر الملابس القصيرة. فكان يستطيع أن يضغط بعضوه التناسلي على ركبتيها أثناء ضربها له - وقال أن إحساسه بهذا الوضع كان بالغ الحد للدرجة أنه كان يغشى عليه بعدها. وفي هذه المرة، رأت بريدجيت أن عضوه كان منتصباً وهو يبتعد عنها، فملت يدها إلى أسفل ولسته... وقال دونيلي، أنه منذ تلك اللحظة، لم يكن يفكر - هو وأخوه - في أي شيء آخر إلا في كيفية إقناعها بضربهما مرة أخرى. وبعد أسبوع أو نحوه، لم يعد من الضروري أن يحطما شيئاً لكي ينالا منها ما يريدان من الضربات. فحالما كانوا ينفردون في المنزل، كان - هو وأخوه - يقترح أن يلعبوا لعبة المدرسة، فتقوم هي بدور المدرسة، ويجيبان على أسئلتها إجابات خاطئة عامدين، فتأمرهما بعد قليل بالتوجه إلى غرفتهما. وهناك يخلعان ملابسهما، ويقومون جميعاً بالاستعراض كاملاً مرة بعد أخرى..

وانتهت هذه المرحلة حينما بلغا التاسعة، فقد نقل والده إلى الملايو، حيث كان يعمل مديراً لأحد مناجم الصفيح. وحينما كانوا بعيداً عن إنكلترا سمعوا بأن بريدجيت قد تزوجت، فغمرهما اليأس، وكان كل منهما قد راهن الآخر على أنه سوف يتزوجها عندما يكبر.

بعد ذلك بعامين، كانا قد نسيا ذكرى بريدجيت أو كادا. وفي أحد الأيام، سألتهما والديهما عن رأيهما فيما إذا جاءت بريدجيت لكي ترعاهما مرة أخرى. كان زوجها قد تركها، وكانت هي تريد أن تبتعد عن اسكتلندا. ولحقت الفتاة بهما حينما كانوا يقضون إحدى إجازاتهم في لندن، ثم عادت معهم إلى الملايو. وقال دونيلي أن جسدها كان قد ازداد ضخامة وثقلاً، وأن كلا منهما قد وجدها أكثر جاذبية مما كانت من قبل. وحالما أتاحت الفرصة للانفراد بها في المنزل، سألها شقيقه إن كان ستضربهما إن أساء سلوكهما فقالت: "بالطبع" وقال دونيلي أنهما اهتزتا من البهجة لهذه الإجابة.

وطوال الأسابيع الأولى بعد عودتهم إلى الملايو، لم يحدث شيء، فقد كان لديهم خدم من الأهالي، وخشيت هي أن تبتذل نفسها أمامهم. ولكن الطقس الحار ولافتقار إلى التنفيس الجنسي سرعان ما جعلها تصرف النظر عن حرصها.

كان الرجال من الأهالي يتجولون عراة تقريباً فزعمت أن تنشئتها كانت تنشئة دينية وأنها تشعر بأن هذا الوضع يصدّم مشاعرهما. وكان الصبيان يستمتعان بإغاضلتها وأحياناً بـ "قرصها" فكانت تصفعهما. وكان بوسعهما أن يشعر أن مزيداً من قوة الضربات أنها كانت متنفساً لشيء آخر إلى جانب الضيق. وحدث أن رأتها عاريين ذات ليلة بعد الاستحمام، فصدّرت عنها ملاحظة عن تطور عضو دونيلي الجنسي. ودارت غيرة إيزموند، وفي تلك الليلة، تعارك هو وشقيقه عراكاً مريراً، انتهى بكدمات سوداء في عيني كل منهما.

وذاًت يوم، ضبطتهما مختبئين في كوخ في الحديقة بدخان السجائر، وقالت لهما أنها سوف تعاقبهما على الفور. وكان هذا هو ما ينتظرانه منذ زمن طويل. وكان من الاستحليل عملياً أن يخلعا كل ملابسهما، فانزلا بنطلونهما فقط وضغطا نفسيهما على ركبتيها. وقال أنه حينما انتهت هي من "العقوبة" إن كل منهما قد احمر وجهه وراح يتنفس بصعوبة. وكان هو واثقاً من أنها قد بلغت ذروة نشوتها (رغم أنه بالطبع لم يدرك هذا في ذلك الوقت).

وبعد ذلك بعدة أيام، صادف أن اصطليحت والدته شقيقه إيزموند إلى البلدة القريبة لتشتري له بعض الملابس. فصعد هو إلى حجرة بريدجيت ووجدها خالية، ففتح خزانة ملابسها، وعثر على الثوب الذي اعتادت أن ترتديه حينما كانت تضربهما في دبلن. وهو ثوب بني اللون صنع من مادة صلبة. خلع ملابسها كلها، وفرد الثوب على الفراش، ورقد

هواؤه، وراح يتشمم رائحته المتميزة. وهجاء سمع صفقة الباب، وعرف صوت خطوات بريدجيت في الطابق السفلي. وذهبت هي عبر للنزل إلى المطبخ. وأراد هو أن تراه راقداً فوق ثوبها، فقلب شيئاً ما وأسقطه على الأرض بصوت مرتفع. هتفت: "من هناك؟" ثم صعدت إلى الطابق العلوي. تظاهر بأنه نائم، وفتح عينيه متظاهراً بأنه جفل، أمامها وهي تحديق فيه. وكانت في حالة شديد من الضيق كونه عيث بخزانة ملابسها، ونظراً إلى ما بداخله. وقالت: "سيكون علي أن أعاقبك - قم". وحتى قبل أن ينحني فوق ركبتها كان عضوه قد انتصب، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ ذلك. التقطت فرشاة شعرها وأمرته بأن ينحني فوق ركبتها. وفي هذه المرة، لاحظ أن ركبتها كانتا متباعدتين أكثر من المعتاد، وأنه عن طريق الضغط بجذر على أعلى ثوبها، يستطيع أن يجعل الثوب يرتفع إلى فخذيها. وحاول أن يحديق إلى أعلى ساقها، ولكنها كانا يواجهان الباب، ولم يكن هناك ما يكفي من الضوء. وهجاء قالت:

"هذا المكان ليس مرتفعاً بما يكفي. تحرك حول الفراش، إلى الجانب الآخر."

ثم انتقلت إلى حافة الفراش الأخرى - للواجهة للنافذة. انحنى فوقها مرة أخرى. ودون مقدمات جذب ثوبها إلى أعلى. وفتحت هي ركبتها أكثر، ورفعت إحداها مسندة إياها على مسند للأقدام، واستطاع أن يرى كل شيء إلى قمة فخذيها. كانت ترتدي سروالاً داخلياً غير محكم له فتحات سيقان واسعتان، ومع انفراج ساقها لم يكن "حجر" السروال يغطي شيئاً. وبدأ يحرك عضوه المنتصب على ركبتها وهي تضربه. ثم غيرت وضعها، وبدأت يدها الأخرى تحتك بعضوه، ثم أطبقت يدها حوله ببطء. وهجاء بدأت تضربه بغضب، وتخبط بكل ما تملك من قوة، وفي نفس الوقت شعر بلذة حادة بين خديه جعلته يشعر كما لو كان سيخشي عليه. وكاد يسقط بين ساقها، بينما استمرت هي تضربه، وأخيراً ارتجفت وألقت بفرشاة الشعر. قالت: "أوه. لقد جعلتني أشعر بالمرض"، ثم رفقت على ظهرها فوق الفراش، وقد أغمضت عينيهما. ورفق هو الآخر على الفراش. وقال أنهما كانا مجهدين، ولم يحدث شيء آخر في ذلك اليوم. وحينما سمعا صوت الأذن، وقد عادت إلى المنزل، أسرع إلى حجرته. وقال لشقيقه هيما بعد: "سوف أتزوج بريدجيت وأجعلها تضربني كل يوم".

استمر هذا الوضع طوال سنوات ثلاث، وفي خلال هذه الفترة، خطبت بريدجيت إلى مهندس من مهندسي الناجم، وبدأت تمارس معه الجنس بصورة طبيعية. ولكنها ظلت تؤجل زواجها منه لأنها قالت أن مسز دونيللي لن تستطيع أن تسريح دون معونتها في المنزل، ولكن السبب الحقيقي هو أنها أرادت أن تظل قريبة من الشقيقين وأن تستمر في عمليات الضرب. وأخيراً، هاز المهندس، هتز زوجته، وانتقلت معه إلى أمريكا الجنوبية.

ولمدة أسبوع أو نحوه، شعر الشقيقان بالوحدة، وبأنهما مهجوران. ثم حدث ذات يوم أن قال إيزموند، "تظاهروا أنت بأنك بريدجيت". ورفق على وجهه وحق السرير، وراح أخوه يضربه بحزام جلدي. وبلغ إيزموند نشوته. وبعد ذلك، تسلم إيزموند الحزام، وتخليل دونيللي أن بريدجيت هي التي تضربه، وبلغ نشوته هو الآخر.

وحينما عادت الأسرة إلى إنكلترا، وكان دونيللي في الرابعة عشرة، أرسل هو وأخوه إلى مدرسة عامة صغيرة. وأصبح دونيللي تابعاً لأحد التلاميذ الصغار Fug (حسب الأوضاع التي كانت سائدة في المدارس الإنكليزية)، أما إيزموند، الذي كان يكبره بعام فلم يصبح تابعاً. ولم يكن دونيللي تابعاً مرضياً حتى إنه كان يستمتع بأن يضرب مرة كل أسبوع. وذات يوم، وبعد أن ضربه التلميذ الكلف بحفظ النظام، جعله هذا التلميذ يخلع بنطلونه ثم اغتصبه. ولما كانت مؤخرته ما تزال تؤله من الضرب، فإن التجربة كانت مؤلمة للمزدوجاً، واستمتع بها دونيللي استمتاعاً يفوق كل متعة شعر بها من قبل. ولكنه اكتشف أن اللواط دون الضرب المصاحب للعملية، لم يعطه أية لذة.

وليس من الضروري هنا أن أقول أنني لم أرحل بعد نصف الساعة الذي كنت قد حددته لنفسني. بل أنني قبلت مزيداً من الشراب. وظل دونيللي يتحلى ويتحدث، شارحاً بالتفصيل كل تجاربه في كل مبخى زاره في أرجاء العالم. وكان الرجل مصاباً بالكثير من العاهات النفسية والكوابح والثوابت حتى أن الأمر ليتطلب عشرين صفحة أخرى لسردها هنا بالتفصيل - كان متعلقاً بشعر النساء، وأخذية النساء الجلدية الرقيقة، وقمصان التنس، أخذية الطر ذات العنق الطويل والصنوعة من المطاط والمعاطف الواقية من المطر، والبنادق، والسيارات، والعصي، وشفرات الحلاقة. وفي حوالي منتصف الليل، أطلعني على مجموعته من البنادق، والصور الفاضحة، والسيارات والعصي. وناولني سوطاً مصنوعاً من تسعة من ذبول

القطط وسألني أن أجريه. فرفعت بالسوط في الهواء، فاعمض عينيه كما لو كان يصغي إلى موسيقى ممتعة. ثم قال بلهجة حاملة،

- "أحب أن تستخدمه؟"

- "على جسدي أنت؟" كنت قد خمنت أن هذا هو ما يسعى إليه.

- "أجل".

- "كلا. سأشعر بالبلاهة".

قبض على ذراعي وقال،

- "حتى ولا في مقابل الخطوطة؟"

- "أسمح لي بأخذها في هذه الحالة؟"

- "يمكنك أن تنسخها ثم تعيدها إلي".

- "وهو كذلك".

أصبح صوته نوعاً من "النحنحة" وهو يقول،

- "تعال إلى الداخل، هناك".

دخلنا الحجرة الأخرى، لم يكن هناك شيء سوى سرير ضخم، من طراز قديم، لشخصين، مزود بوسادة كبيرة لاحت لي غير مريحة كما لو كانت لوحاً من الخشب. وفي كل ركن من أركان الحجرة علق أحزمة جلدية تنتهي إلى قابضات يمكن أن تمسك بالأيدي.

خلع ملابسه ببطء، ودون ما علامة توحى بالحرص. لاحظت أن الستائر على النوافذ كانت ثقيلة جداً. وعرفت الآن السبب الذي جعل دونيلي يشعر بالسعادة للتخلص من عمال مزروعة. ففي مبنى خشبي من هذا النوع، كان صوت الضربات حتماً سيسمع ومن مسافة بعيدة، وخاصة في الليالي الجنوبية الساكنة، حيث يمكن أن يسمع صوت كروان صغير على بعد ميل كامل.

زقد على الفراش عارياً، ووجه إلى أسفل، ونظرت إليه نظرة مباشرة طويلة لأول مرة منذ دخولنا هذه الحجرة. كان ظهره، وورده، وفخذه تحمل أكثر قليلاً من مجرد آثار وتندب السباط. بدا جلده في هذه الأجزاء، كما لو كان طريفاً غطاء الصقيع ثم مرت عليه ست عربات جيئة وذهاباً عدة مرات. وكان من الدهش أن يستطيع أن يشعر بشيء ما تحت كل هذه النيوب القديمة، ذات الجلد الملبوغ.

كان علي أن أحكم القوابض فوق معصميه، ثم فوق كاحليه، وأن أشد الأحزمة الجلدية شداً محكماً حتى يتمدد جسده تماماً. في البداية تركت الأحزمة الجلدية دون إحكام، ولكنه صرخ بي نافذ الصبر "أكثر إحكاماً". وبعد ذلك، أدار وجهه ناحيتي، فغمض العينين تحشرج صوته وهو يقول، "الآن".

كنت أعرف أنه لا فائدة من التراجع. وكان ما تسألته عنه في داخلي هو ما إذا كان باستطاعتي أن أستمع في ضربه حتى أجعله يسألني أن أكف مكتفياً بما ناله من الضربات. وهكذا رفعت الشيء الذي أعطاني إياه فوق رأسي - وكانت له قدرة فائقة على الارتداد والتلوي - ثم هويت عليه بأقصى ما أملكه من القوة. أصدر السوط هسيساً مثل صاروخ ينطلق. ودهشت حينما رأيت العلامة الحمراء العميقة التي صنعها على ظهر الرجل. ترددت للحظة، فقال من بين أسنانه للطليقة: "استمر، استمر، لا تتوقف".

وهكذا، وقد تذكرت نصيبي من الصفقة، هويت مرة أخرى عليه بكل قوتي، ولو أنني كنت أنوي إيذاءه لكان هذا مستحيلاً بالنسبة لي. ولكن كان من الواضح أنه يحصل على أكثر ما يمكن من البهجة المريحة النشوانة من هذا الضرب. انزعجت حينما بدا الدم يتصبب من الندبات التي تركها السوط، كما بدأت قطرات الدم تصيبني في وجهي مع طرف السوط كلما رفعتني إلى أعلى. ولكنني كلما توقفت كان يصيح في آتني، "أرجوك". وعند لحظة معينة قال، "كف". وظننت أنه قد نال كفايته، ولكنه قال، "والآن، العصا". وكان علي أن أبحت عن عصا مروعة لشرطي مغطاة بالجلد، وأن أضربه بها على ردفه وساقيه. وفي البداية، حاولت أن أجعلها "تفرقع" بأن أضرب بكل ما أملك من القوة - وكانت ذراعي قد بدأت تكل - ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف. فإنها قد انحنت فقط. وبعد عشر دقائق، جلست متهاوياً على مقعد خشبي وقلت،

"لا فائدة، يجب أن أستريح".

ورقد هو في مكانه ساكناً، وتبينت أنه كان قد فقد الوعي. وحاولت أن أهره من كتفه، ولكن أجفانه لم تصدر أية حركة. وسررت عندما رأيت أنه ما زال يتنفس. فلو أنه مات، لكان من الصعب علي أن أفسر موقفني بأنني كنت أفعل ما فعلته في سبيل قضية الأدب.

علت إلى الحجرة الأخرى وصببت لنفسي قدحاً من البيرة، ثم ذهبت فأخلفت مفتاح الخزانة من جيب بنطلونه، وفتحت الخزانة. لم أجد أي شيء ذا أهمية يتعلق بدونيللي الكبير، سوى بعض المظاريف التي لا تحتوي إلا على بعض الخطابات والأوراق المختلفة، كان هناك صندوق في الجزء العلوي من الخزانة، أخفته ونظرت ما فيه. أشار صليب أحمر على أحد جوانبه إلى أنه صندوق للمواد الطبية، وعند النظرة الأولى أكلت محتوياته تلك الإشارة، لفافات كبيرة من الضمادات، وعلبة معدنية تحتوي على اشرطة لاحقة معقمة، وزجاجات من المواد المعقمة والخففة. خطرت في ذهني فكرة أنه إذا استطاع دونيللي أن يحصل على من يضره مرة واحدة كل عام فقط، لكان في حاجة إلى مخزون كبير من الضمادات والمواد المعقمة. وحينما فحصت الصندوق بمزيد من الدقة، لاحظت أن هناك بعض الأشياء التي لم يتضح لي الغرض من وجودها بشكل فوري، كان هناك عدد من الأنابيب الخضراء، وقد ألصق عند كل من أطرافها غطاء مستدير صغير تدلت منه أسلاك تعرفت عليها أنا نفسي باعتبارها فتائل تفجير، ثم كانت هناك زجاجة من مسحوق بني اللون خشنة القوام. فحصت أحد الأنابيب، وكان مصنوعاً من البلاستيك، ذا غطاء من البلاستيك عند كل من طرفيه ويمكن تحريكه. نزع الغطاءين، وحاولت أن أنظر من أحد أطرافه كالنظر في التليسكوب، ولكنه كان مسدوداً عند منتصفه من الداخل، كان الأنبوب مقسماً إلى جزئين وتحت ضوء المصباح المعلق في السقف، لاح لي أن السدادة التي تقسم الأنبوب كانت مصنوعة من العنن.

فتحت زجاجة المسحوق وشممت ما فيها. كانت لها رائحة متميزة، ولكن لم أعرف عليها. تناولت زجاجة أخرى تحتوي على سائل أصفر، وأزحت غطاءها الزجاجي. تعرفت على هذه الرائحة حين تذكرتها في أيام مدرستي، حامض مركز، إما أن يكون حامض الهيدروكلوريك أو حامض النيتريك. عثرت في المطبخ على وعاء صغير يستخدم لتقديم المقبلات - ونظرت إلى دونيللي في غرفته حين مررت على بابها - فصببت كمية ضئيلة من

المسحوق البني في الوعاء. ثم صببت بحذر كمية ضئيلة من الحامض في الجانب الآخر من الوعاء نفسه، حتى تكونت منه بحيرة صغيرة. رفعت جانب الوعاء بحذر حتى سال الحامض عبره. وحالما التقى الحامض بالمسحوق، حدث تفاعل عنيف بصوت قوي، وقفزت أنا إلى الخلف. تناثر شيء ما على وجهي في قطرات صغيرة، وحرق مكانه. اندفعت إلى المطبخ ودعكت وجهي بقطعة مبللة من القماش. وكان الدخان ما يزال يتصاعد في الجانب الآخر للحجرة ويندفع إلى الممر الموصل للمطبخ. وكان المسحوق في الوعاء ما يزال يطفئ ويصدر حفيفاً مسموعاً، وتنطلق منه شرارات ملتهبة. فتحت الباب الأمامي للمنزل، ثم مددت يدي بحذر إلى الوعاء. وحينما لمستته انشقت إلى نصفين. ولكن التفاعل كان قد انتهى وتوقف الصوت - وكنت قد استخدمت كمية ضئيلة للغاية من المسحوق. وضعت نصفي الوعاء في صحيفة قديمة، وأخفيتها إلى الخارج، كانا ما يزالان ساخنين جداً للدرجة أن أوراق الصحيفة اسودت وتجعدت. وتطلب تنقية هواء الحجرة من الدخان أكثر من عشر دقائق بعد أن تركت الباب مفتوحاً.

وهكذا حلت مشكلة حريق مخزن القش. كانت الطريق بسيطة وتثبت نوعاً من الخداع والكر كان المفروض أن يوضع للمسحوق البني في أحد قسمي الأنبوب، ثم يحمل الحامض إلى موقع الحريق في زجاجة صغيرة - وكانت هناك زجاجات صغيرة كثيرة في الصندوق. ثم يفرغ الحامض هناك بعناية في النصف الآخر من الأنبوب، على أن يصنع ثقب صغير في غطاء هذا النصف لكي يسمح للهيدروجين المتصاعد من الحامض بالخروج، وبعد ذلك يوضع الأنبوب بحرص على طرف الجزء المحتوي على المسحوق، لكي يظل الجزء المحتوي على الحامض مرتفعاً إلى أعلى، في وسط الحظيرة أو مخزن القش. ومن المفترض أن دونيللي كان يعرف بالتحديد الوقت اللازم لكي يأكل الحامض الحاجز المعدني الفاصل بين جزئي الأنبوب. وإذا خفف الحامض قليلاً لأمكن أن تستغرق عملية التآكل ما يقرب من أربع وعشرين ساعة، وربما كان قد وضع قنبلة الحامض الصغيرة في مخزن القش في الساعات المظلمة المبكرة من صباح يوم الأحد. فلا عجب إن بدا عليه السرور وهو يراقب النار. فقد كانت النيران انتصاراً للتوقيت الدقيق.

أعلت الصندوق للخزانة، إلى جانب الأوراق الأخرى، ثم أغلقتها، وأعدت المفتاح إلى جيب بنطلون دونيللي. تملكني شعور قوي بأن علي حل مشكلة دونيللي الأخلاقية مع

تهوسه بإشعال الحرائق عن طريق صنع واحدة من قنابله الحمضية. وأتركها في الخزانة وسط الأوراق. حتى يمكن تدمير مخزن سلاحه السري. ولكن مثل هذه القنبلة يمكن أن تحرق المنزل دونيللي في داخله. وربما كان في هذا نوع من العدالة الشعرية التي تحدث عنها أرسطو، ولكنها ستكون عدالة قاسية قسوة لا ضرورة لها (أم أنه قد يستمتع بها؟).

غطيت دونيللي الراقد بأغطية الفراش، ولكنني تركته مربوطاً إلى أركان السرير، هانني إذ كنت أنوي أن أنام في هذا المنزل. هانني حينئذ بان أفضل الشعور بأمان، وكانت مجموعته من البنادق والشفرات الماضية تصيبني بالتوتر. بعد ذلك أغلقت الباب ونمت على السرير الصغير. وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ذهبت إلى حجرة دونيللي، هوجيته نانماً. كان تنفسه منتظماً. حللت القوابض عن ساعديه وكاحليه، تغلب وان. وعندما كانت الساعة السادسة والنصف، كنت أسير متجهاً إلى البلدة. عثرت على مقهى على جانب الطريق مفتوحاً، فأكلت بيضاً مقلياً، ولحم خنزير، وجذور خضراوات طازجة، ثم اتصلت بسيارة الأجرة التي جاءت بي إلى هنا. وفي الساعة الثامنة كنت قد عدت إلى الفندق الصغير، وكتبت أكثر هذه الملاحظات قبل أن أعاد الحق بطائرتي بعد الظهر. وقد أرسلت بالبريد مخطوطة دونيللي إلى ديانا، حتى يمكنها أن تنسخها بالآلة الكاتبة قبل أن نظير إلى "شانون" يوم الخميس. وإذا وضعت في اعتباري كمية ما شربته من الكحول في الليلة واليوم السابقين، هانني أشعر بأنني في حالة جيدة إلى درجة ملحوظة.

-٦-

٢٢ إبريل، دالاس، تكساس.

□ وجدتني أتساءل هذا الصباح، عن السبب الذي جعلني أحصل على متعة من نوع معين من خلال ضرب دونيللي. وهل هناك مركب سادي خفي في داخلي، لمسة من شخصية "أوستيه"؟ ولكن، خطرت الإجابة على ذهني بعد محاضرتي هذا الصباح. هبشكال غريب، تقدم عاهات دونيللي دليلاً على حرية روح الإنسان. الحيوانات كلها تجفل من الألم وتنكص أمامه. أما دونيللي فقد "حصل" عامداً على الموقف المعاكس. لقد اختار الموقف الذي يقول بأنه ينبغي أن تكون للألم قيمة، وقد جعل هو من الألم قيمة - شيئاً يستمتع هو به. أنا

- ٨٢ -

أعرف أن هذا التفسير يقوم على أفكار من نوع معين، وما إلى ذلك - مثل بريدجيت والجنس والألم - ولكن هذا لا يؤدي إلى أي اختلاف. فإذا استطاع رجل أن يختار ممارسته المتعة عن طريق الضرب، فإنه يستطيع أن يختار ممارسة النشوة الصوفية لرأى شجرة أو ورقة ساقطة من شجرة. إنه ليس بالضرورة ضحية عواطفه المتقلبة أو احتياجاته الجسدية. و"هذا" هو السبب الذي جعلني غير قادر على خيانتته. إنه بشكل مشوه، يحمل سمة من سمات القديسين. إنه قديس لا هدف له ولا غاية.

في يوم الجمعة، الخامس والعشرين من إبريل طرنا عائدين إلى لندن، ولم يعد لدي الزيد من الوقت لكتابة فقرات طويلة من المذكرات، لأسباب سوف تتضح فيما بعد.

كان في نيتنا أن نعود عن طريق البحر. ولكن اللغز الأدبي، الذي جسده إيزموند دونيللي جعلني أتعجل العودة. كنت أخشى أن يصل باحث آخر إلى "بالي كاهان" قبل وصولي أنا إلى هناك. ولكنني أردت أن أمضي يوماً في مكتبة المتحف البريطاني، لكي أبحث عما يمكنني العثور عليه عن دونيللي. وقبل مغادرتنا "نيوهافن" (حيث كانت ديانا تقيم مع بعض الأصدقاء) كانت مخطوطة دونيللي قد أعيدت إلى "دينهام سبرينغز" عن طريق البريد المسجل. وكانت ديانا قد نسخت منها نسختين. وكانت رحلتي بالطائرة من كينيدي إلى لندن هي فرصتي الأولى لدراسة المخطوطة.

كانت المخطوطة قصيرة بشكل هزيل. ولم أكن قد تبينت حين أطلعني عليها الكولونيل دونيللي، أن المخطوطة كانت تحتوي على مقالة دونيللي عن "رفض نظريات الدكتور هيوم"، مع بعض الإشارات إلى "المجادلات الأولية" التي كتبها "دالامير". وكنت قد افترضت أن دونيللي قد اشترى المخطوطة وقد ضمت أجزاءها وألصقت بعضها إلى البعض، ولكن اتضح أن الأمر لم يكن على هذا النحو، كان "الرفض" يقع في نحو ثلاثين صفحة. أما مذكرات دونيللي فلم تزد على العشرين.

كان أكثر ما أثار في من جانب إيزموند دونيللي هو حداثة عقله. كانت اللغة هي لغة والبول^(١) أو كراي^(٢). أما الفكر فكان دائماً أكثر قرباً من غوته أو حتى ويليام بليك.

(١) هوراس والبول (١٧١٧-١٧٩٧) اللورد الرابع لارفورد - سياسي وكتائب إنكليزي اشتهر بروايته "قلعة أوتورانتو" عام ١٧١٤ التي تعد نموذجاً للرواية القوطية.

(٢) توماس كراي ١٧١١-١٧٨٠ شاعر إنكليزي وصديق هوراس والبول واحد رواد الحركة الرومانتيكية الإنكليزية تتميز أعماله بعشق الطبيعة والتأملات الكئيبة والخيال العرض الحزين.

وكانت النقطة المركزية في مناقشته ضد هيوم والامبير بالفئة البساطة، هو أنه حينما يشب الإنسان عن طوق السلطة الدينية، فإنه يصبح في العادة ضحية لتفاهته الخاصة. متى يمارس الإنسان الإحساس بالحرية، هكذا يسأل، ثم يجيب: حينما يشعر بالضجر... "الضجر هو أن يكون الإنسان حراً، ولكن دون أن يشعر بدافع معين يدفعه إلى الانتفاع بالحرية". وبعد ذلك يستكر صورة لمجتمع خرافي، على طريقة سويفت^(١) لكي يصور ما يقصده من فكرته. يقول أن بين قمم الجبال العالية في بلاد التتار، يقع واد يسكن فيه شعب ينتمي إلى جنس ضئيل الأجسام ولكنه قوي ويتمتع بصحة جيدة. "منذ بداية تاريخ هذا الشعب في الأزمنة السحيقة، كان من الالتزامات الدينية لهذا الشعب أن يحمل كل فرد منهم حملين ثقيلين - على شكل زحاجتين تملآن بالماء. وتعلق كل منهما على أحد جانبي وسط الإنسان. ولم يكن بمقدورهم أن يفكروا في السير إلى ما وراء بلادهم على طول الهوايت هول. كانوا يعلقون هذين الحملين في خصورهم من الميلاد إلى الموت، وكانت هناك عقوبات صارمة لكل من يخلع حمليه. ولكن أعظم متعة عند هذا الجنس كانت هي تمارين المشي. وفي إحدى الفترات أعلنت مجموعة معارضة أن القصد من وضع هذين الحملين هو جعل السر صعباً وغير مريح. وبعد ذلك، أعلن أكثر هؤلاء للمتمردين جسارة، أن الإنسان ينبغي أن يكون قادراً على الطيران مثل الطائر أو أن يطفو مثل البالون، وأن تلك الأحمال إنما فرضت عليهم بغرض منعهم من الاستمتاع بالحرية التي خلقوا من أجلها. وتشتعل الثورة، ويعدم الملك (وهذا تنبؤ جدير بالملاحظة بإعدام الملك لويس السادس عشر) ويمزق الناس أحزمة أحمالهم ويخلعونها عنهم. ولشد ما يدهشون حينما لا يحدث شيء، باستثناء أنهم يجنون السر صعباً من دون تلك الأحمال، وأن المحافظة على توازنهم تصبح مستحيلة. ولكن الأشخاص الأكثر تعقلاً ومحافظة يستمرون في حمل أفعالهم. أما الأكثر جسارة فيتدربون على السير من دونها، وسرعان ما يعلنون أن الأمر ليس سوى عادة، وأن العادة هي مرجعه الوحيد. وتستبد بهم البهجة بهذا الإنجاز الجديد حتى أنهم في البداية، يمعنون في السير ليلاً ونهاراً، ويلرعون الوادي

(١) جوناثان سويفت (١٦٦٧-١٧٤٥) شاعر ومكاتب كهكمي إنكليزي - عرف بكبريائه وحساسيته. من أشهر أعماله مجموعة "رحلات جالبغر" التي استخدمها في خلق عوالم ومجتمعات خيالية وسكاريكاتيرية يجسدها جانباً من قيم البورجوازية الصاعدة والتفطرية في عصره.

من اقصاد إلى اقصاد، بل إنهم يحاولون تسلق الجبال، وسرعان ما يكتشفون أن الجبال ليست سوى جدران جرداء من الصخور لا يمكن الوصول إلى منتهائها أو اختراقها. ثم حدث أن سقط بعض ممن تخلصوا من أفعالهم فريسة لغضب جنوني. فيندفعون متهوسين من طرف الوادي إلى طرفه الآخر حتى ينهاروا من الإجهاد. ويحاول آخرون أن يخترقوا الجدران الصخرية الملساء ليخرجوا من الوادي، فإما أن يسقطوا من مرتفع عالٍ حينما ينال منهم الإعياء والكلال، أو يقتلوا بأنفسهم بسبب الرعب أو اليأس. لكن مع مرور الوقت، يفضل العدد الأكبر ممن تخلصوا من أحمالهم أن يجلسوا في بيوتهم، وقد تملكهم الضجر تماماً، طالما أنهم عرفوا ككل شر من الوادي. وكانوا يهاجمون الآخرين الذين احتفظوا بأحمالهم، فيصفونهم بالخنازير التي تؤمن بالخرافات. ولكن بعد أجيال قليلة، يموت هؤلاء الذين تخلصوا من أحمالهم، لأن افتقارهم إلى الحركة وتدريب عضلاتهم جعلهم يسمنون إلى درجة هائلة فيموتون في سن مبكرة. وأخيراً لا يبقى على قيد الحياة سوى أولئك الذين حافظوا على أفعالهم. فيقومون بانتخاب ملك جديد عليهم، وطوال أجيال عديدة لا تعود "الثورة العظمى" سوى ذكرى مرعبة. حتى تظهر فئة من الشعب تعلن أن الإنسان قد خلق لكي يطير كالطير...

تبدو القصة متشائمة إلى حد كبير، وأنها استعارة رمزية من قصة الخطيئة الأصلية. ولكنني أميل إلى رهض هذا الرأي، لأن دونيللي يقول: "لقد كان هناك نفر من بين أولئك الذين حاولوا تسلق الجبال، لم تقع عليهم أبصار أحد بعد أبداً، ومع ذلك فإن عدداً من الرعاة الذين ترعى أغنامهم تحت ظلال الجدران الصخرية العظمى التي تحف بالوادي، أكدوا أنهم سمعوا أصواتاً تنادي وتلفظ من فوق ارتفاع شاهق فوق رؤوسهم، حيث كانت قمم لجبال تختفي وراء السحب". وبكلمات أخرى، فربما استطاع عدد قليل من أولئك المتسلقين أن يصلوا إلى الأراضي الوعرة الواقعة فوق الجبال.

إن مايقوله دونيللي - وهذا تصور جدير بالاحترام إذا كان صادراً عن جانب صبي في السابعة عشرة من عمره - ليس هو أن "الناس يحتاجون إلى أفعال"، وإنما يقول أن الناس "في الوادي" يحتاجون إلى أفعال. إنهم اصحاء، أقوياء يحيون الغامرة (أي يحيون المشي) والوسيلة الوحيدة التي يستطيعون بها أن يحافظوا على تلك المميزات في واديهما الضيق الصغير هي أن

يحملوا انتقالاً على الدوام. ولكن ثمة عدد قليل من بينهم، عدد قليل جداً، يولدون وهم يحملون روح متسلفي الجبال الجسورين.

وقد كان دونيللي متسلفاً جسوراً للجبال بالفطرة، منذ ولادته، وكان هذا واضحاً. وهو ما خدعني. لقد عاش هذا الرجل حتى بلغ الرابعة والثمانين (طبقاً لما قاله الكولونيل دونيللي)، وكان كاتباً موهوباً، ومفكراً أصيلاً، وصديقاً لروسو وويلكز. فلماذا إذن لم يترك سوى هذا الأثر الضئيل على التاريخ؟ فإذا كان "رفض فلسفة هيوم" ومذكرات الرحلات المنشورة، هي كل ما أملكه لكي أبدا عملي، فإنني قد أجد لزماً علي أن أستنتج أن أمامنا موهبة أضاعت نفسها مكرراً، مثل رامبو أو وولف، ولكن للمذكرات غير المنشورة لا ترك مجاًلاً للشك في أن موهبته ظلت دون أن يلحقها الفساد. إذن، فماذا حدث؟

ولابد لي أن أثير وأؤكد، في شكل جملة اعتراضية، أن الجزء الفلسفي من "الرفض" والذي يضم بعضاً من أكثر صفحات هذا المقال أهمية، تميز بنوع من العمق والرصانة النفسيتين سبقتا زمانهما بقرن كامل على الأقل - ولا يمكنني أن أفكر في وجود شيء مماثلها ظهر قبل ظهور ف. ه. برادلي^(١). إنه يقتطف مقالة كاملة لهيوم هي "تجريد لرسالة في الطبيعة البشرية" بنبت فيها أن فكرة العلة والنتيجة عند هيوم مرتكزة على عاداتنا، وأنها لا تمثل "علاقة ضرورية". يقول هيوم: "لنفترض أن رجلاً مثل آدم قد خلق وهو يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم، ولكن دون تجربة" أفلا يكون من المستحيل بالنسبة له أن يرى ضرورة الارتباط بين العلة والنتيجة؟ وعلى سبيل المثال، إذا كان يراقب كرتين من كرات البليارد وتصطدم إحداها بالأخرى، فإنه من المحتمل ألا يستطيع أن يخمن - اعتماداً على ذكائه وحده - أنهما سوف يصدران صوتاً كالفرقة الصغيرة عند اصطدامهما، ثم يندفعان في اتجاهين متضادين. إنه سيظن، اعتماداً على معرفته الضئيلة، إنهما قد يلتصقان أو يقفزان في الهواء، أو يقفان ببساطة جنباً إلى جنب".

وينقض دونيللي بسرعة على العبارة التي تقول "يستمتع بالقدرة الكاملة على الفهم" ويشير إلى أنها زلة قلم.. "يتضمن كلام هيوم أن إدراك آدم لكرات البلياردو سوف يكون إدراكاً بريئاً وغير متحيز، بينما - في الحقيقة - لا يمكن لإدراك كامل البراءة - مثل إدراك

(١) فرانسيس هيربرت برادلي (١٨٦١-١٩٤٢) فيلسوف إنكليزي مثالي ارتبط فكره بفكر هيجل.

طفل حديث الولادة - أن يستوعب الكرات على الإطلاق - أو بالأحرى - قد يدرك وجودها ولكن دون أن يستوعبها، مثلما قد أنظر إلى خطاب كتيب بلغة لا أعرفها. فإذا كان آدم قد سمح له بالقدرة الكاملة على الفهم، وبقدر كافٍ لكي يراقب كرات البلياردو باهتمام، إذن فلا بد أيضاً أنه قد سمح له بشيء من القدرة على معرفة العلة والنتيجة. إنه ربما لا يعرف إن كانت الكرتان سوف تقفزان منفصلتين أو تمتزجان مثل قطرتين من الماء، ولكنه يعرف أن شيئاً ما سوف يحدث، الأمر الذي يعني أنه يعرف أن نتيجة ما ينبغي أن تتبع السبب".

إن رجلاً يتمكن من إيجاد هكذا فلسفة أو تصور وبهذا الشكل المتميز، كان حرياً من جانب آخر أن يخلف وراءه صورة دقيقة عن الفترة التي عاش فيها، إذن فكيف تحول الأمر إلى أن لا يعرفه أي شخص حتى إنني لا أكون قد سمعت به مطلقاً قبل تكليفي بهذا الأمر؟ وحتى إذا كان هو نفسه لم يكتب إلا القليل - فلا بد أن يكون الآخرون قد ذكروه - بوزويل^(٢) على سبيل المثال أو حتى كراب روبينسون^(٣). إن الإضلال الكامل الساقط فوق مثل هذا الرجل لشيء لا يمكن فهمه.

كنت قد كتبت لصديق يعمل في المتحف البريطاني من دالاس، أسأله إن كان يستطيع أن يعثر لي على أي مادة ممكنة حول دونيللي. وأسرعت إلى هناك فور وصولي إلى لندن في التاسعة والنصف من صباح يوم السبت. ودعاني تيم موريسون - الذي يعمل في إدارة الكتب المطبوعة - إلى شرب فنجان من القهوة في غرفة الموظفين. وكنت قد أخبرته بكل ما دار بيني وبين فليشر - وحتى عن اقتراح أن أقوم بتزوير بعض المخطوطات باسم دونيللي، إن نظرة تيم إلى الحياة وقورة ومحاذرة - وهو يعطيني دائماً انطباعاً لرجل يحدق بحذر من فوق حافة هاوية وهو يعالج موضوعاً ما بطريقة المردة الموفقة. قال،

- "أعتقد أنك تعرف ما تفعله، أعني إنك لا تريد أن تنتهي إلى السجن بسبب الاحتيال على القراء"...

(١) جيمس بوزويل ١٧٢٠-١٧٩٥، أشهر كتاب التراجم في إنكلترا، اشتهر بكتابه عن (صاموئيل جونسون).

(٢) هنري كراب روبينسون (١٧٧٥-١٨٧٦) كاتب يوميات ومذكرات (أشبه بالتراجم) إنكليزي.

وأكدت له أن ليس ثمة خطر في ذلك، وأبرزت له المخطوطة المنسوخة على الألة الكاتبة من مقالة "رفض لفلسفة هيوم". راح يقرأها بعناية لمدة عشر دقائق، بينما رحت أنا أحتمي فهوتي واتطلع إلى عناوين صحيفة "الجارديان". وأخيراً قال:

"أكاد أجزم أن هذا يبدو أصيلاً. وليس هناك ما يزعجني سوى شيء واحد. لماذا أعطي هذا اللقال لروسو؟ إنه بآرائه تلك لابد كان يظن أن روسو أبله كامل البلاءه".

"لست واثقاً من السبب. ثمة عنصر من التفاؤل في شخصية دونيللي وفكره ربما تتجاذب مع روسو. هذا إلى جانب أن روسو ليس بسيط الفكر كما يبدو أن معظم الناس يظنون. إنه في الحقيقة لم يقترح أبداً أنه ينبغي للناس أن يعودوا إلى الطبيعة".

قال "كلا، كلا". وبدأ عليه الشرود. سألته إن كان قد عثر لي على أي كتب عن دونيللي. فطلب جبينه وهو ينظر إلي داخل قديم قهوته ثم قال:

"من الأفضل أن تأتي لكي تنظر بنفسك".

عندنا إلى مكتبه، الذي لا يصل إليه المرء إلا بعد متاهة من الممرات وعدة مجموعات من الدرجات الحلزونية. كانت غرفة المكتب مرتبة بطريق توحى بخلوها من أي خطأ أو غيب. وعلى المكتب نفسه كانت هناك ستة مجلدات برزت من خلال صفحاتها قصاصات من الورق. قال لي أن أجلس أمام المكتب، ثم جلس هو على القعد الكبير المواجه لي، وأشعل سيجارة، ثم عاد إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم".

كانت الكتب التي عثر عليها مخيبة للآمال. وكانت هناك طبعة من مذكرات الرحلات التي كنت قد رايتها بالفعل من قبل، مطبوعة في لندن عام ١٨٢١ في دار النشر الملوكة لشخص يدعى جون مورري، وهو الناشر الذي كان يصدر مجموعاً بايرون الشعرية، وكانت الطبعة مزودة بمقدمة قصيرة بقلم الناشر يصف فيها دونيللي أنه، "سيد ودارس إيرلندي" ولكنه لا يقدم أية معلومات أخرى متعلقة بحياته. ولا حتى إن كان دونيللي ما يزال على قيد الحياة عام طبع الكتاب. (وقد كان حياً بالفعل يومها، فقد كان في الثانية والسبعين عام ١٨٢٠). وكانت هناك إشارة قصيرة إليه في كتاب جيلبين، "يوميات إنكليزية في القرنين السابع عشر والثامن عشر" الصادر في عام ١٨٧٦، ثم اقتباس من مذكرات رحلاته في كتاب عن مدينة البندقية ألفه كاتب نسبت اسمه. وجاءت الإشارة الهامة

الوحيدة إلى دونيللي في خطاب كتبه بايرون لفرانسيس هودجسون في شهر يونيو عام ١٨١١ (وجاء الخطاب في أعمال بايرون الكاملة، التي أشرف عليها بروتيرو وكولريدج، المجلد التاسع من ٤٢٠)، ويقول فيها، "قال لي شيري (شيريدان) إنه لم يعرف أبداً شخصية أكثر وحشية من والذي ("جاك المجنون" بايرون) رغم أنه كان قد عرف ويلكيز ودونيللي في أيام شبابهما". ويقول بايرون في خطاب آخر إلى ويليام جيفورد (المجلد ١٣ ص ١٩٢): "لقد أدهشتني وصدمتني جداً تأكيدات إيزموند دونيللي والتي أشار فيها إلى أن خلونا وخلو عالمنا نسبياً من الغنى، حينما نوضع في مقارنة مع الكل القهار، الذي لسانا فيه مع عالمنا سوى ذرة ضئيلة، هو ما دفعه لأول مرة إلى تخيل أن طموحنا إلى الأبدية والخلود يجب أن يتضاعف عدة مرات".

وبينما كنت أسجل في مذكرتي مختلف المواد التي حصلت عليها - فقد كان لابد لي أن أجهز مقدمتي على نحو من الإنحاء - كان تيم يفحص بعض الأوراق في خزانة قريبة. وحينما انتهيت من الكتابة، وضع أمامي ورقة واحدة. كانت الورقة صورة مكررة لصحيفة من أحد المخطوطات. ولم تكن قراءة الخط مستحيلة، رغم ما كان هناك من تكرار لخط كتابة حرف "ف" بدلاً من حرف "س". وكان نص المكتوب في الورقة:

"... كان مقتنعاً بأنه قصد إلى الوفاء بالتزامه.."

وحينما ذكرت عادة أكل الكلاب في أوتاهايت، قال جولد سميث أن هذه العادة شائعة أيضاً في الصين، وأن جزائر الكلاب شائع جداً مثل أي نوع آخر من القصابين، وإن مثل هذا الشخص إذا رحل إلى خارج بلاده، تهاجمه كل الكلاب.

جونسون، "ليس هذا راجعاً إلى قتله للكلاب يا سيدي. إنني أذكر قصصاً في بلدة ليتشفيلد، كان معرضاً على الدوام لهجمات الكلب للوجود في المنزل الذي كنت أسكنه. إن رائحة الدم والقتل هي ما تثير هذه الحالة وتستفز الكلب للهجوم، مهما كان نوع الحيوانات التي قتلها.

جولد سميث، "أجل، فإن الحيوانات عموماً تيقض أي علامة تدل على الذبح أو تشير إليها وتنفر منها. فإنا إذا وضعت وعاء صغيراً مليئاً بالدماء في حظيرة للجبياد، أصاب الحيوانات ما يشبه الجنون".

جونسون، "إنني أشك في ذلك".

جولد سميث، "كلا يا سيدي إنها حقيقة يعترف بها العارزون".

وتلت هذه الفقرة عدة سطور كسشتت بحر أسود وثقيل وبعبانية بالغة ثم تستمر السطور بعدها تقول،

تريل، "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا قبل أن تضمنه كتابك عن التاريخ الطبيعي. إنك قد..."

نظرت إلى تيم وقد استبه علي الأمر، وظننت أنه قد أعطاني صحيفة أخرى غير ما أراد أن يعطيني، ولكنه وضع أمامي صحيفة أخرى مصورة، غير أنها صورة لسطور كتبت على الآلة الكاتبة وكانت تقول،

جولد سميث (مستمراً)، "لقد قبلت لي هذه الحقيقة على لسان إيزموند دونيللي، الذي قال لي أنه حاول تملك التجربة".

جونسون (وقد بدأ يسخن)، آه، يا سيدي، إنني لا أشك في أن هذا الرجل يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه".

جولد سميث، "إنه لا يفتقر إلى صفات محب المرح والعريضة".

جونسون، "بالتأكيد. إنني أعتقد أنه من جماعة العنقاء ذوي الميول العريضة الفعمة بالشر. ونفس الشيء يمكن أن يقال عن الشيطان".

جولد سميث، "ومع ذلك فإنه يعرف الجياد".

تريل، "كان الأفضل لك أن تهرن على هذا..."

قال تيم،

"كان من عادة بوزويل دائماً أن يكشط بالبحر الأسود كل الفقرات التي يريد أن بلغها حتى لا يمكن قراءتها. وهذه صفحة من كتابه "حياة جنسون". وقد سمحت لنا جامعة بيل بالحصول على صورة من غالبية مجموعة إيشام. وقد استطاعوا أن يصلوا إلى حقيقة أكثر ما كان مكتوباً في الفقرات الملقاة".

"ملهش. كيف عثرت عليها؟"

"لم أعثر عليها أنا. وإنما حدث أن ذكرت اهتمامك بدونيللي للرجل الذي كان يصنف الصور. وبالمصادفة البحتة - كان قد رأى اسم دونيللي في اليوم السابق".

"وإن فريما تكون هناك إشارات أخرى إلى دونيللي في مخطوطة بوزويل؟"

"هذا محتمل، سأتصل بك إذا وجدنا أية إشارة".

أمضيت بقية اليوم في قاعة المطالعة، ولكنني لم أعثر على شيء آخر له قيمة. وعندما عدت إلى ميدان كينسنتون (حيث كنا نقيم مع جيرمي وورثينغتون، أحد مديري شركة جون جامبسون لإنتاج الويسكي) ناقشت ما أنجزته اليوم مع ديانا ومع سو وورثينغتون. واتفقنا على أنه من الواضح أن جونسون كان يكره دونيللي، الأمر الذي لاح لنا أنه يشير إلى أنه كان يعرف شيئاً عن شهرة دونيللي كصعلوك كبير، ولكن لماذا كان من الضروري أن يثور غضبه بهذه السرعة لدى ذكر اسمه؟ لقد كان بوزويل هو الآخر صعلوكاً كبيراً، وكذلك كان ويلكيز، الذي كان جونسون قد وصل إلى نوع من الاتفاق معه. فلماذا السخط على دونيللي والهجوم عليه؟ ماذا كان يعنيه حينما قال: "إنه يمكن أن يكون قادراً على إثبات ذلك وما هو أسوأ منه؟"

وقالت سو أنه من المحتمل ألا يكون قد عني شيئاً بالتحديد على الإطلاق، فيم عدا أن جونسون كان منزعجاً من سداجة جولد سميث وسهولة انخداعه. وكنت ميالاً إلى الموافقة على ذلك. وحينئذ قالت سو،

"يجب عليك أن تسأل جيرمي عن بوزويل. إنه يعرف شخصاً اكتشف مخطوطة ما لبوزويل".

وكانت هذه أخباراً هامة. كنت قد أمضيت جانباً من اليوم في قراءة مذكرات بوزويل، وقصة اكتشافها، التي كانت قراءتها من الأمور الخالية. ولما كانت هذه القصة عل علاقة ما بما أسرده الآن، فسوف أخصها باختصار.

مات بوزويل في عام ١٧٩٥ في منتصف العقد الخامس من عمره، ربما بسبب إصابته بتليف في أنسجة الكبد. وعين ثلاثة من أصدقائه مشرفين على طبع تراثه الأدبي، الكاهن

ويليام تمبل، وسير ويليام هوريز وإدموند مالون. وكانت تعليمات بوزويل تقول أن هؤلاء الأصدقاء الثلاثة ينبغي أن يقرأوا مذكراته الخاصة وأوراقه وأن ينشروا كل ما يظنونهم هاماً ويستحق أن ينشر. وقرأ الثلاثة ما وجدوه من أوراق، ولكن من الواضح أنهم قرروا أن المادة كانت إما شديدة الإملال، وإما أنه تصدم الشاعر والأدواق إلى درجة أنها لا تستحق أن تنشر. وبعد مقالة ماكولي القائلة ضد بوزويل (١٨٤٣) هبط رصيد الأخير هبوطاً شديداً حتى لقد نسي تقريباً. وكانت السيدات الفيكتوريات من أسرته، اللواتي كن من حين إلى حين يلقين نظرة سريعة على الأوراق، يشعرن بالصدمة إزاء ما راين، حتى أنهن شعرن بما يبرر لهن ترويح إشاعة تقول بأن مذكرات بوزويل قد أحرقت ويستطيع المرء أن يدرك تأثير فقرة مثل الفقرة التالية من المذكرات، (كتبت في نوفمبر ١٧٩٢)،

"التقطت فتاة من شارع ستراند، وذهبتا في عربة وفي نيتي أن أستمع بها متدبراً (أي باستخدام مانع للحمل). ولكنها لم تكن تحمل مثل هذا اللانع، فلهوت بها قليلاً. وتعجبت هي لحجم عضوي، وقالت إنني لو كنت قد فضضت عنصرية أبة فتاة لجعلتها تنزف. أعطيتها شللاً ثم أجبرت نفسي على أن أتركها تذهب دون أن أمسها".

وفي منتصف سبعينات القرن الماضي، ذهب بيركهيل هيل، ناشر كتاب بوزويل عن جونسون إلى بيت الأسرة في بلدة أوتشينليك - لكي يطلب إلقاء نظرة على المذكرات، ولكنه لم يلق سوى الطرد تقريباً.

وفي عام ١٩٠٥، تلاشى آخر خيط من ذكرى بوزويل ومن أسرته، وانتقلت ملكية المنزل وما يحيط به إلى اللورد تالبوت من مالاهايد، بالقرب من دبلن، وكان من بين ما انتقل إلى حوزته، الفرفة للخلقة الصغيرة التي تحتوي الأوراق التي ذكرها بوزويل في وصيته. وظهر أستاذ أمريكي، يدعى تشونس تينكر، فاهتم ببوزويل وأعلن في الصحف الإبرلندية طالباً أي مادة منسية له. وتسلم الأستاذ خطاباً من مجهول يقترح عليه أن يحاول البحث في قلعة مالاهايد. فأرسل خطاباً إلى مالاهايد لم يكن له تأثير، فقرر تينكر أخيراً أن يذهب بنفسه إلى هناك. وكان سعيد الحظ في هذه المرة. وسمح له اللورد تالبوت بأن يرى جانباً صغيراً من مجموعة أوراق بوزويل. وبعد ذلك، ظهر ضابط أمريكي برتبة ليوفتانت كوثونيل، ويدعى رالف إيشام، وقد سمع عن الأوراق، ونجح في شرائها من لورد تالبوت في عام ١٩٢٧. وشرع إثنان من الباحثين، هما البروفيسور جيوفري سكوت، والبروفيسور فريدريك بوتل، شرعاً في عملية

نشر تلك المادة الهائلة الحجم - التي تزيد على مليون كلمة وعند ذلك الحين استمرت مخطوطات بوزويل في الظهور. فقد تم العثور على صندوق قديم للملابس في قلعة مالاهايد وكان يحتوي على المزيد من خطابات بوزويل، بالإضافة إلى مخطوطة كتابه "رحلة إلى جزر الهيريدز مع الدكتور جونسون". وفي عام ١٩٣٠، كان البروفيسور أبوت من جامعة أبردين يعمل في تحقيق أوراق السير ويليام هوريز. وهو أحد منفذي وصية بوزويل - فاكشف كمية كبيرة أخرى من الخطابات والمخطوطات. وكان من الواضح أن هوريز قد استعار بعضاً من الأوراق لكي يفحصها، تنفيذاً لما جاء في وصيته، ثم نسي أن يعيدها إلى أوتشينليك. وفي عام ١٩٤٠، تم العثور - مرة أخرى - على المزيد من أوراق بوزويل في حظيرة قديمة للأبقار في مزرعة مالاهايد، وكانت هذه الأوراق تتضمن كتاب "حياة جونسون"، وقد جاءت الصفحة التي رأيتها في المتحف البريطاني من تلك المخطوطة. ولم يحدث أبداً أن فسر أحد كيف وصلت بعض أوراق بوزويل إلى حظيرة للأبقار.

من الواضح أن أوراق بوزويل كانت قد بعثرت وتفرقت في أماكن متناحية. وفي الحقيقة، فإن أول ما اكتشف من أعماله ظهر في عام ١٨٥٠ على يدي الليجور ستون في بلدة بولوني، وكان قد اشترى شيئاً ما من دكان يقال، فوجد بضاعته قد لفت في ورقة كتب عليها خطاب موقع باسم "جيمس بوزويل". وكان في مقدور ستون أن يشتري كومة كاملة من الخطابات التي كتبها بوزويل إلى القس ويليام تمبل - وهو كاهن كان بوزويل قد اعترف أمامه بأقذر أعمال حياته - ثم قام ستون بنشرها بعد ذلك بعد أن نقحها وهذبها وحذف ما كان فيها من فحش. ويبدو أن تلك الخطابات كانت قد وصلت إلى بلدة بولوني على أيدي ابنة تمبل التي كان زوجها القس قد انتقل إليها في عام ١٩٢٥. وحينما ماتا، بيعت أوراقهما - أو أعطيت إلى تاجر من تجار ورق الف باعهما بدوره للبقال.

إن إقتفاء آثار التاريخ المعقد لأوراق بوزويل جعلني أدرك المصاعب التي قد أواجهها في طلب حقيقة إيرموند دونيللي. فمن الواضح أنه ما لم يكن الحظ خلقي فإن أي قدر من الصبر والإصرار والمثابرة لا يمكن أن يكون مثمراً على الإطلاق. ولكن كان من الغريب أنني كنت أملك إحساساً غريباً بالثقة، ربما كان ببساطة راجعاً لاهتمامي العميق والبالغ بدونيللي وبأدب الرحلة التي ينتمي إليها. فلو استبعدنا بليك وغوته، فإن كتاب القرن

الثامن عشر عموماً كانوا لا يرتقون إلى أن نصفهم بالكتاب، وهو واقعاً السبب الذي يقف خلف عدم دراستي لهم، فقد كانوا مخيبين للأمال بشدة.

وعلى أساس ما أخبرني به سو وورثينغتون، افترضت أن جيرمي يعرف أحد أفراد أسرة تالبوت، أو ربما كان يعرف الشخص الذي اكتشف الأوراق في حظيرة الأبقار. وحالما ظهر جيرمي على باب المسكن، سألته:

"ما اسم صديقك الذي عثر على بعض أوراق بوزويل؟"

"أوي، إنه لم يعثر عليها بالفعل في الحقيقة. وإنما عثر عليها شخص يدعى أورورك في بلدة بورتمارنوك."

"لم يعثر عليها في مالاهايد؟"

"كلا. ليس في مالاهايد، رغم أنه من المؤكد جداً أنها جاءت من مالاهايد. فعلى قدر ما أستطيع أن استنتج، كان فس متقاعد يدعى أورورك قد استعار بعضاً من أوراق روزويل في أثناء الحرب العالمية الأولى، ولكن هذه الأوراق لم ترد إلى مكانها أبداً. وقد عثر عليها ابنه بعد وفاته."

"فماذا حدث لها؟"

"حسنًا، اسمع. إنها تحت يدي شخص عجوز غريب مجنون يدعى إيزاك جينكينسون بيتس، ويعيش في دبلين. وابن أخيه هو أحد طاقم الاختبار في مصنع التخمر عندنا وقد أخبرني ذات يوم بأمر تلك الأوراق."

"هل رأيت هذه الأوراق بنفسك يوماً؟"

"كلا. إن الولد العجوز شديد الحرص عليها. ومن الواضح أن هذه الأوراق مملوكة في الحقيقة لزراعة مالاهايد - أو ربما كانت من حق تلك الجامعة الأمريكية التي اشترت الأوراق."

"ولكن ألا تعرف أي شيء عنها؟"

"ليس الشيء الكثير، فيما عدا أن بعض محتوياتها داعرة إلى درجة كبيرة."

"هذا يبدو غريباً. أعني، ماذا يمكن لقسيس أن يفعل يمثل تلك الأوراق؟"

"ربما كان رجلاً عجوزاً سيئ الخلق أو قذر التفكير."

"هل تعرف عنوان تلك الشخصية" التي تدعى جينكينسون؟"

"العنوان ليس تحت يدي الآن، ولكن علي أن اطلب دليلين بالتليفون يوم الاثنين - وسوف أسأل هيرد - وهذا هو ابن أخيه."

وتوقفت العملية عند هذا الحد في عطلة نهاية الأسبوع. وكنت أعرف أن الفرص المتاحة لي لرؤية الرجل العجوز محدودة، إذا ما كان حريصاً بالدرجة التي ذكرها جيرمي، ولكن لم يكن هناك سوى أمل واحد، وهو أن يمارس ابن أخيه عليه نوعاً من الضغط.

- ٧ -

□ لم تكن تنقضي عدة أيام حتى اتصل بي جيرمي من مكتبه، وكان قد تحدث لتوه مع ابن أخيه الرجل العجوز، وقد أكد هيرد أن جينكينسون بيتس كان بالغ الحذر والحرص في مسألة اطلاع أي مخلوق على المادة التي يملكها. ولكنه من خلال الحادثة، كان قد ذكر شيئاً لآح أن فيه شيئاً من الأمل. كان بيتس شديد الاهتمام والتعلق بجرائم القتل. ولذلك فإنه قد لا يستبعد أن يكون قد قرأ كتابي "سوسيولوجية الجريمة العنيفة". واقترح جيرمي أن أكتب إليه رسالة حول موضوع جريمة القتل في إيرلندا في القرن الثامن عشر، وأن أحاول التعرف عليه عن هذا الطريق، وأعطاني جيرمي عنوان بيته في شارع باجوت في دبلين.

ولم يكن لدي ما أفعله أكثر من هذا في لندن. فأمضيت هناك يومين آخرين، قابلت خلالهما بعض الأصدقاء. وتناولت الغداء مع أحد الناشرين، وشربت الكثير من "الكوكتيلات". ولو كنت في ظروف عادية لكنت قد استمتعت بالتغيير الكامل للجو الذي عشته أثناء جولة المحاضرات، ولكنني كنت عاجزاً عن التفكير في أي شيء باستثناء دونيللي. كتبت خطاباً إلى "ملحق التاييز الأدبي" حول اهتمامي بدونيللي، وأمضيت أمسية عقيمة في المتحف البريطاني محاولاً أن أعرف إن كان إيزاك جينكينسون بيتس قد كتب في حياته أي

كتاب حول جرائم القتل، ولو أنه قد كتب مثل هذا الكتاب، فإنه ليس موجوداً في مكتبة المتحف. وفي صباح يوم الأربعاء، اصطحبنا سو وورثينغتون في سيارتها إلى مطار لندن لكي نلحق بالطائرة المتوجهة إلى شانون. وقبل أن يغادر المنزل بلحظة واحدة، اتصل جيرمي بالتليفون وطلب أن يكلمني. قال:

- "كنت أتكلم الآن لتوي مع جيم هيرد مرة أخرى، وذكر شيئاً ربما أعانك في محاولة اقترابك من بيتس العجوز. من الواضح أن الرجل العجوز يؤمن بأن هائل "جزيرة إي" الإيرلندي كان بريئاً. فهل تعرف أي شيء عن تلك القضية؟"

- "أتذكر عنها القليل. ثمة رجل يدعى كيروان".

وكانت هذه المعلومات ثمينة للغاية. لحقنا بطانرتنا في منتصف النهار، وهبطنا في شانون بعد ساعة واحدة بالضبط. وكان توم كيني المسؤول عن ماوى السيارات الذي نحفظ فيه بسيارتنا، قد قاد السيارة القديمة إلى المطار لكي يقابلنا. وبعد ساعتين كنا قد عدنا إلى موكوللان.

ثمة إحساس هائل بالراحة في العودة إلى البيت بعد رحلة طويلة. إنني أحب إيرلندا، الطرق الضيقة، والمدن الصغيرة القديمة، وخضرة الحقول التي لا تصدق، والسحب المنخفضة والبحيرات الفاتنة. بدأت أشعر بشيء مثل الكراهية إزاء دونيللي، لأنه كان يمنعني من الاسترخاء الكامل لمدة أسبوع أو نحو.

يقع منزلنا على بعد نصف ميل خارج موكوللان. على ناصبة حارة ضيقة مبلطة بالأحجار تتحول إلى مجرى مائي في فصل الأمطار. والمنزل مسكن خوري بني في منتصف القرن الثامن عشر، وشيد من الحجر الجيري الرمادي اللون، وقد غطيت الجدران بنباتي الحزاز واللبلاب المتسلقين. كنا قد اشتريناه في عام ١٩٦٣، ودفعنا ثمنه من مستحقاتي من كتاب "اليومية الجنسية". وفي أثناء غيابنا، كان زوج ديانا السابق، روبرت كيرستين، يرعى المنزل بدلاً منا. والذي كان قد أصبح منذ عام ١٩٦٠ "مؤلفاً موسيقياً مقيماً" في عدد من الجامعات الأمريكية، وكان قد حقق نجاحاً هائلاً. وفي الخريف الماضي، قرر أنه بحاجة إلى فترة طويلة من الوحدة لكي يؤلف موسيقاه، ولذلك فقد دعوانه للإقامة معنا. وكان يسكن عندنا منذ شهر يناير، وكانت مسز هيلي، زوجة الراعي الذي يسكن إلى جوارنا،

تطهو له طعامه. وكان كيرستين قد رحل إلى دبلن قبل وصولنا بثلاثة أيام، فقد كانت اثنتان من موسيقاه تعرضان هناك وكان عليه أن يقود الأوركسترا. وكان المنزل خالياً ومفعماً بالهدوء. وكان مسز هيلي قد أشعلت النار في مدافئ حجرة الطعام وحجرة نومنا، فاضفت النار على الحجرات بريقاً مرحاً. كان منزلنا قريباً من العتمة على الدوام، لأن الأشجار العالية تحيط به من ثلاثة جوانب كما كانت جدران بعض الحجرات مغطاة بخشب الماهوجني الأسود، ولولا الأضواء الكهربائية، لكان صالِحاً لأن يكون مسرحاً لإحدى روايات لوهانو^(١).

وقفت وراء نافذة حجرة نومنا - وكانت موبسي تتفاهز على السرير، فتجعل لوالبه ثنر - ورحت أنظر إلى غابة "لوف كوريب". كان هناك غيم واطى قليل بدا أثقل قليلاً من الضباب، ولاحت الأشجار، براعمها البازغة، داسكة مبلولة. إن الجزء الذي نعيش فيه من إيرلندا، يتمتع بخاصية "تنويمية"، حتى أن زوار منزلنا يجدون أنفسهم قادرين على النوم لمدة اثنتي عشرة ساعة يومياً على الأقل، ثم يظلون يتشاءمون حتى الساعة الرابعة عصراً. بينما كنت أقف وراء النافذة، وضوء النار يراقص على الجدران، شعرت باسترخاء هائل، يتناسب أو يفوق وحجم الإجهاد الذي تملكني في جولة المحاضرات التي قمت بها أخيراً، حتى بدت لي مشاعري كما لو كانت تغرق في فراش عميق من الري، وطفى علي إحساس عظيم من السكينة والشعور بالعزلة. وخطر لي فجأة أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيلي قد أطل على هذا المشهد، منذ ما يقرب من القرنين، فرأى الكثير مما أراه أنا الآن. ثم ذكرت ما أكدته لي فليشر من أن دونيللي قد أغوى ابنتي القسيس المحلي غير الشرعيتين، وهو الأب ريوردان، فشعرت بأنني اضطرب وأعجز عن التفكير. لو أنها كانت ابنة واحدة - فتاة واحدة - لكان الأمر مفهوماً، إنها فتاة ريفية بريئة جميلة، ربما يكون قد قام على تربيتها مزارع من الجيران أو راع للأغنام أو ربما يكون هذا الراعي من أسلاف سين هيلي)، ومن المحتمل أن تكون هذه الفتاة قد رأت دونيللي واقفاً في دكان البقال في القرية يطلب زجاجة من الويسكي أو الجبن فسحراها وخلق لبها السيد المهذب الذي يرتدي ثياباً أنيقة. وربما يكون دونيللي قد نظر إلى الخدين المتوردين المتفجرين بالصحة، وفكر في المتعة التي يمكن أن يحصل عليها لو أنه رفع طرف الثوب الطويل المصنوع من التيل وجرى بيده على

(١) جوزيف شيريدان لوهانو ١٨١٤-١٨٧٢، كاتب رواي إيرلندي، اشتهر بروايته "العم سايلاس" عام ١٨٦٤.

الجسد الجميل كما لو كانت الفتاة جواداً احسن تدريبه. لو كانت الحكاية قد جرت على هذا النحو لكانت قد أصبحت طبيعية ومبهجة، ولكن إغواء فتاتين إنما يدل على نوع من النزعة الحسية، وخضوع مطلق للرغبة في التملك والانتصار.

هجة قالت موبسي، "باب. أيمكنني أن أستحم الآن؟" فقطعت سلسلة تفكري. خلعت لها ملابسها، ووضعتها في حوض الاستحمام. ثم هيبت إلى الطابق الأسفل لكي افتح زجاج نبيذ بورجوندي التي جئت بها من كاليفورنيا والتي كنت قد وضعتها إلى جوار النار. كنت قد احتفظت بها طوال مدة طريق العودة حتى أتمكن من الاستمتاع بشربها في حجرة الجلوس الخاصة بي. وضعت اسطوانة موسيقية على الحاكي - كونسرتو الكمان والأوركسترا - للدليوس - ثم تركت نفسي لكي أغرق في حالة من الكابة الناعمة الغامضة. كان النبيذ دافئاً دهنياً خفيفاً للغاية. ويقول أكثر الخبراء في شؤون النبيذ أنه لا ينبغي للمرء أن يعرض النبيذ مباشرة لمصدر الحرارة، ولكنني أجد أن تعريض النبيذ العادي للنار المباشرة لمدة عشر دقائق لا تؤدي إلى أي ضرر - سببت لنفسي كاساً كبيراً، وجرعت نصفها مرة واحدة - وهذه هي طريقتي في شرب أول كاس من النبيذ في المساء. فهو - بهذه الطريقة - يلطف الظلما، ويمنح حاستي التذوق والشم أفضل ما في نكهته ورائحته، وينتج على الفور ومضة من الدفء. كانت حقائبنا لا تزال متناثرة إلى جوار الباب، دون أن تفتح، ولكنني أردت أن أستمتع بميزة العودة إلى بيتي. تتمتع حجرة جلوسنا برائحة متميزة ليست سيئة - تماثل إلى حد ما رائحة الكتب القديمة. وكانت ديانا هي من اشترت معظم أثاثنا في المزادات العلنية المحلية - وهي تحب حضور عمليات البيع بالجملة وبالمزاد - وليس في هذا الأثاث قطعة واحدة يمكن أن توصف بالحدانة. وإذا نظرت حولي، خطر لي أنه من المحتمل أن يكون إيزموند دونيلي قد جلس في حجرة تماثل هذه تماماً، وأنه رغم كل ما أعرفه، ربما يكون قد جلس في هذه الحجرة نفسها. مدت يدي ففتحت إحدى حقائب السوق التي كانت ديانا تحملها في الطائرة، وعثرت على المخطوطة المكتوبة على الآلة الكاتبة لمقال دونيلي "رفض لفلسفة هيوم" وفتحتها كيفما اتفق. قرأت..

".. إنني لا انتقد منطق مستر هيوم، وهو منطق مفحم من مختلف جوانبه، وإنما أزعج أن مزاجه من نوع يمكن أن يخفي عن صاحبه صوراً معينة من الأحاسيس. يستطيع منطقته أن يزيل من الوجود مطامح السيميائيين وأمالهم، ولكن، ما الذي يعرفه عن رؤاهم؟..."

توقفت عن القراءة لكي أفكر في تلك الجملة. كان من الواضح أنها تستحق "هامشاً" نقدياً، يشير إلى التشابه بينها وبين فكرة بليك،^(١)

كيف لك أن تعرف أن كل طائر يقطع طريق الهواء والريح

إنما هو عالم هائل من البهجة، مغلق أمام حواسك الخمس؟

عند ذلك بدأت أتساءل مرة أخرى متعجباً، كيف أمكن لمثل هذا الرجل أن يكون صورة ممسوخة من (كازانوفا) يتباهى بفزواته النسائية، ويطارد النساء، وأن يكون كما وصفه جونسون (واحد من جماعة العنقاء ذوي الليول العربية للفعملة بالشر)، وأن يكون من جانب آخر يمثل هذا الفكر والفلسفة التي تشير إليها مقالة (رفض لفلسفة هيوم).

انتهت الاسطوانة الموسيقية، وذهبت لقلبها على وجهها الآخر، وللحظة نظرت إلى الخارج من النافذة التي تطل على الغرب. كانت السحب المنخفضة معلقة فوق تلال "إياركونت"، ولكن السماء وراء التلال كانت مشرقة. وعلى الجانب الآخر من التلال، انتصب صف من أشجار الحور مرتفعاً على صفحة السماء. للحظة عدت إلى غرفة النوم في لونغ آيلاند، اتذوق النكهة الدخانية اللطيفة التي عرفتها في حلمتي بيقرلي الصغيرتين وما شعرت به بعد ذلك من انفجار الدفء بين الأفخاذ، بينما كنت أنظر من فوق كتفها إلى الأشجار الباسقة فوق قمة التل الصخري. أزحت جانباً كتابتي الغامضة، وتمسكت بعطر الصلابة الذي كان يقوم ويهوم فوق أشجار الحور، وعرفت مرة ثانية في تبصر داخلي مفاجئ شامل أن الكائنات البشرية لا ينبغي لها "أبدأ" أن تقبل مقومات أو مكونات الوعي المباشر الناشء عن اللحظة القائمة، وأن الأفاق الأعظم والأرهب تقع دائماً هيما وراء حدود الأحكام والتقدير الفورية المباشرة. للحظة كنت أنا إيزموند دونيلي، أتساءل عما عرفه هيوم عن رؤى السيميائيين. اختفت التناقضات، وهجة فهمت دونيلي. فبالنسبة له، لم يكن السيميائي هو من يحاول تغيير طبيعة المعادن، وإنما هو من يحاول تغيير طبيعة الوعي، وكان الجنس هو حجر الفلاسفة الذي كان يوسعه أن يغير المعادن الوضيعة للوعي العادي فيحولها إلى رؤيا.

(١) ويليام بليك ١٧٥٧-١٨٢٧ شاعر ورسام صوفي إنكليزي. درس الرسم وفن الحفر. تميز بأسلوبه الرمزي الذي عزله عن معاصريه، إلا أنه بات من أهم بناء النزعة التأملية في الفلسفة والفن الغربيين في العصر الحديث.

صرخت موبيسي: "بابا، أريد أن أخرج." ناديت ديانا فأخرجتها من مطبخها وأرسلتها إلى الصابق الأعلى. كنت أريد أن أثبت هذا الإدراك المتبصر الداخلي وأن أكتشف فضائته. لأنه كانت هناك - لا تزال - مشكلة واضحة. لا يستطيع أحد أن ينكر أن الجنس يملك هذه القدرة على رفع الوعي إلى درجة أعلى من الحدة. فمند لورنس، أصبح هذا شيئاً شائعاً ومعروفاً من ضمن الأشياء الشائعة في القرن العشرين. ولكن لورنس عرف أيضاً سرّاً آخر من أسرار الدافع الجنسي، "إن ما تعجز نساء كثيرات عن إعطائه. تستطيع امرأة واحدة أن تعطيه". ومنذ أن بدأت حياتي مع ديانا، اضمحل اهتمامي بإغواء النساء، حتى أصبح مجرد نوع من الفضول وحب الاستطلاع. بوسعي أن أنظر إلى فتاة جميلة فأتساءل بيني وبين نفسي عن نوع حمالة الصدر والسراويل الداخلية التي ترتديها، أو عما إذا كانت ترقد في سلبية على الفراش أم تتحرك بعنف. ولكن هذا الفضول لم يكن من القوة بحيث يمكن أن يؤدي إلى المتابعة العملية. بل إنني في الأعوام الأخيرة، كنت أدهش دائماً إذ أكتشف ميلاً متزايداً إلى رفض تلك الأشكال غير الضارة من الإشباع المتبادل التي تقدمها إليك علاقة ما ولكن "دون شد أية أوتار". وقد حدث في إحدى الحفلات أن قالت لي فتاة ما بصراحة، "لماذا لا نرقد معا في فراش بعد ذلك؟ هذا أفضل من ممارسة العادة السرية في فراشين منفصلين" ولكنني في الصباح، أدركت أن عدم وجود أية أوار لم يكن صحيحاً صحة مطلقة. لقد تداخل جسدان، وبالتالي فقد تداخل عالما أيضاً. إن عالما لم يرق لي بشكل خاص، فقد كان عالماً شديد الغموض والعقم. ومثل كوكبين تقارباً أكثر من اللازم، كان كل منا قد تسبب في نوع من الاضطرابات الأرضية عند الآخر. وأنا لم أعد قادراً على أن أتذكر، كيف كانت تبدو في الفراش، ولكنني أستطيع أن أتذكر بوضوح حكايات معينة سردها علي، حول فشلها في زواجها، وهي الحكايات التي ما زالت تزعجني. ولقد كان من الأفضل لي لو أنني تركتها تدور في فلكها الخاص.

وهذا هو ما يجعلني أشك في صديق كازانوفا. إنه لم يكن غيباً ولا محروماً من الإحساس - وهذا واضح إلى حد كبير. ولكن ليس هناك سوى القليل من الأدلة في "المذكرات" التي توحي بأن تلك الاضطرابات المتبادلة قد حدثت. إن فتاة ما، شابة و"مقبولة"، ترفض الحريات التي يحاول أن يمارسها معها، حتى تستطيع مجاملاته وملاطفاته أن "تبدل غضبها إلى انفعال أكثر رقة". وبعد أن تجعله بعدها بالاً بهجرها بعد ذلك، تسمح له بأن يحل أربطة مشدها الداخلي. وحتى إذا كانت الفتاة عذراء في السابعة عشرة من

عمرها خرجت لتوها من مدرسة الدير، لا نلمح هناك أي إيحاء بالصعوبات المعتادة، الجسدية والنفسية، لا نجد سوى تلميحات غامضة عن تمضية "عدة ساعات للذة" أو "تسلم أنفسنا لنشوة من المتعة تدوم حتى انبلاج الصباح". هناك جو أشبه بجو الحلم يخلق حول جو هذه "المذكرات" بأكملها.



□ لم يكن دونيللي صورة من "السنيور جاك كازانوفا دي سينكالت"، وكان هذا واضحاً. وكان الاحتياج إلى اكتشاف المزيد عنه قد أصبح شبيهاً بالتوتر الجسدي. ذهبت إلى حجرة الطعام، حيث احتفظ بكتبي التي تبحث في القانون وعلم الإجرام، وبحثت حتى عثرت على القصة الكاملة لقضية "قاتل جزيرة آلي" الإيرلندي. وكانت قضية عادية بقدر كبير. كان ويليام بورك كيروان فتاناً عاش في بلدة "هوت" مع زوجته في عام ١٨٥٢. وفي عصر يوم من أيام سبتمبر، استأجرا ملاحاً بقاربه، لكي يجذف بهما إلى جزيرة "آلي" الإيرلندية، وهي الجزيرة الجذابة الصغيرة التي تقع على بعد ميل من ميناء "هوت"، وهي على مرمى البصر من مالاهايد. كان يوماً هادئ الجو، وفي الساعة السابع من المساء، سمعت صرخات صادرة من الجزيرة. وفي الساعة الثامنة، وصل الملاح بقاربه مرة أخرى إلى الجزيرة، فوجد كيروان ما زال مشغولاً برسومه. وهذه واقعة تثير الشكوك، طمناً أن الظلام كان قد هبط بالفعل. وقال كيروان أنه ليس واثقاً من المكان الذي ذهبت إليه زوجته - وافترض أنها كانت في مكان ما على الجانب الآخر من الجزيرة، لا تزال تسبح. وبعد بحث عثروا عليها في بركة صخرية صغيرة ضحلة، وقد امتلأ وجهها بكدمات كثيرة، وامتلات رنتاها بالماء. وزغم وضوح البيئة على أن موته كان نتيجة لحادث عارض. فإن الظروف كانت مثيرة للشكوك للدرجة التي دفعت إلى تشريح جسدنا. وأدين كيروان بتهمة قتل زوجته على أساس الأدلة المستمدة من الظروف نفسها، وكان قد زعم بأنه لم يسمع الصرخات التي كان من الممكن أن تسمع من الشاطئ، وكانت له عشيقة وضعت له طفلاً في دبلن. وقد اعتقد كثير من الناس أنه بريء، ثم استبدل حكم الإعدام الصادر ضده بحكم بالسجن مع الشغل الشاقة. وخرج بعد هذا من السجن لكي يتزوج عشيقته، ثم هاجر إلى أمريكا.

ذهبت إلى غرفة مكتبي، وأشعلت اللقطة الكهربائية، وكتبت على الآلة الكاتبة خطاباً إلى إيرازك جينكينسون بيتس، لأقول له أنني أنوي أن أكتب عن قضية قاتل جزيرة "أي" الإيرلندية في كتيب عن الجريمة، وتساءلت إن كان في مقدوره أن يشرح لي سبب اعتقاده في براءة كيروان. ثم خرجت فهبطت القل وارسلت الخطاب بالبريد. وبعد ذلك، شعرت بما يكفي من الاسترخاء لكي أقرأ لوبسي قصة عن الأرنبة بيتر.

- ٩ -

■ استيقظت مبكراً في صباح اليوم التالي، وتمشيت طويلاً حول بحيرة "روس" وحينما عدت أخبرتني ديانا، (اتصلت بك ميس دونيللي من جروم وتريدك أن تتصل بها لاحقاً).

"هل كانت لهجتها ودية؟"

"بشكل ما، تقول إنها كتبت لك خطاباً".

كان هناك صندوقان كبيران من الورق المقوى، مليئين بالرسائل التي وصلت في أثناء غيابنا، ولم تكن لدي حتى تلك اللحظة أية طاقة لفحصها جميعاً، وبينما راحت ديانا تعد لي إهطار، من البيض والباكون، أفرغت أنا الصندوقين على أرضية غرفة المكتبة. قلت لوبسي أن تخرج بنفسها كل الرسائل التي وصلت إلى ناشرتي أولاً ثم أعاد توجيهها إليّ - فإن مثل تلك الرسائل يمكن أن تنتظر. فتحت صندوقين صغيرين من التسجيلات الموسيقية، وعدة كتب من ناشرين يأملون لو أنني اقتطعت منها فيستخدمون ذلك في إعلاناتهم (ولأسف، فإنهم نادراً ما يرسلون إلي الكتب التي أتمنى أن أحصل عليها مجاناً، لا يرسلون سوى الكتب التي تتعرض لها المقالات الصحفية بشكل سيئ) وأخيراً عثرت على الخطاب الذي يحمل خاتم بريد "لايم ريك"، وقد كتب عليه العنوان بخط دقيق واضح.

ولابد لي أن اعترف بأنني لم أكن صريحاً معها صراحة كاملة في الخطاب الذي أرسلته إليها في نيوهاغن. فإنني لم أر هاندة من أن تصفق الأبواب في وجهي منذ البداية. ولهذا

فقد أخبرتها ببساطة بأنني سمعت عن ايزموند دونيللي في أثناء جولة محاضراتي - وتركت لها أن تستنتج أن شخصاً ما من بين المستمعين إلى إحدى المحاضرات قد ذكر الاسم أمامي - وإنني أردت أن أكتب عنه مقالاً أو فصلاً في كتاب سانشره في المستقبل. ثم خاطرت بذكر أنني قد تبادلنا حديثاً مع الكولونيل دونيللي وإنني رأيت عنده نسخة من مذكرات رحلات دونيللي الكبير.

جعلني ردها أشعر بالخجل من نفسي، فإنها - بشكل وقور وإن لم يكن ودياً - تقول إنها كانت سعيدة عندما سمعت بأن حدها الأكبر لم يكن قد نسي بعد نسياناً كاملاً، وإنها قد أمضت عدة سنوات في محاولة إقناع أحد الناشرين لكي ينشر طبعة جديدة من المذكرات. وقالت أنها وشقيقتها ستغبطان لرؤيتي في أي وقت أذهب فيه إليهما. وفي نفس الوقت فإنهما ستكتبان للمحامي الذي يحتفظ بأوراق دونيللي في خزانة خاصة لكي يأتي بتلك الأوراق إلى المنزل...

ومرة أخرى شعرت بوخزات الضمير، واحتاجني إحساس بالليل إلى تجاهل الأمر كله. ولكنني تدبرعت بنظرة إلى الخطوط الذي كنت قد نزعته عنه غلافه بالفعل، وقررت أنه سيكون من السخف أن أتخلى عن مغامرة كانت بدايتها منيرة إلى هذا الحد. اتصلت بمركز التحويل الهاتفي وطلبت منهم أن يوصلوني برقم الأنسة دونيللي، أجابني صوت قاطع جاف وإن كان إنكليزياً بقوله،

"٣٥، مستر سورم. كان عطفاً منك أن تتصل بي. لقد أخبرتني زوجتك بأنك لم تعد من أمريكا إلا بالأمس، وفي وقت متأخر لابد أنك مجهد تماماً".

قلت إنني أشعر بأنني بخير، وسألتها متى تتوقعان وصول الأوراق من مكتب المحامي.

"أوه، إنها هنا الآن. لقد كان سريعاً جداً. وكنا نقرأها الآن. إنها مادة أخاذة ببساطة. كيف تتوقع أن تسافر إلى هنا؟ بالقطار؟".

وحينما قلت أنني سأسافر بالسيارة سألتني لماذا لا أقود سيارتي الآن فوراً لكي أتناول معهما طعام الغداء. نظرت إلى ساعتني وقلت لها إنني إن فعلت هذا فلن أصل قبل العصر. وقبل أن أنهي المكالمة قالت،

"أمل ألا تستاء إذا سألتك سؤالاً واحداً" وغاص قلبي في صدري بينما قالت: أمل ألا تكون مهتماً بأية قصة من الأقاصيص الرديئة التي تحكى عنه؟"

"أقاصيص رديئة؟" هكذا تساءلت وأنا أشعر بنفسي واقعاً في شبكة عنكبوتية من اللدورات وإنصاف الحقائق، ولكنها قالت:

"لقد رأت شقيقتي واحداً من كتبك في المكتبة، إنه كتاب عن جريمة القتل، فأمل ألا تكون مهتماً بالشائعات البلهاء عن دونيللي واللادي ماري جليبي؟"

وكننت قادراً على أن أقول، مع إحساس هائل من الارتياح، بأنني لم أسمع أبداً شيئاً من تلك الشائعات. قالت في صوت يشبه صوت رجال الأعمال:

"حسناً، إنني سعيدة بأن أسمع هذا."

سمعت فرقة صغيرة، ثم سمعتها تصيح: "تينا، هل تتسمعين على الخط الآخر؟"

"أجل، يا عزيزتي."

"لا أريدك أن تفعل ذلك، فهذه عادة تبعث على الضيق."

وهذا أقفل الخط، نظرت في السماع لعدة لحظات متسائلاً، ثم وضعته في مكانها.

- ١٠ -

□ قبل أن أغادر المنزل، اتصلت بصديق قديم من جامعة غالواي، وهو البروفيسور كليفين روش. وقال لي مساعده أنه في بيته، فاتصلت به هناك.

"هل تعرف شيئاً عن إيزموند دونيللي؟"

"الشخص الذي كتب كتاباً عن اقتضاض العذاري؟"

"أعتقد حقاً أنه كتبه؟"

- ١٠٤ -

"لا أرى سبباً يمنع من الاعتقاد في ذلك. الصفحة الأولى من نسختي تحمل اسمه."

"هي لديك هنا؟ أيمكنني أن آتي لكي أراها؟"

"بالنأسكيد، متى تحب أن تأتي؟"

قلت: "الآن". وفي خلال خمس وأربعين دقيقة كنت في غرفة مكتب كليفين المطل على خليج غالواي، والتي يمكن أن أرى منها مشهداً جميلاً لغابتي اينيشمان واينيشمور.

كنت قد قررت أن أمضي في سياستي القائمة على الصراحة، لأن الأخبار تنتقل بسرعة في أيرلندا. وهكذا، بعد أن تبادلنا التحيات، وقيلت كأساً صغيراً من نبيذ "باشميل"، ناولت كليفين مخطوطة "رفض فلسفة هيوم" وقلت له أنه قد طلب مني أن أعدها للنشر وأن أكتب لها مقدمة. قال:

"إنها قصيرة، أليس كذلك؟"

"أمل أن أعثر على أشياء أخرى، خطابات ومذكرات. إنني ذاهب الآن لكي أزور الأنستين دونيللي في بالي كاهان."

ناولني الكتاب ذا الغلاف الورقي الذي كان موضوعاً على مكتبه، كان صادراً عن دار "أوبليسك" للنشر في باريس، بعنوان: "عن اقتضاض العذاري. تأليف: إيزموند دونيللي". وكانت هناك ملاحظة تمهيدية صغيرة موقعة باسم "هنري ف. ميللر" تكرر الحقائق التي عرفتُها بالفعل عن دونيللي - تاريخ مولده ومكانه، وإشارة إلى مذكرات رحلاته، ثم يقرر حقيقة أن هذا الكتاب كان قد نشر بالألمانية وصدر عن دار نشر "بروكهوس" في لايبزيغ (وهي نفس الدار التي نشرت مذكرات كازانوفا) في عام ١٨٢٥، ثم قام ناشر هولندي مجهول بنشر نفس الكتاب - في ترجمة عن الألمانية - بالإنكليزية في عام ١٨٦٢. فتحت الكتاب على فصل عنوانه: "حول خرافة أن كل النساء متشابهات في الظلام".

روبين، أتوسل إليك يا سيدي، أكمل تعاليمك، لأنني متعلق بكلماتك تعلقي بمعرفة مصري.

- ١٠٥ -

لورد كوبالد، إنك تثير غروري، يا ولدي العزيز. ولكنني أجد جزائي الحق في اتفاق معي على أهمية الحصول على هذه المعرفة الرقيقة. علينا الآن أن ننظر في أمر الخرافة، التي روح لها كلود دي كريبون ومستر كليلاند، والتي عبر الناس عنها بالكلمات التي تقول: "كل القطط في الظلام، رمادية اللون". يمكنك أن تصدقني في هذا الأمر، حينما التفت إلى الوراثة نحو حياة بأسرها في معرفة النساء، لم أتمكن من أن أتذكر أن امرأتين منهما كانتا متشابهتين حينما تنفرج السيقان، إنني لا أتحدث الآن فقط عن مناطق البهجة المنخفضة التي قد تكون ممثلة أو بارزة العظام، لحيفة أو نحيفة، غائرة أو نافرة، ولكنني أتحدث عما ينبغي لي أن أعوده بالروح التي تقيم في هذا المكان. وليس هناك رجل طيب الدهن يمكن أن يخلط بين نبيذ بروكواندي الداكن ونبيذ بورديو الأصعب، ويستطيع حتى الطفل أن يذكر الفرق بين التفاحة والكمثرى، رغم أن ثمرة قد تكون ناعمة كثيرة العصارة، وقد تكون أخرى صلبة جافة. هكذا الأمر مع النساء. تماماً مثلما تحكم على مذاق النبيذ من خلال الجرعة الأولى، فإن النكهة المتميزة لفتاة ما يمكن أن تدرك بوضوح في حركة اللامسة الأولى حينما تستقبل الشفتان الورديتان الطوليتان الرأس القطيقي بينهما. لقد عرفت خدامات كن حاديات وطاقزجات، مثل تفاحة تأكلها تحت ضوء القمر، وأخريات كن رطيبات ناعمات مثل كمثرأة أو ثمرة خوخ. وأخريات ملمسهن صلب تستدير أجسادهن لحظة العناق، ولكن داخلهن كان حلو المذاق، مثل ثمرة شمام ناضجة...

وضعت الكتاب جانبا، ونظرت عبر المكتب إلى كفيين، الذي كان ما يزال مستغرقا في قراءة مقالة "رهض لفلسفة هيوم". لو أنه قد رفع بصره إليه، لكنت جديراً بأن أقول، هذا شيء مزيف آخر. ربما يكون دونيللي هو كاتب الصفحة الأولى، لأنها تتميز بذلك الافتحام السيكولوجي الذي أصبحت أعرفه وأتوقعه عنده. ولكن الفقرة، المكتوبة عن الشقيقتين تحمل لمسة من تأثير كتاب دي صاد "فلسفة في حجرة النوم"، أما الجملة الأخيرة فتحمل أثراً قوياً عن القسوة التي لا يبررها حتى ما تتميز به من تبصر سيكولوجي واضح.

إلا أن كفيين رفع بصره عن المخطوطة بعد قليل، وكنت قد غيرت رأيي وقررت ألا أتكلم. فلو أنني وضحت الأسباب التي تدفعني إلى الظن بأن ما قرأته الآن كان عملاً مزيفاً لكان علي الاعتراف بأنني أعرف المزيد من أعمال دونيللي، وأني نتيجة لقارنتي بأعماله التي أعرفها فإني اعتقد بأن هذه المخطوطة كانت عملاً مزيفاً. وهكذا، فقد أبدت - بدلاً من

هذا - بعض الملاحظات حول ما في هذا الكلام من جاذبية. أما كفيين نفسه فكان مغتبطاً بمقالة "رهض". وسألني إن كان له أن يأمر بنسخها، لكي يكتب مقالاً حول تطور أسلوب دونيللي.

ووعده بأن أتيح له فرصة الحصول عليها بعد أن أطلع الأتستين دونيللي على الموضوع، ثم تركته وانصرفت. كان النهار قد جاوز منتصفه، وكان علي أن أذهب إلى "ليمريك". وبعد أن جاوزت أورانمور فقط تذكرت أنني قد نسيت أن أسأله إن كان يعرف أي شيء عن قضية ذكر فيها اسم لادي ماري جيلبي.

تركت ديانا ومويس في ليمريك حيث كان بإمكانهما أن يقضيا بضع ساعات في شراء الحاجيات والتجول بين البضائع، ثم ركبت السيارة عن طريق كورك، عبر ريف مسطح ناعس كانت خضرة كثيفة ساخنة قد جللتها تحت شمس إبريل الساطعة. توقفت في بلدة "باللي كاهين" لكي أسأل عن قلعة دونيللي، فقيل لي إنني قد توغلت في الطريق إلى أبعد مما كان ينبغي لي، وإن علي أن أعود ثانية صوب بلدة "أدير" لكي أدور مع الطريق من ناحية معاكسة. وعلى هدي هذه التعليمات، تمكنت من التوقف عند باب قلعة دونيللي حوالي الساعة الثالثة.

ولم يكن البيت قلعة بالطبع، وإنما منزلاً من الطراز الذي ينسب إلى عصر الملكة آن، وقد شيد بأحجار فضية، وأحاطت بمدخله أعمدة كورينثية من صخور حمراء. وكانت الجدران مكسوة بالسناج، واكتسى المنزل بجو من الإهمال الشائع في المنازل الإيرلندية العظيمة، وبشكل خاص في مقاطعتي "كونوت، مونستر". قادني السلم اللطيف ذو الدرجات الحلزونية الأربع عشرة إلى الباب الأمامي. كانت سطوح الدرجات المنحوتة غير مستوية حتى إنني تعجبت كيف يستطيع أي إنسان أن يصعد أو يهبط دون أن يلتوي كاحله، كان نهر "ماي" يجري إلى جانب المنزل، وإطلال دير أبي تنتصب عند الأفق. وشعرت بالصدمة حين خطرت لي فكرة أن هذا المنزل كان يبدو جديداً وجميلاً حينما ولد فيه دونيللي - لأنه كان قد شيد حوالي ١٧٠٠، وأن الجدران لم تكن مكلفة بالسناج كما هي الآن حينما كان هنا. كانت هذه "الذكرى" أشبه بالقفز إلى الوراثة نحو الماضي، تولد عنها إحساس مزعج بجريان الزمان السريع.

وقبل أن أبلغ قمة الدرج، فتحت الباب، وبنيت وراءه سيدة قوية نشيطة في ثياب ركوب الخيل، كانت قد جمعت شعرها الرمادي بلون الحديد فوق رأسها، ووقفت مباعدة ما بين ساقيها مثل صورة لواحد من سادة الريف في لوحة من لوحات رولاند سون. وكانت مصافحتها قوية وثابتة مثل مصافحة الرجل. قالت،

- "أنا ألين دونيللي. سعيدة لقابلتك".

كانت لهجتها تتطابق ولهجة الطبقة العليا من الإنكليز، مع لمحة من اللهجة الإيرلندية تبدو في مخارج الحروف. ثم أضافت تقول، "يسعدني، أنك جئت بالفعل".

كان المكان مقبضاً وبارداً، وبدأ في مؤخرته سلم ضخم كثير الدرجات يؤدي إلى الأقسام العليا من المنزل التي يبدو أنها لم تعد تستعمل. كان هناك قدر كبير من الرمر الذي يتناقض بغرابة مع ورق الجدران الفيكتوري المتناثر في كل مكان. ولكن غرفة المكتبة الواسعة التي قادني إليها كانت تضم ناراً كبيرة في المدفأة. وكانت هناك سيدة أخرى، تعمل بإبرتها إلى جوار النار، وإن لاحظت عليها سمات الرجولة هي الأخرى. قدمتها إلى السيدة الأولى باسم "ميس تينا". كانت ضئيلة الحجم، حلوة الوجه، ولابد أن الثياب النسائية كان يمكن أن تناسبها أكثر. وخمنت أن سراويل الركوب المتفخخة كانت بهدف الاحتماء من البرد. عرضاً علي أن أشرب الشاي، ومضت ميس تينا لكي تعدّه. وقفت ميس ألين أمام النار، وقد باعلت ساقيها، ووضعت يديها وراء ظهرها، ودخلت معي في محادثة عامة حول الطقس والريف وما إلى ذلك. ثم تكلمنا حول أمريكا. وبدأ عليها أنها شديدة التطلع إلى معرفة كل شيء عن أمريكا. وبعد عشر دقائق أو نحوها، قالت بطريقة عابرة أنها سمعت أن هناك من الأمريكيين من هو على استعداد لدفع مبالغ ضخمة من المال لقاء منازل من هذا النوع. قلت إنه من المحتمل أن يكون الأمر كذلك فعلاً. سألت، كم يدفعون؟ فحاولت أن اخمن قيمة المنزل بسرعة ثم قلت أن الشخص العادل من المحتمل أن يدفع خمسة وعشرين ألفاً لقاء هذا المنزل. سألت بسرعة، "جنيهاً أم دولارات؟". قلت، جنيهاً. وعند هذا بدا عليها أنها تفكر بجدية وباستغراق كاملين. وبينما كانت ميس تينا تصب الشاي، مستخدمة طاقم شاي جميل من القرن الثامن عشر من المحتمل أن تكون كريستينا شقيقة روبين قد استخدمته بنفسها، تبينت فجأة لماذا كانتا مهتمتين إلى هذا الحد، بعملية إحياء ذكرى إيزموند دونيللي وإنعاش شهرته. لم يكن لهاتين المرأتين أي أطفال، فلماذا لا يبيعان هذا المنزل الضخم

غير الريح، ثم يشتران شقة جميلة في لندن، وبدأ شعوري بالذنب - بسبب هذا البحث عن دونيللي - يتناقص. إن نشر كتاب، "مذكرات ألفا إيرلندي" يمكن بالتأكيد أن يزيد من شهرة جدهما أكثر مما يمكن أن يزيدها كتاب مذكرات الرحلات أو مقالة "رفض لفلسفة هيوم".

سألتي ميس تينا عن كولونيل دونيللي، فأخبرتها بالقليل عن أطوار حياته في السنوات الأخيرة. وبدأ عليها الحزن الشديد. قالت أختها،

- "يا للرجل المسكين، علينا حقاً أن نكتب إليه يا ألين".

- "ربما. يبدو أنني أتذكر أنه كانت هناك بعض الشائعات حوله، هل وحيدته غريباً أو شاذاً يا ميس سورم؟"

قلت، "كلا، بأي شكل من الأشكال".

قالت ميس ألين وقد غرقت في التفكير ثانية، "بالطبع. إنه ليس سوى ابن عم من الدرجة الثانية".

كان بوسعي أن أرى أنها تفكر في الزواج - ربما من أجل تينا. وخطر لي أن الكولونيل دونيللي ربما أعجب بألين، فقد بدت كما لو كان تملك يداً ماهرة في الإمساك بسوط الركوب القصير. وسجلت ملاحظة باطنية لكي أتذكر من بعد ضرورة خلق اتصال من نوع ما مع دونيللي.

قالت ميس إيلي، "حسناً" إذا كانت زوجتك في إيمريك، فإنك بالتأكيد لا تريد أن تقضي كل فترة ما بعد الظهر هنا فيما اعتقد. إن إيمريك هذه بحق مكان مخيف. هناك الكثير من المتوسمين الملاحين. لقد أحرقوا أحد أجدادي قديماً في عام ١٥٤٠. إنه الأسقف دونيللي المعروف باسم جو القدس. لم ترق لهم مواقفه وأراؤه السياسية".

قادتني وهي تتحدث إلى حجرة صغيرة ملحقة بالمكتبة. كانت هناك مدفأة كهربائية ذات قضيب معدني متوهج واحد، ولذلك فإن الغرفة لم تكن شديدة البرودة، كذلك فإن الحجرة كانت قد نالت شيئاً من دفء الشمس التي مالت إلى الغرب. على مائدة صغيرة كانت هناك مجموعتان كبيرتان للأوراق من النوع الذي يصنع بحيث يتخذ شكل

الكتاب. فتحت إحدى المجموعتين، فتسارعت نبضات قلبي وأنا أحاول التعرف على "الخط" الذي كتبت به الصفحة الأولى من الأوراق الصفراء الكبيرة الحجم. قالت مس إيلين:

"لقد وضعت قصاصات من الورق في الأماكن التي ظننت إنها قد تثير اهتمامك أكثر من غيرها. إنه يصبح في غاية الإبداع والجمال عندما يبدأ بالوصف. حسناً، سوف أتركك الآن مع المخطوطة، وسوف تظل تينا في المكتبة لكي تناديها إذا احتجت إلى شيء ما".

تركتني بعد هذا بمفردي، وبدأت أنا القراءة - بسرعة - على الفور،

"شارع جراند شومير، ١١ سبتمبر ١٧٦٦.

(أي حينما كان دونيللي في الثامنة عشرة على الأرجح)

"بابا العزيز

كان خطاب التوصية الموجه إلى مسيو بليزيو مفيداً للغاية، وقد تناولت العشاء مع أسرته في الليلة الماضية. وهو يبعث إليك بأرق تمنياته وأفضلها. لقد عانى عمله من بعض الانعكاسات في الأعوام الماضية، ولكنه ما زال يعيش طيقاً لما تفرضه التقاليد والأوضاع المقررة تماماً. إنه يعتكف في حجرته في ساعة مبكرة بسبب إصابته بمرض النقرس، وقد اصطحبني مدام ليزيو وابنتاهما اللطيفتان في نزهة على الأقدام على طول الحديقة التركية التي تبدو مقاهيها مناظر مذهشة ومتفردة إلى أقصى حد. هذه المقاهي لا تزدهم بالداخل فقط، إنما توجد حشود أخرى خارجها وثالثة تطل من النوافذ المرتفعة أيضاً، يستمعون جميعاً في "فضول دون مبالاة" إلى مغنين وعازفين من نوع معين يطلون على جمهورهم من فوق المقاعد التي يعتلونها...

عبرت ما تبقى من الخطاب بنظرة سريعة. كان في مجموعته ممتعاً، يحتوي على مادة إخبارية من النوع الذي يمكن أن تتوقعه في كتابات هوراس والبول أو آرثر بونغ، كان من الواضح أنه خطاب شاب يرغب بشدة في أن يؤكد أنه لا يضيع حياته ولا أمواله سدى. ونظرت سريعاً إلى الخطابات الأخرى، ورحت أنتقي خطاباً من هنا وآخر من هناك عشوائياً لكي أقرأه كله. ومن خلال القراءة، تعمق لدي إحساس بخيبة الأمل. لم يكن هنا شيء من النوع الذي لم يكن يوسعي أن أجده في "يوميات الرحلات". وفي الحقيقة، لا يمكن أن يكون

- "ليس هناك في هذه الأوراق ما يشير إلى أن دونيللي كان "عضواً في جماعة العنقاء" ذا ميول شريفة لا تخبو". إنما برزت من خلالها في صورة الشخص المحترم الوقور".

قالت: "أوه، لا أظن أنه كان محترماً إلى درجة شديدة جداً".

- "لم لا؟"

- "أوه، لا أعرف، كانت هناك أقاصيص - شائعات، لا شيء مجدّد تحديداً كاملاً. لقد أمضى أوقاتاً كثيراً في سويسرا وإيطاليا، اليس كذلك؟

وأنا أعتقد أن الناس كانوا أشراراً إلى حد ما في ذلك الوقت".

قالت عباراتها الأخيرة في كآبة وحزن وهي تنظر من النافذة إلى النهر حيث كانت أشكال الشجرات وجذوعها الطويلة منعكسة بوضوح. وبعد لحظة إضافية تقول:

- "طبعاً، لابد أن الدكتور جونسون كان يقصد نوعاً من التورية. فإن غلاف مذكرات إيزموند يحمل صورة لطائر العنقاء".

فكرت في هذا للحظة خاطفة، ثم قلت:

- "كلاً، إن هذا مستحيل. لقد قال جونسون ملاحظته تلك في عام ١٧٨٢. وقد صدرت الطبعة الأولى من مذكرات الرحلات في عام ١٧٩١".

- "لا أظن هذا صحيحاً. وأنا واثقة من أن لدينا طبعة تسبق هذا التاريخ. أسمح بأن تأتي لكي تبحث عنها؟ فعينان ليستا على ما يرام..

ذهبنا إلى المكتبة، فقالت بغموض ودود تحليدي:

"يبدو أنني أتذكر أن الكتاب موجود على أحد الرفوف العليا هذه.."

كانت الكتب تتصاعد إلى ارتفاع يزيد على عشرة أقدام. أخذت سلم المكتبة الذي كان مستنداً إلى أحد الجدران، وتسلقته إلى الرف الذي أشارت إليه. مضت خمس دقائق من البحث قبل أن أصل إلى عدد من المجلدات ذات الأغلفة الجلدية وقد طبع اسم دونيللي على "كعب" كل مجلد. وكان بعض هذه المجلدات نسخاً من الطبعة الصغيرة - بحجم الجيب -

من يوميات الرحلات التي كنت قد رأيتها عند الكولونيل دونيللي. وكانت هناك طبعة أخرى من يوميات الرحلات تقع في أربعة مجلدات، وقد طبعت في لندن عام ١٧٩٣، ووردت فيها ملاحظة تقول، "الطبعة الثالثة". وكان هناك أيضاً مجلد أكبر حجماً، صنع غلافه الجميل من الجلد الذي ظهرت عليه علامات الزخرفة حتى بعد قرنين من الزمان. وكان عنوانه: "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" تأليف إيزموند دونيللي، طبع من أجل ج. ج. جونسون (ثم قائمة كبيرة بأسماء أخرى)، لندن، ١٧٧١، كان الغلاف الأمامي والصفحة الأولى يحملان صورة لعنقاء تهب من بين نيرانها، وقد رسمت بالأسلوب المعهود لرسم الشعارات الذي يمكن أن نراه على أوراق الرسائل القديمة. وحينما حدثت فيه خطر لي أن الريش المنتصب على صدر الطائر يمكن أن ينظر إليه أحد أصحاب مدرسة التحليل النفسي الحديث باعتباره رموزاً للعضو الجنسي المذكور. إن الريش على صدر الطائر الحادي، على أي حال، لا بد أن يكون اتجاهه إلى أسفل، بينما تكون أطرافه ناعمة مستديرة، أما هذا الريش فكان منتصباً إلى أعلى، وأخذت أطرافه شكل أصابع "السحق". قلت:

- "من الغريب أن أحداً لم يذكر هذه الطبعة من قبل، ولا يبدو أن الكولونيل دونيللي يعرف عنها شيئاً".

- "هذا محتمل. وأنا أعتقد أن كل نسخ هذه الطبعة قد دمرت".

- "لماذا؟"

- "لقد شب حريق ما. وسوف تجده مذكوراً في أحد الخطابات. لقد رأيت هذا الخطاب بالأمس فقط".

هبطت من فوق السلم، حاملاً معي الكتاب. وذهبت ميس تينا إلى الحجرة الأخرى، وبعد بحث استغرق خمس دقائق سلمتني الورقة الأخيرة من أحد الخطابات. كانت الورقة تقول:

"كأثرة! لقد أخبرني توك الآن بأن مطبعة جونسون قد احترقت عن آخرها. وإني لسعيد الحظ لأن هذه الحادثة لم تكلفني شيئاً.

وكان تاريخ الخطاب ١١ سبتمبر ١٧٧١. إذن فإن هذا ما يفسر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وإنجلترا" ظل مجهولاً دون أن يسمع به أحد. وبالإضافة إلى هذا، فإن حتى هذه النسخة، مثلما يمكنني أن أرى، لم تقرا قراءة كاملة من البداية إلى النهاية، لأن كثيراً من صفحاتها لم تكن قد قطعت بعد. رحت أقلب الصفحات حتى توقفت عيناى على كلمة "عنقاء". قلبت ثاني إلى الصفحة السابقة وقرأت الفقرة كلها. في هايدلبرج انكسرت العربة التي كان من المفروض أن يستقلها دونيللي في رحلة خارج المدينة. وقال له صاحب القديق أنه لم يكن من الممكن أن يوفر له عربة أخرى، ولكنه أخبره بأن الخوري المحلي، القس كرايز يملك عربة يؤجرها أحياناً للضيوف الموقفين. وعثر دونيللي على كرايز في حديثه يتطلع إلى براعم الزنابق، فأخذه لكي يرى العربة التي كانت موجودة في حظيرة قريبة. وقال الخوري أن العربة لم تستخدم طوال الشتاء وإنها قد تكون مزينة مبلة، ونظر دونيللي إليها وقرر أنها ستكون عربة جميلة بعد خمس دقائق من العمل في تنظيفها، ورفض الخوري أن يأخذ نقوداً إيجاراً لعربته. وفي طريق الخروج من الحظيرة، لاحظ دونيللي صورة خشبية لطائر العنقاء ملقاة على الأرض وقد غطى القش نصفها. وسأل الخوري عن سبب وجود هذه الصورة في هذا المكان، فقيل له إنها كانت ضمن صفقة أثار كان قد اشتراها من مزاد منذ أكثر من عام. ولما شعر بأنها شيء لا يتلاءم مع خوري محترم فقد ألقي بها إلى الحظيرة. وفي شيء من الدهشة سأل دونيللي عن السبب الذي يجعلها لا تتلاءم مع قس محترم.

"بنت عليه الدهشة لجهلي، وسألني إن كنت لا أعلم إن هذا الطائر كان رمزاً لجماعة من الهرطقة المجهدين، يعرفون أحياناً باسم "أخوة الروح الحرة" وأحياناً يعرفون باسم "جماعة العنقاء"، وأحبته بأنني لا أعرف إلا أن النقاء كانت تستخدم أحياناً كرمز يعلق على دكاكين العطارة أو الصيدليات، وأنني كنت أفترض أن لهذه الصورة مغزى كيميائياً من نوع ما. وهنا راح الرجل العليم يحاضرني في تاريخ جماعة العنقاء. فقال إنها ظهرت في أوروبا في عصر الطاعون (الموت الأسود)، حينما شاع اعتقاد يقول بأن الإغراق في اللذة الجسدية وشهوتها وقاية مؤكدة من المرض. وكانت الحجة الأساسية لهذا الاعتقاد تقول، إنه لا يمكن أن تكون هناك روحانية أصيلة من دون أن تكون هناك روح داخلية عالية الشفافية. إن الإنسان لا يستطيع أبداً أن يعرف الحقيقة بينما هو يتطلع إلى الخارج نحو ما يحيط بروحه، مغرقاً نفسه في الأشياء الخارجية. إن الروح في ذروة اللذة الجنسية - تكون أكثر تركيزاً منها في أي لحظة أخرى. وقد اعتقد "أخوة الروح الحرة" إن "الله" كامن في

كل مكان وفي كل شيء. وإن كل اختلاجة من اختلاجات البهجة إنما هي كشف من الله. وإرتكازاً على هذا الاعتقاد، راحوا يمارسون كل أشكال الإسراف الشهواني، ويحدث هذا أحياناً فوق المذبح نفسه. وقد اقتلعت محاكم التفتيش هذه التعاليم من جذورها بقسوة عنيفة، ولكن ثبت أن "جماعة العنقاء" كانت تحمل الطبيعة الأسطورية التي نسبت إلى الطائفة الذي اتخذته رمزاً لها، فبرزت من جديد، مرة بعد أخرى، من وسط رماد عمود الإحراق الذي مات عليه بعض أعضائها. وطبقاً لما قاله هيرودوتس من أن عمر العنقاء يبلغ خمسمائة عام، فإننا يمكن أن نؤكد بثقة أن هذه الجماعة سوف تستمر في الازدهار على الأقل لمدة قرن آخر.

وأحبته بأنني قرأت في رسالة سانت كليمانت الرماني إلى أهل كورنثته قوله أن العنقاء رمز للبعث المسيحي، ولكن الرجل الطبيب أجابني بأن هذا نوع من الشيطنة البابوية، وأن كل الناس يعرفون بأن سانت كليمانت قد قيد إلى مرساة سفينة وألقي به في البحر كعقاب له على مبالغاته. وحينئذ عرضت عليه أن أخلصه أو أريحه من أمر هذا الرمز للانحطاط البابوي، فاتفقنا على ثلاثة تأليرات ثمناً للصورة الخشبية.

كانت هذه هي نهاية الفقرة، ثم لا أذكر ما حدث لصورة العنقاء المحفورة على الخشب. نقلت الفقرة كلها بخط اليد ثم ذهبت إلى المكتبة وسالت ميس تينا إذا كانت تعرف شيئاً عن وجود صورة محفورة على الخشب لطائر العنقاء في المنزل - فقد بدا لي أن مثل هذه الصورة يمكن أن تكون رمزاً ملائماً لكي يوضع على غلاف المجلد المقترح طبعه من مذكرات دونيللي. قالت إنها لم تسمع عن وجود مثل هذه الصورة أبداً، ولكنها أبليت استعدادها لسؤال شقيقتها. وقبل أن أتمكن من إيقافها كانت قد غادرت الحجرة. جلست على نراع أحد المقاعد، ورحت أتطلع إلى "الملاحظات" دون اهتمام. انزلق الكتاب من فوق ركبتي وسقط على الأرض، فوقف على حافته وقد انفتحت صفحاته. وحينما كنت ألتقطه، أدعشتني أن شعرت بأن الغلاف الخلفي كان أكثر سمكاً من الغلاف الأمامي، والأكثر التقطع، أدعشتني أن شعرت بأن الغلاف الخلفي كان أكثر سمكاً من الغلاف الأمامي، وعلى عكس الورقة المعاقبة من هذا، كانت الورقة اللاصقة للغلاف غير محكمة الالتصاق، وعلى عكس الورقة المعاقبة للغلاف الأمامي، فإنها لم تكن ملتصقة بالورقة الأخيرة من الكتاب. ثبتت الغلاف بخفة، لكي أرى السبب الذي جعله مفتوحاً بهذا الشكل، فتبينت أنه يوجد ثمة جيب بين الغلاف للصنوع من الورق للقوى وبين الورقة اللاصقة للغلاف نفسه، وكان الجيب قد صنع بالاصاق

الأطراف الخارجية لهذه الورقة إلى الورق القوي. وفي داخل هذا الجيب كانت هناك ورقة غير مطوية. سحبت الورقة من مكانها وفتحتها. كانت الورقة من نوع ممتاز، شديدة البياض وشديدة الرقة، ولم تكن تحتوي إلا على رسم رقيق لعنقاء طالعة من عشها للتهب بالنار، وكتب تحت الرسم *relix qui potuit rerum cogroseeere causas* وهي جملة لاتينية استطعت أن أتذكر أنها مقتطعة من المعنى الذي أوردته فيرجيل: "سعيد هو الرجل الذي استطاع أن يكتشف أسباب الأشياء". أما ما أثر في حقاً فكان الطائر نفسه كان الجناحان وريش الذيل من الذهب، مثلما كان اللهب المتصاعدة من العش. أما بقية جسد الطائر فكان مرسوماً باللعة التي تراها في رسوم بليك. وفي الركن الأسفل إلى اليمين. ويخط إيزموند دونيللي الذي لا يمكن أن أخطئه كانت جملة تقول:

"تسلمها في ١ سبتمبر ١٧٧١". ولو أن هذا التاريخ لم يكن مذكوراً لكان من العسير علي أن أصدق أن الرسم لم يكن أحدث عهداً به بكثير، لأن الورقة كانت أكثر بياضاً ورقة من كل ما رأيت من أوراق تلك الفترة من التاريخ، ولم يكن يبدو عليها أي سمة من سمات تقادم الزمن.

سمعت خطوات ميس تينا في عودتها، قدسست الورقة في الكتاب. قالت لي إنه من المؤكد أن ليس ثمة صورة خشبية لعنقاء في المنزل، إلا إذا كانت مخبأة في إحدى الغرف العلوية الخلفية. شكرتها واعتذرت لما تسببت فيه من إزعاج، ثم أعدت كتاب "الملاحظات" إلى مكانه على الرف. دخلت ميس ألين وسألتني عن تقدم عملي، ثم بنت عليها خيبة الأمل بوضوح حينما قلت أن علي أن أرحل فوراً. أكلت لها أنفي وحببت عندي كبيراً من المعلومات القيمة بين الأوراق وأطلعتها على كراسة مذكراتي لكي أثبت ذلك. اصطبحتني الشقيقتان معاً إلى باب المنزل، وقالتا لي أن أعود في أي وقت.

قلت سيارتي إلى ليمريك وأنا غارق في أفكار متضاربة، ربما يمكن أن يقال أن هذه الساعات قد ضاعت دون فائدة، ولكن هذا القول لا يمكن أن يكون صائباً بكل الصواب. لقد عرفت أن شخصية إيزموند كانت ذات جانبين، الابن البار المخلص وكاتب يوميات الرحلات المؤوب، ثم "الساغر الشيق" إذا حق لنا أن نستعير هذه العبارة من السير ريتشارد بيرتون. ولا يمكن لأي دارس بدرس المادة الموجودة في قلعة دونيللي أن يخمن وجود السافر الشيق.

ثم لقد كان هناك اللغز الصغير الذي تمثلته صورة العنقاء. تحدثت بشأنه مع ديانا بينما كنا نعود بالسيارة إلى غالاوي. إن الخطابات تقرر أن كتاب "ملاحظات حول فرنسا وسويسرا" قد نشر في شهر يوليو من عام ١٧٧١. أما حكاية هايدلبرج - حيث اشترى صورة العنقاء الخشبية - فقد وقعت في شهر أغسطس من العام السابق. ولسبب ما، استخدم دونللي صورة العنقاء كرمز لكتابه على الغلاف - ربما كانت الصورة التي طبعت على غلاف الكتاب نسخة طبق الأصل عن تلك التي اشتراها من الخوري في هايدلبرج. وفي اليوم الأول من سبتمبر "تسلم" رسم العنقاء الجميل الذي رأيته مرفقاً به ذلك الشعار اللاتيني الجميل عن اكتشاف أسباب الأشياء. ومن المفترض أن هذا معناه أنه قد تسلم الرسم عن طريق البريد. واعتزضت ديانا قائلة أن العنقاء الأقرب أن دونيللي قد تسلم الرسم من الشخص الذي كان هو قد كلفه بصنعه. ولم أوافقها على ذلك بقولي فلو كان هذا صحيحاً فلماذا كلف نفسه عناء كتابة، "تسلمته في ١ سبتمبر". ولو أنني تسلمت بالبريد كتاباً كنت قد طلبته، فإني بالفعل قد أكتب عليه اسمي وتاريخ وصوله، ولكنني لا أكتب "تسلمته" لأنه من الواضح أنني قد تسلمته. إننا نستخدم كلمة "تسلمته" ثم تسلمه" لكي نوضح عملية دفع قيمة الصكوك، أو للتحدث عن خطاب أو رزمة. أما نظريتي فهي أن إيزموند قد تسلم رسم العنقاء دون توقع من جانبه، أن الرسم وصله دون توقيع ودون أن يحمل اسم صانعه - وإلا لكان بالتأكيد قد كتب، "تسلمته من فلان أو فلان" أو حتى لكان قد احتفظ مع الرسم بالخطاب الذي أرفق به.

إذن فمن الذي يحتمل أن يكون قد أرسل الرسم؟ شخص ما مهتم بالعنقاء باعتبارها رمزاً؟ أو - وأنا أعتقد أن هذا قد يكون مقنعاً أيضاً - أحد أعضاء جماعة العنقاء كان الخوري كرايز قد ذكره؟ كان الاحتمال الأخير احتمالاً مشيراً، رغم أنه لا يمكن إلا أن يكون احتمالاً بعيداً. وقالت ديانا أنه احتمال بعيد بقدر بُعد احتمال أن تكون إحدى السيدات قد أرسلت إليه الرسم هدية أو تذكاراً ربما أرفقت به رسالة غرامية. تمنيت لو أنني قد فحصته بدقة أكثر. فربما كانت الورقة تحمل علامة مائية تشير بشكل أو بآخر إلى أصلها. اليس من المحتمل أن ورقة ثمينة من هذا النوع لا بد أن تحمل الرمز الخاص بصانعها مدموغاً في نسجه الداخلي؟ وكان علي أيضاً بالطبع أن أقارن بين الرسم الموجود على الورقة وبين الشعار أو الرمز الذي حملته غلاف الكتاب. ولو أنهما كانا متطابقين، لكان هذا حجة مؤكدة

تشير إلى أن إيزموند قد كلف شخصاً ما بصنع رسم للطائر الخرافي الذي كان قد اشترى صورته من القسيس كرايز.

وكانت هناك أيضاً تلك الحقيقة العجيبة القائلة بأن إيزموند قد كتب يقول إن نسخ الطبعة كلها قد دمرت بعد أقل من أسبوعين من تسلم رسم العنقاء. ومن المحتمل أيضاً أنه من الأمور ذات المغزى - أو غير ذات المغزى على الإطلاق - إنه ربما كان قد عاد إلى استخدام رمز العنقاء على كتبه بعد ذلك أو أنه لم يستخدمه بعد ذلك أبداً - إنني أعرف على الأقل أن هذا الرمز لم يكن موجوداً على طبعة مذكرات الرحلات التي رأيت نسخة منها في لوزيانا، أو على تلك الطبعة التي رأيته في قلعة دونيللي.

ولم تكن لدي أية فكرة عن الكيفية التي يمكن بها للمرء أن يتحقق من أن مثل هذا الحريق قد حدث أبداً، كان هناك افتراض البحث عما حدث لمؤسسة ج. ج. جونسون ومحاولة اقتفاء آثارها. ووجدت أن هذه الفكرة لا تبعث على التشجيع، فإني لا أملك اللوحة اللازمة للقيام بهذا النوع من الأعمال البوليسية. ومن سوء الحظ أن بوزويل كان في أدنبرة يتلقى تدريباً على أعمال الحمامة في السنوات بين ١٧٦٩-١٧٧٢، وإلا لكان بالتأكيد قد ذكر شيئاً عن ذلك الحريق - طالما أن ج. ج. جونسون كان أيضاً هو الناشر الخاص للكتور جونسون.

□ هذا هو ما يقدم السبب الذي جعل أيامي التالية لزيارتي لقلعة دونيللي خالية من أي شيء ذي أهمية يتعلق بهذه القصة. كانت خطابات دونيللي هي أملي الذي تعلقت به، أما الآن فلم أكن واثقاً مما ينبغي علي أن أقوم به بعد هذا. طلبت بالتليفون أو زرت كل مكتبة عامة بين مدينتي كورك وسليكو. كانت بعض هذه المكتبات تملك نسخة من "مذكرات الرحلات" ولكن لم يكن لدى إحداها أي شيء آخر. وحاول كليفين روش أن يقدم نوعاً من العون، مقترحاً اللجوء إلى بعض معارفه من الأكاديميين الذين ربما كانوا يعرفون شيئاً عن دونيللي، ولكن لم يؤد أي من هذه الاقتراحات إلى شيء نافع. كتبت إلى تيم موريسون في المتحف البريطاني، وإلى كل بائع كتب قديمة أعرفه. ورغم أن تيم كان

عاجزاً عن اكتشاف مزيد من الراجع التي تشير إلى دونيللي، فإنه كان قادراً على إضافة فقرة واحدة إلى "الملف" الخاص لدي بجماعة العنقاء. وكان ما كتبه كما يلي:

"لقد تبادليت حديثاً مع تيد مالوري، وهو خبيرنا المتخصص في شؤون الكنيسة في العصور الوسطى، ودار حديثنا حول ما أسميته "جماعة العنقاء" وكانت لديه نتف مفيدة من المعلومات. قال لي إنه ليس هناك دليل يثبت أن جماعة العنقاء وأخوة الروح الحرة كانوا شيئاً واحداً. لقد كانت هذه الأخيرة جماعة من الهرطقة المجهدين، أسسها رجل يدعى ليريك دي بينما كان قد طرد من جامعة باريس عام ١٣٠٤ ومات في عام ١٣٠٩. وكان أساس تعاليمهم أن الإنسان يمتزج في الله عن طريق العشق، وأنه حينما يحدث هذا تصبح الخطيئة مستحيلة بالنسبة للإنسان. ولهذا فقد مارست هذه الجماعة حرية جنسية كبيرة، وأحرق عدد كبير منهم على أعمدة منصبات الإحراق، وكانت بين هؤلاء امرأة تدعى مارغريت من هيتولن، وهي راهبة مزيفة، يبدو أنها كانت مصابة بداء الشبق أو الغلظة".

أما الإشارة الوحيدة إلى جماعة العنقاء التي استطاع تيد أن يعثر عليها فوردت في كتاب سانت نيلس سورسكي (١٤٣٣-١٥٠٨) في نهاية مقالته الثالثة حول الصلاة الروحية. وهذه هي ترجمتها عن الألمانية من طبعة عام ١٩٠٢، وهي ترجمة بدائية جداً وخشنة،

"من الأفكار التي شاع اعتناقها في أوقات مختلفة أن المعتقدات الخارجية على العقيدة الصحيحة والهرطقة لا تهدد بالخطر سوى أولئك الذين يعتنقونها، ولا أولئك الذين يتصلون بأولئك أو يقعون تحت سيطرتهم. ولكن القديس ثيودوسيوس يقول لنا إن الله يبخضهم في حد ذاتهم، وأنهم قد يتسببون في عذاب أو معاقبة الأبرياء. وإن حالة جماعة العنقاء في مقاطعة سيميريشنسك لتقدم أكثر الأمثلة رعباً على ذلك. لقد آمنوا بأنه يمكن للرجال والنساء أن يحصلوا على الكشف الإلهي المقدس من خلال اللذة الجنسية بدلاً من الصلاة. وأن قريتهم (معسكرهم) بالقرب من بحيرة أسيكول كانت مليئة بالفسق والدعارة. ثم كان أن أرسل الله العزيز وباء قضى عليهم جميعاً ثم انتشر الوباء من هناك في طول بلاد السكيتيين الشماليين وعرضها، ومن ثم في العالم كله. وكان هذا في عالم الرب ١٣٣٨".

وبهذه المناسبة، قد يكون من الأمور الهامة بالنسبة لك أن تعرف أن الأثري الروسي تشوولسون يؤمن بأن الموت الأسود (الطاعون) قد بدأ في معسكر نسطوري بالقرب من بحيرة أسيك - كول في مقاطعة سيميريشنسك - وهي مقاطعة في بلاد القزغيز بالقرب من

حدود الصين والهند. وقد دافع عن هذا الرأي وأيده البروفسور ر. بوليتزير في مقالته "الطاعون" في نشرة منظمة الصحة العالمية الصادرة في جنيف عام ١٩٥٤ في الصفحة رقم ٣٢.

كان كل هذا ساحراً للب بالطبع، ولكنه أثار عدداً من الأسئلة التي لا يمكن الإجابة عليها بحيث أنه كان أيضاً دافعاً إلى الشعور بالإحباط والخيبة. من الذي أنشأ جماعة العنقاء، ولماذا؟ ماذا كانت تعاليمها؟ كان القرنان الحادي عشر والثاني عشر عصراً تأسس فيه كثير من الجماعات الهرطقية، والوالدنيين، والإلبيجانيين، والخليسيين - وقد اتهم الآخرون دائماً بأنهم كانوا يقيمون احتفالات دينية ذات جو محموم تتحول إلى ممارسة جنسية جماعية مسعورة. فإذا كان ينظر إلى جماعة العنقاء باعتبارها مسؤولة عن وباء الموت الأسود، فلماذا لم يعثر لها على وثائق كافية؟

ولم يكن هذا بعيداً عن موضوع بحثي مثلما يبدو من مظهره. فلو أنني لم أستطع أن اعثر على المزيد من المعلومات عن إيزموند دونيللي، فإني قد أتمكن على الأقل من تقنية مقدمتي بمثل هذه المادة. أما فيما يتعلق بالنص نفسه فإنه يمكن أن يتكون من مقتطفات من كتاب "عن اقتضاض العذاري" ومن كتاب فليشر المتحول، "م.س"، بالإضافة إلى المخطوطة التي لا شك في صحة نسبتها والتي حصلت عليها من الكولونيل دونيللي، بالإضافة إلى مقالة "رفض لفلسفة هيوم". وكان معنى هذا أن مشكلتي الأساسية ما تزال هي العثور على مزيد من المادة لمقدمتي.

في يوم السبت التالي لعودتنا من أمريكا، وقعت إحدى تلك المصادفات التي تعلمت منها أن أسلم ببعض الأشياء التي تتضمن أي نوع من أنواع الهواجس أو الأفكار المتسلطة. كانت ديانا، وماري التي تأتي يومياً لمعاونتنا في شؤون المنزل، تفحصان صندوقاً قديماً مليئاً بالخطابات، واضعتين في اعتبارهما أن تلقيا إلى النار بأكثر عدد ممكن منها. والتقطت موبسي خطاباً يحمل علامة خاتم على شيء من الدقة تعبر طرفه الأعلى، وتمثل العلامة صورة الحية ملتفة حول جذع شجرة التفاح، وهي تهمس لحواء. وبالطريقة التي يتصرف بها الأطفال حين يشعرون بأنهم لا يحصلون على ما يكفي من الانتباه، جاءت موبسي إلى حجرة المكتب حيث كنت جالسا أكتب وقالت، "انظر إلى ما جئت لك به، يا بابا". وظننت أن ديانا هي التي أرسلت الخطاب معها فالتقيت نظرة سريعة إلى التوقيع وقرأت، "كلوس دنكلمان" ثم نظرت إلى الخطاب نفسه. كان تاريخ الخطاب عام ١٩٦٠ وكان خطاباً متملقاً حول كتاب

"اليوميات الجنسية" الذي كان قد صدر في فترة باكورة من ذلك العام، وكان كاتب الخطاب يسألني إن كنت على علم بأعمال ويلهلم رايبخ، ثم راح يسجل عناوين كتب ينبغي عليّ في رايه أن أقرأها. كان خطاباً من نوع مألوف، وحتى بالنسبة إلى الإيحاء بأن كاتب الخطاب يملك الكثير الذي يمكنه أن يعلمني إياه لو أنني عنيت بأن أصغي إليه، وإن علينا أن نتبادل الكثير من الخطابات الطويلة. وكانت ديانا قد كتبت عليه بخط مهوش:

"تمت الإجابة عليه ٦٠/١١/٩" وأعتقد أنني قد شكرته على إقراحاته، ووعدته بأن أقرأ الكتب التي ذكرها. وكنت على وشك أن ألقى الخطاب في سلة المهملات القائمة إلى جوارتي حينما التقطت عيني اسم "٣. دونيللي". وكانت الجملة تقول، "من الطبيعي أن تكون أفكار كورنر قد أثارها كتابات مفكرين متعددين، ذي صاد وكراولي و"٣. دونيللي" وكيرارار وإوارد سيلون. الخ". من الواضح أن كورنر كان تلميذاً لرايبخ الذي أعتقد أن النشوة الجنسية تحتوي سر الصحة النفسية.

وكان العنوان على الخطاب هو "كومبلين جاردنز، هامبستيد الغربية". وبدأ لي أنه من غير المتوقع أن يكون كاتب الخطاب ما يزال مقيماً في نفس العنوان بعد تسع سنوات، ولكن الأمر كان يستحق المحاولة، وهكذا فقد كتبت إليه خطاباً أذكر له فيه اهتمامي بدونيللي.

وفي يوم الاثنين التالي، كان عليّ أن أفكر من جيد في المشكلة المرحجة التي تمثلها الأنستان دونيللي المقيمتان في قلعة دونيللي. وصل خطاب في ذلك اليوم، يحمل توقيعيهما معاً، ولكن يمكن أن نفترض أن كاتبته هي ميس ألين. قالت أن مقابلتها لي كانت أمراً ممتعاً، وكيف أنها كانت قادرة على أن ترى من لحظة واحدة أنني كنت جديراً بالثقة وأن سمعة إيزموند سوف تكون في أمان بين يدي. رحت أئن تحت وطأ شعوري بالحرص وأنا أقرأ الخطاب. كانت مسرورة من أن كاتباً له مثل سمعتي قد اهتم - في النهاية - بإيزموند، وشعرت بأنني سأكون الشخص المناسب للقيام بكتابة ترجمة ذات قيمة له.. أقيت بالخطاب على الفراش واحتسيت قدح الشاي. كان عزمي الأول أن ألقى به في سلة المهملات وأن أنساه. راودتني فكرة أنه ليس سوى نوع لحين من المضايقة وأنهما يجب أن تركباني وشاني. إن لدي أشياء أخرى أقوم بها أفضل من كتابة ترجمة معتمدة لها قيمتها. ومن الطبيعي أن يكون إحياء الاهتمام بإيزموند شيئاً في صالحهما إلى درجة عظيمة.

فإنهما سوف تكونان قادرتين على بيع أوراقه إلى إحدى الجامعات الأمريكية بمبلغ كبير من المال.

إلا أن المشكلة ظلت تؤرقني. كنت قد عقدت العزم ألا أعود إلى الاتصال بهما ثانية. وعلى كل حال، فإنني لم أستقد في شيء باي جزء من المادة التي تملكها. إنني لست مديناً لهما بشيء. وعليّ الآن أن أمعن في الخداع، أو أن أقوم بعمل من أعمال كبح النفس بأن أتجاهل خطابها. وهجاة قررت أنه ليس هناك سوى سبيل واحد بسيط، أن أخبرهما بالحقيقة كاملة. ارتديت بسرعة ثوباً منزلياً وهرعت إلى حجرة المكتب، متلهفاً على الخلاص من هذه الفكرة بتنفيدها. كان خطاباً طويلاً - وكان لابد له أن يكون يمثل هذا الطول، طالما أنني كنت مصمماً على التحلل من حملي. بدأت بالإشارة إلى أنها لابد تعرف أن كتاب "عن اقتضاض العذاري" كان منسوباً إلى دونيللي - بل إنني رأيت منه نسخة في بيت استاذ في غالاواي. وأخبرتها بأمر الناشر في نيويورك، وشرحت لها أنه كان مصمماً على المضي في هذا العمل على أي حال، سواء تعاونت معه أم لا. وبينت لها أن مخطوطة فليشر لم تكن سوى عمل مزور، وأنه في تقديري الخاص، ليس هناك سبيل لتبرئة ذمة إيزموند، في ظل الظروف الحقيقية القائمة، سوى نشر أكبر عدد مكن من أعماله الأصلية الحقيقية. وبصراحة أيضاً أخبرتها بأنه لم يكن ثمة في الأوراق التي تملكها ما يمكن أن يكون ذا نفع لي، طالما أن خطاباته التي كان يرسلها إلى بيته كانت خالية من كل ما يدعو إلى اللوم، بالقدر الذي لابد لكل إنسان أن يتوقعه.

وفي طريقي إلى صندوق البريد قلت لنفسني أنه من المحتمل أن يكون ما أفعله الآن عملاً غيبياً. إنني لم أذكر ما أقوم به لديانا، طالما أنني كنت واثقاً من أنها ستبذل جهدها لكي تمنعني نه. بل إن ميس دنيللي قد تكتب خطاباً إلى الناشر وإلى هيئة حقوق المؤلفين تستنكر فيه مشروعني فتحجب عني كل مصادر المعلومات. ولكن كانت هذه المخاطرة لابد لي من القيام بها وتحمل نتائجها. أسقطت الخطاب في صندوق البريد شاعراً بإحساس الرجل الذي يسدد مسدساً إلى رأسه بنفسه.

وفي الصباح التالي، كنت ما أزال مخدراً من أثر النوم حينما دق جرس التليفون. رفعت ديانا السماعة للوضوعة إلى جوار الفراش ثم قالت:

"ميس ألين دونيللي تريد أن تكلمك".

كانت تتملكني حالة من الضجر، وشعرت بما يغريني أن أطلب منها إبلاغها أنني لست في المنزل، ولكن ضميري تدخل وكسب الموقف، وقلت أنها لو اختلفت معي، فسوف أستطيع على الأقل أن أمضي في خطتي دون أن أكره نفسي.

جاء صوتها في التليفون: "هيللو، مسر سورم؟"

"هو الذي يتكلم".

"لقد تسلمت خطابك الآن توأ. إنني شديدة السرور لأنك كنت صريحاً معي إلى هذا الحد. هذا منتهى الرقة والدمانة من جانبك. لقد طلبت الآن لكي أقول لك أنني أفهم ما تقصده تماماً".

"اتفهمين قصدي حقاً؟"

كنت مبهور الأنفاس للمفاجأة، وكنت أتساءل متعجباً عما ترمي إليه في النهاية.

"اسمع. استنتج مما تقوله أنه ليس هناك الكثير الذي نستطيع عمله مع ذلك الناشئ".

"أخشى أن يكون الوضع بهذا الشكل".

"حسناً، بالضبط. إذن فإن أحسن ما يمكن عمله بعد هذا هو التأكد من أن الأمور لن تفلت من أيدينا. علينا أن نحرص على مراقبته باستمرار. لقد اتفقت أنا وتينا أنعلينا أن نقدم كل مساعدة ممكنة".

قلت أنني أشعر بالابتهاج بالطبع. ولكنني في الحقيقة لم أكن أعرف ماذا يمكن أن أقوله أو أفكر فيه. كنت بحاجة إلى بعض الوقت لكي أستجمع أفكاري ولكنها لم تمنحني الفرصة.

"إننا نود أن نناقش هذا الأمر معك. متى يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

"أي وقت ملائم لكما سيكون ملائماً لي".

"ما رأيك في اليوم بعد عدة ساعات؟"

قلت أنني موافق على هذا، وشعرت بموجة من الراحة تجتاحني حينما أنهت المكالمات وانقطع خط الاتصال.

في تلك اللحظات كانت ديانا قد أعدت الشاي، وكنت قد بدأت أفهم ما حدث. إن الشقيقتين دونيللي لا تملكان ما تفقدانه بنشر "اليوميات الجنسية" التي كتبها إيزموند، وخاصة إذا ما استطاعتا أن تبعا المنزل. وقد أكلت لهما أن اليوميات لم تكن مجرد أدب داعر مكشوف، وأنها قد تؤدي إلى خطوة حقيقية نحو بحث سمعة إيزموند، وأن في هذه الأيام الحالية حيث تسود الصراحة الجنسية لن يطرف أحد جفنه إزاء نشرها. وكنت قد أشرت إلى مذكرات بوزويل وما إليها، ولابد أن ميس إلين قد قررت أنه من الأفضل لها واختها أن تدخلتا غمار هذه التجربة وأن يكونا في مقدمة المتلهفين والساعين في خوض التجربة، واكشف عما يمكن الكشف عنه، ومن المؤكد أن الكشف الكامل عن أوراقها سوف يكون نافعا في كتابة الجانب التاريخي عن حياة إيزموند في المقدمة. ولكنها إذا كانت تأمل في إقناع فليشر بدفع خمسة عشر ألف دولار أخرى في مقابل استخدام تلك الأوراق وما تملكه من مواد عن إيزموند، فإنها لابد ستنتهي بأمالها إلى الإخفاق والخيبة.

كنت أشعر بكابة لا حد لها وأنا أقود السيارة إلى ليمريك بعد ساعات قليلة من منتصف النهار، وكنت قبل هذا قد اتصلت بكيفين روش واستعرت منه نسخته من كتاب "عن افتضاض العذاري". وكنت أحمل معي الآن الشذرات الأخرى من "اليوميات الجنسية"، ربما في ذلك مخطوط فليشر الأصلية. ولكنه كان يوماً جميلاً. كانت رائحة الهواء طازجة وبدا كل شيء مجللاً باللون الأخضر حتى لقد كان من السطحيل ألا يستمتع المرء به. وحالاً استرخت أعصابي وقررت أن أنسى الشقيقتين دونيللي، اجتاحني إحساس عظيم بالدقة والخصوصية، وبإمكانات واحتمالات العالم الهائلة التي تحجبها ميولنا إلى البقاء محصورين في سجون دوافعنا الصغيرة. وتبلور هذا الإحساس أكثر حينما جلست لكي أحتمي قدحاً من البيرة خارج دكان لبيع البقالة على بعد أميال قليلة إلى الجنوب من جورت، مصغياً إلى خرير المياه وهي تنساب تحت الجسد وتجري نحو "لوف كوتر". وهجاء أصبح شيئاً غير ذي بال سواء ذهبت إلى ليمريك أم بقيت في مكاني. سوف يستمر الماء يسيل في مجراه، وسوف تبقى على حالها هذه الشجرة بأوراقها ذات الألوان الليمونية والتي تطل على المجرى كأنها تراقبه أو ترعاه. بدا لي واضحاً أنه يكمن هنا واحد من أغرب وأهم ما يتعلق

بالوجود الإنساني، هذه القدرة التي يمتلكها العقل الإنساني على الابتعاد بنفسه عن الناس والأحداث، وعلى التوقف عن تشبيه نفسه بالعواطف الإنسانية أو العنور على ذاته فيها، وعلى محاولة التعرف على ذاته - بدلاً من ذلك - من خلال اللانهائي وما لا زمان له، عالم الطبيعة. ماذا يحدث؟ وقفت على حافة الجسر ورحلت أرقب الماء وهو يعكس أشعة الشمس، وبدأ لي أن شيئاً ما في داخلي يسير مع سريان الماء ويجري معه في مجراه، وينطلق بعيداً في اتجاه البحيرة. وحينما عدت إلى السيارة وبدأت أقودها، اجتأحتني إحساس غريب كأنما تحررت روحي من الجسد، وكأنما كانت تطير بمحاذاتي مثل طائر طليق يحلق أحياناً في الأعالي ثم ينقض فجأة إلى أسفل من حين إلى حين، وحينما عاد عقلي إلى الشقيقتين دونيلي، كان إحساسي بالاختناق والضجر قد اختفى.

حينما رأيت ميس إيلين وهي تهبط درجات السلم لتقابلني، عبرت بي لحظت فهم مفاجئة، ولكنها قضت على هذا الفهم بأن أخذت يدي في قبضتها الرجولية وراحت تقول، "حسناً، حسناً، من يواعث السرور أن أراك ثانية". ثم دخلنا إلى قاعة المكتبة ولم تكن ميس تينا هناك. اتخذت مجلسي على مقعد مخرب ذي مسندين وكان من مقاعد القرن التاسع عشر، كان معرضاً لأشعة الشمس، تاركاً ميس إيلين تتولى مهمة الكلام. وكان علي أن أعجب بذهنها الوفاة.

كانت تقول،

"حسناً، ليس هناك مبرر فيما أرى للوقوف في وجه هذا الكتاب. ومثلما قلت أنت، فإنه كان من القدر له أن يصدر أجلاً أو عاجلاً. وهكذا فإن أحسن فكرة ممكنة هي محاولة الاحتفاظ به بين يديك. وبهذه المناسبة، في أي جامعة كنت تعمل؟"

أحببتها بأنني لم أكن أعمل في أي جامعة، ولكنها تجاهلت ذلك وأزاحت جانباً ثم قالت، "لا تعتقد أن لهذا أية أهمية. من الواضح أنك هتي من نوع كفو وذكي، فلو أنك كنت البادئ بكتابتك عن إيزموند، فسوف يكون على الآخرين أن يتبعوك حتماً".

كانت تسلم بداهة بأنني ينبغي أن أكتب ترجمة كاملة لدونيلي، ولم أكن أحب أن أخيب أملها في هذه المرحلة، وهكذا فقد أومات براسي ولم أقل شيئاً. وجاءت ميس تينا بالشاي والشطائر، حيثني كصديق قديم، وحينما أخذ كل منا قلدحه وطبقه، قالت،

"يجب علي أن أقول، إنها كانت مفاجأة كاملة لي أن أسمع أن إيزموند كان سين السبعة إلى هذا الحد. إنني لم أبدا بهذا الكتاب الذي تدعوه "بافتضاض العذارى". نطقت بهذه العبارة دون أي بادرة تدل على الحرج، فانتهزت أنا هذه الفرصة لكي أخرج الكتاب من حقيبة أوراقي، بالإضافة إلى النسخة التي كتبت بالآلة الكاتبة نقلاً عن مخطوطة الكولونيل دونيلي. وبينما كاننا تلقيان عليهما نظرات عابرة، قلت،

"ترى هل يمكنكما السماح لي بأن ألقى نظرة أخرى على كتب دونيلي؟"

ثم أنزلت "الملاحظات" والمجلدات الأربعة لكتاب "يوميات الرحلات" من مكانها، ثم عدت فالتحنت مجلساً على المقعد القريب من النافذة، حتى لا أشعرها بالحرج. ومن حين إلى آخر، كنت أسمع ميس ألين وهي تغغم قائلة، "انظري!" ثم تدفع بالكتاب إلى ميس تينا، التي كانت ترمقني حينذاك بنظرة سريعة، ثم تقرأ بتعمق ولسانها يصدر أصواتاً متلاحقة كالمركبات.

فتحت كتاب الملاحظات، وأخرجت رسم العنقاء. رفعت الورقة لكي أعرضها للضوء، أجل، كانت هناك علامة مائية، أخفي الرسم جزءاً منها. وعندما أمعنت النظر جيداً كان علي أن أكبح ما انتابني من رغبة في الضحك بصوت مرتفع. كانت العلامة المائية على شكل عنقاء!

فأرنت بين الرسم الدقيق المليء بالدوائر الدقيقة (أو ما يمكن أن يدعي بالخطوط المحفورة المتلاحقة) بصورة العنقاء المحفورة بطريقة الضغط على الغلاف. كانا متشابهين في خطوطهما الخارجية، ولكن كانت هناك ستة اختلافات. لم يكن الرسم واحداً بشكل قاطع تماماً.

حينما رفعت ميس إيلين عينيها لكي تنظر إلي، أطلعتها على رسم العنقاء. نظرت إليه بسرعة ثم قالت، "أم، إنه جميل، إلى حد ما". ثم أعادته إلي، لم تكن مهتمة اهتماماً حقيقياً.

قالت ميس تينا، "هل أطلعت مستر سورم على الخطابات، يا عزيزتي؟"

"أه كلا، لقد نسيت".

والصدق. وليس هذا صحيحاً، لأن البوذيين لا يقبلون بالله، ولليسوعيين تحفظاتهم على مسألة الأمانة. فهل ثمة إذن أي أساس مشترك للاتفاق الديني؟

إن حجتي أيها الصديق العزيز تقوم على قلبي بأنه ليس هناك رجل ذكي لا يستطيع أن يقتنع بأن هذا العالم لغز غامض. إننا لا نحتاج إلا للحظة واحدة من التفكير لكي نعرف أن كل معتقداتنا التي ترقى إلى مرتبة اليقين ليست سوى معتقدات قامت على أساس من التعود، نطيعها مثلما نطيع قواعد لعبة "البيكيت" أو "الهورست" من ألعاب الورق، ولكن دون دليل يبرهن أو يؤكد صحتها.

والأديان تؤكد أن ما يقع خارج نطاق قواعد الألعاب التي نمارسها مجهول ولا يمكن معرفته، أو أن الله وحده والملائكة يعرفه ويعرفونه. ولكن العلم قد علمنا أن من الممكن أن نفهم أي شيء إذا كان منهج البحث متكامل بما فيه الكفاية ومنطقياً.

وقد أضيف إلى حجتي أيضاً قلبي بأن معتقداتنا التي تصل إلى مرتبة اليقين، أو أن ما نحن موقنون بوجوده) ليس مما يمكن رؤيته، وإنما مما يمكن أن يحس به، مثلما أحس الآن بدفء الشمس فوق يدي في أثناء الكتابة. وقد أقول أيضاً أن ما تعودنا عليه من محاولة الوصول إلى الحقيقة بوسائل الإبصار أو الاستنتاج العقلي، قد أعمتنا بما تحمله من طبيعتها الحقيقية، مثلما هي حالة الرجل الذي يحاول أن يعرف الفرق بين عصافير الكناري وبين الشاي البارد عن طريق حاسة الإبصار وحدها. إن لغز العالم الغامض يصبح مائلاً أمامنا في تلك اللحظات التي تتحرك فيها أرواحنا حركة شديدة عميقة أو حينما يستبد بها القلق أو يزعجها شيء ما إزعاجاً قوياً، وذلك إذا ما كانت الحركة الناتجة حركة منتظمة ومتناغمة. في لحظات الغموض تلك نصبح كما لو كنا قد أدركنا وجود تيار قوي يجري تحت الأرض، مثل ذلك التيار الذي سمعت صوته بالقرب من قبرض، وربما نشعر أحياناً بشدة قربيه منا حتى ليمكننا حينذاك أن نسمع صوت جريانه.

إنني حينما أشكو من السام، فإنني أصبح مثل من أصابه الصمم بسبب إصابة برد في الرأس، حينذاك لا أسمع شيئاً. وحينما أرفع بصري لكي أنظر إلى وجه شارلوت أنجستر، يختفي بالصمم، وأسمع صوت جريان الماء تحت قدمي.

ذهبت إلى الحجرة الصغيرة المجاورة، وعادت بحزمة من الأوراق حزمت بشريط. قالت: "أخبرتني تينا بأنك أردت أن تعرف إن كان هناك حفر على الخشب لطائر العنقاء في الخزانة العلوية، ولذلك قمنا ببحث دقيق، ولكننا لم نعثر على عنقائك، غير أننا عثرنا على الكثير من الأوراق القديمة - صناديق كبيرة مليئة بها. ولا أظن أن لأكثرها علاقة بإيزموند، ولكن يبدو أن هذه الأوراق كانت خطابات موجهة إليه".

حللت عقدة الشريط بسرعة، وحالاً بدأت في فصل الأوراق عن بعضها سقط على الأرض شيء ما من مظهر مفتوح، التقطت هذا الشيء. كان رسماً دقيقاً محفوراً. دون إطار، وقد رسم على قطعة صغيرة نحتت من قوقعة محارة ربما كانت من محارات اللؤلؤ. كان الرسم لفتاة شديدة الجمال، وقد تدلى شعرها في حلقات متلاحقة حتى الكتفين، ولم يكتب عليه شيء.

لم تكن الخطابات نفسها بخط يد إيزموند دونيلي، وبدأ أن بعضها كان مرسلًا من شخص يدعى توماس والجريف، وبعضها ممن يدعى ويليام استون، وبعضها ممن يدعى هوراس جليبي. ولم يبدو على الأوراق أنها كانت خاضعة لأي نظام أو ترتيب. كان بعضها داخل أغلفة وبعضها الآخر دون غلاف، ومن الواضح أن والجريف كان قساً من دبلين، أما استون فقد عاش في كورك. وسرعان ما تبين أن جليبي كان زميلاً من زملاء الدراسة رافق دونيلي في غوتينغين. ومن الواضح أنه كان ابناً للورد "جليبي أوف جو لسباي" في مقاطعة شاتر لاند. وفي وسط هذه الكومة من الخطابات، كان هناك غلاف خاص لم يكتب عليه شيء. وبدخله، عثرت على قصاصة من الورق، قطعت أطرافها بحيث تتشابه مع الرسم المحفور على المحارة، وكتب عليها بخط يد إيزموند دونيلي، "لادي شارلوت أنجستر. الابنة الثانية لإيرل فلاكستيد". وفي داخل الغلاف نفسه كان هناك ما ثبت أنه صحيفة من خطاب كتب بخط إيزموند دونيلي. وحينما قرأت هذه الصحيفة عرفت أنني قد عثرت على شيء جديد لكتابي. كانت الصحيفة تقول:

"قال فولتير في قاموسه الفلسفي أن التحزب والخطأ مترادفان طالما أنه ليس هناك مكان للرأي المتحزب في الأمور التي نعرف أنها حقيقة صادقة. كما نرى عل سبيل المثال في الهندسة أو العلم. وهو يقول أن معتقداتنا الدينية ينبغي أن تقوم على أمور تثقف عليها كل العقول. ولكنه يمضي لكي يؤكد أن كل العقول تتفق على عبادة الله وعلى الأمانة

ومن المؤكد أنه إذا كان الدين هو ذلك الإحساس بغموض العالم والخليقة، وبضخامة وامتداد ذلك اللغز الغامض، إذن فإنه ليس هناك من شيء يمكن أن يدلنا على الطريق القدس الأفضل من النساء والجبال؟ لماذا لا ينبغي أن يكون...؟

تنتهي القصاصة هنا، في منتصف الصحيفة، كما لو كان الكاتب قد قاطعه شيء ما. ولكن كلمات "أيها الصديق العزيز" بدت لي كما لو كانت توحى بأن دونيللي إنما كان يكتب مسودة أولية لخطاب، وأنه قد قرر فجأة أنه قد يكون من الأفضل أن يشرع في نسخ ما كتب في الخطاب نفسه وأن يكمله بعد هذا مباشرة دون حاجة إلى مسودة. فمن الذي كان سيتلقى هذا الخطاب؟ كان الغلاف الذي احتوى القصاصة موضوعاً وسط حزمة الخطابات الواردة من هوراس جليتي، وكانت خطابات جليتي إلى دونيللي تكثر من الاقتطاف من كتابات فولتير وفونتانييل ودالامبير، كان الافتراض العقول إذن أن يكون جليتي - وهو زميل دونيللي في الدراسة بالكلية العليا في غوتينغن - هو من يتلقى خواطر دونيللي الخاصة وثأملاته الدينية.

كانت ميس إيلين قد وضعت نسخة المخطوطة جانباً، وراحت تنظر من النافذة نظرة غائمة. سألتها،

"هل حدث أن سمعت عن سيدة تدعى اللادي شارلوت أنجستر؟"

جفلت الأختان معاً لدى سماعهما هذا السؤال. وكانت ميس تينا هي التي قالت بعد أن رمقت أختها بنظرة سريعة،

"لماذا؟ أجل. كانت ابنة إيرل فلاكسفيد..."

ثم توقفت عن الكلام، كما لو كانت قد شعرت بالحرج، ولكن ميس إيلين أنهت كلام أختها بقولها، "وشقيقة لادي ماري أنجستر التي أصبحت فيما بعد ماري جليتي".

لم أكن بحاجة إلى من يذكرني بهذا الاسم الأخير، فقد ظل الاسم عالقاً بذهني منذ الأسبوع الماضي حيناً ذكرته ميس إيلين أول مرة في التليفون. قلت،

"هل حدث أن عرفت أن إيزموند كان يحب اللادي شارلوت؟"

قالت ميس تينا، "يقولون إنه كان يحب الثلاث".

"الثلاث؟"

"لادي ماري ولادي شارلوت، ولادي مورين". قالت هذا ثم نظرت إلى أختها بضيق. هزت ميس إيلين كتفها وقالت،

"أعتقد أنه سيكتشف حقيقة الأمر على أي حال".

قالت ميس تينا، "لقد كن جميعاً جميلات جداً بكل تأكيد".

"هل توجد لهن أي صور؟"

"أوه، أجل. إن الصورة التي رسمها رومني^(١) مشهورة تماماً".

"أين هي؟"

بدت عليهما إمارات الدهشة لجهلي، وقالت تينا،

"هنا، بالطبع".

"أيمكنني أن أراها؟"

نهضت كليهما دون كلام، وقادتاني خارج الحجرة. وفي البهو، اختفت ميس إيلين لدقائق قليلة، ثم عانت وهي تحمل مفتاحاً ضخماً. عبرنا البهو نحو بابين كبيرين من خشب الماهوجني. قالت ميس تينا،

"يصر رجال شركة التامين على أن تظل قاعة اللوحات مغلقة، فإن بعض الصور تساوي قدراً كبيراً من المال".

فتحت ميس إيلين الباب، فهبّت علينا هبة من هواء بارد قوي الرائحة. أضاءت الأنوار، فدخلنا إلى "العرض الطويل" وكان بارداً كالثلج. كانت النوافذ مغطاة بالضلف الخشبية،

(١) جورج رومني (١٧٣٤-١٨٠٢) رسام إنكليزي رومانتيكي اشتهر بلوحاته التاريخية وبتصويره للوجوه ولوجوه الشخصيات المعاصرة.

والناضد والمقاعد مختفية تحت الأغصية. كان من السهل أن أتصور أن أحداً لم يدخل هذا المكان منذ سنة واحدة كاملة على الأقل. قادتني إلى صورة صغيرة نوعاً ما معلقة على الجدار الأخير. كانت الصورة بحاجة إلى تنظيف، ورغم هذا فإن ما علق بها من أتربة لم يخف جمال الوجوه الثلاثة. كانت الفتيات في وقفة تقليدية تبدو وراءهن خلفية من الأشجار وجزء من نبع ماء جار. كانت شارلوت - التي رايت صورتها منذ قليل - معروفة لدي بسهولة وعلى الفور. وكان الجمال هو الشيء الوحيد الذي تشترك فيه الشقيقات الثلاث. كان وجه شارلوت بريئاً ذا خدين ورديين، كوجه أركادي أصيل. أما الفتاة الجالسة إلى جوارها مباشرة وهي تلاعب كلباً صغيراً كثيف الشعر، فكان من الواضح أنها أكثر ذكاء، بوجهها الناعم الرقيق المرتفع على رقبة مثل رقبة البجعة. أما شعرها فقصر يكاد يشبه شعر الصبيان. قالت لي ميس تينا إن هذه هي ماري، التي أصبحت فيما بعد لادي ماري جيليني. أما مورين، والتي كان من الواضح أنها أصغرهن، فقد كان لها وجه لا بد أنه أصبح بعد ذلك بالغ الجمال، وكانت تبدو هي الأخرى رقيقة كريمة. كان من الواضح أنها فياضة العاطفة دافئة القلب، من النوع الذي يمكن أن ينفجر في البكاء عند سماع قصة محزنة. امتدت إحدى يديها لكي تلاطف الكلب. هذه الإشارة الواضحة الرمز إلى طبيعتها الرقة بالتعاطف.

قالت ميس تينا بكبرياء: "لقد دفع إيزموند وحده ثلاثين جنيهًا لرومني في مقابل تلك اللوحة. وقد عرضت علينا خمسة آلاف جنيه ثمنًا لها".

كان بوسعي أن أرى السبب الذي دفع إلى رواج الشائعات عن وقوع إيزموند في هوى الشقيقات الثلاث جميعاً. فبعد التحديق في صورة الوجوه الثلاثة لمدة خمس دقائق أصبحت أنا نفسي قريباً من الاقتناع بهذا الهوى الثلاثي كحقيقة ممكنة. كانت لكل واحدة منهن سمات مميزة خاصة تلوح على وجهها تبدو كما لو كانت تبرز وتطفو على سطح الوجه كلما أطل المرء التحديق فيه. لقد كان بوسعي أن أكتب رواية عن ثلاثتهن.

"الديكن صورة يبدو فيه وجه إيزموند؟"

"أوه، أجل، لدينا اثنتان. واحدة بريشة ريبورن والأخرى بريشة رسام يدعى زوفاني".

لم توح إلي لوحة زوفاني إلا بالقليل. كان الوجه جامداً لا ينم عن حركة، مفتقداً إلى أي أثر من شرارات الحياة. كان دونيللي في الصورة يرتدي زي الضباط متكناً على شجرة. كان من الواضح أنه بالغ الطول نحيف القامة. أما الوجه فكان طويلاً، بارز الفك، مستقيم الأنف.

أما لوحة ريبورن فكانت أكثر إحياء. لم يكن فيها أي ادعاء أو تظاهر، ولا تكاد تظهر فيها أية خلفية. ومن بعض جوانبها كانت تبدو كما لو كانت رسماً تخطيطياً سريعاً تهينة لرسم الصورة نفسها. ولكن ريبورن كان قد استطاع أن يقبض على تعبير يعلو الوجه ينم عن اللهفة، حيناً رسمه متطعماً إلى الأمام كما لو كان يصغي إلى قصة ممتعة. لم يكن الوجه من ذلك النوع الذي يمكن أن يقال عنه أنه وجه وسيم، كان الأنف ذو العظمة الناتئة والخدين البارزين قد جعلاني أفكر في صورة شرلوك هولمز. ولما التفت عن هذه اللوحة لأنظر مرة أخرى إلى لوحة زوفاني، رايت سمات أخرى في تلك الأخيرة: حجم الصدغ الذي يوحي بنوع من السيطرة على وضع الوجه وما يعلوه من تعبير، مثلما يمكن أن نراه على وجه جولاء أصيل جيد التدريب وفقاً كالتمثال في ساحة العرض قبل بداية السير.

وبينما كنا نغادر الحجرة - وقد تجمعت أجساد ثلاثتنا - قلت:

"أظن أن إيزموند كان يمتلك كل المميزات اللازمة لاجتذاب حشود من العجبين والعلقين".

"هل تظن هذا؟" وابتدت على كليتيهما سمات اللهفة إلى الإجابة.

"إن هذه الحكاية عن وقوعه في هوى ثلاث من الحسان تجعله شخصاً ملائماً تماماً للحكايات العاطفية - شخصاً "بيرونيًا" تماماً، إنه شخصية أكثر إثارة للاهتمام من بوزويل نفسه".

"لقد رايت ذات مرة فيلماً عن شوبان. كانوا قد صنعوا هذا الفيلم بطريقة جيدة. وكنت أبكي طوال العرض" قالت ميس تينا.

"تحيل أنهم قد يروق لهم أن يصنعوا فيلماً عن إيزموند".

"يمكننا أن نربح الكثير من المال؟"

"تخيل هذا".

قالت ميس تينا، "إذن لقاسمناك الريح معنا".

"هل تعرفين شيئاً عن حكاياته مع الشقيقات الثلاث؟"

"ليس على وجه التحديد، إنه أقرب إلى أن تكون حكاية عائلية".

"وماذا عن موت لورد جليبي".

قالت ميس إيلين، "لقد أصيب بالرصاص. ولست أعرف الكثير من التفاصيل، ولكن أبي قرأها مرة في مكتبة دبلين القومية، ولذلك فإنه ليس من الصعوبة البالغة أن تراجعها. كان هناك همس حول ما أحاط بايزموند من شكوك، ولكن أبي قال إنه ليس من المحتمل أبداً أن يكون القاتل. أتمنى أن تتولى أنت توضيح ذلك الأمر".

"سوف أبذل جهدي بالتاكيد".

قبل أن يغادر المنزل، صعدت معها لمشاهدة الخزائن العلوية. كانت شديدة الظلام، يعلوها تراب كثيف، مليئة بركام كثير من شتى الأشياء التي تراكمت عبر القرون؛ إشارات صور مكسورة، كتل وأشكال أخرى من الخشب لا يمكن معرفة الغرض منها، قطع أثاث محطمة، أنية اغتسال من البروسلين، حزم من الأوراق التي يمكن أن تكون أي شيء، من حسابات المزارع إلى اليوميات المفقودة. نظرت إلى هذه الحزم نظرة عابرة وفهمت ما كان البروفيسور أبوت قد شعر به بالتأكيد في الخزائن العلوية في منزل فوربس، عندما أحاطت به المخطوطات، ولكن ذكرى أبوت منحتني فكرة جديدة.

"ليست لديكما أية فكرة عن الشخص الذي عينه إيزموند لكي يكون مشرفاً على

تراثه الأدبي؟"

نظرت إحداهما إلى الأخرى نظرة لا تنم عن شيء.

"كلا، سوف نحاول أن نكتشف ذلك".

وقبل أن يغادر المنزل قلت إنني لا بد أن أعود مرة أخرى في موعد قريب جداً لكي انظر في الأوراق. وبينذاك - ولشدة دهشتي - قالت ميس تينا، "ليس الأبسط إذاً هو أخذها معه، يا

عزيزتي؟" فقالت مسز إلين دون تردد، "أوه، بالتأكيد". وأخذتا في معاونتي في عملية نقل الأوراق ووضعها بشكل فيه بعض الترتيب في مقعد السيارة الخلفي، ورفضتا بشدة قبول ما عرضته عليهما من دفع نوع من التأمين. ورحت أقود السيارة وأنا أشعر بما يشبه الثقل يحط علي بسبب ثقتهما. عندما أخذت أفكر في هذه النقطة، سرعت في فهم السبب، لقد كانتا وحيدتين وأقرب إلى الإفلاس رغم أنهما تعيشان في ظل هذه العظمة الفاخرة مع شح الموارد والعين، دون أي احتمال لشيء جديد إلا أن يتقدم بهما العمر نحو الشيخوخة. ومن المحتمل أنهما كانتا تتساءلان أيهما سوف تغيب قبل الأخرى عن هذه الحياة. وحينما تموتان، فمن المحتمل أن يذهب المنزل ميراثاً لأحد أبناء الأسرة البعيدين من الذين يقيمون في كندا أو نيوزيلاند. ولكن كان العالم الكبير يطرق الآن بابهما. كان هناك شيء ما تحلمان به - الناشرون، تعويضات القيلم، الدارسون المتخصصون وهم يتهافنتون جماعات جماعات لزيارتهم. وقد أردتا أن تؤمنا بكل ذلك وأن تصدقاه، ولذلك فقد أردتا أن تؤمنا بي وأن تصدقاني، أو تقبلاني قبولاً كاملاً، وأن تنظرا إلي بشيء من الود المكين. أما ما اعتبرته أنا أعظم العقبات - وهي سمعة إيزموند باعتباره من كتاب الأدب الداعر الكشوف - فقد تحولت لكي تصبح شيئاً لا علاقة له بالعقبات أو المعوقات، منذ أن أعلن لهما عن زيف وصف كتاباته بالأدب الداعر أو عدم معقولية هذا الوصف، وصرحت لهما بأنني أنوي أن أعلن هذا الرأي في الكتاب المنشور نفسه. كانت الأجزاء التي حصلت عليها من مذكرات دونيللي - عن طريق الكولونيل دونيللي - صريحة من الناحية الجنسية، ولكنها لم تكن أكثر صراحة من مذكرات بوزويل، وكانت قبل كل شيء، مكتوبة بأسلوب جيد.

جعلتني هذه الاعتبارات أشعر بأنني في حالة أفضل. كنت قد ظننت أنه ليس هناك فرصة معقولة لإحياء ذكرى دونيللي حينما إعطاني فليشر مخطوطة "المذكرات". ورغم كل شيء فقد كانت هذه نظرة مرضية.

حينما فحصت حزمة الخطابات الجديدة، عرفت إننا قد حصلنا على كتاب، سواء ظهرت أم لم تظهر أية مخطوطات أخرى لدونيللي. فإذا استبعدنا مخطوطة دونيللي، كانت هذه الخطابات أكثر ما حصلت عليه حتى الآن جاذبية وإثارة للخيال.

من الصعب أن تتخيل ثلاثة أشخاص يتبادلون الرسائل ويكونون ذوي شخصيات أكثر اختلافاً من توماس والجريف وويليام أستون وهوراس جليبي، إلى جانب أنهم قد

كشفوا عن تعقد شخصية دونيللي نفسه. كان والجريفة رجلاً من دبلين اهتماماته الرئيسية هي الفلك والرياضيات، وكانت خطاباتاته إلى دونيللي تهتم أساساً بهذين الموضوعين. أما أستون فكان يدرس اللاهوت في إحدى المدارس البروتستانتية في عام ١٧٧٢، وهو تاريخ الخطاب الأول، وأصبح فيما بعد قسيساً في بالبينكولج، بالقرب من مدينة كورك (حيث كان يقع منزل عائلته). وقد أزعجه إلى درجة كبيرة ما ظهر أنه ميلان متناقضان في شخصية دونيللي، تجاه عدم الإخلاص وتجاه "الحماس" (أي التعصب أو الإيمان الغيبي). فحينما كان دونيللي يقتبس من فولتير وبابل ومونتسكيو، كان أستون يجيبه بحجج مستمدة من مواعظ جورتين وأوجلين، وتيلوستون وسمارليدج وشيرلوك. ولقد وجدت كل ذلك حشواً لا لزوم له وكنياً إلى درجة لا تصدق - المناقشات الطويلة المدققة دقة من يريد أن يشق شعره بالطول إلى نصفين، حول موضوعات التناسخ والجبرية ومقدار ما في الأناجيل من حقيقة الخ. ولكن كان من الواضح أن أيزموند لم يكن يرى أن هذه المناقشات قد تكون مضجرة، ذلك لأن إجابات أستون كانت طويلة مطنبة، مما يشير إلى أن رسائل دونيللي مساوية لها في الطول والإطناب.

ولكن خطابات جليبي كانت هي التي تلاءمت مع ما كنت أعرفه بالفعل عن أيزموند دونيللي. فبعد أن قمت بترتيبها طبقاً لتسلسلها الصحيح (مع قدر معين من التخمين - فقد كان الكثير منها غير مؤرخ) اتضح أنها استمرت من شهر مايو، عام ١٧٦٧ حتى عيد الميلاد عام ١٧٧١. كان جليبي وأيزموند معاً في غوتيفين أغلب تلك الفترة، ولذلك لم تكن مراسلاتهما مطولة كما كانت الحالة في مراسلات أستون ومن الواضح أنهما كانا يتبادلان الرسائل حينما كانا يفترقان لمدة طويلة، ولكن هذا الافتراق لم يتكرر كثيراً لأنهما كانا صديقين إلى حد كبير.

أما قصة علاقتهما، وهي التي أصبحت قادراً على تجميعها من خلال خطابات جليبي فكانت كالتالي، حينما التقى أيزموند دونيللي بروسو وبوزويل في نيو شاتل، انتقل بعد ذلك إلى ميلان حيث قضى عيد الميلاد في عام ١٧٦٤. وفي شهر يناير قضى أسبوعاً في البندقية، ثم قضى أسبوعاً في مدينة غراتس. في طريقه إلى غوتيفين. وهناك تعرف على جورج كريستوف ليتشنيرج، الذي أصبح فيما بعد فيلسوفاً بارزاً (ولكنه كان مهتماً في الأساس في تلك الفترة بالرياضيات والفلك) كما تعرف بالقسيس هوراس جوردون جليبي. وكان هذا

الآخر شاباً وسيماً داكن البشرة، يكاد يكون يهودي اللامح، وكانت لكنته اسكتلندية واضحة في نطقه للإنكليزية، وكان أكبر بقليل من دونيللي، ولكنه أقل ثقافة بكثير، وكان الابن الثاني لأحد سادة الريف الاسكتلنديين جاء من المناطق غير المأهولة أو المتحضرة من تلك البلاد. كان هناك شيء واحد يشترك فيه الثلاثة، ليتشنيرج وجليبي ودونيللي - وهو الاهتمام الدائم بالجنس الآخر. وكانت غوتيفين مليئة بفتيات الزارع الشابات المترعات بالصحة والعافية، وهن اللواتي وصفهن ليتشنيرج بقوله، "الخلوقات التي تتقافز مرحلة في وديان هارز أو وديان وسلينج واللواتي لم تقع أنظارهن أبداً على مبلغ من النقود أكثر من النائر الواحد، واللواتي ينظرن إلى قبعة السيد النبيل المزينة بالريش نظرة فزع بينما تبدو طلبات أصحاب تلك القبعات كالأوامر الملكية". وكانت غوتيفين بلدة ذات شهرة أكاديمية سامية، على العكس من هال أو بينا أو جيسين وهي المدن التي كانت مليئة بأدعياء العلم الذين كان محط اهتمامهم الرئيسي هو المبارزات. ولكنها مثل أكثر المدن الأخرى في ألمانيا، كانت منظمة تنظيمياً رفيعاً، يسودها انضباط صارم حيث اعتاد الفلاحون أن يطيعوا أوامر سادتهم مع الإشارة هنا أن تلك الأماكن كانت جزء من إنكلترا، وكان الملك جورج الثالث دوقاً لهانوفر بالإضافة إلى كونه ملك بريطانيا العظمى، وهو واقعاً ما كان قد دفع والذي أيزموند إلى اختيارها مقر لدراسة ولدهما. وقد ابتهج أيزموند وجليبي حينما اكتشفا أن تلك الخلوقات النذبة لم تكن بحاجة إلى الإغواء مثلما كانت الحالة مع الفتيات في الوطن. ويذكر جليبي في أحد خطاباتاته أن ليتشنيرج أغضبه باتهامه إياه بأنه كان يسعى إلى اقتضااض كل عذراء في مقاطعة هانوفر، استعداداً لأن يقضي حياة كاملة من الحرمان حينما يقدر له أن يعود إلى وطنه الطهري المترمت.

ولكن جليبي كان أبله إذا ما قورن بأيزموند، أو أنه كان رجلاً ضيق الأفق. وقد سيطر عليه أيزموند سيطرة كاملة، ومن الواضح أن جليبي قد أثار ثائرة أستاذ لهما يدعى كاستنر حينما قال له أن أيزموند واحد من أعظم العقول في أوروبا بعد موسير مندلسون. (وبعدها، اعتاد كاستنر أن ينادي أيزموند ساخراً باسم "الأستاذ الأعظم") وكان ما سحر جليبي في شخصية دونيللي هو ما كان يتمتع به من جمع بين الحيوية الجسدية والسمو العقلي. كان ليتشنيرج شديد الذكاء واسع الثقافة، ولكنه أيضاً كان ضعيف الجسد عاجزاً كالأحلب. كان أيزموند يملك مؤهلات كبيرة وجيدة في استخدام السيف، وكان فارساً جيداً وسباحاً ممتازاً، ومحبباً إلى النساء، كما كان أيضاً قريباً من أن يكون شاعراً وفيلسوفاً

ومتصوفاً. أما جليبي فكان قد خضع لسيطرة أبوية شديدة الوطأة، وكان مبالاً لأن يكون تابعاً مقهوراً. وفي غضون شهور قليلة كان دونيللي يصفه بأنه: "نموذج للشهامة والشهوانية والإغواء والبذاءة والعناد والقدرة على افتراء العذاري". ولكن سرعان ما تملكهما الضجر من خادمتي المدينة ذوات الأجساد الضخمة، وشرعا في توجيه انتباههما إلى بنات الأساندة وغيرهم من المواطنين المحترمين. ومن الواضح أن الدهشة قد تملكتهما وغمرتهما البهجة لما لقياه من نجاح، وكاد أيزموند أن يتعرض لخطر كبير على أثر علاقة كانت تتحول إلى الزواج من الابنة الصغرى لقسيس في بلدة ثورتين هاردينغ، وهي الأنسة أولريكادوسان. ولكن علينا ألا نفترض أن أيزموند وجليبي لم يكونا يفترقان أبداً. ومن الواضح أن جليبي ما كان يمكن أن ينتهج لو أنهما افترقا، ولكن أيزموند كان يهتم أيضاً بقراءة كنانط وبيداسة الرياضيات والفلك. ويشير جليبي إشارات عديدة إلى إهمال أيزموند لشأنه. ولكنه كان يعجب بأيزموند إعجاباً حاراً حتى لقد كان على استعداد لأن يقبل أي قدر من انتباه يمكن أن يوليه أيزموند له.

إن الخطاب الذي أرسله جليبي إلى أيزموند في التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٧٦٦ خطاب نموذجي حقاً، أنه يستهلك صفحة ونصف صفحة من الشكوى من أن دونيللي قد أهمل دعوته له لتمضية عيد الميلاد في منزل الأسرة بالقرب من جلوسي، وفي وصف مباحث الرحلة شمالاً في أواخر شهر نوفمبر. ولابد من قراءة وصف جليبي للطعام الذي التهم في يوم عيد الميلاد حتى يمكن للقارئ أن يصدق أن هذا هو ما كتبه بالفعل. لقد بدأ الطعام في السابعة والنصف صباحاً بإفطار من شطائر الشعر وأسماك السلون المسلوقة، واللحم المقلي ولحم سيقان الخنزير، والحلوى والفواكه المسكرة. ولكن الموضوع الرئيسي في الخطاب - بشكل حتمي - كان متعلقاً بوصف مغامراته الغرامية في أثناء العطلة. "كنت قد قررت في البداية أن علي أن أستحوذ على كرم فتاة تدعى ماجي ماك بين، وهي ابنة أحد الفلاحين الذي يؤجرون أرضنا، والتي كانت قد أعربت عن بعض المشاعر الرقيقة تجاهي قبل أن أغادر المدينة، رغم أنها كانت قد أقسمت في ذلك الحين أنها تفضل أن تموت على أن تفقد احترامها لنفسها". وقد ثبت أن افتضاض ماجي كان أسهل بكثير مما كان يتوقع. وقد تم ذلك في أحد مخازن الحبوب بعد حفلة رقص كان السيد الشاب في إثنائها محور اهتمام الفتيات كلهن. (وفي مثل هذه المنطقة النائية، يختلط السيد بأجرانه ومؤجري أرضه بحرية كافية). وشعر جليبي بنوع من الإغراء يدفعه إلى مواصلة قصة غرامية مع ماجي،

الأمر الذي كنت حديراً بأن أقوم به في الماضي دون أي تفكير، ولكنني في هذه المرة راجعت نفسي على ضوء مبدئك العظيم القائل بأن الهدف الأساسي في الحياة هو تحقيق نوع من طزاجة التجربة وجديتها، وكان علي أن اعترف بأن رغبتني في الفتاة كانت تفقد حرارتها تدريجياً، وأن رؤية قبعته الحريرية الخفيفة وإزارها الملونة لم تعد تؤدي إلى تأثيرها القديم وقد حاولت دون نجاح أن أكرس عقلي للدراسة..".

"وفي اليوم الثامن والعشرين عادت شقيقتي ماري (التي قابلتها أنت في بيرث) من كينينكاردين، حيث كانت قد قضت عيد الميلاد مع فيوناغوتري وهي ابنة صديقة قديمة لأمي، وأختي كما تعرف، نحيفة ضئيلة الحجم بالنسبة لسنها (الرابعة عشرة) ويمكنني أن أقول، دون كبرياء لا مبرر له، إنها تحبني بدفء لم أفعل أنا سوى القليل لكي أستحقه. وقد أحسست بما يشبه الصدمة حينما اكتشفت أن فيونا قد تغيرت إلى درجة عظيمة في اثنا، الثمانية عشر شهراً التي انقضت منذ رأيتهما لأول مرة. إنها تمر بتلك المرحلة الساحرة حيث تبقى أفكار وأساليب الطفلة، بينما يكون الجسد جسداً امرأة. إنها تملك وجهاً ساحراً ورياءً، وشفة عليا أقصر بكثير من رفيقتها الأمر الذي يعطي لفمها شكلاً بارزاً قد يظنه البعض تجهماً على سبيل الخطأ. كانت في طفولتها أقرب إلى الصبيان في ألعابها وسلوكها (إذا جردنا هذه العبارة من كل ما تدل عليه من عدم تواضع أو رقة) ولطالما تعاركت معها وصارعتها وأمسكتها من ساعديها بقوة. أما الآن، وطالما أنها أصبحت على مثل هذا الجمال، فقد قررت أنني قد أفعل ما هو أسوأ من اتباع نصيحة مستر شتيرن فأنشئ علاقة عاطفية معها، حتى ولو كانت من جانب واحد إلى حد ما..

(لقد وضعت أنا هذه النقاط في الأماكن التي يبدو فيها من كلامه نوع من الانحطاط في دوافعه، طالما أنها لا تؤدي إلى غرض ما، وقد ثبت أن هذا كان أكثر سهولة مما توقعته، ذلك أن كل ما كان علي أن أفعله هو أن أعاملها مثلما أعامل ماري، باهتمام كثير وبود أخوي. إنني أقول لك في أمانة كاملة أن أفكاري حتى تلك اللحظة كانت بريئة إلى الدرجة التي يمكن أن يتمناها الراعي الصالح جاييس. كانت في حجرتهما مدفأة جيدة، وقد قضيت هناك ساعات طويلة أحتسي أقداحاً من الشاي وأصف لهما عادات هانوفر وأهلها، شاعراً بالعالم كله مثلما كان يشعر به عطيل الغربي. ولقد وجدت أن الانتباه الرقيق الصادر عن هاتين الطفلتين أكثر إمتاعاً ومسرّة من دراسة هلاكوس وأقنعت نفسي في لحظة ما بأن

هذا هو ما عناه روسو وما كان يفكر فيه عندما تحدث عن النعيم الثاني الذي تهبنا إياه الطبيعة.

"ولكن للأسف، لقد لقيت مشاعري السامية هزيمتها الأولى في اليوم الثاني من العام الجديد، قبل حوالي نصف ساعة من تناول العشاء. كانت الفتاتين تلعبان حينما دخلت الحجرة، وحينما اشتركت في لهوهما، لم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظة اهتزازات ردي في فيونا حينما ففرت فوق السرير لكي تهرب من ماري، ولا شكل سمائتي ساقبها الجميلتين حينما نحتن إلى الأمام مرة ثانية. وحينما مدحت ما طرا على شكل جسدها من تغير، لم يبد عليها الحرج، وإنما ضحكت على ما قالت، وقالت ماري أن السبب يرجع إلى تناول الكثير من اللحم السمين. وبعد ذلك طلبتا مني أن أقرأ لهما من كتاب "جرانديسون"، الأمر الذي قمت به تلبية لسلولهما، جالساً أما نار الدفأة على البساط السميك، بينما جلسا إلى جوارتي تحيطان النوبيين الأزرقين من الموسلين اللذين كان عليهما ارتداؤهما في حفلة الرقص التي ستقام في "ستراشيفيري" في شهر فبراير. وبعد قليل، استغرقت ماري تماماً فيما كانت تسمعه حتى لقد ألفت بالنوب جانباً ووضعت رأسها على حجري مادة ساقبها لكي ترفعهما على مقعد صغير قريب، وبعد لحظات قصيرة حذت فيونا حذوها. ثم تحركت ماري إلى أعلى بطريقة جعلت خلفية ثوبها ترتفع فوق فخذيهما، كاشفة عن أجمل ساقين رأيتهما في عيد الميلاد... وحينما دق الجرس يدعو أهل البيت إلى العشاء، ابتهجت حينما لاحظت ترددها في النهوض، وتظاهرت بأن هذا الخبز كان لأنها غرقت في النوم، ولكنني أنا، الذي كان بوسعي أن أرى حركات جفونها، أعرف الحقيقة.

"في اليوم التالي لم يقع المزيد من التقدم، لأن الوزير كان يريد أن يرد على دعوتنا، ثم أخذهما أبي وأخي موراي في نزهة بالعربة لكي يطلعاهما على منظر أبراج قلعة داتروبين. ولكن حينما رأيت فيونا قبل أن نتناول طعام العشاء، قالت، "لقد اقتلنا قراءتنا اليوم. عليك غداً أن تقرأ ضعف ما قرأناه أمس". جلبتها قريباً مني، وثركت يدي تتجول فوق ظهرها، سألتي عما أفعله، فقلت، "أرى كم من الأضرار غير مثبت في موضه".

"كان اليوم التالي، الأربعاء، مشمساً وبارداً، وكان "اللورد" جليني بالخارج طيلة اليوم في طلب سيدة عجوز تشتكي أمر اغنامها، وحينما أخبرني جامي هذا الخبر، قلت له أنني ساستمر في النوم لكي اتناول طعام إفطاري، وأطلب الماء الساخن في العاشرة. وبعد ذلك بقليل،

وبينما كنت في شباب نومي واقفاً أؤدي تمرينات الصباح، دخلت ماري وسألتي إن كنت أحب أن أتجول معهما في غرف القصر الخالية. وسرعان ما جاءت فيونا للبحث عنها، وأعجبت الاثنين بقماش قميص نومي الذي كان واحداً من تلك القمصان التي اشترتها في ستراسبورغ من سوق الحرير. وحينئذ قصت فيونا حكاية عن خادم يعمل لدى عمتها الذي كان يجري وقد ارتد أكمام قميصه دون قميص حقيقي لكي يعد المائدة للضيوف. وقالت له أن يرتدي سرته فأجابها، "بالتأكيد يا سيدتي، ولكن السرة تحمل كثيراً من الأشياء الصغيرة التي تجري هنا وهناك. وقد نزعته الآن لتوي، وأنا أكره أن أخلع سرتي وصداري، ولا أدري إلى متى سأظل قادراً على تحمل هذه "الأكمام" الباردة." وضحكنا جميعاً على هذه النكتة، ولاحظت في رضا كيف أنها نظرت إلي وأنا في هذه الثياب الليلية دونما حرج يزيد على ما قد تشعر به ماري، الأمر الذي دلني على أنها تفكر في مثلما تفكر في أخيها الشقيق. وهكذا، قبل أن استأذنهما في الخروج، لكي ارتدي ملابسني، أحطت خصر كل منهما بذراع وضغطتهما إلى صدري، ولاحظت أن امتلاء فيونا قد يحفظ للرجل دفنه دون حاجة إلى قميص للنوم.

"ليس عليّ هنا، يا عزيزي تيد، أن أصف الصباح وصفاً كاملاً، وإلا لأصبح هذا الخطاب في مثل طول موعظة من مواعظ مار بورتون. ولذلك قدعني أكتفي بالقول إننا قد فرحنا وضحكنا كثيراً، وانتهزت أنا كل فرصة لكي أطارد كلامهما، من أجل أن نشعر بالدفء في ذلك الجناح البارد من القصر، ولكي أجعل فيونا تتعود على أن تألفني. وكان عليّ بالطبع أن أكرس الكثير من انتباهي لماري، لكي لا أثير الإحساس بالتنافس بينهما ولكي أجعل فيونا تتقبل لمساتي كشيء طبيعي. ولم ألتق في هذا المجال بأية مقاومة، لأنهما جميعاً كانتا تتمتعان بروح رياضية عالية.. لسوف تسجل ملاحظة عن الدرس الستخلص من كل هذا يا تيد، لكي تضمنتها تاريخك. إن الموقف هنا يكشف عن حقيقة وصدق ما يؤكد ليتشنبرغ من أن المشاعر والأحاسيس تتداخل وتمتزج مثل المواد الكيميائية. لقد كانت ماري شقيقتي، وقد انتهزت كل فرصة لكي تؤكد ذلك لفيونا، كما لو كنت شيئاً قابلاً للاقراض، وقد قبلت فيونا هذا القرض وما تبعه من أنواع الرعاية والاهتمام الأخوي، وأنا كنت الآن قد حصلت على تصريح بأن أعامل فيونا مثلما أعامل ماري، فلم يكن عليّ حينذاك سوى أن أعامل ماري بالألفة التي أريد أن أعامل بها فيونا حتى أجعل الأمر كله يبدو طبيعياً دون افتعال.

"وقد ظهرت ميزة هذا الوضع في وقت لاحق لعصر ذلك اليوم، حينما ذهبت إلى غرفتهما لكي أقرأ لهما من كتاب "جرانديسون". كنت أعرف أنهما تنويان تجربة النوبين الأزرقين من الوسلين قبل القيام بخياطة الأشرطة. ولذلك فقد ذهبت مبكراً. كانت هيونا ما تزال تخطط ثوبها، ولكن ماري وقفت في قميصها الداخلي، تحاول أن تجرب مشدأ مصنوعاً من عظام الحوت. وطلبتا مني أن أقدم النصيح من وجهة نظر الرجل، الأمر الذي قيمت به بسعادة بالغة، بينما كنت أساعد ماري في شد أربطة الشد. قلت لهما أن نساء باريس، في البلاط الملكي، يفضلن ارتداء ثياب ترك صدورهن كلها عارية...

وبعد ذلك ساعدتني في ارتداء الثوب، وتحدثت مثل مليونير عن المحاسن النسبية لكل من المواد المعدنية أو العظام في صناعة الأزرار، وعن محاسن اتخاذ بعض الفرز للتينة فوق عروة الزرار!

"حينذاك، كانت هيونا قد وضعت إبرتها جانباً، فسألتها إن كانت تحتاجني لكي أهلك أزرارها، هذه الأزرار التي كانت بين نهديهما هذه المرة. وبدا عليها الخجل، ولكن ماري المخلصة لي أكلت - مثل تاجر شرقي ذكي - أنها لن تفوز أبداً بمثل هذا الخادم المدرب، وبناء عليه، دخلت الفتاة في جو اللعبة، فسمحت لي بأن أهلك أزرارها وأن أجذب ثوبها إلى ما تحت الكتفين، وفي هذه المرة لم أسمح لنفسني بمزيد من الحريات مع الكرتين الناعمتين اللتين كانتا مكشوفتين أمام عيني، لأنني شعرت أن ماري قد تجتاحها الغيرة. وبدلاً من ذلك ساعدتها على ارتداء ثوبها الأزرق...

"دخلت الخادمة لكي تزود النار بالخشب، فجلست على مقعد وتظاهرت بالانغماس في قراءة كتاب ما. ولكن حالما أصبحنا وحيدين مرة أخرى، اقترحت أن نعود إلى قراءتنا قبل أن يسود الظلام (لأن الساعة كانت بعد الرابعة). قالت ماري إنهما لابد أن تبدلا ثيابهما أولاً، ولكنني قلت لها أن الأمر لا يستحق هذا التعب، وأنهما على أي حال يمكن أن تعرها إن كانت مادة نسيج الثياب من النوع القابل للتكسر أم لا. واقنعتهما تلك الحجج، فجلستا إلى جوارتي على البساط السميك. وحالما بدأت في القراءة، عادت ماري فوضعت رأسها على حجرتي، وسرعان ما حلت هيونا حذوها واتخذت كل منهما وضعاً لا يسمح لهما برؤية الأخرى، لكنني اتخذت إجراءً إضافياً ضد التلصص المتبادل بأن أسندت الكتاب إلى رأس ماري بحيث يمكن أن يسقط إذا هي تحركت. ويمكنك أن تلاحظ أن هذه الحيلة تركت يدي

كلتيهما حرتين.. وفي هذا الوضع شعرت كأنني مشعوذ "محشور" بين جرانديسون الفاضل وبين زهرتي الشتائيتين. ولما كانت فتحة ثوب هيونا واسعة هابطة إلى أسفل، والظهر مفتوحاً، فلم تكن هناك مشكلة في أن أدس يدي إلى ما وراء الإبط، ثم إلى ثديها الأيمن، دلتني حركات جلدها تحت ملاطفتي أن هذا التقدم لن يكون موضع الرفض.. وحينما بدأت في الضغط على الحلمة اليمنى، لم يكن يوسعي أن أحكم على النتيجة إلا من تزايد معدل تنفسها شهيقاً وزفيراً. وجدت في ذلك بهجة كبيرة حتى أنني بعد قليل، حركت يدي إلى فمها، وضغطت على الشفة السفلى، ثم لعبت بها قليلاً بين إبهامي وسبابتي. وأطبقت هي شفتيها حول إصبع السبابة، وراحت ترضعه كما لو كان حلمة طفل صناعية تعطى له لكي يها حتى يأتيه الطعام. وحينما تعبت من هذه اللعبة، دس يدي إلى صدرها مرة أخرى، ولكنني توغلت هذه المرة تحت الجانب الأمامي من الثوب...

.. ثم قالت هيونا، "لقد ساد الظلام بدرجة تمنع القراءة. حدثنا عن غوتيفين". قلت "ماذا تحيان أن تعرفها؟" قالت: "أحك لنا مرة ثانية حادثة قتل الطلبة مع الرحالة". وهكذا تنفست عدة مرات بعمق حتى أستعيد سيطرتي على نبضات قلبي، ثم أعدت عليهما الحكاية القديمة المعتادة..

"كنا نعرف جميعاً أن الجرس سرعان ما سوف يدق، وأضاف هذا إلى متعنا متعة أخرى.. وحينما قلت، "سرعان ما سيحين وقت العشاء" فغمغمت هيونا نافذة الصبر. وجعلني هذا أقرر أن الوقت قد حان للتقدم إلى الأمام. سمحت لليد التي استقرت على ردف هيونا أن تتحرك إلى أسفل، وجذبة جانباً فماش الثوب. وبعد لحظة واحدة، كانت يدي مستقرة على مؤخرتها العارية، مبتهجة بنعومتها ورقة استدارتها. ومن المؤكد أنها كانت شيئاً ممتع اللامسة، حتى لقد كان يوسعي أن أستمّر في ملاطفتها حتى دق الجرس...

"أسرعت هابطاً إلى مائدة العشاء وحينما سألتني الوالد عن الفتاتين قلت أنني لم أرهما، ثم أرسلت جامي إلى الطابق العلوي لكي يدعوهما. هبطا بعد أن ارتدت كل منهما ثوباً آخر، واعتدرا بالنوم أمام نار المدفأة..

"والآن يا صديقي العزيز، وأنا اختتم هذه الرسالة الجرانديزونيانية، يجب علي مرة أخرى أن أشني على التعاليم الملهممة التي أدت إلى هذه النتائج المرضية. فإن الرجل الذي

يستطيع أن يمضي ساعتين منكباً على مثل هذه النشوة السامية إنما يكون قد مارس جانباً من حالة الآلهة، ولابد أن تصبح روحه أكبر بعد تلك المادية".

وينتهي خطاب جليبي بصفحة ونصف صفحة في تأملات من هذا النوع. ولن اقتطف هذه التأملات لأن في أسلوبها الكثير من القفظة الناتجة عن التفاخر، ولا تصل إلى مستوى الجزء السابق من الخطاب. وإلى جانب التأملات، يؤكد في النهاية أنه سوف يستفيد مما حققه من نجاحات، وأنه سيحاول استكمال العمل الذي بدأه. ولكن فشله في ذلك يظهر من خطاب كتبه في شهر يونيو التالي، حيث يهني نفسه لأنه لم يكمل خطته، "لأن التفكير في التعقيدات التي كان يمكن أن تنشأ يجعلني أعرق واهتز من الخوف والألم" وأظن أنه يشير ببساطة إلى التعقيدات التي لابد أن تنشأ من وقوعه في هوى فتيات بريئات براءة كاملة وبعيدت بعداً كاملاً عن أي ثقافة، وقد أصبح عشيقة لسبيونا في عام ١٧٦٨، أي بعد تاريخ كتابة ذلك الخطاب بعامين..

- ١٢ -

□ لقد اقتطعت الفقرة السابقة على طولها لأنها توضح أشياء كثيرة، هناك أولاً، الإشارة إلى "التعاليم اللهية" التي توحى بأن جليبي يعتبر نفسه تلميذاً لأيزموند في مثل تلك الأمور. هل يستطيع أحد، في الحقيقة، أن يقبل كل ما كتب عن عصر ذلك اليوم الثاني من شهر يناير عام ١٧٦٧؟ كان ميلي الأول هو أن أرفض الكثير منه باعتباره نوعاً من الإعراب عن رغبات كامنة أكثر منه استعادة لأحداث وقعت بالفعل، وعلى أنه يشبه - بوجه خاص - مجموع تطور الفقرة التي تشير إلى ما كان للأخوين كريببيون وكليلاوند من نفوذ وثأير. ولكن ظهر لي بعد هذا أن جليبي لم يكن ذلك الرجل الماهر، بل إن بعضاً من التعبيرات اللبقة في الخطاب كانت مستعارة من أيزموند نفسه. والحق أنه قد ينبغي للمرء أن يقول أن الأهمية الرئيسية لذلك الخطاب هي أنه يكشف عن مقدار ما تأثر هوراس جليبي بطابع أيزموند وشخصيته. كلا بل إنني أعتقد أن ما حدث هنا كان أكثر أهمية بكثير. فقد كان جليبي - مثله في ذلك مثل أكثر النبلاء الشبان في أيامه - شديد الميل إلى النزعة الحسية الشهوانية منذ سن مبكرة، وهو يذكر في مكان آخر أن زوجة أحد الفلاحين قد اغوته وهو في الحادية عشر من عمره، ويذكر في مكان ثالث أنه قضى أسبوعاً سينا للغة

حينما استغرقت الدورة الشهرية لفتاته وقتاً أطول مما ينبغي. ولكن كان شهوانياً بطريقة لا خيال فيها، مولعاً بقرص أرداف الخادومات، وكان سريع الضجر بالغ الكابة على الفتيات اللواتي ينتمين إلى طبقته، وكان يحبس لسانه في فمه تماماً مع النساء اللواتي يعجب بهن حقاً. كان أبوه يقسو عليه ثم فرض عليه حمايته من بعد ذلك، كما كان في تعب مستمر مع شقيقه الأكبر (الذي مات في عام ١٧٧٠ بالتسمم الكحولي، بعد أن أخذ يشرب البراندي والمادريا طوال ثلاثة أيام متواصلة في رهان) ولكنه لم يكذب يعرف أمه التي كانت قد انفصلت عن أبيه قبل هذا التاريخ بعشر سنوات لأنه ضربها بسوط من سياط الركوب. كان هوراس جليبي أحد سادة الريف المتخلفين عاطفياً. ثم حدث أن التقى بأيزموند الذكي المتوقد، الذي ربما كان أكثر منه نضجاً بما يعادل عشرين عاماً من التجربة. ولست أظن أن هوراس جليبي كان شاذاً جنسياً، ولكنني أظن أن الطريقة الوحيدة لللائمة للتعبير عما حدث في غوتيفين هي القول بأنه قد وقع في حب أيزموند. لقد أخذ عنه أفكاره، وأساليبه في التصرف، وأسلوبه الأدبي، والأشياء التي يشغل بها نفسه، كان الأمر يشبه الوضع بين "الأسطى" للعلم الكبير، وبين صبيه الذي يتدرب عنده ويتلقى أسرار الصنعة والحرفة. كانت النساء يتنهذن ويستسلمن كما لو كان ذلك بسحر ساحر. وكانت المسألة كلها تحمل طابع خاصية مذهشة أشبه بتحقيق حلم من أحلام اليقظة. وعندما عاد إلى "جلوسبي هاوس"، عاملته الفتيات كما لو كان بطلاً مظفراً عائداً من الحرب. وعلى الرغم من أنه كان يعيش على بعد أربعمائة ميل أو نحوها عن "حبيبه" فإنه راح يعيش ويفكر كما لو كانا لا يزالان معا في غوتيفين. وبدلاً من أن ينام مع كل فتاة يقع عليها بصره، فرض على نفسه نظاماً قاسياً، وراح يدرس هوراس وأرسطو. ثم عقد عزمه على إقامة علاقة "عاطفية" - أي أنها علاقة مصعدة وعلى قدر من التباعد - مع صديقة شقيقته الجميلة - وإذا كان يقيم تلك العلاقة، فإنه كان يستلهم نوفليس وبيو ودوسون وعدداً آخر من الرومانتيكيين الذين وقعوا في حب فتيات في سن الطفولة. ولما ألهمته مثله العليا وأفكاره، أصبح قادراً على تجاوز حدوده الضيقة والارتفاع عنها. ولكنه عاد بعد ذلك - برهاناً على أن الآلهة ما تزال معه، وأن السحر يعمل عمله دون شبهة في الفشل كما كان أبداً - عاد فتبين أن هاتين الطفلتين تعجبا به مثلاً أعجبت به ماحي ماكبيد والقرويات الأخريات، وأنه يستطيع أن يلعب بالنار، معرضاً حتى لباب قلبه للحريق. ويظل حلم اليقظة دون أن يقطعه أو يحطمه أحد. لم يكن لديه أي اهتمام جنسي بشقيقته. فقد كان يعرفه جيداً جداً. ولكنهما مثل أوراق الأشجار، سقطا في

دائمة حلم اليقظة، ومن مركزه الساحق كالألثة، كان باستطاعته أن يختار ما يصنع... ولكن كان من الحكمة - من جانب والده - أن يضع الفتاتين في سرير واحد. وانقضت أيام العطلة، وفي منتصف يناير، بدأ رحلة العودة إلى غوتيفين، متخذاً الطريق الطويل والشاق للمار بلندن من أجل أن يسافر مع اينز موند بدلاً من أن يسافر بالطرق الأقصر والأقل مشقة من "لاندن" إلى "سوكسهافين"...

... كان باستطاعة اللراء أن يدرك من أن طول الخطاب وما حشي به من تفاصيل تلك الكبرياء للتفجرة التي شعر بها جليبي وهو يكتب تقريره إلى معلمه. بأن الرجل الذي كان وحيداً، من دون أن يكون معه من ينصحه أو يوجه خطاه، اجتاز الامتحان بأحسن العلامات الممكنة.

وعلي الاعتراف هنا أن خيبة الأمل كانت هي استجابتي الأولى إزاء خطابات جليبي، كما أن مشاعري إزاء دونيللي عادت - بتأثير تلك الخطابات - فعبرت بأزمة هبوط من تلك الأزمان الدورية السابقة. ولكن من الضروري أو أوضح هنا أنني لم أرفض تلك الخطابات في البداية على أساس أخلاقي - مثلما سيعرف ذلك أي قارئ لكتابي "اليوميات الجنسية". لقد كنت دائماً - مثل دونيللي - مسحور اللب بمشكلة الجنس، لأنها تبدو كما لو كانت تحتوي على المفتاح المؤدي إلى أسرار نوع من الوعي أكثر عمقاً. ولقد سيطر علي دائماً شيء كالهاجس المتسلط عن الكيفية التي تبدو بها التجربة الجنسية وكأنها تنزلق من بين الأصابع كالزئبق أو الذهب المسحور في الحكايات الخرافية، ولابد لي هنا من سرد - مكرراً - عدداً من التجارب الأساسية التي تبدو لي أنها تحتوي على مفتاح هام يؤدي إلى الكشف عن ذلك الغموض.

في عام ١٩٥٥ كنت قد قضيت عصر أحد تلك الأيام في الفراش مع فتاة تدعى كارولين، وهي طالبة في أحد معاهد الدراما كنت قد تعرفت عليها عن طريق جيرترود كوينس. وقد كانت كارولين - ولم أعرف لذلك سبباً حقيقياً - واحدة من هؤلاء الفتيات اللواتي يولدن عندي مستوى حاداً إلى درجة غريبة من مستويات الشهوة، أي من الرغبة الجسدية المجردة من أي شيء آخر. وقد قالت لي ذات مرة، إنني حينما مارست الجنس معها تظاهرت هي أحياناً بأنها كانت تغتصب، وإن هذا قد زاد من متعتها. وقد جعلني هذا اتبين بطريقة تكاد تكون لا شعورية، بأنني كنت أظاهر باغتصابها، فأعاملها تماماً مثلما يعامل

رجل جانع قطعة جيدة الطهو من اللحم، فيقضم ويلتهم بشهية متفتحة ككشمية حيوان. وفي عصر ذلك اليوم بالذات، مارست الجنس معها سبع مرات. كان الأمر أشبه بمباراة. وبعد إحدى هذه المرات عدت من الحمام، فوجدتها جالسة بسروالها الداخلي، وهي تحاول أن تربط مشبك حمالة صدرها. دفعتها على ظهرها فوق الفراش، وجذبت ساق السروال، وولجتها بحركة واحدة تقريباً. ومرة أخرى فيما بعد، وحينما كانت قد ارتدت كل ثيابها وكنا على وشك الانصراف مارست الجنس معها مستنداً على الباب. كان هناك دائماً عنصر من الصدمة والمفاجأة في التحامنا.

وبعد ذلك شعرت بالإجهاد الكامل، والاسترخاء الشبيه باسترخاء المتعب الهادئ النفس، كما لو كانت كل رغبة جنسية في داخلي قد نضبت تماماً وجفت، حتى أستطيع أن أركز ذهني على أشياء أكثر أهمية. فتحت الباب بعد ذلك وخرجت لكي أتناول زجاجة اللبن من على عتبة الباب، وكنت أسكن في شقة أرضية في أحد المنازل، وكانت هناك فتاة تسير في الطابق الأعلى بمحاذاة سور الدرج الحديدي قريبة منه إلى درجة أنني كنت قادراً على إلقاء نظرة خاطفة إلى ساقها حتى أطراف جواربها العلوية. كان هذه النظرة مثل ضربة قوية على أعلى للعدة. تبينت مصدوماً أن رغبتي الجنسية لم تكن قد نضبت. لم يكن قد نضب سوى فضولي المباشر ورغبتي المؤقتة إزاء كارولين. كان من الواضح أن البئر لا قرار لها.

وتحققت من الشيء نفسه بعد عدة شهور، حينما كنت في طريقي لكي أمضي الليلة مع كارولين والتي كانت في ذلك الوقت تشترك في شقة واحدة مع صديقاتها. دخلت محلاً لبيع حاجيات النساء لكي أشتري لها زوجاً من الجوارب. وفي المكان الذي وقفت فيه من المحل، كانت ورائي مجموعة من تلك "الخانات" ذات الستائر التي تجرب فيها النساء ثيابهن الجديدة. التفت بطريقة عارضة، فرأيت أن سيدة كانت داخل إحدى تلك الخانات، وقد أولتني ظهرها، من دون قميص داخلي. ومرة أخرى، تملكني صدمة الرغبة الهائلة. ورغم أن المرأة كانت متوسطة العمر، كما تبينت حينما التفتت. وفي ظل ظروف عادية ما كنت لأولبها اهتماماً لثانية واحدة، وعندما هممت بمغادرة المحل، تملكني إدراك قوي بأن ليلتي مع كارولين لن تلمس هذا العمق مع الاستجابة الجنسية ولن تبلغ أطرافه.

وقد أدى بي ذلك إلى تكوين فكرة تقول بأن الانحرافات الجنسية إنما هي محاولة للهروب من ذلك الجوع الغريب الذي لا يشبع والذي يكون عنصراً أساسياً من عناصر الفعل الجنسي الطبيعي. إن "الوقوف" الخاص بالفعل الجنسي العادي هو ما ينتج خيبة الأمل. (وهناك قصة الطبيب النفسي الذي نصح رجلاً غنياً بأن يغمض عينيه وأن يردد اللة بعد اللة: "إنها ليست زوجتي. إنها ليست زوجتي.."). تقوم كل أشكال الانحراف على إضافة عنصر من عناصر "المحرم" إلى الوقوف الطبيعي، على الفتاة أن تسير جبهة وذهاباً وهي ترتدي جوارب سوداء، وهكذا. وقصة الكولونيل دونيللي عن قيام الخادمة بضربه تؤدي إلى نفس النتيجة. وقد تكون هذه النظرة كنيية أو على شيء من التجهم إلى الدافع الجنسي، طالما أن أي شيء يمكن أن يكف عن أن يكون محرماً طالما أنك استطعت - مرة واحدة - أن تقع شخصاً آخر بأن يشاركك في حلم اليقظة. عندئذ يصبح الجنس مطاردة لا تنتهي لهدف لا يكف عن الابتعاد...

ومنذ خمسة أعوام، وفي دبلين تحديداً، وقع حادث يمكن وصفه بالعارض والصغير، قلب هذه النظرة رأساً على عقب كنت أسير في مكتبة كلية ترينتي، حينما قابلت فتاة تخرج من مكان ما. كانت ترتدي جوارب بيضاء اللون، وشيء ما في وجهها صدمني صدمة هائلة. لم أكن قد رايتها قبل ذلك أبداً، وحاولت لمدة عشرة دقائق أن استخلص سبب تلك الصدمة من ذاكرتي. ثم تذكرت: لقد ذكرتني بفتاة تدعى هازل كانت ترعاني في طفولتي. كانت فتاة جميلة، وكانت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها حينما كنت أنا في الرابعة أو الخامسة. وكنت انظر إليها كما لو كانت أما إضافية لي. ولم أشعر أبداً بمثل السعادة التي كنت أشعر بها حينما كانت تلاطفني أو تبذل لي ملابس أو تساعدني على ارتداء حذائي. وحينما بلغت العاشرة، تزوجت، كنت أعرف التفاصيل الجسدية للفعل الجنسي، وكان هذا الفعل يبدو لي مثيراً وشريراً إلى درجة مرعبة. وذات يوم رايت هازل في محل البقالة، جميلة مثلما كانت سابقاً، وكانت ترتدي إزاراً أسود اللون وجوارب بيضاء. جعلتني فكرة أن زوجها يملك الحق في رفع هذه الأزرار وخلع تلك الجوارب أشعر بغيرة معذبة. فكرت في الأشياء التي لابد أنهما يعلنانها في الظلام، ونظرت بقوة إلى وجهها، ظاناً أن هذه الأشياء لابد أن تكون قد تركت أثراً ما. ربما كان أثراً من نشوة حالة، أو ربما علامة شريرة ما، تخيلت أن حياتهما، حينما يعود زوجها من العمل إلى البيت، لابد أن تكون حفلًا جنسياً

طويلاً مزعاً بالذائد. ورغم هذا فقد بدت طبيعية وعادية تماماً، بالضبط كما عرفتها دائماً، ربما كانت أكثر نحافة بقليل، ودون شريطها الوردي..

هذا التفكير في هازل - التي كنت قد نسيتها طوال خمسة عشر عاماً أو أكثر - أعادت إلي ذكريات فتيات أخريات كنت أعجب بهن حين كنت صغيراً جداً. فتاة كانت تسكن على بُعد منزل واحد من منزلنا وكانت تبدو لي مثل قديسة. وفتاة أخرى في الشارع التالي لشارعنا كان وجهها البضاوي يدفعني إلى الظن بأنها أجمل شيء وقع بصري عليه في الحياة وعمرة لي ذات روح هياضة، لم تكن تكلم هازل كثيراً، تعودت أن تأخذني إلى السينما ثم إلى مشرب شاي قريب.. كان شيئاً شبيهاً بالصدمة أن أتذكر كم كان كبيراً ذلك العدد من الفتيات - وكلهن أكبر مني سناً - اللواتي نظرت إليهن نظرتي للربات المقدسات. لم يكن قد طرأ على ذهني من قبل أنني قضيت طفولتي في مجتمع أمومي، محاطاً بنساء عبيتهن كالألهة، ولا أطلب من إحداهن غير ابتسامة، أو تربية حنون، لأنني في سنوات مراهقتي كنت أفكر في النساء باعتبارهن مخلوقات تطاردهن الرغبات، يملكن اليد العليا على الرجل بسبب الكنز الكامن بين أعضائهن، الكنز الذي يستطيع أن يمنعه أو يهبه حسب إرادتهن ووفق مشيئتهن. وكانت وظيفة الرجل عندي هي أن يحصل على الكنز، بالإقناع، أو الحيلة، أو بالعنف ومنذ ذلك الحين، كرس نفسي لمهمة الذكر العادية، مهمة الكشف عن أكثر ما يمكن من تلك الكنوز. ومع هذا فقد ظل الميل إلى تجسدهن أو تخيلهن في صورة مثالية قوياً على حاله. وبدأ هذا الميل في حالة تناقض مع فلسفة الحرب الجنسية. والآن أدركت هذا التناقض. كانت الحرب الجنسية هراء لا علاقة له بالحقيقة. ما أردته من النساء هو نفس ما كنت أريده من هازل، تعاطف الأخت الكبرى ورفقتها، اللطافات والانتباه، تلك الأشياء التي تولد الإحساس الذاتي بالأمان والثقة. لقد لاحظت دائماً ذلك الإحساس بالسكينة الذي يأتي حينما يخترق العضو الذكري حلقة العضلات عند فتحة عضو الأنثى، ثم ينزل إلى الأعماق الداخلية الدافئة التي تربت عليه بحنان، وقد رايت الآن أن هذا كان ببساطة أكثر اللطافات الرقيقة قريباً من المطلق. كانت هازل، في لحظة من لحظات الود الخالص تمد يدها فتلمس خدي برفقة، أو تضع يدها على رأسي، وكنت جديراً في مثل تلك اللحظة بأن أشعر بفيضان هوري من الرضا والإحساس بالإشباع. إن عملية ولوج جسد امرأة ليس سوى صورة متضخمة من هذه اللحظة. إنه نوع من اللطفة، إيماءة رقة، ولكنها تلاطف - في هذه الحالة - أكثر أجزاء جسدك خفاء والتصاقاً بدخيلتك وبما تخفيه حناياك - تلاطفه بأكثر أجزاء

جسدها خفاء وحميمية. إن النزعة العدوانية التي أطلق عليها لورنس اسم "الحرب الجنسية" تتطور من الجوع إلى ذلك الاحتياج، تماماً مثلما تتطور نزعة الإحرام من الفقر وحتى فكرة "كازانوفا" المتسلطة يمكن تفسيرها على هذا الأساس - وخاصة ذلك النوع من الـ "كازانوفا" الذي يريد أن تظل نساؤه في حالة إخلاص كامل له، بينما يسمح له بأن يفعل ما يحلو له. إنها الرغبة في الثقة الكاملة بحب الأنثى وبخضوعها. كل نساء العالم يحببته، وكلهن يرغبن في منحه حبهن، وحتى معرفتهن لأنه الآن في الفراش مع امرأة أخرى لا تؤدي إلى أي فرق أو اختلاف..

فأدني كل هذا إلى معرفة السبب الذي جعلني أفقد كل اهتمام بالحرب الجنسية في الأعوام الأخيرة القليلة. لقد حصلت - في شخصيتي ديانا ومويسى - على مجتمع مكون من شخصيتين نسائيتين تعجبان بي. وتم إشباع الجوع إلى الأنثى حتى هنا متخماً. أما ذلك النوع من الثقة بالنفس الذي تمنحه النساء فقد تحقق وأصبح في وسعي أن أكرس كل انتباهي لأمر أكثر جدية، لمسائل الفلسفة والنمو الإنساني.

كل هذا يفسر عدم صبري مع هوراس جيلني، ومع ما افترضته عند أيزموند دونيلي من فلسفة خلالية قائمة على "فكرة" الفجور. شعرت أن هذه الفلسفة تدل إما على عدم التحقق أو عدم النضج، رغبة الصبيان الصغار في الأمن. ولم تكن هذه الحكاية بالذات - عن ماري وهيونا - هي التي ألفتني، لأنني قدرت أنها حادثة عارضة وقعت من دون تدبير، لقد أراد جيلني علاقة "عاطفية" فتحوّل إلى علاقة جنسية. ولكن كانت هناك خطابات أخرى أشارت إلى أنه كان قادراً على تباع أسلوب أكثر خشونة وأكثر منهجية. فقد حدث على سبيل المثال أن عاد في عيد الميلاد التالي إلى البيت عن طريق الشمال، مبحراً من أمستردام إلى جريمسي، فقرر أن يمضي عدة أيام في "أوزنا بروك"، لكي يتفرج على كاتدرائيتها وقلعته. كان الفندق الصغير مزدحماً فاعطى جيلني غرفة في الطابق العلوي تقع فوق المغسل، شاركه فيها خادمه، وهو من أهالي لندن ويدعى دوجيت. وبعد منتصف الليل بوقت كثير، هبط إلى الطابق الأسفل ليذهب إلى دورة المياه، ثم وقف برهة قصيرة مستنداً بظهره إلى جدار المغسل الذي كان دافئاً. وبينما كان يقف هناك، خرجت فتاة من الفندق وذهبت إلى المغسل، ولما أصبحت بالداخل خلعت ملابسها، وصبت ماء دافئاً في أحد الأحواض، وغسلت نفسها، بينما راح جيلني يتلصص عليها من النافذة. ثم ارتدت الفتاة ملابسها، وذهبت لكي

تنام في غرفة أخرى في نفس البناء. وكان جيلني على وشك أن يتبعها، حينما سمع صوت رجل، بدا له أنه صادر من غرفتها. وفي الصباح التالي، طلب جيلني من خادمه دوجيت أن يكتشف كل ما يستطيع عن الفتاة، وما إذا كان من الممكن الحصول عليها ذلك المساء. وجاءه دوجيت بعد عدة ساعات وقال له إنها فتاة محترمة، وإنها ابنة أخت صاحب الفندق، وإنها مخطوبة لرجل يعمل مساعداً لأحد النجارين، ولكنها لم تستطع أن تتزوجه حتى الآن لأنه "معلمه" رفض أن يعطيه الإذن بذلك، ورفض صاحب الفندق رفضاً قاطعاً أن يقرضه ما يكفي من النقود لكي يفتتح لنفسه محلاً يعمل فيه لحسابه. وقدر جيلني أنه من المحتمل أن يكون صوت هذا المساعد هو الصوت الذي سمعه يصدر عن غرفتها في الليلة السابقة، فقرر أن يتخلّى عن فكرة النوم معها.

وبعد ذلك في نفس اليوم، قال دوجيت لجيلني أنه سمع إشاعة تقول أن الفتاة حامل - فقد كانت تصاب بحالات غثيان في أثناء عملها. وأحسن جيلني بإمكانية اتخاذ سبيل آخر للوصول إلى الفتاة، فقال لدوجيت أن يحاول اكتساب ثقتها، وأن يحاول معرفة مقدار المال الذي قد يحتاجه عشيق الفتاة لكي يبدأ عمله الخاص. "كنت على استعداد لأن أدفع ألفاً من الجنيهات في سبيل متعة أن أترك دفقة من ماء الحياة في هذا الرحم الفاضل". ولكن اكتشف أن العشيق يمكن أن يبدأ عمله معتمداً على مبلغ أقل من هذا بكثير، لا يزيد على مائة وخمسة وسبعين تالراً، وهو ما يساوي خمسة وعشرين جنيهاً. وقال دوجيت للفتاة أن لسيده قلباً عظوماً وأنه قد يستحق أن تلجأ إليه - فإن هؤلاء السادة الإنكليز مبذرون ومندفعون. وتبعاً لذلك، طرقت الفتاة بيجل باب جيلني في ساعة متأخرة من عصر ذلك اليوم، فقال لها أن ادخلي. ألقت الفتاة "خطاباً" عن حاجة حبيبها إلى النقود، وعن كيف يتعهد بدفع دينه كاملاً، وما إلى ذلك. فتح جيلني كيس نقوده وأخرج عدة قطع ذهبية. ولما اتسعت حلقها الفتاة وهي تحملق إلى تلك القطع، أحاط خصرها بذراعه، وهمس لها قائلاً إنها تستطيع أن تربح تلك النقود لحبيبته بسهولة كبيرة. وحاولت الفتاة أن تخلص نفسها وأن ترحل بالحجرة، فقال لها إنه يعرف بأنها حامل. وأخافها هذا القول، فترددت، وأشار جيلني إلى النقود، وقال أن أحداً لن يعرف أبداً، وإن الأمر لن يستغرق أكثر من خمس دقائق. وإنها ستعيش في سعادة بعد ذلك إلى الأبد... سمحت له بأن يقبلها، وأن يداعب صدرها. انغمضت الفتاة عينيها، ومن الواضح أنها قررت أن الأمر يستحق التضحية، حينما سمعا شخصاً يناديها. انفلتت مبتعدة، فأخذ جيلني النقود ووضعها بقوة في يدها، ثم قبلها ثانية، فأسرعت خارجة.

وفي ذلك مساء كانت هي التي تخدم على المائدة، استطاع جليبي أن يجعل عينيه تلغقان بعينيهما مرتين، فاحمر وجهها في المرتين. كانت قد أصبحت مدينة له بجسدها. وكان جليبي يعرف أنه لا خطر على نفوقه معها. فقد كان دوجيت قد استطاع أن يعرف أنها واعيت حبيبها على لقاء في ذلك المساء، وأنها بلا شك قد حملت إليه النقاد.

وفي تلك الليلة، انتظر جليبي حتى سمعها تعبر الفناء وتدخل الغسل. وفي هذه المرة لم تخلع ملابسها كلها، محتفظة بقميصها. فتح جليبي الباب واندس داخلًا. بدأ عليها الذعر، ورجته أن يخرج. وقالت له إن خطيبها كان ينتظرها في حجرتها. همس لها جليبي إن الأمر لن يستغرق سوى لحظة واحدة. أمضى عدة دقائق في تهدئتها وإقناعها أن تها وتساكن. وبمفعها حتى استند ظهرها إلى الرجل الخامد، وأخذها في تلك اللحظة، وعلى الفور. وبعد ذلك، همس لها أنها إذا كانت تريد خمسة وعشرين جنيناً أخرى لكي تقيم منزلها، فليس عليها إلا أن تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. ثم ارتدى ملابسه وتركها.

استبد به الغضب عندما لم تلب الفتاة دعوته. قابلها بالصدفة في أحد دهاليز الفندق، فنظر إليها متسانلاً، هزرت رأسها وأسرع تبتعد. ولم ينجح دوجيت هو الآخر في إقناعها. كانت الفتاة قد هفت بنصيبها من الصدفة، ولكن لاح لجليبي أنه من غير المعقول إطلاقاً أن تكون قد سلمت نفسها له مرة واحدة، ثم منعت نفسها عنه بعد ذلك. "كنت على استعداد لأن أفق كل جنين أملكه لكي أقضي ليلة في الفراش مع هذه الشيطانة الصغيرة الفاضلة". قال لدوجيت أن يحاول ابتزازها بأن يهددها بإخبار عشيقها، ولما فشل هذا التهديد راح يفكر في اختطافها وحملها معه في عربة خاصة. ولكن الفتاة كانت قد نالت كفائتها، فاختفت في تلك الليلة. والفرض أنها قد لحقت بعشيقها، الذي كان الآن قد أصبح مستقلاً عن معلمه. وفي حالة مزاجية سيئة الغاية، استقل جليبي عربة إلى امستردام معزياً نفسه بفكرة أن "تلك اللقائات الخمس في مواجهة الرجل الخامد، كانت تستحق خمسة وعشرين جنيناً من نقود أي رجل". هذه الحادثة تفوح منها نكهة منفرة. كان قد راها عارية فأراد أن يمتلكها، كان يوسعه أن ينتظر، وأن يجعلها تأتي إلى غرفته في اليوم التالي. فقد كان من الواضح أنها مستعدة للوفاء بنصيبها من الصدفة، ولكن كان من الأكثر إشارة ومتمعة أن يمتلكها في الظروف التي كان قد قرر في البداية أن يمتلكها فيها - وخاصة أن عشيقها كان ينتظرها في حجرتها. ومن لهم أن نلاحظ استخدامه لكلمة "فاضلة". لم تكن الفتاة فاضلة، لأنها كانت

حاملاً. ولكن رؤيته هذه إليها هي ما جعلته يرغبها: رؤيتها في صورة المحترمة الفاضلة، تعشق رجلاً آخر. حكم يكون رائعاً أن يخلع عنها قميصها فيضاجعها مستنداً إلى مرجل الغسل، وينطلقونه متدل على كاحليه! ولكن إذ أنجز هذا، فقد أراد أن يحتل الأرض التي غزاها، وأن يكرر كل العملية الممتعة برمتها. لم يكن من الطبيعي أن يبتز فتاة فيهددها لكي يأخذها إلى فراشه، أو أن يفكر في حملها عنوة في عربة خاصة، ولكن هذه الفتاة "الفاضلة" ولدت عنده رغبة في الغزو، وفي أن يحط من شأنها. وحتى إذا كان قد شعر بالخيبة في النهاية، فإنه يعتمد على فكرة أنه قد حصل عليها مرة، وإذا ظلت هي مخصصة لزوحها حتى نهاية حياتها. فلا شيء يمكن أن يمحو تلك الحقيقة. إن أكثر أنواع النزعة السادية عند الرجال خشونة وفضاضة هي ما تجل الحكاية كلها. ولكن جليبي يصنفها في خطابه إلى دونيللي كما لو كان وانفاً من موافقته على سلوكه. وكان إحساسي الخاص هو أنه إذا لم يكن دونيللي قد وجد الحادثة ونظر إليها باعتبارها شيئاً رديئاً وغير "مشرف" بنفس نظري لها، إذن فإنه لن يكون أحسن من جليبي في شيء، وإذا كانا مجرد صعلوكين يحملان عقليين قذرين. ولكن لما لم أكن أملك شيئاً من خطابات دونيللي، فإني لم أكن أملك سبيلاً إلى معرفة ردود فعله إزاء مكاشفات هوراس جليبي.

طوال الأيام العشرة التالية لم يحرز "بحثي" عن دونيللي أي تقدم. ولابد لي من الاعتراف ببعض الكسل المحبب، أو بالأحرى، بشيء من الميل العكسي، الرافض لأن استغل طاقاتي بمهمة مدفوعة الأجر أو لأن أنكب عليها وحدها دون غيرها. لقد شعرت وأنا أقرأ الخطابات المختلفة والوثائق المستعارة من الأنستين دونيللي بأنني أشبه بتلميذ يقوم بإداء واجبه المنزلي، ولقد كنت أكره مثل هذه الواجبات. وبدلاً من هذا رحت أملاً صفحة أخرى من مذكراتي حول موضوعات متعلقة بفلسفة الظاهراتية وحول دراسة ويتينغشتاين، الذي كانت روايته "زيتيل" قد وصلت لقوها من بلاك ويلز.

ثم حدثت بعد ذلك عدة أشياء دفعة واحدة. فقد نشرت صحيفة التايمز الإيرلندية خطابي الذي أعلن فيه عن طلبي لأية مواد تتعلق بدونيللي، وبعد يومين، نشر الملحق الأدبي التايمز اللندنية خطابي الذي كتبته في لندن، وأخيراً أرسل إلي كلاوس دنكمان خطاباً

اعتبارياً من هامبستيد، وفيه أن خطابي إليه لم يصله في موعد مناسب، لأنه ترك لمدة طويلة على مائدة قاعة الاستقبال في عنوانه القديم، حيث لاحظته أحد الأصدقاء بالصدفة. وكتب إلي رجل يدعى و. س. ل. ألوريتش من بلدة كورك، يقول إنه كان صديقاً للمرحومة جين أستون التي ماتت في عام ١٩٢٩ والتي كانت تمتلك خطابات مختلفة بخط يد دونيللي. ولكنه لم يكن واثقاً مما حدث لتلك الخطابات بعد ذلك. وأخيراً، كتب إلي كايف م. بيتس، حفيد إيزاك جيتكينسون بيتس، من دبلين ليقول أن جده مريض، ولكن إذا تصادف وحدث إلى دبلين فإنه سيكون سعيداً لرؤيتي. وأضاف أن جده ابتهج لأنني أبدت أراءه حول مرتكب جريمة قتل جزيرة آلي الإيرلندية، وأنه يود أن يناقشها معي شخصياً. ثم أضاف في لاحقة نيل بها الخطاب يقول: "لقد رأيت خطابك في عدد اليوم من التايمز الإيرلندية. وإنني قد أكون قادراً على تقديم بعض الاقتراحات". وأثارت قلقي هذه الجملة الأخيرة بأسلوبها الحذر. فإنه لم يستطع حتى أن يذكر اسم دونيللي. وبدأ لي هذا الأسلوب دليلاً على أنه يكاد بالفعل يعرف شيئاً ما، ربما كان شيئاً أكثر حتى من أن يتق بنفسه إذ يلجأ إليه.

وكان خطاب كلاوس دنكمان طويل جداً، وراح يناقش كتيبي مناقشة مطولة مستفيضة. ولكن إشاراتي إلى دونيللي كانت مختصرة. قال إنه سمع الاسم من أوتو كورنر، تلميذ ويلهلم رايبخ، الذي تحدث عن دونيللي باعتباره واحداً من أوائل الكتاب الذين لاحظوا أهمية بلوغ ذروة النشوة الجنسية كعلامة على الصحة النفسية. ثم قال دنكمان، إنه مع ذلك غير قادر لسوء الحظ على أن يزودني بالمزيد من التفاصيل. فعلى قدر علمه، كان كورنر قد عاد في ذلك الحين إلى ألمانيا.

كان لدي شعور قوي برغبتني في أن أسرع إلى دبلين لرؤية كليف بيتس. ولكن كانت هناك أشياء أخرى كثيرة كان علي إنجازها، وإلى جانب هذا، فإن العجلة التي هي من الشيطان قد تدمر كل شيء، ولذا فقد كتبت إليه خطاباً دون توقيع، أتحدث إليه فيه عن مشروعي لكتابة مقدمة تاريخية لكتابه يتضمن مذكرات دونيللي، وأضفت أنني أرجو أن أراه عاجلاً في فرصة مقبلة. ثم تحولت إلى مسألة اقتفاء آثار خطابات دونيللي التي كانت في حوزة جين أمستون - رغم أنني فعلت هذا دون كثير من الحماس. ولأشك أن خطابات دونيللي تلك ستكون حول موضوع جورتن وتيللوستون وغيرهما من أصحاب محافل

التنويم للغناطيسي. ذهبت إلى كورك وقابلت مستر ألدريتش الذي كان يوسعه أن يخبرني أنه كان لجين أستون أقارب يقيمون في بلدة بيلكولي بالقرب من كينسيل. لذهبت إلى هناك بالسيارة لكي أكتشف أن هؤلاء الأقارب قد ذهبوا إلى كورك لكي يبتاعوا حاجياتهم وأنهم سيغيبون نهاراً بأكمله. وهكذا فقد عدت إلى كينسيل وحجزت غرفة في الفندق، ثم عدت لزيارة مستر فيليب أستون - وهو حارس شواطئ متقاعد - في الساعة السابعة مساءً. وقد كانت هذه الرحلة سدى، فالرجل لم يكن يعرف شيئاً عن خطابات دونيللي، ولكن أعطاني عنوان قريب آخر له يدعى برنارد أستون في ليمريك. وقصصت هذا الأخير في اليوم التالي في طريق عودتي إلى غالواي، وكان الرجل قد سمع شيئاً عن خطابات دونيللي، لكن لم تكن لديه فكرة عما حدث لها، واقترح أن اتصل بطبيب جين أستون، جروج أوهفرنان في كورك الذي كان يعرفها جيداً. (ولاحظت مدى ارتباط عينيته وتهملها عندما ذكر اسم الطبيب الأمر الذي أوحى إلي بأن تلك العلاقة مع الطبيب كانت أقوى قليلاً مما يستطيع أن يوافق عليه).

كنت أشعر بأن إحساس (كافكاوي قد بدأ يتملكتي، وبت أشعر بأنني أدور في حلقة مفرغة من دون أي اقتراب حقيقي من الهدف المقصود، وشعرت بإغراء الاستسلام. أردت أن اقتطف نصف صفحة من حديث دونيللي عن موضوع الخطيئة والغداء، ولكن بدأ الموضوع يلوح أكثر إزعاجاً مما يستحق. وحينما وصلت إلى البيت، ودعمت عزمي بكأس كبيرة من الكلاريت، اتصلت باستعلامات هاتف بلدة كورك وسألت عن رقم تليفون الدكتور أوهفرنان. قيل لي أنه ليس هناك من يحمل هذا الاسم سوى شخص واحد، ولكنه لم يعد يعمل في المستشفى. بشعور أخذ من التبلد سألت إن كان يوسعهم أن يوصلني بالطبيب المشرف، ثم أخذت كأساً كبيراً أخرى. بعد قليل جاء رجل يتكلم على الطرف الآخر، وقال أن الطبيب المشرف كان خارج المستشفى في تلك اللحظة وسألني إن كان يستطيع أن يساعدني في شيء. عرفت أنه كان من المستحيل أن أقتنعهم بأن يعطوني الرقم، ولكني رجوت أن يجعلوا الطبيب المشرف يتصل بي لدى عودته. وكان علي أن أوضح نوع العمل الذي أقوم به - وهو أنني كاتب وأنني أريد أن اتبع مصر بعض الوثائق، وأنني قدرت أن الدكتور أوهفرنان يمكن أن يساعدني في تتبعها. وطلب مني السيد المتحدث على الطرف الآخر أن انتظر قليلاً، وبعد عشر دقائق عاد لكي يقول لي أن الـ "أوهفرنان" موضع البحث لم

يكن مسجلاً باعتباره طبيباً. شكرته وقطعت الكالة، ولاح ذلك لي كأنه نهاية الخيط والطريق.

ولكن، وبعد ذلك بساعتين، وبينما كنت على وشك الاستسلام للنعاس وأنا أستمع إلى موسيقى "فراصنة بينزانسة" دق جرس التليفون. فأجابت ديانا على النداء، وقالت لي أن الطبيب المشرف في مستشفى كورك يريد أن يكلمني. وكان هو نفس الرجل، وكان قد أتى نظرة على القوائم القديمة فعثر على اسم الدكتور أوهفرنان، ثم استطاع بشكل ما أن يعثر على مكانه. كان العنوان في كيلارني. شكرته مضطراً إلى ذلك، ثم أخذت اسمه وعنوانه لكي أرسل إليه نسخة من أحد كتبي. ورغم أن الساعة كانت قد تجاوزت العاشرة، فقد قمت بمهمة محاولة طلب رقم الدكتور أوهفرنان. ذكرت له اسمي وقلت أنني كاتب، فأصبح على الفور ودياً جداً وقال لي أنه قد نشر عدة كتب، ولم يكن قد سمع بي قبل ذلك أبداً، وعندما سار بنا الحديث إلى أن وصل إلى موضوع أيزموند دونيلي تذكر أنه "كان قد" رأى خطابي في التايمز الإيرلندية وأنه فكر في الاتصال أو الكتابة لي. وقال أن نعم، بالتأكيد. أنه يملك عدداً كبيراً من خطابات دونيلي بالإضافة إلى أوراق أخرى، وأني سأكون موضع الترحيب الكامل إذا شئت أن أخصها في أي وقت يكون ملائماً لي. فاتفقت معه على موعد في اليوم التالي.

ليس ثمة مهرب هنا من وصف الساعات الأربع والعشرين التي قضيتها مع جورج أوهفرنان، ورغم أنها تستحق الوصف بالتأكيد. إنه رجل قصير ربعة قوي البنيان ذو خدين متوردين وشعر أبيض وشارب أبيض، كان يبدو كواحد من أولئك الناس الذين يولدون سعداء مفعمين بالاهتمام بكل ما يجري حولهم من أحداث أو ظواهر. أهداني نسخاً من كتبه، "كلونماكنويز وفصائد أخرى"، "مانجان، وعصبته"، "مذكرات متمرد إيرلندي". بالإضافة إلى مجموعة مترجمات عن اللغة الغالية. كان قد عرف بيتس معرفة جيدة، وأمضى عدة أمسيات مع جويس في باري، وكان نديم شراب لجو غارتي. سجلت ملاحظات طويلة عن أقاصيصه في مذكراتي اليومية، لأن صورة هذه الأقاصيص التي وردت في كتابه "مذكرات متمرد إيرلندي" أكثر تهديباً إلى حد كبير وأقل نزوعاً إلى أسلوب رابليه التكهني اللاذع من الصورة التي سردها لي بنفسه. كان الطبيب مضيافاً كريماً، فقد دعا اثني عشر صديقاً لتناول العشاء معي فاستهلكنا عدة كالكونات من الجعة المصنعة في المنزل

بالإضافة إلى عدد كبير من زجاجات ويسكي كامسون. وفي الساعات الباكرة من الصباح، حينما تخبط آخر ضيوفه نحو سيارته، حكى لي قصة علاقته بمسز أستون في خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياتها، وكانت قد ماتت في الثامنة والأربعين من عمرها بسبب الربو. وأخيراً أخذني إلى خزانة هائلة، تمتد من الأرض إلى السقف في حجرة النوم حيث كان علي أن أنام. وأطلعني على أكوام من المخطوطات الملقوفة والخطابات المعلقة في حزم محكمة موضوعة في إضبارات سوداء ثقيلة، وقال "سوف تعثر على الكثير من تراث دونيلي في وسط هذه الكتلة"، ثم تركني لكي أبحث عما أشاء. كانت الساعة الرابعة صباحاً، والغرفة باردة كالثلج رغم وجود مدفأة كهربائية ذات مشعل واحد. كنت قد شرقت كثيراً وانتابني صداع خفيف. ولكنني شرعت في جلب الأوراق من الخزانة اعتماداً على الصدفة في رؤية خط يد أيزموند دونيلي. وبعد أن أزعجت عدداً قليلاً من العناب واثرت كمية لا بأس بها من الغبار عثرت على حزمة من الخطابات موجهة إلى ويليام أستون. وكنت حتى ذلك الحين قد أخرجت معظم ما كان في الرف السفلي من الخزانة. ولكن في نهاية رف الركن، كان هناك مغلفان أسودا اللون. جذبتهما وألقيت نظرة على أحدهما. كان الخط هو خط أيزموند. نظرت إلى الصفحة الأولى، وكانت تبدأ من منتصف فقرة ناقصة من بدايتها. فتحت المجلد الآخر. كان يتكون من أوراق من الحجم المتوسط، ربطت أطرافها بعضها إلى البعض، وقد كتب على الصفحة الأولى، "١١ أكتوبر عام ١٧٦٤. كنت دائماً أعقد العزم على الاحتفاظ بكراسة مذكرات يومية أسجل فيها أعمالي يوماً بعد يوم، ولكنني فشلت حتى الآن في الدوامه على تنفيذ هذا العزم. لقد فقدت عدد كبير من الأحداث الهامة، حتى كان علي في النهاية أن أصمم على تنفيذ هذا القرار، مهما كان الثمن من الجهد أو الشموع..."

خلعت ثيابي وارتديت منامتي وصعدت إلى الفراش، إلا أن النوم فارقني. في عام ١٧٦٣ كان أيزموند لا يزال في السادسة عشرة من عمره. إذن فإن هذه المذكرات هي أقدم ما وقع عليه بصري من كتاباته حتى تلك اللحظة. كان خط اليد أكثر وضوحاً وسهولة في القراءة من الخط الذي رأيته من قبل في مذكرات لاحقة لهذه التي في يدي الآن. كان إحساسي بالانتصار قوياً لدرجة أنني شعرت برغبة للذهاب إلى الدكتور أوهفرنان في حجرة نومه لكي أطلعه على ما وجدت. ولكن لم يمنعني من ذلك إلا شكّي في أنه ينام فيها مع المرأة الشابة الممتلئة التي تخدم منزله، الأمر الذي جعلني أكبح جماح نفسي. وكان ما أدهشني هو أن أوهفرنان لم يذكر لي تلك المذكرات. لقد قال لي أنه يعرف أن ثمة خطابات من

دونيللي، ولكن كان هذا هو كل شيء، فالاستنتاج إذن هو أنه لم يكن يعرف شيئاً عن وجودها. وحينما سألته في الصباح التالي، أكد لي هذا الاستنتاج، فإن مذكرات رجل إيرلندي، بروتستانتني إنجليكاني النزعة والذهب، من القرن الثامن عشر، لم تكن من الأمور التي يمكن أن تثير اهتمامه، لأنه كان كاثوليكيًا ووطنياً، وكانت مشاعره إزاء كروموويل أكثر عنفاً من مشاعر أي إنكليزي تجاه هتلر.

قرأت حتى مطلع الفجر، ونمت حوالي ثلاث ساعات، حتى أبقتني مديرة المنزل بالشاي، ثم ارتديت معطفي فوق النامية وعلت ثانية إلى الخزانة. وفي خلال نصف ساعة، كنت قد "فرزت" ثلاث حزم أخرى من الخطابات، ومجلدين آخرين من المذكرات، بالإضافة إلى مخطوطة "يوميات الرحلات" الخاصة بدونيللي. وحينما دخل الدكتور أوهفرنان لكي يقول لي أن طعام الإفطار قد وضع على المائدة، وجدني محاصراً بالأوراق مغطى بالتراب، جالساً في مواجهة الخزانة الخالي. وحينما أطلعت على المذكرات، ابتسم وقال: "حسناً، إنني مسرور لأنك لم تقم بهذه الرحلة لقاء لا شيء".

حينئذ انتهزت الفرصة لكي أطرح السؤال الذي شغل ذهني طوال الليل:

"أعني أنني أستطيع أن أستخدم كل هذه المادة؟"

"بالتأكيد. لم لا تستخدمها؟"

"هل تفضل أن أعمل هنا، أم أن بوسعي أن أستعيرها؟"

"أوه، أي شيء تفضل. أنزل الآن معي وكل شيئاً".

ثم عرج خارجاً في خفة، بينما جلست في مكاني أغمغم كمنجنون.

- ١٤ -

□ ولا بد لي من الاعتراف بأنني حينما درست المذكرات، بدأت في الندم على قبولي التعاقد مع فليشر. كان مبلغ الخمسة عشر ألفاً من الدولارات قد لاح لي مبلغاً عظيماً في ذلك

الوقت، ولكن مع وجود كل هذه المادة التي استطعت الحصول عليها شعرت بأنني استحق أكثر من هذا بكثير. ذلك أن المذكرات الجديدة أزعجت جانباً آخر من شكوكي حول خلفية دونيللي الثقافية وقيمه الذهبية. لقد أطلعتني هذه المذكرات على السبب الذي جعل هوارس جيليني يعجب به إلى هذا الحد. لقد كان رجلاً تسلطت عليه الطبيعة للرغبة للتجربة الإنسانية. ولكن هل ندعه يتحدث عن نفسه.

"يقول لي ابن عمي فرانسيس أنني قوي الشعور بذاتي مسرف في الغرور، ولكنني أدعو السماء لكي تشهد علي أن هذا غير صحيح. إنني في الأغلب أكثر من يعيش تحت الشمس من مخلوقات لعنة وتحقيراً لذاته، وكثيراً ما يبلغ عدم رضاي عن ذاتي أن أشعر برغبة أن أطلق على رأسي الرصاص فأنصفه. إنني أكتب هذه المذكرات عسى أن أستطيع أن أدخل شيئاً من النظام والاستمرار على حياتي. لأنني أشعر بالسقام حتى لباب القلب بسبب استهجانتي واستنكاري لذاتي. كثيراً ما تشكو النساء من انتقاد الرجال إلى الثبات على العهد، ولكن لماذا ينبغي علينا أن التمتع بصفة الثبات على العهد في الحب بينما نحن لا نملك شيئاً من الثبات في أي شكل آخر من أشكال الفكر أو الإحساس أو الرغبة؟ بالأمس، ألقى الواعظ المشهور الدكتور جيليليس موعظة في كنيسةنا، وقد حركتني هذه الموعظة إلى حد عظيم. فأقسمت على أن أبذل حياتي في الاستقيل لكي أسير تبعاً لوصاياهِ فأعيش فقط على أساس من الاتفاق مع ضميري وإحساسي بالفضيلة. كان اليوم عاصفاً شديد البرد إلى درجة أكثر مما يسمح بالمغامرة بالخروج من عتبة الباب. وفي هذا الصباح قرأت في خرافات جيلبرت بالمانية لمدة ساعة قبل أن يتملكني سوء المزاج المعتاد مرة أخرى. فأصبحت غارقاً في إحساس وحشي من الفراغ والخواء. ومنذ ذلك الحين وأنا عاجز عن رؤية أي طريق يستطيع من خلاله ضميري أو إحساسي بالفضيلة أن يؤثر على هذا الإجهاد الذي يستهلك الحياة ويدمرها. ربما يستطيع ضميري أن يدلني كيف أتجنب ارتكاب الخطأ، ولكنه لن يستطيع أن يدلني على كيفية الهروب من الملل والضجر. وهل يمكن أن يكون ثمة شيء أقتل للمخلوق الذي صاغه الله على صورته من نفس هذا الضجر؟ ذلك أن الله إله لأنه يستطيع أن يخلق، ولذلك فإن رجلاً يسحقه الضجر لأكثر المخلوقات بعداً عن صورة الله.

لقد عقد الدكتور جيليليس مقارنة شديدة الحذق والبراعة بين الجسد والعقل، قائلاً أن الجسد يملك نظاماً أو أسلوبه الخاص للتخلص من الإفرازات السيئة أو الضارة سواء كانت

طبيعية أو نتائج المرض، بينما لا يملك العقل مثل هذا النظام أو الأسلوب. لو أصابني "دمل" لاتصرف من تلقاء نفسه. ولو أصابني الإمساك فإن تفاحة خضراء ستكوني لتخفيف الانقباض، ولكن لو أنني ممتلئ حسداً أو ضعيفة، فلن ينفعني أي مظهر مهما كان، فإما أن أتبع الفرصة للتعبير عما يحتبس في صدري، أو أن أسحب عن طريق فعل مضاد. وليست هناك فتاة طبيعية للتصريف، لابد لتصريفه عن طريقة تشبه ولادة "ماكسف" قاتل ماكيت في مسرحية شيكسبير، "انتزع من رحم أمه قبل أوان النضج والولادة". أو ليس يصدق هذا - وحتى أكثر منه - على ذلك "الشجر الحياتي" الذي يخنقني. إنه نوع من انقباض الروح، دمل لا يريد أن ينصرف.

أعرف أنني لا يمكن أن أكون سعيداً دون الشعور بأن نشاطي موجه نحو غاية ما، ولكنني لا أعرف كيف ألهم روحي فأشحنها بهدف معين أو غاية محددة. منذ نصف ساعة، تناولن ديوان تومسون^(١) الذي يحمل عنوان "شتاء" وقرأت فيه،

يتنزل الوابل الأبيض عبر الهواء الساكن،

رفيقاً يترنح في البداية، حتى تأتي في النهاية الرفائق السميكة

تسقط في كل مكان، طولاً وعرضاً، وسريعاً ما يعتم النهار

بالفيضان المستمر. الحقول اللدلة الحبيبة،

ترتدي ثيابها الشتانية من أنصع ألوان البياض.

كلها ناصعة مشرقة، عدا حيث يذوب الجليد الجديد

على طول المجرى المراوغ...

لماذا تحمل تلك الكلمات سلاماً يشبه سقوط الجليد الهابط على حواسي ألا توجد في داخلي شهية إلى السمو الجليل يفسدها الآن الإجهاد، مثلما يئن جوع معدتي فأشعر بالغثيان إذا أكلت كثيراً من الشطائر المسكرة؟

(١) جيمس تومسون ١٧٥٨-١٧٠٠ شاعر إنجليزي، له ديوان (شتاء) عام ١٧٣٦، وديوان (الفصول) الذي أخذ فكرته عن استاذة في اللاهوت روبرت ريكالتون.

أولاً تستنار تلك الشهية فتستيقظ من خمودها إذ تتذكر حقول الشتاء؟ وكذلك حين تتذكر قفصة السيوف في ملحمة أوسيان^(٢) وأيضاً إذ تتذكر اهتزازات نهدين حينما تسرع فتاة في صعود الدرجات. لماذا لا نملك عصا تضرب بها صخرة الروح لكي يتفجر منها الينبوع دهاقاً؟

هنا يردد أيزموند الموضوع الرئيسي في المذكرات، إنه ما ندعوه الآن بالطاقات والقدرات الخفية للأوعي. هذا الموضوع يتسلط عليه كالهاجس المسيطر. وهو يعود إليه مرة بعد أخرى. "إن قوى الطبيعة تحيط بنا طول الوقت، الاندفاع الجبار لتيار الفيضان، وقذائف مدافع الرياح، النجوم نفسها ترقص عبر السموات لكي تقول لنا أن لا شيء في العالم يبقى ساكناً سوى روح ملعون لا يعرف سوى القلق وتائب الذات". وهو يسأل مراراً عن السبب الذي يجعل ذكاء الإنسان "ينفيه" بالضرورة من حياة الكون ويتساءل متأملاً فيما إذا كان هذا هو معنى قصة آدم وحواء؟ إن المعرفة ذاتها، القدرة على التفكير، هي التي كانت تفصل الإنسان وتفرقه عن الله. وحتى في سن السادسة عشرة يبدي دونيللي معرفة واسعة تماماً بمقدسات ومشاكل القرن الثامن عشر، بل إنه يقتطف عبارات من جورج هيربرت^(١). ولكن في الصحيفة رقم ٤٨ من المجلد الأول - المؤرخة في يوم يسبق عيد الميلاد بأسبوع واحد - تتغير النغمة. وأظنه قد أعاد قراءة جملته التي يطالب فيها "بعضاً تضرب بها الروح لكي يتفجر منها الينبوع دهاقاً"، لانه يتحدث مرة أخرى عن النهود المهتزة. كان النهدان اللذان يفكر بهما هما نهذا ابنة عمه صوفيا، التي كانت تقيم عندهم فترة الإجازة مع والدها ووالدتها، إن صوفيا مونتاغو، ابنة عم إليزابيث مونتاغو (وهي إحدى العضوات الأصلية في جماعة "الجوارب الزرقاء")، قد أصبحت واحدة من فائزات هذه المرحلة الرموقات. وحتى في ذلك الوقت، حينما كانت في التاسعة عشرة أو تكاد - فإنها قد جذبت الكثير جداً من الاهتمام حينما كانت تقيم في بيت "ماي فير" الذي أقامته المضيقة الشهيرة. وكان أيزموند يملك ما يكفي من القدرة على التحليل لكي يعرف أنه لم يكن واقعاً في حبها، لأنه كتب يقول: "إنها بلهاء، ولكنها بلهاء جميلة تتمتع بالكثير من نقاط التشابه مع إحدى الربيات". ويكتب عنها

(١) أوسيان - شخصية تحمل وجهين تاريخ وأدبي، ففي التاريخ فكانت له شخصية أحد المحاربين الذين نزلوا شمال اسكتلندا في القرن الثالث، وفي الأدب عرف كشاعر، تنسب له ملحمة شعرية عن حروب الغالين في فرنسا وإنكلترا وألمانيا، نشرت في العام ١٩٦٠.

(٢) جورج هيربرت ١٨٩٢-١٨٣٣. شاعر إنكليزي أخلص للشعر وحده، يعد من شعراء مدرسة جون دون الليتافيزيقية.

فيما بعد قائلًا، "قالت لي صوفيا إنها سمعت مستر بوزويل يتناقش مع دكتور جونسون مدافعاً عن تعدد الأزواج، وأن مستر مونتاجو أجابت بأنه ليس هناك أمراً على قيد الحياة تمتلك حكمة ضئيلة إلى الحد الذي يجعلها تريد أكثر من زوج واحد في الوقت الواحد". إن لفكرة بوزويل جنورها، وقد تأسلت فيما بعد، وكذلك تأسلت أفكار روسو في كتاب هيلوبز الجديدة" التي قراها بالفرنسية، كما قرأ رواية ريتشارد سون "كلاريسا هارلو". ففي رواية روسو تنشأ علاقة حب بين البتلة دولي ومعلمها سانت بريو، ويدافع عنهما روسو محتجاً بأن هذا الحب حق وطبيعي بين شخصين يحب أحدهما الآخر وتمنعهما الظروف من الزواج. أما رواية ريتشارد سون فهي أخلاقية إذا ما قورنت برواية روسو، إنها معالجة لحكاية اغواء كلاريسا الفاضلة واغتصابها على يدي الأفاق الصعلوك لفليس، وتموت كلاريسا تحت وطأة تعذيبها لنفسها وشعورها بالعار، ويقتل لفليس في مبارزة. ويكمل أيزموند صنوها من انتهك لريتشارد سون باسم روسو. لماذا يمكن أن تنهار فتاة وتضمحل حتى الموت لأن رجلاً قد فعل معها شيئاً طبيعياً؟ إن حضور ابنة عمه الجميلة يحفظ موضوع الاتصال الجنسي في طبيعة ما يشغل ذهنه، وفي وقت قصير يشرع في التعبير عن آراء تدفعه على تقرير المحافظة على سرية مذكراته. إنه - مثل عدد كبير من النقاد - يشك في أن موقف ريتشارد سون إزاء اغتصاب كلاريسا لم يكن موقف الرقص المرتعب. وإنما المتعة السرية الشريرة. "فمن الذي يمكن ألا يستمتع باغتصاب فتاة جميلة، خاصة إذا لم تكن متمالكة لوعيتها ولا تعرف شيئاً عما يجري لها؟" وهو يسأل عن السبب الذي يجعل ريتشارد سون يسمح باغتصاب كلاريسا وهي تحت تأثير المخدر، بدلاً من اتباع طريقة لوريس، ثم يجيب على تساؤله قائلًا، "إذا كانت الفتاة فاضلة إلى الدرجة التي تمنعها من تسليم جسدها بأي طريقة أخرى، فإن لفليس علي حق في اتباعه لهذا الأسلوب. إن جمال الفتاة، مثل جمال أنواع معينة من الطيور الاستوائية، قد خلق لكي يغري الذكور ويوقعهم في حباله، فلماذا ينبغي عليها أن تشكو إذا كانت قد حققت كل هذا القدر من النجاح؟ إنها تشكو لأن هدفها هو أن تحصل على زوج في مقابل فضيلتها. ولكن لنفترض أن زوجها المحتمل قد وجدها بلهاء ولم يرغب في أن يكرس حياته للدفاع عنها فهل يلزمه شرفه بأن يتوقف عن الطراد؟ لماذا لا يستطيع أن يحاول انتزاع الزهرة بدلاً من أن يشتري الحديقة بأكملها؟"

ومن المهم أن نلاحظ أنه لم يجب بالفعل على سؤاله عما دفع ريتشارد سون إلى تفضيل ان اغتصاب كلاريسا وهي غائبة عن الوعي. ولكن هذا السؤال يستمر في مداعبة

تفكيره. إنه يسأل، "ليس ذلك لأن إحساس الرجل بالالتزام يقابل من متعته؟ اليس من الحق أن استمتاعه بزجاجة من النبيذ يمكن أن يضيع تماماً إذا عرفت أن علي أن ادفع خمسيناً من الجنيهات لقاءها غداً؟" وهو يمضي إلى مناقشة فكرة بوزويل عن تعدد الأزواج، ويؤكد أن هذه الفكرة ليست سوى تعبير آخر عن رغبة الرجال الطبيعية في أن يعربوا عن ولانهم وأن يدفعوا ما قرر عليهم.. "بأن يصبوا دناناً من عصير الخلق في الحلق الصحيح المناسب".

ولم يؤد الاهتمام بصوفيا إلى شيء. ولكنه على الأقل أدى إلى بداية تفكير أيزموند في الجنس. ويؤدي هذا به إلى كتابة معالجة تقريرية ممتعة عن تجاربه الجنسية حتى ذلك الحين. وكانت هذه التجارب قد وقعت قبل ذلك بستة شهور فحسب، كانت الفتاة هي خادمة شقيقته الكبرى، جوديث، وكانت قد جاءت عائلة من ليونز. وهو يدعوها باسم مينو رغم أنه من الواضح أن "ماري" هو اسمها الحقيقي.

حينما علت من دبلن، كانت جوديث قد عادت إلى البيت منذ نحو ستة أسابيع. وفي البداية لم أنتبه إلى مينو أيما انتباه، إذ وجلت أن وجهها على شيء من القبح. كان صدغها كبيراً جداً، وكان لها أنف مثل الزرار الكبير. ولكن في اليوم التالي لعودتي، وبينما كنت راقدًا على الحشائش الحديثة التشذيب بالقرب من حافة مجرى الماء، سمعتها تضحك وتقول: "كلا، كلا. ليس هذا هو المكان المناسب"، ثم سمعت صوت رجل يتهكم على لكنتها قائلًا، "كالا، كالا، ليسا هذا هو المكان المناسب" وكان الرجل هو شون فرايرش، الذي يسوس الخيل ويساعد على شؤون الحديقة، وكان عملاقاً ضخماً الجثة برزت على صدغه الأيمن ندية كانت نتيجة ركلة قاسية من مهرة عسيرة. لم تكن سراويله ولا ستراته تناسبه أبداً، لأنها كانت غالباً مما يستقني عنه شقيقه الأكبر، الذي كان أقصر منه بمقدار ست بوصات. لم أكن قادراً على رؤية أي منهما، لأنهما كانا راكدين وسط الحشائش الطويلة تحت إحدى شجرات التفاح. وبعد دقائق قليلة من الصمت، قالت مرة ثانية، كلا، ليس هنا". أجابها، "إذن تعالي إلى الإصطبل" قالت، "كلا. لا أستطيع. يجب أن أعود لأقدم الشاي". (وكانت جوديث لا بد أن تتناول الشاي في العصر. عادة جاءت بها من الخارج). ولكنني سمعتها تعدد بأن تذهب إلى الإصطبل بعد تقديم الشاي، ثم وقفت، ونفضت شعرها بيديها، وأسرت تباعد. وقف شون راقتي، وربط بنطاله عند وسطه بقطعة حبل ثم ذهب في اتجاه الإصطبل.

كنت أعرف سمعة شون بين هتيات القرية، رغم أنني لم أكن قادراً أبداً على فهمها، لأن نديته وعينه المشقوقة أعطياه مظهراً مفرزاً إلى أقصى حد. كانت شقيقتي يطلقن عليه اسم "سيكلوبس". ولكنني كنت في هذه اللحظة أتحرق شوقاً وفضولاً لمعرفة ما نوى على فعله معها، رغم أن ذلك لم يكن صعب التخمين. كنت قد راقبته وهو يرشد العضو المنتسب لأحد الجياد النافذة الصير لكي يولجه في مهرة جديدة، ولم يكن لدي شك في أنه جيد التدريب على استخدام "الته" والسيطرة عليها. ولكنني لم أكن أعرف شيئاً من التحام الرجل بالمرأة، غير أنني قررت الآن، وقد سنحت الفرصة من تلقاء نفسها، أن عليّ أن أعالج هذا النفس الخطير في تعليمي. وعلى هذا فقد دفعت نفسي إلى الجزء الذي يوضع فيه القش في الإصطبل - لأنني خمنت أن هذا هو المكان الذي كان يقصده - ثم تسلفت صاعداً إلى القسم العلوي منه، بين أكياس الفاصوليا وأجولة البذور. كانت الأرضية كلها مغطاة بالقش، والرائحة للذئبة مثيرة. كان تخميني أنهما ينويان أن يتمتعا بالتحامها فوق هذا البساط الطبيعي القرب بكثير إلى الواقع، ولكن إذا كان قد "وضع في رأسه" أن ينظر إلى القسم العلوي، فإنه سيتعين عليّ أن أختبئ وراء الأكياس والأجولة في الركن.

بعد نصف ساعة دخل شون وبدأ في قلب القش بشوكة كبيرة، لم يكن بوسعي أن أراه، ولكني عرفته من صوته وهو يغني أغنية "موللي مالون". ثم صعد بعد ذلك إلى الطابق العلوي، أخذاً معه "أحضاناً" هائلة من القش، لكي يبعثرها وينشرها على الأرضية على بعد بضعة ياردات من المكان الذي رقلت فيه. من هذا التصرف خمنت أنهما ينويان أن يخلعا ملابسهما وأن يفعلا ما يريدان هنا في القسم العلوي، وليس في المدخل السفلي كما كنت أظن.

بعد دقائق قليلة، جاءت مينو، ولهزة قصيرة لم أسمع صوتاً. رفعت جذعي على ركبتي وتلصصت ناظراً فوق الأجولة. كانا واقفين بالقرب من الباب، وكانت قد أحاطت عنقه بذراعيها، تبادلا حديثاً هامساً وأشار هو إلى السلم. خفضت جذعي ورفقت. أغمضت عيني حتى يظنناني نائماً إن وقعت عيونهما عليّ. صعد هو أولاً، ثم استدار وعاونها على صعود السلم الذي كان ممتداً وراء النصة العالية. كان الضوء ضعيفاً، ولكن كان بوسعي أن أراهما بشكل جيد. وقف هو وظهره إلى الجدار، فألقت هي بذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة طويلة. ثم أنزلت إحدى يديها ومدتها إلى الحبل الذي حلت عقده بجذبة واحدة. سقط

بنطاله إلى ركبتيه، كاشفاً عن ردفين هائلين مشعرين كانا في مواجهتي. تحركت يدها متجولة بينهما ولم يكن بوسعي إلا أن أخمن ما كانت تفعله في هذا المكان... رفعت وجهي فوق الأجولة، ولكن لم أستطع أن أرى سوى القليل، لأنهما كانا غارقين وسط القش، وكان الضوء قليلاً بالقرب من الأرض. وهجاء صرخت صرخة حادة، وخشيت أن تكون قد رأتني فأخفيت نفسي غاطساً إلى الوراء من جليد. ثم سمعته يأمرها بالصمت، فصرخت مرة ثانية، ولكن بصوت أقل ارتفاعاً. همس القش وصر كما لو كانت آلاف من الجرذان تمرح داخله، واستمرت هي في إطلاق الصرخات والأذنان، كما لو كانت تتألم. ثم أصبح الصرير عنيفاً حتى دفعني إلى التلصص من جديد، فرأيت بهرك ردفه فوقها كما لو كان يأمل أن يصنع ثقباً في الأرض... بينما اندست قدمها في ثنيتي ظهره، ولو كان هناك المزيد قليلاً من الضوء، لكان في وسعي أن أرى المشهد الصحيح الدقيق للعملية. ثم حاولت أن تصرح مرة ثانية فوضع يده فوق وجهها، بينما توقفت حركاته كما لو كان قد تجمد فجأة. رقنا في مكانهما، ساكنين تماماً، ثم تنهد تنهيدة عظيمة، وبدأ عليه أنه يوشك أن يجفل مرتداً إلى الوراء من فوقها. وحلت هي وناق ساقيها من حول ردفه، وتركتهما تتمددان مستقيمتين، بينما رقد هو في مكانه فوقها دون حركة.

لا بد لي من الاعتراف بأن كل هذا قد دفعني إلى حافة قريبة من الاستنارة التي بلغت لحظة انفراجها الخاصة قبل أن تتوقف حركاتهما ببعض دقائق. ولما كنت قد انتهيت، فقد أملت أن يرتديا ثيابهما وأن يسمحا لي بالهرب من هذا الوضع المقيد. ولكن الصمت الذي أطبق واستطال القنعي بأنهما قد غرقا في النوم، رغم أنني لم أجروا على الحركة لكي أكتشف إن كان تخميني صحيحاً أم لا. وبعد أن مرت عشر دقائق، شرعا في التحرك ثانية، ولكن الصرير استمر لمدة طويلة حتى أنني رجحت أنهما لم يفعلا سوى أن عادا إلى مؤتمر العشق الذي يعقدانه. رفعت عيني فوق الأجولة فاكشفت أن تخميني لم يبلغ سوى نصف الحقيقة، لأنه كان رائداً على ظهره مثل فارس مصروع، بينما جثت هي على أطرافها الأربعة، وبليت كما لو كانت تحاول أن تنفث قدراً من الحياة في الجمرات الخابية بأن تنفخ فيها بعض الهواء. وبعد قليل، أثمر جهدها ثمرته، وتأجج اللهب في الجمرات من جديد...

يمضي تقرير أيزموند في اضطراب واستطالة حتى ليكون من غير المجدي أن ننقل منه المزيد هنا. كانت الفتاة مصابة بالقلمة مستعرة الشبق، رغم أن أيزموند كان أقل خبرة

بكثير من أن يدرك هذا، لقد دفعت فارسها إلى مزيد من النشاط ثلاث مرات، ثم تركته في النهاية غارقاً في نوم بلغ من العمق أن ايزموند كان أخيراً قادراً معه على أن يخطو على أطراف أصابعه فوق جسده دون أن يشعر به.

ولكن الطور التالي كان نموذجياً ومطابقاً لما هو منتظر من ايزموند حتى أنه يجب أن يسجل هنا. أن يعترف بأنه لم يكن قادراً على رؤية ما يجري ولكن الأصوات كانت دالة ولا يمكن الخلط في تفسيرها حتى لقد كانت الرؤية غير ضرورية. والآن، وقد رأى الفتاة عارية، فإن فكرته الوحيدة كانت هي كيفية أن يتقاسمها مع حتى الإصطبل. إنه يكرر عدة مرات أن جمال جسدها قد أدهشه، وكان قبل هذا يظن دائماً أن المثاليين الإغريق قد أسرفوا في البالفة في جمال شكل الجسد الأنثوي. وفي طريق عودته إلى المنزل، خطر له أن الفتاة يمكن أن تخضع للابتزاز والتهديد لكي تسلم نفسها. لم يكن عليه إلا أن يهدد بأن يبلغ شقيقته بأنها تعشق حتى الإصطبل. ذهب بعد هذا إلى حجرته لكي يغتسل وينفض التراب عن ثيابه، ثم ذهب عبر جناح الخدم إلى حجرة مينو. ولم يلح له أن ثمة أحداً بالداخل، فتح الباب وأطل برأسه في الحجرة.

"كانت حجرتها خالية، وللحظة ناقشت نفسي أنتظرها أم أعود راجعاً إلى حجرتي. ثم سمعت صوت مياه تسيل في الرحاض الملحق بالحجرة. وهو قسم صغير من الحجرة نفسها يفصله عنه حاجز صغير - فهرقت أنها هناك بالداخل. أغلقت الباب خلفي وخطوت إلى الداخل على أطراف أصابعي. ولكن أحد ألواح الأرضية صر تحتني فنادت: "من هناك؟" فقلت بأكثر ما استطعت هدوءاً: "ايزموند". أطلت برأسها وقالت: "أوه، سامحني، إنني من دون ثياب". وقفت في مكاني، شاعراً بأنني أبله لا شأن له، الأمر الذي أغضبني. أمسكت بثوبها، الذي كان ملقى على أحد المقاعد، ورفعته لتغطي جسدها عند العنق وهي تسأل: "تحمل رسالة؟" ولكنها كانت تبتسم كما لو كانت قد وجدتني ممتعاً، وساعدني هذا على التخلص من ثورتري. كنت أصدق فيها بقوة، محاولاً أن أعرف إن كانت ترتدي قميصها أم لا، حتى أنها لم تبق طويلاً في شك من هدي. كانت هذه هي أول مرة أعرف فيها أن تبادلاً في الآراء يمكن أن يحدث دون نطق بكلمة واحدة. تحركت عيناها من قدمي إلى رأسي، وعادت ثانية. قلت: "الجو بارد هنا، أو شيئاً من هذا القبيل، ثم خطوت إلى الأمام، وأخذت يديها وامسكت بهما فرفعتهما وأطلت تحت الذراعين. كانت ترتدي القميص، ولكنه كان متدلياً

تحت عنقها، غير أن منظر الكرتين غير الحميتين دفعتاني إلى العمل بقوة حتى أنني لم أطل الزدد، وإنما أخذت الثوب منها وألقيته على الفراش. على النهذ الأسير رأيت آثار صفين من الأسنان وحينما بدا عليها أنها على وشك الاحتجاج أشرت إلى تلك الآثار. هبطت بعينها نحو صدرها وقالت شيئاً بالفرنسية لم أستطع سماعه، ثم حنيت رأسي إلى الحلمة الصغيرة التي وقفت الآن عارية. وبينما كانت تنتظر، جنببت حزام القميص. توقعت منها أن تغفر مبتعدة، ولكنها وقفت في مكانها بهدوء وتركتني لكي أخذها بين شفتي. ثم بعد لحظة، وضعت يدها على رأسي وربتت على شعري. ثم حلت رباط حزامي. لم أضبع وقتاً أكثر من هذا. وإنما دفعتها إلى الورا نحو الفراش الصغير، ووضعت يدي على الجزء المنخفضة التي كانت مبتلة لأنها كانت تغسلها حينما دخلت الحجرة. ودون أن أخلع بنطالي أو حذائي سقطت فوقها، وولجتها دون صعوبة...

مرة أخرى يبدو الوصف أطول جداً من أن نقتطفه كله. لقد بقيا في حجرتها ساعة أخرى، ودفعت الفتاة للدهشة إلى أن يمارس الجنس معها ثلاث مرات أخرى. وبعد ذلك تبادلا الحديث، واعترف ايزموند بأنه قد راقبها مع شون رافرتي. وبدلاً من أن تشعر بالهانة، ضحكت ضحكة مرتفعة، وسألته إن لم يكن قد شعر بالغيرة فقال: "لم أكن حينذاك، ولكني أشعر بها الآن" قالت له إن ذلك سخف لا معنى له، طالما إن للفروض في الرجال والنساء أن يتبادلا المتعة.

من الصعب القول إن كان ايزموند سعيد الحظ أم سيئه في اختياره عشيقته الأولى حقاً إن آراءه حول الاتصال الجنسي غير الشرعي كانت قد تطورت من قبل تطوراً كبيراً، ولكن قصة حب أكثر طبيعية - ذات جانب عاطفي بالإضافة إلى جانبها الجسدي - كانت جذيرة بأن تساعد على موازنة تلك الآراء. كان ما يزال غير مدرك لأن هناك شيئاً ما غير طبيعي في مطالب مينو الجسدية طالما أنه وجد نفسه قادراً على أن يمارس معها الجنس بالكثرة التي تريدها. كذلك فإنه ليس من الحقيقي تماماً أن الانجذاب القوي بينهما كان محروماً من جانبه الوجداني. بل لقد كانت هناك نقطة اعتبرها هو اندماجاً معها. لقد كف عن التفكير في كلاريسا ولفليس، أو جولي وسانت بيو، وراح يفكر في قصتهما باعتبارهما قصة مينو ودي جريو - رغم أنه يعترف بأنه كان قد صرف النظر من قبل عن مسرحية بريغو باعتبارها شيئاً سخيفاً وغير واقعي.

من المؤلف أن أيزموند لا يقول لنا شيئاً عن تاريخ مينو السابق، ولا حتى عما إذا كان قد سألها هو عنه أم لا. (لقد كان من المهم أن نعرف أن كانت حيويتها الجنسية غير العادية فطرية أم مكتسبة)، إنها تبدو بشكل واضح في صورة حالة من حالات الغلظة الشبقية جديدة بأن تدرس في كتاب مرجعي. كانت تحب أن تعض بالأسنان وخاصة في نهديها وردهيها، وكانت تحب أن تضرب على مؤخرتها بشرط من الجلد..

وفي خلال الشهرين اللذين استمرت لهما تلك العلاقة، لم تكن تخفي عنه أنها كانت تعضي أكثر مما تستطيع من الوقت مع شون رافيرتي، وكان أيزموند واقعاً تماماً تحت سيطرتها حتى أنه لم يشك في ذلك. بل إنها حاولت أن تقنعه بأن يختبئ في الإصطبل مرة ثانية لكي يراقبها وهي تمارس الجنس مع شون. ولكن كبرياء أيزموند - أو ربما تظاهره الأخلاقي البروتستانتي - ثار ضد ذلك.. بل إنه اعترض على اقتراحها الذي قالت فيه أنها ستخبر شون عن علاقتها به هو، وأن ذلك يمكن أن يشركوا في الاعيب الإصطبل.

في أغسطس اتخذت القصة تحولاً غير متوقع، يدفع الرء إلى أن يتساءل إذا كانت مينو (واسمها الأخير لم يسجل) واحدة من أكثر نساء زمنها تعقيداً وأبعدهن عن التقيد بالوصفات المعتادة. فقد حدث أن فتاة تدعى دلفين لانتير، وهي إحدى معارف جوديث، جاءت لكي تقيم في قلعة دونيللي. ويستطيع الرء أن يستنتج من وصف أيزموند لها أنها لم تكن ذات جمال تقليدي، لأنه يقول أن وجهها كان يتمتع بنوع من الجمال الناتج عن رفقتها وعينيها الواسعتين البنيتين. وكان من سوء حظها أيضاً أن تكون مشوهة تشويهاً بسيطاً، فقد حدث أن سقطت من إحدى العربات في طفولتها فانكسرت عظام أحد ردهيها وأحد كتفيها ولم يستطيع الأطباء أن يعيدوا العظمتين إلى حالتها الطبيعية، فكان عليها أن تحمل نفسها على ساقها بطريقة مضطربة. ورغم أن أبائها كان فرنسياً فقد كانت أمها أيرلندية وكانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة. (ومن الأمور ذات الميز أن أيزموند يتحمل مشقة تسجيل التفاصيل عن فتاة من طبقته، بينما هو يتجاهل تلك التفاصيل الخاصة بمينو، الأكثر تعقيداً وجذباً للاهتمام).

كان أيزموند صبياً في السادسة عشرة من عمره، رومانتيكياً، وكان ينظر في تأمل إلى كل امرأة يقابلها. فإذا كانت مينو صورة من مانون ليسكو، فإن دلفين كانت أقرب إلى شخصية جولي - أو ربما كانت أقرب إلى "كلير" الرقيقة الحلوة الطبع في نفس الرواية. رأى

أيزموند أنها كانت على قدر من الخجل، فتحمل مشقة أن يسليها، أعارها كتاب "هيلوبز الجديدة" بعد أن انتزع منها وعداً بأن تخفيه عن الأنظار. (والسبب في هذه اللمسة من السرية ليس واضحاً، لأنه يذكر في مكان آخر أنه لم يكن يوسع أبوه ولا أمه أن يتحددا الفرنسية وربما كان يريد أن يقيم مع الفتاة نوعاً من العلاقة الخاصة). ولكنه كان يخشى أن تشعر مينو بالغيرة، فحاول ألا يكون اهتمامه بالقادمة الجديدة شديد الوضوح. ولكنه كان يبغض مينو قهرها! فبعد عدة أيام، وكان قد قضى معها ساعة في فراشه، قالت له أنها تظن أن دلفين واقعة في هواه وقالت له أنه غبي لأنه لم يلاحظ ذلك. وقرر أيزموند أن يكتشف الأمر. بالأساليب العادية، وهي أن يجعل يده تحتك بيدها وهي تمر إلى جانبه، وأن يلمس يدها أو وسطها حينما ينفرد بها، لكي يرى إن كانت ستقبل مثل هذا النوع من الألفة. وقد قبلته فعلاً. ففي أثناء نزهة وسط خرائب الدير أمسك بها في أحد الأركان وقبلها، فأنفجرت في البكاء. ابتعد هو منزعاً وقد اختلط عليه الأمر، لكي يسأل مينو رأيها. قالت له مينو أن دلفين كانت أكثر جذباً منه إزاءها، وأن دموعها كانت لأنها حدثت ذلك، وهذا تحليل جدير بالاحترام. وهكذا فحينما انفرد بها في المرة التالية سألها أيزموند، "ألا تحبين أن أقبلك؟" وأكد لها أنه لن يفعل ذلك ثانية إذا هي اعترضت. احمر وجهها، وقالت عدة جمل لا رابط بينها، وحينما ضغط عليها، اعترضت بأنها لا تعترض على ذلك. دعاها أيزموند لجولة أخرى بين أطلال الدير، وأمضى عصر ذلك اليوم وهو يقبلها. وفي عودته، كان لابد أن ينطلق إلى حجرة مينو لكي يمتلكها، كانت سيطرته على نفسه طول النهار أكثر مما يحتمل، قالت له مينو إنه عاشق بليد، وأن ما يحتاج إليه هو الرقة والملاطفات. إن عليه أن يربت على وجهها وذراعها، وأي جزء من جسدها يتصادف أن يكون مكشواً. أي أن يعودها أن تستجيب باستمتاع للمسته، ثم يتقدم بحذر نحو المناطق المحرمة. ويستغرق وصف أيزموند لتلك الحملة تسع صفحات من الكتابة الضيقة الحروف والمساحات. كانت دقائق عملية الإغواء تسحر له. وبعد أسبوع سمحت له بأن يكشف نهديها لكي يلاطفهما، وأن يقبلها فوق الركبتين - رغم أنها كانت تمسك بقوة بطرف الثوب بكلتا يديها لكي تمنع أي مزيد من التقدم. تناقشا في شخصيتي جولي وسانت بريو، ووافقت نظرياً على أن شخصين في وضعهما لابد أن يكونا عاشقين. ولكنها - في التطبيق - وضعت خطاً فاصلاً حاداً بين الملاطفات وممارسة الحب.

غير أن مينو الفريدة في نوعها قدمت اقتراحاً أدار رأسه. كانت مقتنعة بأن دلفين كانت فاضلة. (فضيلة نظرية بسبب عدم الخبرة) - حسب تعبيرها - ولكنها كانت تملك فضولاً كافياً. قالت لأيزموند أن يأتي بدلفين إلى الإصطبل في عصر اليوم التالي، وأن يؤكد عليها ألا تنبس بأي صوت حينما يدخل شون رافيرتي لكي ينشر القش استعداداً لدورتها المعتادة من ممارسة الجنس: "إذا رفضت أن تنظر، فإنها فاضلة حقاً، ويكون من الأفضل لك أن تهرب قبل أن تتزوجك. وإذا نظرت، فإنها ملكك بالفعل".

وبينما كانت الساعة الفاصلة تقرب، أصبح أيزموند عصيباً، وقرر عدة مرات أن يتخلى عن كل هذا المشروع للنافي للطبيعة والعقل. وانتباه الشك في أن الفتاة التي تستطيع أن تضع خطاً فاصلاً بمثل تلك الحدة، جديرة بأن تهدم اللعبة كلها بأن تكشف عن مكان اختبائهما. وأعلنت شقيقته عن رغبتها في القيام بزيارة لبعض الجيران عصر ذلك اليوم. فقالت دلفين أنها تود أن تذهب معها، وأطلق أيزموند تنهيدة ارتياح عظيمة. ولكن دلفين - في اللحظة الأخيرة - عادت فقالت أنها تشعر بصداق، وقالت أمه أنها ستذهب بدلاً منها. وبدأ أيزموند يلعب لعبة أشبه بالروليت الروسي ضد القدر. لقد أراد للمشروع أن يفشل، ولكنه كان راعياً في أن يمضي في تنفيذ كل خطواته - باحثاً بلهفة عن أول عذر يبرر له التخلي عنه. ذهب إلى حجرة دلفين في الساعة الثالثة والنصف وسألها إن كانت تشعر بالرغبة في المشي معه قليلاً. خرجت معه فاتخذتا طريقهما المحب صوب بلدة أدار، ثم عادا سائرين إلى جانب المجرى المائي وهما يلقيان الحصى في المستنقعات الضحلة. وتحدث أيزموند عن طفولته، وعن الساعات التي أمضاها في قراءة الكتب للمجموعة في الإصطبل. ولا يبدو أن في هذا شيئاً أسوأ مما جاء في كتاب "الراهبة" لسزافرا بيهن، أو في كتاب "فردينانا" أو "الكونت فانوم" لسمو للينتنس). وبينما كانا يعبران هناء الزرعة، اقترحت دلفين أن يلقياً نظرة على الإصطبل. كانت الساعة الآن النصف بعد الرابعة، وكانت هناك فرصة لاحتمال أن يكون شون بالدخل بالفعل. ولكنه لم يكن هناك. قادها أيزموند فوق السلم إلى القسم العلوي الشبيه بالنصبة، ثم ذهب إلى المكان الذي كان قد أعده بالفعل في الركن - واضعاً أجولة نظيفة على الأرضة - ثم ألقي بنفسه عليها. فعلت دلفين نفس الشيء دون تردد - ولاشك أن هذا كان هو ما كانت قررته بينها وبين نفسها.

"أضعننا قليلاً من الوقت في الحديث، ولكننا غرقنا على الفور في القبلات والملاطفات الناعمة التي عبرت بسرعة إلى النقطة العهود من الألفة. لم تكن ترتدي أية مشدات، ولذلك كان سهلاً أكثر من المعتاد أن أكشف نهدية. وأن أبدا الهجوم بشفتي. وكنت قد لاحظت من قبل أنني أستطيع أن أزيد متعتها بأن أعض الحلمتين برفقة شديدة، ولحظتها كانت تشبك كاحليها وتضغط بشدة في حركة تلقائية، الأمر الذي استنتجت منه أن النقطة التي تنضغط بينهما كانت مستعدة لتقبل مزيد من الاهتمام. ولكن حينما تحركت الشفتان فوق ركبتيها، أسرعت تغرس أصابعها في شعري وتمسكني بقوة، كنا في هذا الوضع حينما سمعنا صوت الخطوات القادمة صاعدة على السلم، فأسرعت من فورها تسوي ذيل ثوبها، وكانت على وشك أن تجلس حينما وضعت إصبعي على شفتي وهزئت رأسي محذراً. جلسنا في مكاننا، لا نكاد نتنفس، ثم سمعت حفيف القش بينما كان شون ينثره وبريقه فوق الألواح بشوكته الطويلة، ثم هبط إلى أسفل، وعاد حاملاً "حضناً" آخر من القش، وهمست لها أن تظل صامتة وأن كل شيء سيكون على ما يرام، لأنه لم يكن سوى قش في الإصطبل، وهو صديق خاص لي. ولكن حينما حاولت أن أقبلها ثانية هزت رأسها ودفعني بعيداً.

سمعنا شون يهبط ثم يخرج من الباب، فقالت: "أسرع. هذا هو وقت الخروج. ولكن حينما وقفنا سمعنا صوت مينو في الطابق الأسفل، فجلست بسرعة مرة أخرى دون أن أحتجأ على الجلوس. كنت قد رتبت الأكياس المليئة أمامنا بحيث تستطيع أن تنظر من ثغرة بين اثنين منهما دون حاجة إلى الوقوف. انزعجت دلفين وهمست تقول: "ماذا إذا كانا سيجبران إلى هنا؟" ولكنني طمأنيتها، مشيراً إلى القش. أضن أنها في تلك اللحظة بدأت تشك في الغرض الذي كان شون يرتب القش من أجله بهذه الطريقة لأنني رأيت وجهها يصطبغ بالحمرة.

صعد شون أولاً ووقف هناك، وما أن لحقت به مينو حتى ألقت ذراعيها حول عنقه ومنحته قبلة بالغة الطول، عرفت طبيعتها لأنني كنت قد خبرتها بالفعل، فقد كانت ماهرة بصورة رائعة في إشعال النار في الدماء بحركات جريئة من لسانها. ثم حلت الحبل حول وسطه حتى سقط سرواله حول كاحليه... لاحظت حينئذ بابتهاج أن دلفين كانت تتابع كل حركة بأكثر ما يكون من الفضول وتذكرت ما قالته مينو من أنها أصبحت بالفعل ملكاً لي. حينئذ مددت يدي وجذبت كتفي ثوبها إلى أسفل، ومددت كلاً من يدي تحت إبطه لكي أضع كلاً منهما فوق أحد نهدية. لم تبذل أية محاولة لمنعني، كان بوسعي

أن أحس بقلبي يضرب ضرباته الثقيلة السريعة تحت أصابعي. كانت مينو الآن دون ثيابها رابكة أمام شون. وكنت أكثر اهتماماً بالبحث عن الكيفية التي قد يمكنني بها أن أستفيد من موقعي الحالي مما كنت مهتماً بمتابعة تطورات مباحثها الحارة... وعدت إلى ملاطفاتي... فرفعت ذيل ثوبها فوق مستوى ركبتيها، وسمحت ليدي بأن تضغط على فخذه. وفي هذه المرة لم تأتي بأية حركة لكي توقفني. ولكن حينما حاولت أن ادس إصبعي هزت رأسها وضغطت فخذيها بإحكام أكثر. كان تنفسها الآن ثقيلاً حتى أن صرير القش وحده هو الذي منع الآخرين من سماعه... غيرت وضعي، وبدأت أعض نهدبيها... ثم قبضت أصابعها على شعري... وانطلقت من صدرها تنهيدة طويلة، ثم هوى جسمها إلى الأمام، وكانت على وشك السقوط بكل ثقلها لو لم أكن على استعداد لدعمها بيدي. كانت الأصوات القادمة من ناحية القش قد بلغت الآن مرحلة الصراع ولكنها كانت غير مبالية كما لو كانت تلك أصوات عاصفة تهب في الخارج، تركت نفسها تسقط على الأجوالة، وأغمضت عينيها، وهي تمد وتفرد وتسوي ثوبها لكي تستعيد رونقها. هدأت من لهفتي بشيء من الصعوبة، وأنا لاحظ عودة تنفسها إلى انتظامه، ولكنني بعد خمس دقائق أو نحوها، وخشية أن تغرق في النوم تفقدت ما أحرزته من تقدم، فرفقت إلى حوارها وقبلتها. رقلت في مكانها كما لو كان نائمة، فوضعت يدي على ركبتيها، ثم زحفت بها... وكانت الأصوات القادمة من الناحية الأخرى للحاجز قد توقفت، وكان كل شيء قد صمت الآن حتى كان بوسعنا أن نسمع حركة هار صغير. ولذلك لم أبذل أي محاولة أخرى لتحسين وضعي، وإنما رقلت في مكاني، ويدي فوق فمها الداخلي اللبل... رقلنا في مكاننا هناك لمدة تقرب من ربع الساعة، ثم سمعت همس مينو، فعرفت أنها قد جلدت طاقتها، وأنها الآن قد عازمت إلى إثارة خنزيرها النائم الذي كانت إجابته مجرد زمجرة... وانطبقت ذراعها بقوة حولي، فغطيت فمها بقبلة.

تمنحنا لهجة هذه الحادثة كلها انطباعاً بأن إيزموند كان قد أصبح بالفعل كازانوفا لا يترك شيئاً للظروف أو للمصادفات. ولكن الأحداث تكشف عن عدم صحة ذلك الانطباع. إن كازانوفا كان جليراً بأن ينتابه التعب من الفتاة قبل أن يستعد عنها. أما إيزموند فقد قرر أن يحبها، وأنه سوف يتزوجها. ومن المحتمل أن يكون قد شعر بالخجل من الخطة التي اتبعها والتي تغلبت على مقاومتها. وكان بالتأكيد يدرك الضرر الذي قد ينزله بها إذا أبدى أي تناقض في رفته إزاء اهتمامه بها. كانت بالفعل تشعر بالخجل منه لسماحها

له بأن يطلع على استئثارها الجنسية، ولكن خجلها كان أكبر لأنها سمحت له بأن يستفيد من هذه الاستئثار. ولو أنه قد هجرها كلية بعد استسلامها، لكان هذا قد بدا لها في صورة الجزء الذي تستحقه فعلاً. ولكن إيزموند صمم على أن يثبت أن هذا لم يكن حقاً. لقد انفرد بها - بعد أن غادر شون ومينو الإصطبل - وهذا صرير القش مرة ثانية - فقال لها إنها قد أصبحت مخطوبين. وفي تلك الليلة، حينما أدارت مينو مقبض باب حجرته، وجبت أن مزاج الباب مغلق من الداخل. وفي الصباح التالي، بحث هو عنها وأخبرها أنه مخطوب ولأنها يجب ألا يكونا عاشقين من تلك اللحظة. ويبدو أنها تقبلت هذا الموقف بطريقة فلسفية، بل إنها كانت متعاطفة معه إلى الحد الذي جعلها تحذره من أن يحتفظ بسر هذه الخطوبة بعيداً عن والده. فعمل بنصيحتها. ولكن دلفين لم تكن بهذا القدر من اللباقة، لأنها أطلعت جوديث، شقيقة إيزموند، على السر، الأمر الذي ثبت أنه أسوأ أنواع التقدير. كان من الواضح أن جوديث مغرمة بدلفين، وربما كانت تستطيع أن ترحب بها كزوجة لأخيها في ظل ظروف مختلفة. ولكن دلفين كانت كاثوليكية رومانية، وكان آل دونيللي من البروتستانت. وكانت هذه هي أكبر العقبات جدية، لأن الكاثوليكي في أيرلندا كان منبوذاً. كان سادة الريف من البروتستانت، أما الكاثوليك فكانوا مطرودين من الدائرة الاجتماعية. وكانت دلفين ابنة لأرستقراطي فرنسي ولكن هذا لم يؤد إلى أي اختلاف، طالما أنهم كانوا في أيرلندا. وأشارت جوديث إلى هذه الحقيقة، وكانت دموع ومناقشات طويلة. وهنا إيزموند يشعر بأنه ارتكب غلطة جسمية. كان أمراً لا أهمية له عنده على الإطلاق سواء تحولت دلفين إلى البروتستانتية، أو أصبح هو كاثوليكياً، أو أصبحا كلاهما بوذيين. لقد أراد أن يتزوجها لأنه مدين لها بالحب والحماية، ولأن إغواءه لها قد منحه إحساساً قوياً بالرضا عن نفسه. وقد أصبح الآن "مخطوبين" وكانت هي ترفض حتى أن تذهب إلى الإصطبل. وهو يقول بسخرية في مذكراته إنهما كانا جديرين بأن يكونا أكثر سعادة لو أنه لم يذكر كلمة الزواج أبداً.

واستمتعت جوديث بدورها باعتبارها خاضعة وموقفة بين الرؤوس في الحلال. ونصحت إيزموند بالأقول لوالديهما شيئاً حتى يتمكن من إعلان أنها ستتحول إلى البروتستانتية، وبعد ثلاثة أيام، رحلت هي ودلفين إلى دبلين لكي يعرضا القضية على والديها. وكانت هذه هي آخر مرة يراها إيزموند فيها. فقد عانت جوديث إلى فرنسا على الفور مع عائلتها.. وأطلق إيزموند تنهيدة ارتياح، وتسلل عائداً إلى فراش مينو. ولكنه فقد مينو هي

الأخرى بعد شهرين، حينما ضببطها السيد دونيللي الكبير في الإصطبل مع صبي الإصطبل الجنب. وكان السيد يتمتع بما يكفي من سعة الأفق، ولكنه كان مهتماً لفضائل ولده وإرثه. أرسلت مينو في عرب البريد إلى ليونز، في الدرجة الثالثة، حاملة مرتب شهر وعنداً من ثياب جوديث القديمة. وأهداها أيزموند عشرين جنيهاً كان قد ادخرها للنزهة والاستمتاع. وقال لنفسه أنه أصبح سعيداً بقدرته على أن يقول أن روحه - وأعضاءه الأخرى بالتأكيد - قد عادت إليه، ملكاً خالصاً له من جديد. ولكن بعد رحيلها بشهر واحد، بدأ أيزموند يومياته بقوله: "إنني غالباً أكثر من يعيشون تحت الشمس لعنة وتعذيباً للذات..." كان قد تذوق من اللهاج ما هو أكثر جداً من أن يسمح لنفسه بعدها بالخنوع لهذا الوجود الداجن الساكن لأحد السادة للزارعين. لقد اقتسمت تجربته مع مينو ودلفين منهاج تعليمه الكامل في مجال فن الحب. كان قد خسر بهجة الغزو الذكري، وإحساس السيطرة على عواطف امرأة، بالإضافة إلى التخلص من كل مكبوتاته الجنسية. كان يتوق إلى الجنس مثلما يتوق مدمن الخمر إلى دنائه، ولكن لم يكن هناك من تقدمه إليه. ومضى يتخفف من إحساسه بالإحباط في يومياته، محاولاً أن يعيش ساعاته مع مينو مرة أخرى، وأن يستعيد لحظات إغوائه لمينو. وحاول أن يقرأ، ولكنه وجد أن روسو صار مضجراً، وفولتير ضحلاً، وشترين مزعجاً دون مناسبة. ولم تستطع سوى كتب جونسون، "راسيلز" و"أمير الحبسة" أن ترضي توفقه إلى الجدية، وراح يقرأ الكتابين ويعيد قراءتهما حتى حفظهما عن ظهر قلب. إن جونسون يثير مسألة غربة الإنسان في شيء "أكبر من" السعادة، وأكثر من مجرد القناعة والرضا. قبل ذلك بستة شهور، كان أيزموند جديراً بأن ينظر إلى هذه الرغبة باعتبارها رغبة في الإشباع الجسدي، وفي التجربة، وفي المتعة، ولكنه كان يعرف الآن معرفة أفضل من ذلك.

بعد ذلك، نأتي إلى ما كان بالنسبة لي أكثر أقسام اليوميات أهمية. فبينما كان ديسمبر الماطر يخلي مكانه لينابر، غرق أيزموند في أزمة من الانقباض العصبي الحاد، ضاعفها انزعاجه على والده الذي حدث في أواخر ديسمبر أن هاجمته وضربته بقسوة عصاة من للتشردين يبدو بشكل غامض أن دوافعهم كانت سياسية. وقعت هذه الحادثة في الظلام، حينما كان الأب عائداً من منزل خاص محلي غير محبوب، ضرب جواده بحجر، ثم أصابه على الفور حجر كبير آخر فوق عينه اليسرى، فسقط عن جواده فاقد الوعي. وحينما لم يعد إلى البيت عند منتصف الليل، خرج أيزموند وجماعته من الأتباع وسط عاصفة لكي

يبحثوا عنه، فوجده يجرح نفسه على طول الطرق نصف عار، وما زال ينزف دماؤه بشدة. كان منظر الجراح مخيفاً أكثر من حقيقتها، فبعد عشرة أيام في الفراش، عاد إدوارد دونيللي معافى قوياً كما كان. ولكن أحداً لم يستطع أن يعثر على أثر للمعتلين الذين من المحتمل أن يكونوا فريقاً من البحارة كانت سفينتهم تحت الإصلاح في ميناء كازيرت على مصب هر شانون.

صدم الإقليم كله بسبب هذا العنف، رغم أن إدوارد دونيللي لم يكن بالرجل محبوب، فقد كان هناك الكثير جداً من الفاقة والبؤس في إيرلندا، من نصيب الفلاحين وحدهم، لدرجة تمنعهم من الشعور بأي تعاطف مع مزارع بروتستانت على شيء من الثراء. كانت السرقة شائعة، وكانت هناك أعداد من عصابات قطاع الطرق تساوي ما يوجد منها في كورسيكا. ولكن الريف حتى عام ١٧٦٠ كان هادئاً نسبياً ويسوده السلام. ثم بدأت المشاكل مع بداية حكم جورج الثالث، كان هناك اضطراب في الأمور الزراعية، وبدأ سادة الريف الكاثوليك في استعادة شعاعتهم بعد إخضاع البعاقبة. ولم يكن إدوارد دونيللي مؤيداً لجورج الثالث، ولكن باعتباره بروتستانتياً كان ينظر إليه كعميل للمغتصبين الإنكليز. ولكن أيزموند كان قد شب في جو من الأمان، ولم يكن بوسع الفلاحين أن يكونوا أكثر خنوعاً وذلة، فكان دائماً "صبياً لطيفاً وسيماً يستحق تقدير الشرف" وما إلى ذلك... ولكنه الآن، وفي حالته العصابية من الانقباض، بدا له أنهم محاصرون من قبل جيران معادين، ينتظرون جميعاً الفرصة للناسية للضرب في الظلام.

بعد ذلك بوقت قصير، تلقت جوديث أخباراً عن دلفين. كانت مخطوبة وعلى وشك الزواج من محام محلي. ولم يذكر اسم أيزموند في الخطاب الذي من المحتمل أن يكون قد كتب تحت إشراف أم دلفين، ولكن كانت هناك جملة تقول، "لا أستطيع أن أصف البهجة التي أشعر بها حينما أتذكر ساعات حوارنا السعيدة في الإصطبل القديم" ولم تفهم جوديث معنى هذه الجملة، فإنها لم تذهب أبداً إلى الإصطبل القديم مع دلفين، ولكن أيزموند أدرك المعنى. غير أن الضحك هو أنه كان قد نسي دلفين تقريباً، ومن المؤكد أنه لم تكن لديه أية رغبة في أن يكون زوجها، ورغم هذا فقد ملأه الخطاب شعوراً بالبؤس والغيرة. وعرف ما يتصف به هذا الإحساس من سخف، وأنه لم يحبها، وأنه كان سعيد الحظ إذ تجنب الوقوع في شرك ارتباطات أكثر غوراً، ولكن معرفته لكل هذا لم تؤد إلى أي فرق، فكان كلما فكر

في ملاطفاتهما وسط خراب البير أو في مخزن القش، اجتاحه إحساس بالخسارة الفادحة، ويتضاعف هذا الإحساس إلى درجة لا تطاق لأنه كان يعرف أنه نتيجة لعدم وجود ما يفكر فيه غير هذا.

في فبراير كان مريضاً لمدة ثلاثة أسابيع بتأثير جرثومة معوية، وتركزت أفكاره على النوام حول الموت وحول عفونة القبر. قرأ صلوات جونسون، وتأمل في كتابات روسو، ثم اختطف فجأة لمحة من "الحقيقة" التي كانت تروغ منه على الدوام. لقد قال روسو إن ما كان طبيعياً فهو خير، وإن الشر ينبع من تعقيد الإنسان الذهني، ومن تدخله في شؤون الطبيعة. ولكن ليس العقل نفسه تدخل في شؤون الطبيعة وقطعاً لمسارها، نتاجاً مصطنعاً لها؟ إن الحيوان لا يحتاج إلى أي قدر من العقل يزيد عن القدر الضروري للتغلب على مشاكله اليومية. وقد طور الإنسان ذهنه لكي يخدم كسله، لكي يخلق حضارة مريحة دافئة. ثم لما خلقها (ومن الهم أن نتبين هنا أن أيزموند قد ظن أن القرن الذي عاش فيه هو الكلمة النهائية في التعقيد الذهني الحضاري) لم يعد لديه ما يفعله سوى التفكير. وكل فكرة تبعده خطوة أخرى عن الطبيعة.

ولكن الشيء الذي بث الذعر في قلب أيزموند أن هو شكه في تلك الفكرة قد فسرت إجهاده العصبي وضجره. إن توقده الذهني قد حكم عليه بأن يمتلك إحساس بالحقيقة. ووقف الدكتور جونسون أمامه باعتباره مثلاً حياً لما يمكن أن يحدث حين يكون الإنسان متوقفاً ذهنياً أكثر من اللازم. سيعيش حياة يكاملها من اليأس وتعذيب الذات، مع ومضات قصيرة من الإحساس بالارتياح. وبدأ أيزموند يفكر جدياً فيما إذا لم يكن من الأفضل له أن يموت، "كل شيء أنظر إليه يذكرني ببؤسي. فمثلما تعيد أي ذكرى لعشيق مفقود إحساساً مقبضاً باليأس، كذلك فإن أي شيء طبيعي تقريباً يذكرني ببراءتي المفقودة. تذكرني أطلال البير بالموت، ومجرى الماء للوحد يجعلني أفكر في الفرق، والأشجار العارية تذكرني بالمشاقق، ونباح كلب يشعري بأنني أسير في جنازة ميت. أما الأشياء التي لا تثير أي تداعيات خاصة في ذاتي - حذاء ركوب، كتاب - فإنهما يمكن أن تخلقا ياساً خائفاً يشبه الحزن".

وذا ليلة مطيرة في أواخر فبراير، جلس أيزموند في فراشه وواجه هذا الإحساس بالخيبة ولتقطاع الأمل. إلا أن جسده لم يشعر بأي امتنان حقيقي لوجوده في حجرة دافئة، في

الوقت الذي كانت الرياح في الخارج على أشد ما يمكن، فهل يمكن أن يكون هذا الإحساس قد ثار كاستجابة للمطر نفسه؟ نهض وارتدى ملابسه، وأخذ معطفاً ثقيلاً، ثم خرج من المنزل وبدا له أن أسوأ مخاوفه قد تحققت. ملأته الريح إحساساً بالبرودة، ولكنه استمر في إحساسه باللامبالاة إزاء التعب. سار إلى البير، وجلس مستنداً ومحتمياً بأحد الجدران. ورغم أن قدميه كانتا مبللتين، لم تنجح فكرة نار دافئة في أن تمنحه ومضة من المتعة. كانت بعض البقرات تحتفي بالدار، حسدها لأنها يمكن أن تقدر قيمة ما تقدمه لها حظيرة دافئة جافة من ماوى. وتساءل عن مقدار ما يجب أن يواجه من برد وتعب لكي يستطيع أن يخرج من حالة سباته اللامبالي.

سار عائداً إلى المنزل، وعبر أمام الإصطبل، وفجأة تذكر مينو ودلفين - فغمزته ومضة من المتعة. دخل الإصطبل لكي يستعيد رائحته. صهل جواد عجوز وأخذ نفساً عميقاً وثقيلاً. تسلق صاعداً إلى المنصة العلوية، فوجد هناك كومة من القش ما تزال حركتها إلى ما وراء الأحولة، ثم خلع ثيابه المبللة، وغطى نفسه بالقش الخشن الجاف المتكسر. كان هذا هو الوضع الذي رقد فيه بين فخذين دلفين. وحيثما رقد في مكانه، يعيش التجربة من جديد مرة ثانية، غلبه التعاس، فغرق في النوم. وكان آخر ما سمعه من الأصوات هو شخير الجواد العجوز وتنفسه الثقيل أسفل الإصطبل.

كانت ليلته في الإصطبل نقطة تحول حقيقية في حياته وهو ما يظهر في محطات حياته اللاحقة. في أوائل مارس، أصبح الجو أكثر دفئاً على حين غرة. وهذا ما أغرى أيزموند بأن يتمشى في الحقول الوحلة، ليجد نشاطه تحت أشعة الشمس التي بدأت تعد كل شيء بختة بالحياة. وقف على ضفة نهر (مبع) الوحلة، وتساءل عن السبب الذي جعله عاجزاً عن ملاحظة مقدار ما كانت الأمواج الصغيرة عليه من جمال. كان صحيح الجسد وكان في السابعة عشرة تقريباً، وبعد شهور قليلة سيكون على وشك الشروع في الخروج إلى "الجولة الكبيرة". ولابد أن تكون هناك الكثيرات من مينو ودلفين. وفي يوميته في يوم ٢٣ مارس عام ١٧٦٥، يكتب قائلاً:

"إن ما أجد نفسي عاجزاً عجزاً مطلقاً عن فهمه هو السبب الذي يدفع الكائنات الإنسانية إلى الفشل في رؤية التصميم الجميل المبارك الذي يتجسد في الطبيعة في كل مكان؟ أية كارثة غريبة أعمت عيوننا عن رؤية أعظم الحقائق وضوحاً وجدارة بالملاحظة؟ أي رب

يهدم فوق متاهة مصيرنا البشري، يراقبنا لكي يقبض على عنق ذلك الذي قد يكتشف بالصدفة طريقه إلى بساطة الطبيعة السامية؟

قبل أسبوعين من رحيله إلى دبلن، ومن ثم إلى باريس (في إبريل عام ١٧٦٥) كان قد انغمس في قصة حب قصيرة أخرى. فهي زيارة قام بها مع والده لأحد المستأجرين من الفلاحين، رأى ابنة أخ الرجل ذات الثلاثة عشر عاماً التي كانت تعيش معه. كانت الفتاة فائقة الجمال. وأمضى أيزموند ليلة كاملة يحمل بها، متسائلاً عن الطريق إلى رؤيتها مرة أخرى. ولكن الانتصار كان سهلاً مما توقع. لقد جاءت الفتاة في اليوم التالي حاملة بعض البيض. وسار أيزموند إلى البيت معها، واتفق معها على موعد في المساء. وكانت الفتاة مسحورة به ولم تبتل إلا الحد الأدنى من المقاومة، ورغم أنها كانت عذراء، فإنها كانت ذات تجربة جنسية سابقة. في هذا المساء الأول، سمحت لأيزموند بأن يكتشف نهديها وفخذيها. وفي عصر اليوم التالي قابلها في الإصطبل، واستولى على عذريتها في نفس المكان الذي فقدتها فيه دلفين. وفي خلال الأسبوعين التاليين التقيا كلما كان ذلك ممكناً، وأمضى المزيد من الساعات في الإصطبل على الأضواء، وأقسما على الإخلاص الأبدي. ولكن أيزموند في هذه الحالة كان يعرف أنه ليس واقعاً في الحب. لقد دفعته سهولة الانتصار إلى ما يكاد يكون خيبة أمل فورية. كانت الفتاة جميلة جداً لا يضارع، ولكنه حينما أعاد قراءة بداية يومياته حول رؤيته لها للمرة الأولى، بدت له كما لو كانت فكاهة ساخرة أخرى من فكاهات القدر برهاناً آخر على وقوع الكائنات الإنسانية في شرك للمناهة التي يبدو إلهها في صورة أعظم الذهابة المحتالين.

في صباح يوم ١٧ إبريل، استقل عربة ليمريك - دبلن، وغمره إحساس عميق من الرضا بينما كانت تلال مونستر وحقولها تتراجع إلى الوراء، في هذه المرة، على الأقل، كان إليه المناهة قد هزم. فإن قصة الحب قد انتهت قبل أن تسنح الفرصة لزيارة ما بعد التذوق بأن تتسلل إلى اللسان. وقد حدث حينذاك، في أثناء رحلة الست والثلاثين ساعة من ليمريك إلى دبلن (١٢٠ ميلاً) أن صاغ أيزموند واحدة من أفكاره الجهورية، أن الحياة معركة ضد إله المناهة. ولاح أنه يفكر في هذه الحرب كما لو كان صليباً مرسوماً بين عنكبوت هائل ورجل سمين ذي اثنين مشرعتين. وأن اللبدان الذي يجب أن يختاره للمواجهة هو ميدان الجنس...

إن قراءتي لما كتبه أيزموند عن رحلته إلى دبلن قد ذكرتني حاجة بكليف بيتس، حفيد إيزاك جينكينسونيد بيتس. واقعاً على الرغم من أنني قد حصلت على أقصى ما أمله

من مادة لاستكمال المقدمة لطبعة هليشر لكتاب (مذكرات أفاق إيرلندي)، وكنت قد ربحت مبلغ الخمسة عشر ألف دولار، إلا أن هذا كله لم يعد له أدنى أهمية تذكر عندي. كان هناك الكثير جداً مما أردت معرفته عن أيزموند - وحينما يتم طبع الكتاب، لابد أن سيكون هناك الكثير جداً من الناس الذين سيملكهم مثل ما تملكني من فضول. ولابد أنه سيمتلئ اللبدان بالباحثين. وقد أردت أن أعثر على كل ما يمكن العثور عليه قبل أن يبدأ الاندفاع والزحام. كان أيزموند قد بدأ يسيطر علي كالهاجس المتسلط. وقد انتهى المجلد الثاني من المذكرات حينما كان قد غادر لندن متجهاً إلى بولوني في ٢٨ مايو عام ١٧٦٥، ولكن من المؤكد أنه مستحيل أن يكون قد كف عن كتابة يومياته بانتظام بعد ذلك. كانت هناك أسئلة كثيرة أردت الإجابة عليها. ماذا عن جريمة قتل هوراس جليبي، وعن الشائعات حول أيزموند واللايدي ماري؟ وماذا عن "القصة" مع الشقيقات الثلاثة؟ ولماذا يكره دكتور جونسون دونيللي؟ وماذا عن "جماعة العنقاء" تلك، التي لم أحصل بشأنها إلا على إشارات مئيرة للشبهة؟

بعد عودتي من منزل الدكتور أوهفرنان بيومين، تسلفت بطاقة بريدية من ميس تينا، كانت تقول، "إلين مصابة بنزلة برد قوية، ولكنها طلبت مني أن أخبرك بأن المشرفين على تنفيذ وصية أيزموند الأدبية كانوا هما القس ويليام أستون واللورد هوراس جليبي المخلص تينا دونيللي". للحظة تملكني الارتباك. أستون؟ أجل. كنت قد خمنت هذا من قبل. ولكن كيف يمكن أن يكون هوراس جليبي منفذاً لوصية دونيللي الأدبية بينما هو قد سبقه إلى الموت؟ شعرت بأغراء قوي بدفعني إلى القفز في السيارة والذهاب إلى قلعة دونيللي، لأن قراءتي لليوميات جعلتني شغوفاً بأن أراها مرة ثانية. ولكنني كنت قد كتبت بالفعل إلى كليف بيتس لآخره بأنني أنوي الذهاب إلى لندن في اليوم التالي، وشعرت بالانقباض لآراء فكرة هذا السفر. رفعت سماعة التليفون وأدبرت رقبتي لقلعة دونيللي. أجابني ميس تينا، وتم توضيح مشكلة هوراس جليبي في لحظة واحدة، إنها كانت تشير إلى هوراس جليبي الابن، ابن صديق أيزموند. قالت ميس تينا،

"أعتقد أن هذا مما يمكن أن يدركه للراء بالبدهة، أعني أننا نعلم جيداً بأن أيزموند قد وقع في حب ماري جليبي".

"ولكن هل أنت واثقة من ذلك؟"

"لست وافقة تماماً بالطبع. لقد قال والدي لإيلين ذات مرة شيئاً عن هذا، ولكنها لا تستطيع أن تتحدث الآن".

"ألا تعرفين - اتفاقاً - أين أطلق الرصاص على لورد جليبي؟"

"أعتقد أن هذا حدث في بيته، في اسكتلندا".

شكرتها ووضعت السماعة، إن القدر حقاً يقف إلى جانبي، وقد أوصلتني هذه المكالمات إليهم وإدراك نهاية القصة التي تقول بأن أيزموند قتل هوراس جليبي، فلو كان هناك حتى شك في مثل هذه الواقعة، فهل كان يستطيع أن يطلب من ابن جليبي أن يقوم على تنفيذ وصيته الأدبية وأن يكون مشرفاً على تركته من المؤلفات والمذكرات؟

- ١٥ -

□ كنت أشعر بابتهاج وتفاؤل شديد حينما شرعت في قيادة السيارة متجهاً إلى دبلين في صباح اليوم التالي. ولم يكن هذا مرتبطاً بكل الارتباط بدونيلي. كنت قد عزمت مسبقاً أن أسافر بالقطار، حتى تستطيع ديانا أن تستخدم السيارة، ولكنها في اليوم السابق رأت إعلاناً عن سيارة "لاندروفر" مستعملة. وشعرت بأننا نستطيع الآن أن نلحق ثمن هذه السيارة. وهكذا فقد اشتريناها على الفور. كنت أعرف أن هذا تصرف سخيف. ولكن هذا السخف نفسه سحرني، وبلدت غرائزي الخلافة في الانسياق. أبهجن أيضاً انطلاقاً نحو الشرق، وذكركني بأول مرة جئنا فيها للإقامة في إيرلندا ففضينا أيامنا الأولى في اكتشاف البلاد والريف. خطر لي في تلك اللحظة أن كل ما بهم في الوجود الإنساني هو اتساع معين في الوعي، وفي المعنى، وإنما يجب أن نكتشف الحيلة. حينما اشتريت هذه السيارة، كانت ذات ناقل سرعة أوتوماتيكي، وكان هذا الشيء اللعين ينقل السرعة تقريباً في نفس اللحظة التي أسرع فيها في تشغيل المحرك. أو يقطع التشغيل حتى كانت الآلة تتوقف عند أول تل في طريقي إلى البلدة. ولذلك فقد ركب محل الإصلاح القريب فيها ناقلة يدوية بدلاً منها، وعلي الآن ألا أشغل الناقلة الأصلي حتى تشحن الآلة بالدرجة الكافية لكي تصعد التلال في راحة كاملة. ولكن إذا حدث أن استيقظت في الصباح بعقل بارد مكتئب، فإنني لا أملك "ناقة

يدوية" أستطيع أن أشغلها حتى يسخن العقل إلى الدرجة الكافية. إنني كثيراً ما أمضي الساعات، وأحياناً الأيام، محاولاً أن أدفع عقلي رغماً عنه إلى حالة من الاتساع، محاولاً تشغيل الضغط الداخلي لكي يصبح مناسباً للكتابة. وإلى حد ما أستطيع القول بأنني اكتشفت الحيلة، عشر دقائق من التركيز الكلي الكثيف الذي يضم الكائن كله - عضلاتي بالإضافة إلى عقلي. وحينما أقوم بهذا، وإذا لم يقاطعني أحد، فإنني أستطيع تقريباً أن لاحظ ضغط وعي وهو يرتفع، حتى تكف الأشياء عن التمثيل في صورتها الكنيية المحايدة. إنها حيل تشبه بالضبط شربك أول كأس لك في المساء - تلك الومضة الدافئة التي لا تستقر في المعدة - وإنما في الوعي".

إن البحث الحديث عن وعي، أدخلني في الواقع في حدث فيه الشيء الكثير من الغرابة. لغرابته لن أتمكن من إيصاله إلى القارئ، إلا أنني سأحاول أن استطعت أن أصفه، لقد شعرت هكذا بأن هذا هو الشعور الذي انتاب أيزموند عندما بدا خروجه في "حولته الكبيرة" في عام ١٧٦٥. وحينئذ امتزجت في ذهني صورتان. الأولى كانت لأيزموند جالساً في العربة الراحلة إلى "لايمريك" - وكانت صورة كشيء حلمت به في أثناء الليل - والثانية كانت صورة الأشجار في "لونغ أيلاند" تبدو هجاء كما لو كانت قادت من البرونز الملطي بالفوسفور، بينما بيقرلي تنحني فوقها. كانت هذه الصورة الأخيرة قوية جداً. كان بوسعي أن أشم رائحة بيقرلي، شاعراً بلطف نهدها العاري على صدغي. ومع هاتين الصورتين انفجرت في داخلي نوافير البهجة. إن ما تريد الكائنات الإنسانية أن تحققه لهما تلك اللحظات من الطراوة والاتساع. ولا يفقدوها في كل مرة يضيق فيها إنتاجهم بين الأشياء دون تركيز على شيء محدد. إنهم يريدون "استمرارية الوعي". ولنفترض أن رجلاً قال لنفسه، "من الواضح أنه لا شيء هاماً مثل هذا، منذ هذه اللحظة سأكرس حياتي للبحث عن هذا الاتساع والاستمرارية..؟" وقد عرفت دون أن تخالجن ذرة من الشك أن شيئاً مثل هذا قد عبر بعقل أيزموند في تلك اللحظة ذات صباح وهو في طريقه مسافراً من لايمريك. كيف؟ لأنني عشت مع أيزموند طوال أسابيع، حتى عرفت كيف كان يعمل عقله.

لحظتها، ومن دون أي تغيير مفاجئ، من دون أي إحساس برؤيا أو بالهام، انتابني إحساس كالهلوسة بأنني "أنا أيزموند".. كان إحساساً قوياً إلى درجة بالغة السخافة، كنت أعرف أنني أسير بالسيارة عبر مزرعة صغيرة تدعى "فار درام"، على بُعد أميال قليلة وراء

للون، وأنني كنت أنوي أن أتوقف أمام الحانة عند بلدة موات، لكي أتناول شطيرة باللحم ومكروباً من عصير العنب البري. في نفس الوقت كنت جالساً إلى جوار سائق العربية فوق صندوق العربية المتقافز، أشم عرق الجياد القلوي والهواء النظيف لصباح يوم من أيام إبريل بالإضافة إلى رائحة دخان الأذرة والتبغ الصادرة عن ثياب السائق.

كان هناك شيء بالغ الغريبة متعلق بمقدار ما كان في هذه الصورة من حيوية. إنها لم تكن "خيالية" بالمعنى العادي. إنني لم أكن "أعمدها" بشكل ما. وإنما كانت كأنما أن شيئاً ما قد تحرك هافرب مني، مثل قطار يعبر إلى جوار القطار الذي تصادف أن كنت راكباً داخله فيعطيني لمحة قريبة مفاجئة إلى داخل عربة عابرة. ولم يدهشني كل ذلك، وإنما بدا كجزء طبيعي من تصاعد نافورة البهجة. كان ضغطي العقلي مرتفعاً. وكانت السماء أقرب إلى أن تكون مساحة زرقاء باردة، وشعرت بها كما لو كانت صفحة شاسعة من المياه الباردة. بدا لي بثقة يقينية كلية مفاجئة، أن الزمن وهم. إنه ليس حالة مطلقة. إنك إذا كنت حشرة جالسة على ورقة شجر يجرفها تيار نهر، فإنك قد تظن أنه من المحتم أن نضل الأشجار تمر بك وتتوارى من خلفك، وأن الأشجار، بطبيعتها، لا تعيش إلا لحظات قليلة، وأن الحقيقة الوحيدة الثابتة دون تغيير هي انتشار الماء وسقسقته. ولكن الضفة حقيقية، وإذا أمكنك أن تغادر ورقة الشجرة التي تجلس عليها لتهبط على الضفة، فإنك جدير بأن تكتشف أنها صلبة تماماً ودائمة باقية.

وخالما تبدلت لي هذه الصورة للزمن باعتباره شيئاً وهمياً، ولحقيقة العالم الذي يعبر خلالها، رأيت طفولتي كما لو كانت شيئاً أستطيع أن أمد يدي فألمسه، تماماً مثلما أستطيع أن أفتح كتاباً على صفحة قراتها منذ ساعة مضت، أو مثلما أجعل شريط تسجيل يعود إلى الوراء نحو الجزء الذي كنت قد سمعته منذ قليل. وطراً لي أن حياة إيزموند لم تكن أكثر بعداً من هذا. مجرد قرنين مضيا، أي ما يساوي مقدار حياتين بشريتين. إن مشكلتنا هي ضعف الوعي الذي يتردد مثل التيار الكهربائي الصادر عن بطارية مستهلكة. فإذا كان بوسعنا أن نستبدلها ببطارية جديدة لاستطاع العقل أن يسير بخطوات واسعة عبر القرون.

توقفت عند حانة "مايك كيللي" لأشرب كوكب العصير. إنها حانة هادئة على الطراز القديم ذات دعامات خشبية وأطنة، ومدفأة أعشاب أسفل الجدار. طلبت شطيرة باللحم، فقالت لي ابنة صاحبة الحانة إنني سأحصل عليها ساخنة يفوح منها دخان الفرن، وفي

الحقيقة، كان البخار يتصاعد من القطع الضخمة من اللحم الطري. وبعد أن قدمت لي طلباتي، خرجت وتركتني بمفردي. نظرت حولي، وباغتتني فكرة في سرعة الضوء الكهربائي، إن هذا المكان ربما كان يبدو بنفس الشكل الذي كان عليه في أيام إيزموند دونيللي. وحينئذ، وبشكل أوضح من ذي قبل، انتابني الشعور بأنني "صباح" إيزموند دونيللي، أو أنني أنحي فوق وأنظر إلى داخل وعيه بينما هو يتفقت عابراً أمامي. وفي هذه المرة، وقد قويت حواسي برائحة اللحم ومذاق العصير المخمر، بذلت مجهوداً إرادياً لكي أستبقي ذلك الإحساس وأمسك به. للحظة راوغني. ثم حينما استرخيت ولم أحاول أن أرغمه على البقاء، عاد ثانية، مزيج من الروائح، والأحاسيس والأفكار. ثم فجأة تماماً، بدا أنه "تركز" أصبح كل شيء أكثر وضوحاً. بشكل ما تطابق وعي إيزموند مع وعيه، حتى أصبح بوسعي أن التفت أنا فأنظر إلى ماضيه، إلى دلفين ومينو، وإلى الفتاة الفلاحة الجميلة التي كانت تدعى إيللي (وهو تصغير إيلين). والأكثر من هذا أن هذا الاسم الأخير كان جدياً بالنسبة لي، فإن إيزموند يشير إليها في يومياته بحرف "أ" - ربما خشية أن يفضح فتاة تعيش قريباً منه إلى هذا الحد. وإشارتي هذا. لم أكن بالساذجة التي تجعلني أقبل ببساطة بأنني بشكل ما قد "أصبحت" إيزموند. إنني أعرف الكثير جداً من الأعيب العقل الشبيهة بالأحلام لاصطناع مثل تلك الفروض أو الاحتمالات. ومن الذي لم يؤلف موسيقى أو شعراً في أحلامه، أو خلق مواقف من الغرابة بحيث تبدو من اختراع شخص آخر؟ لو أنني استطعت أن أتأكد من أن اسم الفتاة كان إيللي - ولم يكن هذا من المستحيل، من خلال العثور على المزيد من مذكرات إيزموند - إذن لكان في وسعي أن أتيقن من أن هذه التجربة الغريبة كانت نوعاً من الحاسة السادسة، وليست حلماً من أحلام اليقظة.

قاومت الإغراء بشرب المزيد من العصير المخمر - عارفاً أنه يمكن أن يدهعني إلى النعاس - وقمت لتسقي السيارة حالما انتهيت من تناول طبق اللحم. لم أكن أريد أن استرخي. إن ما أردته كان هو أن أعمق هذا الشعور بالتبصر العميق، بالوصول إلى العنى. وبعد عشرين ميلاً من السير خارج دبلين بدأت تمطر، ونسيت كل شيء عن تركيزي، مستمتعاً فجأة بحركة زحف مساحتي الزجاج الأماميتين، وبطرقات القطرات الضخمة الدافئة. وحينئذ، ومرة أخرى، ودون أي مجهود، أصبحت "إيزموند". فجأة أدهشتني منازل بلدة "ماي نو" ودكاكينها، كما لو لم أكن قد رأيته من قبل أبداً. ولكن حينما انخرت من كارتون وعبرت بها، ورأيت المنزل الضخم من القرن الثامن عشر الذي آل ذات مرة إلى دوقات لاينستر -

تحققت من أنني كنت أعرف المكان. وإتني كنت داخله ذات مرة. بالطبع لم يحدث لي "أنا" أن دخلته. لقد كان أبرز موند هو الذي دخله ضيفاً على صديق دراسته روبرت فينر كيرالد، مار كيز كيلدار.

طوال الوقت، وبينما كنت أقود السيارة إلى داخل دبلين، وعلى مسار شارع كوينيغهام، كنت أشعر بتأثير هذا "الوعي المزدوج". ولو أن أحداً كان معي في السيارة، لكنت قد قلت له، "كان هذا هو شاعر شابيليزود في عام ١٧٦٥، وهما هو قد أصبح شارع باراك". وكان قبل أن ادخل شارع باراك القديم، كنت أسير بالسيار على طول شارع وولف تون كوي، فانتابني دهشة بسيطة إذ أجد نفسي بالفعل إلى جانب نهر الليفي. في عام ١٧٦٥ كان علي أن أتقدم من شارع شابيليزود المزدهج إلى شارع باراك، بينما أرى النهر عبر حديقة "بونج ميدوز" إلى اليمين، ثم على طول شارع كرافل دوك، الذي يكون علي عند ناحيتي أن استدير إلى اليمين نحو شارع أزان كوي - الذي كان في ذلك الوقت أقصى أطراف ضواحي دبلين الغربية. عبرت الشارع الواقع إلى يميني - الذي كان دونيللي قد نسيه - والذي يؤدي في النهاية إلى جسر بلود. وعند جسر كراتان شعرت بإغراء يدفعني إلى الاستدارة يميناً ناسياً أنه كان بوسعي أن أستمري في نفس الشارع حتى أكون في فني أيام دونيللي، كان جسر كراتان (الذي كان يدعى جسر اسكس في ذلك العهد) هو آخر نقطة يمكن للمرء عندها أن يعبر نهر الليفي. كنت مقبداً باتجاه نهر شيلبورن في وادي "سانت ستيفانز جرين"؟ إن دونيللي حينما ذهب إلى دبلين في عام ١٧٦٥ قد انطلق إلى حانة "الكلب والبطة" في شارع بودنج رو (الذي يسمى الآن وودكوي) وكان المحل تحت إدارة الأسطى فرانسيز ماجين. وهناك أكل عشاء من أسماك السالون الواردة من بوين، ولحم حمل مشوي، وغسل ذلك بكمية كبيرة من البيرة الحلوة ذات النسبة القليلة من الكحول، ثم غرق في النوم في حجره مريحة بالطابق الأول مصغياً إلى صيحات "نشري جلد أرانب الغابة وأرانب البيوت"، "سمك البوري من خليج دبلين". كان كل ذلك حياً أمامي حتى إنني وجدت نفسي أتجه اتجاهها خاطئاً عند كوليغ غرين، فيكون علي أن أدور دورة واسعة لكي أصل إلى شيلبورن.

في حجرتي، فتحت زجاج من نبيذ فولني كنت قد جئت بها معي - رغم أن الساعة كانت في الرابعة والنصف - ووجدت نفسي أقل انزعاجاً بسبب تلك اللؤثرات الغربية ذات الوجهتين المزدوجتين، وحتى في تلك الحالة، لم يكن علي إلا أن أغمض عيني لكي أرى صوراً

واضحة لدبلين التي كانت من نواح عديدة شبيهة بتلك التي كان بوسعي أن أراها من نافذتي (رغم أنه في تلك الأيام، كان وادي ستيفنز غرين محاطاً بسور مجرى وخنق وليس بسياج من قضبان الحديد) - ولكن تلك الـ "دبلين" البعيدة كانت أيضاً مزدحمة وصاخبة ولكن شوارعها كانت سبلة بقطع حجرية صغيرة في الغالب، ومنازلها أكثر نظافة ووقاراً، وكانت أيضاً تفوح برائحة التفانق والسمك وخاصة في منتصف الصيف والقوارب ذات الأشرعة المنتفخة التي ملئت نهر الليفي وولنت تأثيراً لم يكن بعيد الشبه بقنوات البندقية الكبيرة. بعد مكاسي الثالثة من النبيذ، كان "الكشف المزدوج" قد خبا من ناحيتي، وطراً لي أنه من المحتمل أن يكون شيريدان لوفانو قد كتب قصة قوية وكتيبة محزنة عن عقل إنسان ذي طبيقتين، يشغله رجلان من قرنين مختلفين. بل لقد كان بوسعي أن أرى - إذ أنظر من خلال مزاج يبه مزاج لوفانو - أنها كانت يمكن أن تكون تجربة مخيفة. ولكن في ذلك الحين، كانت نظرة لوفانو الأساسية نظرة مهزومة وسلبية. وهذا هو السؤال الجوهرى الوحيد.

□ اتصلت بلدينا لكي أخبرها أنني وصلت بسلام، وفي نفس اللحظة التي كنت أعيد فيها السماعة إلى مكانها، جاءتني مكالة من كليف بيتس وكنت قد كتبت إليه لآخره بأنني سأنزل في فندق شيلبورن. سألته إن كان يحب أن ينضم إلي في تناول الطعام، فقبل واقترح أن أذهب إليه لكي نشرب كأساً أولاً. كان يقيم في رانيلاغ رود، في مواجهة النهر، هسرت إلى هناك في حوالي الساعة الخامسة. كان شاباً ممتلئ الجسد له صوت ممتد مثل صوت الدارسين في أوكسفورد. وكانت شفته مريحة، وقد امتلأت خزنة الشرابات بالكثير من الأصناف. كانت هناك أعداد كثيرة من الكتب، بعضها حول السرح والباليه، كان من الواضح أن كليف بيتس يملك دخلاً خاصاً أو وظيفة حسنة، أو كليهما، كان كل شيء في حجرته ينم عن أنه رجل مغرم بأسباب راحته. وكان يتمتع بجاذبية عظيمة وأسلوب سهل في التعامل والسلوك، ولكن شيئاً ما لاج على فمه أو حتى إلي بأنه قد يكون بالغ الخشونة أو عصبي الزاج إذا فشل في الوصول إلى ما يريد أو في شق طريقه إليه.

نظرت إليه. ثم حدث شيء غريب. فجأة كنت أيزموند مرة أخرى، كان أيزموند
يصل عليه من عيني.

قلت،

"بغموض. ألم تكن هذه نوعاً من العبادات السحرية؟"

"بشكل أو باخر كان دونيللي عضواً فيها."

"كيف عرفت ذلك؟"

"هذا مسجل في أوراق جدي. لقد كان مهتماً دائماً بهذه الجماعة المسماة "جماعة
العنقاء". وإن قد سمع عنها من ساحر يدعى ماك غريغور مارتز. ربما كنت قد قابلته؟"

"بالطبع، لقد حصلت على ترجمته لكتاب الظهور."

لم يكن هناك وقت لمزيد من الحديث، كنا ندق جرس الباب، وبعد لحظات قليلة
فتحت الباب معرضة شابة. دعاها بيتس باسم "عزيزتي بيتي" وفرضها من مؤخرتها. بدت
محرجة لوجودي. صعدنا إلى حجرة نوم في الطابق الأول. كانت حجرة معتمة، رغم أن
الضوء كان منتشرًا بالخارج. كانت الستائر نصف مسدلة، ونواسة صغيرة تشتعل فوق
الفرش.

كان إيزاك جينكينسون بيتس هزيلًا نحيفاً كما كنت أتوقع من خلال وصف
حفيدة، عجوزاً ضئيل الحجم أصلع الرأس جلده مثل رفق قديم مجعد. حيناً رفع يديه من
هوق للسند لكي يصافحني اهتزنا وارتعشنا رغماً عنه، فأعادهما سريعاً مستويين فوق
الفرش مرة أخرى. سألنا إن كنا نود أن نشرب شيئاً، فرفضنا كلانا، ولكنه أصر وقال،
"أعرف أنكم أيها الشباب تحبون أن تشربوا كأساً في مثل هذا الوقت". وقال للمعرضة إن
تصب لكل منا كأساً من الشيري. تحدث الرجل العجوز لدقائق قليلة عن تاريخ الشيري، وعن
نظريته حول السبب الذي كان الشيري لأجله يدعى "سك"، أي حقيبة، لأن ثمرات العنب
كانت تعصر من هلال أجولة كالحقائب. ثم، وفي نصف جملة لم يكملها - حول حديثه إلى
موضوع جريمة قتل في جزيرة الإيبرلندية. كنت قد قرأت كل ما استطعت العثور

حينما كنا نشرب كؤوس الفودسكا والمارتيني، كان الحوار عاماً، ثم انتقل الموضوع
إلى كتيبي وإلى أعمال كتاب عديدين قابلهم كل منا. كان قد عمل في وزارة الخارجية
لبدة من الزمن - بعد التخرج من إيتون وباليول - وقابل عدداً كبيراً من الشخصيات
السرحية والأدبية في لندن. أما عني، فإنني دائماً ما كنت أتجنب الكتاب الآخرين. وكانت
محاورات المحترفين تضجرتني، ولم أكن أعجب إلا بأعمال عدد قليل منهم. وهكذا فسرعان
ما بدأت أضجر من هذا الحديث. وبعد نصف ساعة أو نحوها حاولت بلباقة أن أوجهه إلى
موضوعات أخرى. سألته عن صحة جده.

"أوه، أجل، الوالد العجوز يريد أن يراك. كنت قد أخبرته عن عملك."

نظر إلى ساعته وقال،

"عادة ما يكون بمفرده في هذا الوقت تقريباً. هل تود أن تذهب إليه قبل أن نأكل؟"

قلت، "نعم"، محاولاً ألا أبدو مثلهاً بالقدر الذي كنت أشعر به.

ذهبنا إلى شارع باجون، رغم أننا تأخرنا قليلاً في الوصول بسبب إغلاق الشارع. كان
كليف بيتس يملك سيارة من طراز "بورش" وأطلة للدرجة أن انتابني إحساس بأن أردافي
تجلس على ارتفاع بوصة واحدة من أرض الشارع. وفي الطريق قال بيتس:

"إنك بالطبع، تقوم بكل ذلك في مقابل بعض المال."

للحظة واحدة لم أستطع أن أفهمه، وبدأ علي عدم الإدراك. قال،

"هذا الشخص دونيللي، أعني أنه من الدرجة الثانية تماماً، أليس كذلك كنت أنظر
إلى كتابه عن "افتراع العداري" منذ أيام. إنه شيء فحج إلى حد كبير."

هممت بأن أقول أنني أظن أن هذا الكتاب مزيف ومنحول للرجل، ثم لسبب ما، التزمت
السكون، وبدلاً من هذا شرحت له حكاية فليشر والمهمة والتي أوكلمها إلي.

أوقفنا السيارة في شارع باجون. قال كليف بيتس بشكل عارض،

"بهذه المناسبة، هل سمعت عن جماعة العنقاء؟"

عليه قبل أن أهرح البيت، ولكن ثبت أن هذا لم يكن ضرورياً. فقد راح الرجل يتحدث في نسياب بمعدل ثابت لمدة عشر دقائق أو نحوها.

وحينما توقف للحظة قصيرة، قال كليف بيتس!

-لقد سمع مستر سورم عن جماعة العنقاء."

-أوه، أجل، حسناً. بالطبع. لقد كان دونيللي عضواً في تلك الجماعة. لقد كانت شيئاً مقرفاً من نوع لا يثير البهجة أبداً. أجل، بالطبع. ينبغي أن تعرف أنها نبعت من اعتقاد يقول بأنه إذا تضاجع رجل وامرأة فإنهما يصبحان غير قابلين للعدوى بأي مرض. وبذلك أصبحت هذه العقيدة في زمن الموت الأسود مريراً لكل أنواع الفجور. ومع حلول عصر دونيللي أصبحت مجرد عصبية شبه سحرية تضم جماعة من الموهوسين الصعاليك. هل تعرف كتاب ذي صناد "مائة وعشرون يوماً من أيام سدوم؟" إني واثق ثقة كاملة من أن دي صاد كان يسخر من جماعة العنقاء في ذلك الكتاب - أتعرف الصعاليك العواجيز القذرين الأربعة الذين أقاموا نوعاً من المعرض الجنسي في أحد المنازل الريفية؟ لقد ظن توم وايز العجوز دائماً أن هذا هو السبب الذي جعل دي صاد يمضي أكثر حياته في السجن، لقد كان يعرف الكثير جداً عنهم."

تدخل كليف قائلاً، "توماس. ج. وايز. المزيف الأدبي، إنك تعرفه."

-حسناً، ربما كان كذلك وربما لم يكن. إنهم يقولون ذلك ولكنني لست واثقاً إلى هذا الحد. غير أنه كان دائماً صديقاً جيداً لي إلى حد بعيد. مثلما أقول، فإنه كان على الإلتناع كامل بأن جماعة العنقاء هذه، كانوا يسعون وراء دي صاد.."

غمز لي كليف بعينه

-ولكن لماذا ينبغي أن يطارده إذا كان مثلهم في السوء؟"

-إنه لم يكن. كلا، لقد كان يسخر منهم. أفهم؟"

يجب علي أن أوضح أن تفسيرات الرجل العجوز لم تكن يمثل الوضوح الذي جعلتها به هنا. كان حديثه من النوع الذي يصعب تتبعه، تقطعه وترقمه غمغمات وأصوات أنفية

غريبة. لم أحاول أن انقض أو أناقش حديثه الغريب عن دي صاد، ولكن أمني في الحصول على أية معلومات مفيدة راح يخبو ويتلاشى، سألته عن كيفية بداية اهتمامه بجماعة العنقاء.

-لقد رأيت نسخة من تلك النشرة النادرة. وكانت هذه هي بداية معرفتي بوايز، في الحقيقة."

-أية نشرة، يا سيدي؟"

-أوه، النشرة الشهيرة.. التي كتبها هنري مارتل وجورج سميثسون. كليف، انظر في

الدرج العلوي هناك، أسمع؟"

لم تكن النشرة في الدرج العلوي، ولكن بعد عشر دقائق - راح بيتس في أنثائها يصب الاتهامات القائمة على رأس العالم كله بشكل عام، وعلى رأس ممرضته خاصة - ثم العنور عليها في خزانة أخرى. اختطفها بلهفة. كانت موضوعاً في غلاف خارجي مراصني أحمر، وكانت في حالة الحرب إلى الفساد.

فضح الزمارة الشريرة، المعروفة باسم جماعة العنقاء

بقلم هنري مارتل، م. أ. جورج سميثسون. د. د.

طبعها للمؤلفين ج. روبينسون. ضفة النهر القديمة، ١٩٧٢

كان كليف يسأل باكثر ما يملكه من نعومة وقدرة على الإقناع،

-لا أفهم لماذا تظنها حقيقية مع أنها جاءتك من رجل مثل وايز؟"

انتفض الرجل العجوز للنقاش وأصبح لانعاً حاداً،

-سوف أشكرك إذا أنت لم تتحدث بهذه الطريقة عن وايز. إنه لم يكن مزيفاً أكثر

مني. لقد كان يحاول أن يدافع عن ذكرى صديقه هنري باكستون فورمان."

قلت:

-على أي حال، من المؤكد أن النص الأصلي لأي عمل مزيف كان على النوم

حقيقياً؟ لم يكن الأمر سوى نوع من التاريخ المجزئ على النشرات؟"

- "تماماً"، قال الرجل العجوز، ثم التفت إلى كليف وقال، أترى؟ إنه يعرف عن المسألة أكثر مما تعرف أنت؟"

تركتهما يتناقشان، ورحلت اقرأ بسرعة عاصفة. اتخذت النشرة كلها نغمة أخلاقية مرتفعة، واتهمت جماعة العنقاء بأنها السبب في سقوط لويس الرابع عشر ملك فرنسا. وطالما أن هذه النشرة سوف تطبع كاملة في ملحق خاص مع مذكرات دونيللي، فإنني لن أقتبس الكثير منها هنا. إذا كانت هذه النشرة هي المصدر الوحيد لمعلومات بيتس العجوز عن الجماعة، فقد كان يوسعي أن أرى لماذا كان ينظر إليها بعين الفرض. وجدت نفسي أتذكر عنداً معيناً من النشرات والمقالات التي صدرت عن راسبوتين بعد مقتلته في عام ١٨٧٧، وكانت مليئة باتهامات غامضة، صعبة التصديق عن مؤامرات وحشية، وعن جرائم الاغتصاب والعهر، والاحتفالات المفززة. وطبقاً لما قاله كاتبها النشرة، كانت الجماعة أساساً تنظيماً من السحرة لممارسة أعمال السحر. وكانت الفقرة التي أثارت أكثر المناقشات - بعد نشر مقالتي عنها في مجلة "تلاتيك منثلي". كانت هي تلك التي تصف الطريقة التي يتبعها "السيد الأعظم" أو أي واحد من أتباعه للصطفين لكي يتمكن من استبعاد الفتيات عن طريق جمع ثلاث من "سراويلهن الداخلية للوثة بالدم" بعد دورتهن الشهرية، ثم يقطع رقبا في وسط بقعة من الدم متخذة شكل العضو التناسلي الأنثوي، ثم يرتدي هذا السراويل فوق ذكره العاري لمدة سبعة أيام وسبع ليال. وبعد هذه الفترة تصبح العذراء مجبرة على تلبية نداءات السيد الأعظم لكي تسلم له عذريتها، ثم تستسلم له بعد ذلك في أي وقت، حتى ولو كان على بعد ألف ميل. وتتلو ذلك، القصة الغريبة عن "أديلي كريسبين" التي امتلكها السيد الأعظم في ليلة زفافها "في نفس الوقت" الذي كان زوجه يمتلكها فيه، والتي كان طفلها يحمل ملامح السيد الأعظم - شعر أسود، وبشرة سمراء، وما إلى ذلك (كان السيد الأعظم في ذلك الوقت هو الفارسي عبدالله يحيى، الذي تفاخر بأنه قد ترك بذرتة في رحم كل امرأة جميلة من المجتمع الروماني الراقى. ويشير المؤلفان إلى هذا التفاخر باعتباره مثالا على الفقر الأخلاقي الوحشي بدلاً من أن يكون صورة للكذب الخيالي المخلوق) وقد قتل عبدالله يحيى ومزق جسده في عام ١٧٩١ على يد هتندريك فان جريس، الهولندي الشبيه بالوحش. والمفترض أن فان جريس كان بزن أكثر من ثلاثمائة رطل إنكليزي (١٥٠ كيلو غرام)، وأنه غالباً ما كان يفقد ضحاياه الوعي، بل يقتلهم، بمجرد أن يترك وزنه الضخم يسقط فوقهم، وأصبح فان جريس سيلاً أعظم لمدة لا تزيد على العامين، أصيب خلالهما

بمرض الزهري الذي نقلته إليه سيدة البلاط الرومانية ماريا غرينكا التي قيل أنها كانت ذات طبيعة قاتلة، حتى أن فان جريس حينما جاء عام ١٧٩٤ كان قد أصبح جبلاً لا ملامح له من اللحم المترهل. وفي "مجلة التحليل النفسي" الصادرة في شهر يوليو عام ١٩٦٩ قسر البروفيسور أرام روث القصة كلها على أساس التصور الفرويدي - بادئاً من النشاطات الفيتشية (التي تقوم على الولوج الجنسي بالأشياء ذات العلاقة أو للدلول الجنسي) المرتبطة بالسراويل الملوثة بالدم - ورهض القصة - أو رهض تصديقها - على أساس أنها نتاج الخيال القوطي للميء بالأسرار الوحشية. وفي عدد سبتمبر من نفس المجلة، أشارت ميس ماركاتينا بونديسون إلى أنه لم تكن ثمة حاجة إلى الاختراع، طالما أنه من الممكن العثور على أكثر الطقوس الموصوفة في كتب السحر الأسود العربية والفارسية في القرن الثامن عشر، ونشر أيضاً إلى أن ستيف دي لا بريتون قد وصف شخصاً ما يبدو شديد الشبه بفان جريس (تحت اسم كوبيير - بالميزو) في كتابه "ليالي باريس في عام ١٧٨٨" واصفاً إياه بأنه "المنحرف الأسطوري". وكنت أنا من لفت انتباههما إلى الفقرة المتعلقة بريستيف.

قال الرجل العجوز، "لقد كانوا مجرمين، هؤلاء الناس، مجرمين منحطين. أرايت من الذي جاء بالجماعة إلى فرنسا؟"

كنت قد رأيت ذلك حقاً. قال مؤلف النشرة أن جيل دي ريز قد أصبح عضواً في الجماعة في السابعة عشرة من عمره (١٤٢١) بعد أن رشحه لها كاهن مخلوع. كان مارتل وسميشسون على اتفاق مع سانت نيلوس سورسكي من أن الجماعة لم تكن أكثر من تطور لتعاليم "أخوة الروح الحرة". فبعد أن رفضوا كل قانون أخلاقي هدفه تحقيق أكمل تعبير عن "أعضاء المستعة". ويقول المؤلفان، كان أعضاء الجماعة يرتدون ثياب الرهبان، ويتخصصون في الاغتصاب أو في مضاجعة الجثث. كانوا يتقدمون للتطوع لحراسة جثث الفتيات الصغار - والصبيان. وينتظرون حتى يتام الجميع ثم يغتصبون الجثة جنسياً. الشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال في صالحهم - في الحقيقة - هو أنهم حاولوا دائماً أن يتجنبوا إنزال أي ضرر جسدي حقيقي بضحاياهم. وقد حدث أن هتاة من بائعات اللين اغتصبها لثان منهم ثم تركاها مقيدة مكومة تحت كومة من أوراق الأشجار، حتى عشر عليها بعد ذلك بيومين. وهددت أخرى بأنها ستجد نفسها حاملاً بجنين كالوحش إذا هاشت بكلمة واحدة، وبذلك صكمت السر حتى طماننتها دورتها الشهرية التالية. "ولما كانت القاعدة التي يتبعونها

وان شخص ما قد أضاف عام ١٧٦٦ بالقلم الرصاصي. مرة أخرى نظرت إلى كليف. كان منغمساً كلياً في قراءة النشرة. وكان الرجل العجوز يستنشق بصوت خشن ويشكو حاله للممرضة التي كانت تعيد ترتيب الفراش. جنبت مقعدي قريباً إلى الدرج، وجلست لكي أقرأ المخطوطة. في لحظة ما، نهض كليف ونظر من فوق كتفي. تساءلت صامتاً إن كان يمكن أن يسألني عما كنت أفعله بحق الشيطان. ولكنه ذهب وجلس في مكانه ثانية. واستأنف القراءة.

كان التقرير يصف مغادرة بوزويل لباريس في صحبة تيريز لوهاصور، عشيقه روسو "وهي التي كان بوزويل قد وصفها في يوميات أخرى - اكتشفتها فيما بعد - بقوله، "إنها فرنسية خالصة مليئة بالحياة". وكان الاثنان في طريقهما إلى إنكلترا، وقد سافرا معا بحثاً عن اللواتي. وفي الليلة الثانية قررا أن يشركا في فراش واحد في أحد الفنادق الصغيرة. ولشدة مهانة بوزويل، فشل في أداء واجباته الرجولية، فأنفجر باكياً، وقال، ويستطيع من يقرأ هذا الكلام أن يجد آثار بكائي على الصفحة السابقة". ولكن تيريز أعادت إليه ثقته بنفسه في الليلة التالية بأن أدت إليه الخدمة التي كانت مينو تؤديها لعاشقها معاً. - وهي الركوع على ركبتيها أمامه وملاطفته بفمها. "جعلني منظرها وهي متكومة أمامي في هذا الوضع المهين أشعر بالشفقة الأمر الذي أعاد حيويتي إلي بقدر عظيم حتى أنني أرقبتها على ظهرها فوق البساط وأتيتها في التو والساعة مثل عجل بري. وأظن أنها رضيت تماماً عن "حجمي" لأنها شهقت بدهشة، ثم تركت نفسها المحتبس في صدرها ينطلق في تنهيدة طويلة". إنني أنقل الآن من الجمل القليلة التي استطعت أن أنقلها بسرعة بالقلم الرصاصي في مذكرة صغيرة كانت في جيبتي. عرفت أنني كنت أنظر إلى مخطوطة بوزويل التي استطاع إيزاك جينكلينسون بيتس أن يختلسها بشكل ما من مالاهايد. ومن الواضح تماماً أنه لم يكن له أي حق في امتلاكها. ولذلك فقد عرفت انعدام أي فرصة لسماحه لي بأن أستعيرها أو حتى بأن أنسخها في منزله.

قال كليف بيتس، "هل عثرت على تلك الورقة عن دونيللي؟" جفلت وقلت، "لا" ثم نظرت إلى الرجل العجوز. كان رأسه مختفياً تماماً، وكنت واثقاً من أنه لم يسمع. قال كليف،

"أرجو أن تقرأها. إنها مضحكة بشكل مرعب".

هي ألا يقتلوا ضحيتهم أبداً حتى يتجنبوا عملية التعرف عليهم فيما بعد، "وكان كثيرون منهم يحملون صناديق مليئة بمختلف الأدوات (باروكات الشعر والأهداب والعدسات... الخ) من ألوان مختلفة حتى يكون بوسعهم أن يغيروا ألوان كل شيء، حتى عاداتهم نفسها". وكان جيل دي ريز هو أول شري يعتنق آراءهم، وكان قد استقبله وتلقاه كعضو في الجماعة شخص يدعى جيل دي سبي. كان الحديث عن السيمياء في محاكمته ضرباً من السر في طريق مظلم مسدود، طبقاً لما جاء في النشرة. وكان القتل الجماعي للأطفال - ببساطة - تعبيراً عن "الشهوانية الشيطانية" التي أفعمت بها قلوب جماعة العنقاء.

إذا ثبت أن ريز كاو عضواً في جماعة العنقاء، إذن لأقام مارتل وسميشسون قضيتهما على أساس أنها كان منظمة شريرة ومروعة. ولكنهما في الحقيقة لا يقدمان أي دليل على اعتقادهما في أنه كان عضواً في الجماعة. شعرت بالليل إلى أن أشير إلى ذلك للرجل العجوز، ولكن كان من الصعب أن تعترض الطوفان الجارف من الذكريات. وأخيراً استطعت أن أسأله إن كان لديه المزيد عن جماعة العنقاء.

٣- أجل. إن لدي أهم خطاب يمكن أن تتصوره كان قد وصلني من توم وايز. كنت أراسل معه بشأن هذه الجماعة - لا بد أن هذا كان في عام ١٩٠٥. كليف انظر في هذا الدرج العلوي مرة ثانية".

أعرض كليف بوجهه، ولكنه راح يبحث - طائناً - بين أكوام من الأوراق القديمة. دخلت الممرضة حاملة إناء يحتوي على سائل ساخن يتصاعد منه بخار له رائحة نفاذة وضعته في إطار معدني معلق بالسريبر. وحينذاك غطى بيتس العجوز رأسه بكيس من البلاستيك وراح يستنشق البخار. واعتقد أن هذا كان نوعاً من العلاج للربو. عرضت أن أساعد كليف بيتس في البحث عن الأوراق، فقال، "أتوقع أن تعثر على شيء هام..". والتقط النشرة التي كنت أقرأها. أقيمت نظرة على كومة من الخطابات القديمة، ولكن لما لم تكن لدي فكرة عما كان من المفروض أنني أبحث عنه، فقد شعرت بعدم جدوى هذا العمل كله وعقبته. جنبت أضمامة سوداء من قاع الدرجة ونظرت إلى ما بداخلها. وجعلني ما رأيته أنظر بسرعة إلى الرجل العجوز، ثم إلى حفيده، ولكن لم يكن أحدهما منتبهاً إلي. وكانت الإضمامة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة أو نحوها من مخطوطة كتبت باليد، عرفت على الخط، كان خط بوزويل. كان أول سطر من الصفحة الأولى يقول، "السبت، أول فبراير"

غمغمت بشيء ما، أملاً ألا يطرا على ذهن بيتس العجوز أن يسألني عما كنت أقرأ، أو ما إذا كنت قد عثرت على خطاب وايز. ففزت صفحتين من الكلام الذي يحاول فيه بوزويل أن يبرز نفسه، مخاطباً ذاته بكلمة "انت" متاملاً في مميزاته من الجاذبية والجدية الأخلاقية. في يومية الأحد ٩ فبراير، عثرت على الاسم الذي كنت أبحث عنه. وصل بوزويل وتيريز إلى كاليه وسط عاصفة ممطرة. ونزلا في فندق يقول عنه ببساطة أنه فندق مدام دوتشيزن، حيث نزل هو وتيريز في غرفة واحدة كبيرة في الطابق الأرضي. بدل بوزويل ملأه وهبط يتشمى في المدينة. "وبالقرب من رصيف الميناء، ربت شخص ما على كتفي، والتفت لكي أرى أيزموند دونيللي الذي كان قد وصل إلى هنا بعربة البريد القادمة من دانكيرك". وذهبا عائنين إلى فندق بوزويل، حيث كان بوسع دونيللي أن يحصل على حجرة لنفسه. ومن الواضح أن بوزويل ودونيللي كانا قد التقيا في دريسدن، أمرا لنفسيهما بطعام وقنينة كبيرة من النبيذ الجيد، وتحدثا عن ويكليز وهوراس والبلوك اللذين كانا قد قابلاهما في باريس. ودخلت تيريز - ولم يكن بوزويل يعرف أنها كانت قد قابلت دونيللي وهي مع روسو في نيوشاتل - ويقول بوزويل، "علي أن اعترف بأنني شعرت بغصة لحرارة تحبتها، وللطريقة التي ظلت تردد بها أن هذه كانت مفاجأة ممتعة". فرروا أن يتناولوا العشاء معاً، وأخذهما أيزموند إلى منزل خاص لتناول الطعام. "وعلى مائدة العشاء، تحدث كثيراً حديثاً فاحشاً، ولما لم يبد على الأنسة أنها تضررت من ذلك فقد اشتركت في الحديث، وشعرت باختفاء كابتني وانخراط مزاجي". ثم عادوا إلى فندقهم، وقال بوزويل مازحاً أنه يأمل من أيزموند أن ينظر إلى لقائهم نظرة بريئة إذا حدث والتقى بروسو في لندن. وحينئذ، وبالصرحة غير العقولة التي عرف بها بوزويل دائماً، مضى فأخبر أيزموند عن فشله مع تيريز، وعن كيف شعر بالانزعاج في مناسبة تالية حتى أنه شرب زجاجة كاملة من النبيذ قبل أن يذهب معها إلى الفراش. وأصبح الحديث أكثر وداً وكله جو من الصداقة الحميمة. وتحدثت تيريز عن غلظة الإنكليز وغبائهم فيما يتعلق بفن ممارسة الجنس. وحينئذ صدم بوزويل حينما عرض أيزموند أن يعرض استاذيته في هذا الموضوع في التو واللحظة. ثم خطر له أن إذا استحوذ أيزموند على تيريز فإنه سيحصل على سبب معقول يشعره بالبراءة إذا التقى بروسو فيما بعد، وهكذا فقد عبر عن موافقته على هذه الفكرة. وجاء دور تيريز في إظهار الدهشة وما أصابها من صدمة، وراح أيزموند يلومها ويسخر منها منها إياها بالصنعة وعدم الصدق. وعند ذاك، قررت أنه لن تكون هناك جدوى من إخفاء ميلها الحقيقي، ووافقت على أن تكون

عملياً رايها وتقديرها لقوة أيزموند في فن العشق. قال أيزموند لبوزويل، "هيا يا سيدي، هيا لكي نثبت لها أن الكلت هم دم الحياة لأوروبا". فتهتت تيريز، وكان بوزويل مصمم على أن يبدو في صورة لا تقل عقلانية وثقافة عن صديقه الشاب (وكان أيزموند يصغره بنمائي سنوات) فاصطحبهما إلى حجرة النوم.

وما حدث بعد ذلك يتخلص في أن بوزويل وأيزموند ساعدا تيريز في خلع ثيابها. وحينما أصبحت في ثيابها الداخلية شرع الرجلان في ملاطفتها. ونبت كل منهما فمه على أحد نهديهما (...)

إن وصفه لمنظر أيزموند وتيريز وهما يمارسان الجنس سوف يكون - دون شك - نموذجاً كلاسيكياً في مجاله... وهذا الوصف يستمر لصفحتين أخريين، ولكن كان هذا كل ما استطعت نقله في ذلك الوقت القصير. كانت الممرضة تساعد بيتس العجوز لخلع حقيبته البلاستيك، ولذلك فقد أسرع في القراءة حتى أصل إلى النهاية، حيث يصف بوزويل بعد فشله الأول، كيف استطاع أن يشفي نفسه بمضاجعتها بقوة "باسلوب شعرت بالأسف لأنني لم أكن قادراً على مشاهدته بنفسي". وشعر بالرضا الكامل عن نفسه حينما غمغمت تيريز قائلة، "أه، إنه لصير محزن أن أكون عشيقة رجل عجوز". وأمضى بوزويل وتيريز وأيزموند الليلة في نفس الفراش - الذي كان كبيراً بما يكفي لثلاثتهم - ونظر الثلاثة إلى الموقف بطريقة طبيعية حتى أنهم كانوا يفرقون في إغفاءة قصيرة يستيقظون بعدها لاستئناف ممارستهم للجنس. وأخيراً غرق بوزويل في النوم بينما كان أيزموند يحاول إقناع تيريز بأن يأتيها من الخلف. ولكنه في النهاية قنع بأن يقبلها على ظهرها ثم يصعد فوقها مرة أخرى. وفي هذه المرة، شبع حتى رغبة تيريز التي طال كبته في جواد قوي شاب، فرفقت مستسلمة في سلبية، وهي تشوق بضعف، بينما كان بوزويل يمارس الجنس للمرة السادسة "كنت آخر من امتلكها تلك الليلة" كذلك يقول مفاخر، ولكنه يضيف، "ولكن علي أن أقول - للأمانة - أن دونيللي سجل سبع مرات مقابل الست التي سجلتها". وفي الليلة التالية، مرض بوزويل بسبب التهاب في معدته، فامضى الليلة في فراش أيزموند. ويعترف بأن قلبه كان قد انصرف تماماً عن الاستمرار في تلك المناسبة الرياضية، "رغم أننا كنا قد رأينا هتاة صغيرة في نحو الرابعة عشرة من عمرها في دكان الفران، وكانت جديرة بأن تلهمني الحياة طوال ما تبقى من أيام الأسبوع". وفي اليوم التالي قال لهما أيزموند أن لديه عملاً لا بد

أن يبقيه في مكانه عدة أيام أخرى. وبينما تحرك بهما القارب عن رصيف الميناء إلى السفينة التي كانت ستقلهما إلى إنكلترا، نظر بوزويل خلفه فرأى أيزموند واقفاً على رأس الرصيف مع الفتاة ذات الربعة عشر ربيعاً. ولحسن الحظ فإن تيريز لم تلحظهما. "بعد العودة إلى دوفرني اليوم التالي (٢ فبراير) تمضي يوميات بوزويل المنشورة قائلة: "ذهبت صباح أمس إلى لفراش في ساعة مبكرة جداً، وقمت بواجبي مرة واحدة، لكي تبلغ أهدافي ثلاثة عشر في مجموعها. وكنت حفاً منفعلاً بها في ود صادق". ولكنه لا يسجل كيف أصبحت أهدافه الصحيحة تماثل عدد أهداف دونيللي.

التقت عينا بيتس بعيني هيز رأسه محذراً. كانت المريضة قد خلعت الحقيبة المصنوعة من البلاستيك. أغلقت الخطوطة التي كنت قد أنهيت قراءتها لتوي، ودست كراسة مذكراتي الصغيرة في جيبتي. التقطت كتيباً صغيراً من تأليف روسكين، وحينما سألتني الرجل العجوز عما كنت أقرأ قلت أنني وجدت هذا الكتيب وأنه سحرني. قال حفيده إن علينا أن نرحل لأن، وبدا أن المريضة وافقت على ذلك.

"هل سألتني صديقك كل الأسئلة التي كان يفكر فيها؟"

قلت بتردد: "هناك سؤال واحد أخيراً، يا سيدي. عن أيزموند دونيللي.."

"دونيللي؟ من ذاك؟"

وضّح كليف من أفصده. قال الرجل العجوز:

"أه، أجل، أتذكر الآن، لقد كان عضواً في جماعة العنقاء.."

"كيف عرفت؟"

"دعني أتذكر.. كيف عرفت؟ أه، أجل. أخبرني وايز بذلك. قال ذلك في الخطاب الذي أردت أن تراه. هذه النشرة التي كنت تقرأها.. إنها ليست بقلم.. أيا كانت أسماؤهم. إنها بقلم شخص آخر، صديق لدونيللي. لا أستطيع أن أتذكر اسمه. إن له لقباً."

"لا يمكن أن يكون هوراس جليبي. أيمن ذلك؟"

"أه، أجل. هذا هو الرجل. لورد جليبي."

"ولكن كيف عرف وايز بذلك؟"

لسوء الحظ، تدخل كلبي بيتس لأنه فسر هذا الكلام على أنه هجوم آخر ضد وايز، وشرع يشن دهاغاً طويلاً عن صديقه القديم. قررت أن أترك المسألة عند هذا الحد، إلى جانب أنني كنت جائعاً، شكرته ووعيته بأن أزره مرة أخرى وغادرت المكان. وفي الخارج قال كليف بيتس معتذراً:

"أترى. إن الوالد العجوز ثرثار كبير."

"هل قرأت الصفحات التي كتبها بوزويل والتي كنت أقرأها؟"

"أه، هل عرفت أنه بوزويل؟ أجل، بالطبع، لقد قرأتها. أضلها قطعة رائعة من أدب الدعارة. لقد ظللت أحاول طويلاً أن أقنعه بإرسال نسخة منها إلى ذلك الرجل الذي بشرف على نشر مذكرات بوزويل. ولكنه لم يوافق."

"بالطبع. إنها ليست ملكه."

"أأنت واثق؟"

لخصت له قصة أوراق بوزويل. قال:

"إنه يزعم دائماً أنه اشتراها مقابل خمسة جنيهات، ويقول أن لادي كالبوت رأتها بالصدقة ذات يوم وطلبت من زوجها أن يحرقها. فقال أنه سيفعل ذلك، ولكنه وافق على بيعها إلى جدي مقابل ورقة بخمسة جنيهات."

"ربما كان هذا صحيحاً. هل لديك المزيد من أوراق بوزويل؟"

"كلا على قدر ما أعلم. هذه هي الأوراق الوحيدة التي رأيته."

كان المطر قد بدأ بهطل حينما توقفنا بالسيارة في مقابل فندق شيلبورن. قلت - بطريقة تقليدية:

"أشكرك لاصطحابي إليه. إنه رجل عجوز لطيف."

"أوه، إنه على ما يرام. إنك لا تعرفه."

عجبت لهذه الإجابة، ولكنني قررت ألا أضغط عليه. فلم تكن هناك حاجة حقيقية إلى ذلك. وحينما جلسنا في البار رحنا نحسني بعض النبيذ الأحمر، قال،

"يحق لي أن أتخيل أن جدي واحد من الشخصيات التي تمثل أسوأ تركيبة من الخصائص المتضاربة التي يمكن أن تجدها في دبلين في هذه الأيام. إنه - أولاً - كذاب. لقد تظاهر بأنه لم يعرف اسم دونيللي. هراء. إنه يعرفه مثلما تعرفه أنت..."

"إذن لماذا.."

قاطعتني قائلاً، "وهو ثانياً، ربما كان أصغر رجل في أيرلندا..." وطوال الدقائق الخمس التالية راح يضرب لي أمثلة على حقارة جده ووضاعته كانت بالتأكيد مقنعة تماماً. وربما كان الرجل نموذجاً من النماذج الإيرلندية، لأن مانسيورين، يصف شخصاً يماثله في بداية روايته "ميلموت الجوال"، ويرجو هذا الشخص متوسلاً وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، أن ينفخه في مقبرة من مقابر الصدقة المخصصة للفقراء. ثم تلت ذلك قصص عن عدم أمانة جده. "ثم هنالك تلك الفتاة المسكينة التي ترعاه. إنها ما تزال طالبة في معهد التمريض، ولذلك فإنه لا يكاد يدفع لها شيئاً. ولكنه يقنعها بأن تنام معه مقابل وعده لها بأن يترك لها مالا في وصيته. هو بالطبع ما كان يحلم بهذا".

دهشت وسألته، "أنت واثق من هذا؟" فإن الرجل لم يكن يبدو علي صحة كافية لكي ينجو من آثار حلم جنس".

"بالطبع. إن الفتاة تنام معي في ليلة عطلتها".

كنت قد بدأت أشعر بالانقباض. كان كليف بيتس يصف خطايا جده وأخطاءه في تشفٍ حقد شعرت بأنهما على شيء من الوحشية.

"لماذا لم تخبرها بأن الرجل لا ينوي أن يترك لها نقوداً في وصيته؟"

غمز بعينه وقال، "إنها قد تركته. وهذا لن يفيدني".

الفرحت أن نأخذ نبيذنا معنا إلى حجرة الطعام. قال،

"هل تمانع في تناول الطعام في البار الطويل بالطابق الأسفل؟"

"كلا. إذا كنت تفضله".

وجدنا مادة على جوار النافذة لليلة على الشارع. سألته،

"من هو وارث جدك؟"

"أعتقد أنني الوارث".

"إذن لماذا تحتقره إلى هذا الحد؟"

"ليس لهذا علاقة بذلك. إنه خنزير عجوز. وأنا على أية حال لست بحاجة إلى نقود. إنه ميسور الحال تماماً. وربما كان هذا هو السبب الذي سيدهعه إلى أن يجعلني وارثه. إن جيم، ابن أخيه، جيم هيرد، يحتاج إليها أكثر مني..

قطع كلامه فجأة وأطل من النافذة. كان المطر لا يزال بهطل، وكان أمامنا خلف النافذة طفلة صغيرة، كانت تنظر إلينا، وهو ما دفعنا كلاً منا للنظر إلى بعض نظرة تساؤل ثم ابتسم كليف لها. سألته،

"تعرفها؟"

"كلا". ولكنه مع ذلك كان يشير إليها بإصبعه. هزت رأسها رافضة. قام وخرج إليها. توقعت أن أراها تختلفي قبل أن يصل إليها. ولكنها وقفت في مكانها، بدت وكأنها خائفة وباردة ومبتلة، وكانت ملابسها رثة إلى حد كبير. قال لها شيئاً ما، هزت رأسها علامة الرفض. ثم أخذها من كتفها، وأحبرها على السير أمامه. بعد لحظة كانا قد عادا إلى مائدتنا. قال،

"إنك لن تنزعج إذا انضمت إلينا. أليس كذلك؟"

قلت إنني لن أنزعج. ولكنني كنت أكثر اهتماماً بما ستشعر به إدارة المحل. كانت أكبر سناً مما بدت عليه من وراء الزجاج. أربعة عشر، أو خمسة عشر عاماً، تقريباً. كان شعرها مرفوعاً على شكل ذيل فار، وكان أنفها يرشح من البرد، وترتدي سرة قصيرة ذات كتفين منتفخين وليس فيها سوى "زرار" وحيد. كان المطر قد رسم خطوطاً على ما تاصل فوق وجهها من أوساخ، وكانت تبدو كمن لم يغتسل منذ أسبوعين، ولكي أكون

إلى درجة غير عادية، ولكن حتى رغم ذلك، فإن السيرة لم تكن شيئاً عادلاً بالنسبة لجيرالدا على الموائد القريبة.

كانت الوجبة واحدة من أكثر ما عرفته بعداً عن الراحة أو المتعة، فطلبت زجاجة أخرى من الشراب في محاولة لنسيان ما شعرت به من حرج. لم استطع أن أفهم السبب الذي جعلها توافق على الدخول. كانت تجيب على الأسئلة بكلمات مفردة في خشية واضحة من أن ترفع صوتها، وقد جلست في وضع متجمد مقيد، كما لو كانت تتداخل في نفسها لإحساسها المستمر بالبرد. وبدأ كليف كما لو كان مستريحاً لهذا الجو. راح يتحدث بصوت مرتفع وبايتهاج واضح، وهو يقص عليّ حكايات عن مهرجان كان السينمائي، وعن آخر أفلام برسمان، وهي حكايات لم تستطع أن تثير لدي أدنى قدر من الاهتمام. حاولت أن أتحدث إلى الفتاة، ولكن كان واضحاً أنها تفضل لو تركت لشأنها. شعرت براحة أكبر حينما غادر جيرالدا على اللائدة المجاورة لنا. حينما وصل سمكها وبطاطسها اللقي، أغرقتهما بالخل والطماطم المحفوظة، فأصبحت رائحتها أقل ظهوراً. رفضت الفتاة أن تتناول شيئاً من الحلوى، الأمر الذي شعرت له بالراحة والغبطة. كنت قد نويت أن أضيف الوجبة كلها إلى حسابي في الفندق، وبدلاً من هذا دفعت الحساب نقداً وتركت للنادل هبة كبيرة. لم أشعر بالرغبة في الظهور بمظهر نزيل الفندق.

قال كليف بأقصى ما يملكه صوته من ارتفاع وأرستقراطية،

"حسناً، إذا لم تكن ستتناول المزيد، فيمكننا أن نذهب إلى مسكني لتتناول شيئاً من الشطائر بالجبن".

كنت بالغ السرور بانتهاء تناول الطعام، فلم أعترض. إلى جانب أنني توقعت أن تتركنا الفتاة بعد هذا. كان منظر وجهها التعيس يجعلني كئيباً. ولم تكن سعادة النادل بالهبة الكبيرة سوى نصر ضئيل.

وفي الخارج قال كليف، "حسناً، إنني لا أعرف كيف سننحشر جميعاً في سيارتي ذات المقعنين".

ظننت أن هذه الجملة كانت إيحاء مؤدباً للفتاة بالانصراف، ولكنها ظلت واقفة في مكانها. قال:

أميناً، فقد لاح لي أن الطر كان سبباً فيما فاح منها من روائح أكنت تلك الحقيقة. سألها كليف،

"ما اسمك؟"

"فلورنس".

"هل يدعونك فلور؟"

"أجل".

كانت لهجتها لندنية قحة Cochsney جلست في مكانها، تحك يديها الباردتين الواحدة بالأخرى، فتبدو كصورة مجسمة لليؤس. كان النادل ينظر إلينا في استمزاز رافض، وظننت أن مدير المحل كان على وشك أن يأتي إلينا ليطلب منا مغادرة المكان فقد كان يحملني فينا بقوة. قال كليف،

"أتودين أن تأكلي بعض السمك والبطاطس المقلية؟"

أومات برأسها، ولكنها ظلت تبدو مخدرة من البرد فاقدة الحياة. نادى كليف على النادل، وأمره بأن يأتي بما أرادت الفتاة بطريقة ظهر عليها الافتعال وتصنع الكرياء. كانت مشاعري مختلطة غير واضحة. إذا كان قد دعاها إلى الدخول بدافع الشفقة أو العطف إذن لكنت أوافق، رغم أنني كنت سأفضل اصطحابها إلى مكان أكثر هدوءاً وعتمة. ولكنه كان شخصية من نوع غريب ومعقد حتى إنه كان من الصعب التأكد من دافعه. ظننت أن الفتاة بدلت غير مستريحة غريبة عن المكان الذي دخلته. وأخيراً اقترحت أنه من الأفضل أن نصعد إلى حجرتي، على أن نطلب إرسال طعامها إلى هناك.

"كلا، كلا، ولماذا يجب علينا ذلك؟ إننا على ما يرام هنا".

كنت جالساً إلى جانب الفتاة ملاصقاً لها. وكنت أفضل لو أنني كنت أقل قرباً. أخذت سترتها منها لكي أعلقها على الشجيب، ففاحت منها رائحة جعلتني أظن أنها قد وجدت في كومة من القمامة بعد أن كانت قد استخدمت في تجفيف بعض السمك. إن لي أيضاً حساساً

- "أوه، حسناً، سترتب هذا الأمر. تعالياً". وجذب ذراعها بقوة. قلت،

- "ألا يتوقع والدك عودتك إلى البيت؟"

هزت كتفها بلا مبالاة وقالت، لا

في السيارة البورش جلست على ركبتني في هذه الزنزانة المقفلة. وقد طلب مني كليف بيتس ألا أفتح النافذة. كانت الرائحة السمكية أكثر قوة. كان عليها أن تضغط بظهرها علي لكي تدخل ركبتها في مساحة الفراغ الضيق. ربت كليف على ركبتها وهو يقول، "سنكون في البيت حالاً - أو هو - هناك ثقب.. هنا -" وكان يشير إلى جواربها، ثم غمز لي بعينه وقال، "احسدلنا". نظرت إليه بدهشة قليلة. من المؤكد أنه لم يكن يستطيع أن يرى في هذه الطفلة المبللة ذات الأنف السائب موضعاً للرغبة الجنسية؟ ربما لم تكن لديه حاسة للشم؟

بلت لي سلبيتها نوعاً من الشذوذ. حينما توقفنا أمام شقته توقعت منها أن تبدي شيئاً من المعارضة. فكيف لها أن تعرف على أي حال أننا - نحن الاثنين - لا ننوي اغتصابها؟ ولكنها وقفت في مكانها دون أن تبالي بشيء، حتى أخذ كليف بذراعها وقادها نحو الباب.

بلت أكثر غربة وشذوذاً في هذه الغرفة الجديدة التأديب. أقت بسترتها فوق الأريكة، ثم ذهبت فحقت متداخلة بجانب اللهاة، وبلت غير مهتمة على الإطلاق بكل ما يحيط بها. قال كليف،

"فلنسمع بعض الموسيقى، ما رأيكم؟ هل تعرف كانتاتا جيمس أوزوالد السماء عربية الزراب؟ عليك أن تعرفها. إنها ممتعة". تساءلت بيني وبين نفسي إن لم يكن في هذا الاختيار تعريض ساخر بالفتاة. ولكنه أخرج اسطوانة موسيقية تحمل هذا الاسم بالفعل، ووضعها على الحاكي. عرض عليها أن تشرب كاساً ولكنها رفضت. أخرج الجبن والشطائر والزيتون المحشو إلا أنها رفضتها أيضاً. غير أنها حينما قدم إليها علبة كبيرة من الشطائر الجاهزة المحشوة أخذتها دون أن تنبس بكلمة واحدة. وجلست تلتهمها. وقد باعدت ما بين ساقيها أمام النار، وراحت تسقط نثار الشطائر فوق مقعده الحديث ذي السندين وعلى البساط الأبيض الفاخر. اتخذت مقعداً على الجانب الآخر من اللهاة، وكان كليف قد جلس بالقرب منها. بدأت أتساءل إن كانت قد سكرت. ولكن وجهها الصغير الحاد ظل على لامبالته

الكاملة، ولم يكن حتى ينم عن الكابة. وحينما كان يتحدث إليها كانت تجيبه إما بكلمات مفردة، وإما أن تهز رأسها أو تومئ به. وبعد أن التهمت عدداً هائلاً من الشطائر الصغيرة طلبت شيئاً تشربه. ذهب إلى المطبخ وجاءها بزجاجة من الكوكاكولا وأنبوبة لامتصاص الشراب. حينما انتهت كانتاتا "عربة الزراب" قالت دون أن يبدو في صوتها الاهتمام الشديد، "لماذا لا تضع شيئاً من الموسيقى اللطيفة". أخرج اسطوانة من موسيقى مانتوفاني وهرفته، وبدان هذا الاختيار قد أرضاها، ثم إنها لم تقل شيئاً.

فكرت في أنه كان ربما يأمل أن أقوم أنا فأنصرف لكي أتركه معها بمفرده، ولكن حينما قلت أن الوقت قد تأخر، عارضني على الفور، وأضاء جهاز التلفزيون لكي نشاهد نشرة الأخبار. جلست في مكاني، ارتشف كاساً من الشراب، عارفاً بأنني سرعان ما سأشعر بالسكر، ومع ذلك فقد كنت أشعر كما لو كنت لم أشرب سوى الماء طول النهار.

بعد نشرة الأخبار كان هناك برنامج عن الاضطرابات السياسية في شمال إيرلندا. ربت كليف على ذراعي وأشار إلى الفتاة. كانت نائمة. قال بركة،

"إنها لطيفة. ألا تظن ذلك؟" وجدت أنه من العصب أن أعثر على إجابة مناسبة. وأخيراً قلت، "إنها بحاجة إلى حمام جديد؟". بدا عليه الحزن بشكل غير متوقع، وغض بصره وقال "أجل، المسكينة...".

- "ألا تظن أنه يجب عليك أن تأخذها إلى البيت؟ ألا يمكن أن ينم والدها بعض للشاكل؟"

- "أوه، لا أظن ذلك. يمكنها أن تنام هنا إذا أرادت ذلك"

سلمت دون مزيد من المعارضة. كان يعرف ما يفعله خيراً مني.

كانت قد غرقت في النوم واضعة إحدى ساقيها فوق أحد مسندي المقعد، وملت الساق الأخرى أمام النار. غيرت وضعها قليلاً فانزلق ذيل ثوبها فوق ركبتها. ابتسم كليف في وجهي، وانحنى إلى الأمام وصوب نظره قريبة فوق ذيل الثوب. توقعت أن تستيقظ ولكنها لم تتحرك. التفت إلي وقال، "انظر" ولكنني هزرت رأسي قائلاً، "كلا. أشرك". تظاهر بأنه يريد أن يطلعتني على شيء هام، فغيرت وضعي ونظرت إلى ما فوق ذيل الثوب. كان الجوربان

اللطاط الأسود إلى بقايا القماش بطريقة خشنة. وقطع شريط اللطاط بأظافره. كان النهران الصغيران مسطحين ولم يكتمل نموهما. نظر إلي وقال:

"هل سننالها؟"

قلت على الفور: "كلا. دعها وشأنها".

مد يده فجأة ووضعها على مقدمة بنطالي فقفزت إلى الخلف كما لو كان قد ضربني. ابتسم وقال:

"لا يمكنك أن تتظاهر بأنك غير مستثار".

كبحت رغبتني في ضربه وقلت: "لماذا لا تضعها على الفراش ثم تتركها لكي تنام؟"

"كلا. سيخيب أملها".

كانت مشاعري مختلطة وغامضة. كنت واثقاً من أنها متبقطة. ولكن إذا لم تكن، فإنني كنت سأعتبر شريكاً في اغتصابها. كنت سأعتبر شريكاً على أي حال، طالما أنها لم تبد أي نوع من الاستجابة. انحنيت إلى الأمام وقرصت كتفها. لم تتحرك. كان كليف بيتس في تلك اللحظة يقهقه بطريقة غير عاقلة. قبض على نهدها بأصابعه وقال: "قولي له أنك مستيقظة يا حلوة". انحنى إلى الأمام كما لو كان يريد أن يقبلها، ولكنه أخذ شفتها السفلى بين أسنانه وعضها (...)

اقرب مني وامتسك ذراعي. وما زال انتصابه ظاهراً، ووجدت أنه من الصعب أن أبعد عيني عنه. قال متملقاً:

"لقد أدبت لك خدمة اليوم. اسمع، حينما يموت الرجل العجوز، سوف أرت كل ما لديه من مخطوطات. وسوف أسمح لك بأن تأخذ ما تشاء.."

"ذكرني الموقف فجأة بالكولونيل دونيلي، وكان هذا أكثر بكثير مما يمكن أن أحتمل، قلت:

"اسمع، إذا كنت تريد أن تنالها، فإذهب وافعل ما تشاء. إنني لن أمتنع، ولكنني لا أريد مشاركتك في هذا. وأنا لا أريد أيضاً أن أحممها".

لمسبكان مليونين بالنقوب والشقوق. كانت ترتدي سروالاً طويلاً مصنوعاً من القطن، ولكنه كان ممزقاً "الحجر" بشكل سيئ حتى إنه لم يكن يخفي شيئاً. أبعدت عيني سريعاً - ليس بدافع الرق أو اللامبالاة، وإنما لأنني كنت سأشعر بخجل جليد لو أنها فتحت عينيها في تلك اللحظة. قلت:

"ماذا في ذلك؟"

بدا عليه الحزن والتفكير مرة ثانية.

"من الواضح أنها تنتمي إلى أسرة فقيرة، فلا عجب أنها ليست نظيفة جداً".

لمس كتفها وقال: "تريدين النوم هنا". جفلت ولكنها لم تفتح عينيها، وفجأة أصبحت عاجزاً عن معرفة ما إذا كانت تتظاهر بالنوم. تحسس قماش ثوبها وقال: ستصاب بنزلة برد إذا ظلت بهذه الملابس". نهض واقفاً ووضع يداً تحت ذراعها ويده الأخرى تحت ركبتيها، ورفعها. حركت رأسها وقالت شيئاً. خطر لي الآن أنها إما أن تكون تتظاهر بالنوم أو أنه قد وضع شيئاً في الشراب الذي تناولته. فإذا كان ذلك قد حدث، فلأبد أنه استخدم مادة هابريت الكلور، فهي وحدها القادرة على إنتاج هذا الخدر الكامل.

تبعته إلى حجرة النوم - وكان من الغباء الكامل أن أسأله عما كان يفعله. كانت الحجرة مريحة ودافئة. وضعها على حافة الفراش الكبير، ثم خلع حذاءها، ثم بحث حول الخصر حتى عثر على الزمام. سألته: "هذا تصرف حكيم؟" قال: إنني لا أنوي أن أضعها في فراشي بهذه الملابس. لقد قلت بنفسك إنها متعقنة". عثر على الحزام فجذبه وفتح بعنف، ثم جلب الثوب النصفين فخلعه من قدميها. لم تكن ترتدي قميصاً داخلياً. لا شيء سوى الجوربين المسوكين بزوج من دوائر اللطاط، والسروال الداخلي الذي كان يباطه اللطاطي بعيداً تقريباً عن خصرها. قال: "جسد صغير جميل". وكان في هذا شيء من المبالغة. كانت نحيفة، والبطن الصغير كان مسطحاً لدرجة أن عظمتي الردفين برزتا بوضوح. أمسك بطرف الصدر الصوفي الخفيف، وكان ذا لون أخضر شابه لون الطين والتراب - ورفعها، ثم حركها فقلبها على جنبها حتى يستطيع أن يجذبه من فوق رأسها. كانت ترتدي حمالة صدر كانت بيضاء ذات يوم، وكانت أشرطة الحمالة على ظهرها موصولة بقطعة من

قلت ذلك بسرعة لأنني استطعت أن أدرك أنه كان يرمي إلى إقامة حفل جنسي ثلاثي الأطراف.

- "إن تنصرف؟"

- "كلا. سوف أنتظر."

- "سأترك الباب مفتوحاً". ثم اندفع إلى حجرة النوم، فرايته يقذف بنفسه فوقها مرة أخرى (...). ذهبت فعثرت على زجاجة من النبيذ في خزانة مشروباته فملئت لنفسي كأساً كبيرة. ولم تترك لي الأصوات القادمة من حجرة النوم مجالاً للشك في أنه كان يستمتع بها. وكانت تتخللها أنات وتعليقات مثل: "أوه، أوه، أيتها العاهرة الصغيرة..". وأخيراً توقفت الأصوات. مضيت في تناول الجبن والزيتون، مع قراءة نسخة من كتاب وايت: "أخوة الصليب الوردي" وجبتها على أحد رفوف الكتب. بدأت أشعر بالنعاس. سوف يكون من الكذب أن أقول أنني لم أكن مستثارة جنسياً إلى حد ما. كانت سلبية الفتاة المطلقة قد أثارت فضولي، وإن ما تشعر به من فضول لزاء فتاة لقريب جداً من الرغبة في أن تخلع لها ملابسها. وإذا جلست على القعد ذي المسندين الذي كانت تجلس عليه، تذكرت سروالها الداخلي الممزق وأعضائها التناسلية المكشوفة وتجدد الشبق. كنت جديراً بأن أمارس معها الجنس في ظل ظروف مختلفة. ولكن ما أضعف من عزيمتي كانت شخصية كليف بيتس، ومحاولته لدفعني إلى مشاركته في عملية بدت لي كالاغتصاب.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وفكرت في العودة إلى فندق، ولكنني سمعت صوت حركات صادرة من حجرة النوم، ولم أرفع عيني لأنظر ما يجري. ثم رأيت كليف بيتس واقفاً على بساط صغير عند باب الحجرة، عارياً، حاملاً الفتاة بين ذراعيه مرة أخرى.

- "لقد جهنك بها مرة أخرى."

- "هذا عطف منك، ولكن علي أن أرحل."

- "أوه، لا. لا ترحل" ركع على ركبته، ووضعها على البساط المصنوع من جلد حيوان أبيض عند قدمي. كانت هي الأخرى عارية كما ولدتها أمها الآن.. ثم خرج من الحجرة.

اتحنيت فوقها ولمست ذراعها. قلت: "أنت مستيقظة؟". لم تصدر عنها حركة، كان صوت المياه الجارية يأتي من الحمام، وبعد دقائق خرج كليف بيتس من هناك، حاملاً إناء من البلاستيك الأحمر يتصاعد منه البخار.

- "ماذا تفعل؟"

كان الماء معطراً. أخذ منه إسفنجة استحمام، وعصرها، ثم دعكها بصابونة كبيرة معطرة بعطر الليمون. وبدأ يغسلها بعناية، متجاهلاً ما جرى على البساط من ماء، ثم أخذ منشفة وجففها (...). ثم رفع عينيه نحوي وقال: "هاك هي، لا يمكن أن تكون أنظف من هذا...".

- "إن كل ما تحتاجه الآن هو بعض الثياب النظيفة."

- "أوه، أظن أننا نستطيع أن نرتب ذلك."

نهض واقفاً وقال:

- "هاك هي، إنها ملكك.."

استدار وذهب خارجاً من الحجرة، وأغلق وراءه باب حجرة النوم. كان هذا نوعاً من الإغراء، كانت مراقبتي له وهو يلاطفها بالإسفنجة قد جعلتني أنتصب. اتحنيت فوقها ولمست نهديها. كانا باردين. خطوط فوقها واتجهت إلى خزانة الكتب، ثم خطوط على أطراف أصابعي نحو باب حجرة النوم وجذبتة فأنفتح. سمعت صوتاً خافتاً ووجدت كليف بيتس جالساً على البساط، وقد بدأ عليه الانزعاج. قلت: "معدرة، إنما أردت أن أخذ شيئاً أغطيها به". واتجهت إلى الفراش، وأخذت غطاءً ثم علت ثانية إلى الفتة الرافدة على البساط أمام اللهاة. وبينما كنت أغطيها ظننت أنني رأيت ابتسامة على شفيتها.

سمعت صرير قفازات السرير في الحجرة الأخرى. جلست وفتحت كتاب وايت على فصل "الصليب الوردي". ثم غلبني النعاس ولابد أنني نعست فعلاً. استيقظت حينما انزلق الكتاب من فوق ركبتي. نظرت إلى الساعة، كانت في الثانية والنصف. هجأة، جلست فلورنس، ونظرت إلى الغطاء الذي غطيته به.

- "كان هذا شيئاً لطيفاً منك".

- "عفواً". وكنا كلالنا نتحدث بصوت منخفض.

قالت: "حسناً، أظن أن من الأفضل لي أن أرحل".

- "بهذا الشكل؟"

- "كلا".

عبرت الحجرة واتجهت إلى صندوق أثري مليء بالأدراج في أحد الأركان، وجذبت أحد الأدراج ففتحتة. بدأت في إلقاء الملابس الداخلية على الأرض. فتحت الدرج الأخير، وأخرجت زوجاً من الأحذية.

قلت: "لقد جئت إلى هنا من قبل؟"

"أخذ حماماً مرة واحدة في الأسبوع، في المتوسط".

ودون أن يبدو عليها الحرج ارتدت مشدداً حزام، وقد بدا هذه المرة جديداً ومن طراز حديث. ثم ارتدت جوربين، ارتدت بعد ذلك سروالاً داخلياً، ثم حمالة صدر، طلبت مني أن أربط خياطتها. زحفت نحو باب حجرة النوم ونظرت داخلياً، ولكن لم يكن هناك شك في هذه المرة في أن كليف بيتس كان غارقاً في نوم عميق. كانت فلورنس قد ارتدت قميصاً داخلياً دون صدر صنع من النايلون من نفس لون حمالة الصدر والسروال الداخلي، وقد بدا غالي الثمن لعيني غير الخبيرتين. ذهبت إلى خزانة قريبة من الباب وأخذت حقيبة طويلة من البلاستيك كانت معلقة على مشجب في الخزانة، اتضح أنها كانت تحتوي على حلة خضراء اللون كالليمون مكونة من قطعتين. اتجهت إلى الرأفة المعلقة فوق الدفأة ومشطت شعرها بفرشاة أخذتها من الدرج. كان شعرها في ذلك الوقت جافاً، وبعد أن مشطته بدا اللون الأحمر الذهبي نفسه الذي رأيته في مكان آخر. زينت وجهها بضربات قليلة من أحمر الشفاه وبعض البودرة التي نثرتها بقطيفة صغيرة على صدغها. حينما التفتت إلي لم أكد أعرف عليها. كانت ما تزال تبدو صغيرة السن، ولكن كان يمكنني الآن أن أقدر عمرها بعشرين عاماً. كانت قد ارتدت الملابس الجيدة التفصيل كما لو كانت معتاد عليها.

- "مستعد؟"

"أيه .. أجل".

من خزانة البهو أخرجت معطفاً كان متناسباً تماماً مع الحلة، ومظلة من نفس اللون.

وأخيراً وضعت قبعة حمراء صغيرة على رأسها. أطفأت اللدفاة الكهربائية، ثم أطفأت النور، وخرجنا، وأغلقنا الباب وراءنا بهدوء.

سألتها: "أين تقيمين؟"

- "أوه، لن أعود الآن إلى البيت، أنت تقيم في شيلبورن؟"

"أجل".

- "سأعود معك إلى هناك لأرى إن كانت لديهم حجرة لي. لا يمكن أن أتحمل مشقة الخروج إلى مالاهايد".

كانت لهجتها ما تزال لندنية بوضوح، ولكنها لم تعد لهجة الكوكني (سوقة لندن). كان المظهر قد توقف، فسرنا في الشوارع الخالية. سألتها إن كانت تعرف جد كليف بيتس. - "أوه، أجل. إنه كان يعيش في مالاهايد. وهناك قابلت كليف. والوالد العجوز لا يقل عنه سوءاً".

- "ياي شكل؟"

- "إنه يحبهن صغيرات. كان من عادته أن يناوشني حينما كنت في العاشرة".

بنت رغبة تماماً في الحديث، وتكلمت بطريق ثلقانية، وأحياناً بطريقة تشبه أسلوب رجال الأعمال، وليست كمن تبوح بدخيلتها أو تكشف عما بنفسها. كان كليف قد أغواها عندما كانت في الثانية عشرة - حيث كان قد عرض عليها أن يعطيها ما يكفي من النقود لكي تشتري دراجة غالية إن هي جاءت إلى حجرته بعد نصف ساعة من انصرافها من المدرسة لعدة أيام. كانت ابنة غير شرعية لامرأة تعمل سائقة سيارة عامة، وكانت ترتدي ثياباً

لاح لي أن كاتب الفندق كان يعرفها. أخذت منه المفتاح، وصعدنا إلى الطابق العلوي معاً. وفي الطابق الثاني، حيث كان يجب أن نضرب، قالت: "هل أتى إليك وأتحدث معك؟" عرفت ما كانت تعنيه قلت:

"أظن أن عليك أن تنالي قسطاً من النوم، لقد قضيت ليلة متعبة".

ابتسمت في وجهي وقال:

"إنك لطيف، لن يهمني التعب..".

وقفت على أطراف أصابعها وأحاطت عنقي بذراعيها. قبلتها وشعرت بنبضة شبق مفاجئة.

قالت: "ليلة سعيدة". ثم سارت مبتعدة في الدهليز. كبحرت رغبتي في متابعتها، وذهبت إلى حجرتي. وقبل أن أدخل الفراش، تناولت ستة أقراص من فيتامين "ب" وشربت كأساً من الماء. ولكن هذا لم يؤد إلى النتيجة المرجوة. استيقظت في الصباح بفم جاف ورأس يلق ويلف كالمحرك أو مولد الكهرباء.

فدحان من القهوة وبعض قطع الخبز الجاف بالزبد جعلتني أشعر بمزيد من الإنسانية. جلست في الفراش، أقرأ صحيفة الصباح، وأتساءل إن كانت الرحلة إلى قلعة مالاهايد يمكن أن تساوي ما سوف يضيع فيها من وقت وطاقة، ولكن الإغراء كان أقوى بأن أضع الورقة التي كتب عليها "لا تزعجني" على باب حجرتي من الخارج ثم أنام ما تبقى من ساعات الصباح. دق جرس التليفون، فكان مثل محرات دائري يفوس في تربة تركيزي الهشة. تساءلت بيني وبين نفسي وأنا أرفع السماعة إن كان المتكلم هو كليف بيتس، وشعرت بإغراء يدفعني إلى وضع السماعة في مكانها دون أن أجيب. دق الجرس ثانية، فرفع السماعة. سمعت صوت رجل يقول:

"مستر سورم؟"

"أه يتكلم".

"أنا الستير جليبي. هل كتبت إلي رسالة؟"

سينة ولا تتناول ما يكفي من الطعام. كان من الواضح تماماً - رغم أنها لم تصرح بذلك بوضوح - أن ما جذب كليف إليها هو أنفها السائب وثيابها المزقة. كان فقدانها لعذريتها صدمة مؤلمة. وإن كليف يعاملها معاملة طيبة جداً، فلاطفها وهناها، وجعلها تشعر بالثقة والأمان. وذات يوم، بعد أن خلع ثيابها بعناية ودلكها بزيت الزيتون، انقض عليها بكل قوته وأزال بكارتها بضربة واحدة عنيفة. صرخت وبكت لمدة نصف ساعة، حتى خرج من المنزل واشترى لها الدراجة التي كانت تريدها منذ وقت طويل. واستمرت مواعيد لقائها معه في حجرته، وسرعان ما اشترك معهما الرجل العجوز، كانا يدفعنا لها نقوداً كثيراً، وتحدث الرجل العجوز مع أمها عن تبنيه لها. كانت الأم تعرف ما يجري بالطبع، ولكن النقود كانت أكثر من أن ترفض.

كان اعتراض كليف الوحيد هو أنها تنفق على الملابس أكثر مما ينبغي. كان جزءاً من خياله الجذاب أنها يجب أن تظل مشردة مهلهلة الثياب. وكان قد اعتاد أن يتسكع أمام محلات الثياب المستعملة لكي يشترى لها ثياباً مهلهلة قدرة. وكانت هذه الثياب تصلها بالبريد، مع بطاقة صغيرة يخبرها فيها أين ستقابلها، وفي أي وقت. كان عليه أن يمثل دور من يلتقط فتاة من الشارع، وكان عليها أن تتصرف كما لو كانت لم تره من قبل أبداً. وكلما كان في مقدوره، كان يأتي معه بشخص آخر، ثم يقوم بتمثيل مشهد الاغتصاب العجيب الذي شاهدته بنفسه. سألتها إن كان أصدقاؤه قد قبلوا أن يمتلكوها بناء على دعوته بينما تكون هي غائبة عن الوعي بشكل واضح. قالت:

"أوه، أجل إنك الثاني - الذي يرفض ذلك".

"فماذا يحدث حينذاك؟"

"لا شك أنك ستدهش تماماً عندما أقول لك بأنهم أحياناً كانت تبلغ بهم الاستشارة جداً كبيراً حتى أنهم يستمرون في تبادل الفرجة طوال الليل. فإذا كنت سعيدة الحظ، تشغل الرجلان أحدهما بالآخر وتركاني وشاني".

"إن هان كليف شاذ جنسياً؟"

"أوه، إنه كل شيء".

قلت: "يا رحمة السماء. كيف حالك؟ جميل منك أن تطلبيني".

"أخبرتني زوجتك بأنك تنزل في فندق شيلبورن. اسمع، ما الفرص المتاحة لقدمك إلى لندن؟"

"هذا ممكن. ما الذي تفكر فيه؟"

"هذا شيء أطول من أن شرحه في الهاتف، ولكنني مسحور اللب تماماً بكل هذه الحكاية عن دونيللي. وأن لدي فكرة عن احتمال قدرتي على مساعدتك. هل تعرف أن قصر جلوسبي قد بيع؟"

"كلا. لم أعرف بذلك".

"أخشى أن يكون هذا هو ما حدث، منذ عامين. لقد تنبأوا بخطابك. كان أخي الأكبر قد قتل في سويسرا - غرق في حادث قارب. واكتشفنا أن أوضاعنا أكثر تعقيداً مما كنا نظن - ضرائب التركات وما إلى ذلك - مع أننا قررنا أن نبيع قصر جلوسبي. اشتراه رجل من كندا يدعى ميللر. أعرف أن هناك ادراجاً ضخمة مليئة بالأوراق. وهي ما تزال ملكي بالطبع".

"هل حاولت الاقتراب منها؟"

"أوه، أجل. هذا الرجل ميللر، شخص لطيف تماماً. لو استطعت المجيء إلى لندن لأمكننا أن نذهب معاً إلى هناك".

فكرت بسرعة ثم قلت:

"متى ستكون خالياً من العمل؟"

"أي وقت. إنني لا أعمل الآن".

"لو أنني أخذت طائرة إلى لندن اليوم، هل ستكون خالياً؟"

"أوه، أجل، بالتأكيد. سأسعد لرؤيتك".

أخذت رقم تليفونه، وقلت له أنني سأتصل به ثانية، وأنهيت المكالمات. اتصلت أولاً بالطيار فعرفت أن طائرة من شركة "إير لينجوس" ستطير إلى لندن في الثانية عشرة وخمس وثلاثين دقيقة، وأن علي أن أكون في المطار قبل ذلك بثلاث ساعات لكي أحصل على تذكريتي، فأسكنت لهم أنني حجزت التذكرة لنفسني، ثم اتصلت بمكتب الفندق ليعتدوا قائمة حسابي. اتصلت بديانا بعد ذلك ولكنني لم أجد غير موبسي التي كانت في رعاية المرأة التي تأتي لتنظيف المنزل بينما خرجت ديانا لتصفيف شعرها. قلت لها أن تقول لأمها أنني سأسافر إلى لندن وأتني سأتصل بها فيما بعد. ثم اتصلت بالستير جليبي مرة أخرى، وقلت له أنني سأكون في مطار هيثرو في الواحدة وخمس وأربعين دقيقة. كنت في عجلة من أمري، وراح رأسي يندق محذراً، ولكنني اتخذت موقفني النهائي، وصعدت إلى الطائرة قبل خمس دقائق من إقلاعها، أخذتني سكرة النعاس قليلاً خلال الرحلة، فنامت وعندما صاحوت وجدت الطيار يعلن هبوطنا.

في مبنى المطار أعلن صوت في مكبر الصوت عن اسمي وعن طلبهم لي أن أذهب إلى مكتب شركة "إير لينجوس" للطيران. ذهبت إلى هناك، فوجدت في انتظارني شاباً طويلاً أشقر الشعر.

"مستر سورم؟ أنا الستير جليبي".

كان أصغر سناً مما توقعت - لا يكاد يكون قد أنهى عقده الثاني. كان شعره طويلاً، وكان بنطاله "البلوجينز" وسترته المصنوعة من جلد الخمار أبعد ما كنت أتوقع أن أجده عليها، وإن كان في نطاق هذا العمل. كان وسيم الطلعة إلى أقصى حد، وإن كان شعره أقصر قليلاً لاستطاع أن يجمع ثروة إذا ما كان قد عمل "موديلاً" للرجال.

قلت أنه لطيف منه أن يقابلني. فقال:

"عفوا. لو أنك لم تات إلى لندن، لجئت أنا إلى إيرلندا".

سرنا نحو ميل حتى بلغنا المكان الذي ترك فيه سيارته من طراز "مبني مايستور". في الطريق إلى حيث يأخذني مضيقي، سرد علي بالتفصيل ما كان قد أخبرني به في الهاتف. كان أخوه غوردون قد مات في الثامنة والعشرين من عمره، بعد عام واحد من زواجه. وكانا آخر من تبقى من عائلة جليبي، وأصبح قصر جلوسبي ملكية مشتركة بين الستير

كانت أنجيلا جليبي "اسكتلندية" جداً بشكل ما، نحيفة، جميلة، حيوية، ذات شعر متموج في تجمعات صغيرة ووجه محدوب قليلاً. كانت ترتدي ثوباً صوفياً كان أن يبلغ ركبتيهما، وينطلقاً من التيل.

- "أتود شرب الشاي؟ أم مشروباً آخر؟"

قلت إنني أفضل الشاي في هذه الساعة، فذهبا معاً إلى المطبخ ورحت أنظر إلى الكتب على الرفوف وإلى الصور المعلقة على الجدران. كان من الواضح أن الستير قد جاء بكل تلك الكتب من غوردون. فقد كانت هناك مجموعة جيدة من كتب سكوت وجون جالت في طبعاتها الأصلية، ولعدد كبير آخر من الكتاب الإسكتلنديين الذين لم اسمع بهم من قبل. كانت ظهور الأغلفة الخلفية للكتب تحمل اسم هوراس جليبي، ولكن التواريخ للمصاحبة للاسم دلّتي على أن هذا لابد أن يكون هوراس الابن، منفذ وصية دونيللي.

في ركن رف الكتب رأيت كتاباً يحمل اسم "خطابات من أحد الجبال" تأليف ريفالد سميتسون. لم يكن على الصفحة الأولى اسم الناشر ولا تاريخ نشره، ولكن أحدهم كتب تاريخ "١٧٨٠" على ورقة ملصقة بالغلاف. كان هناك رسم على الصفحة الأولى - يمثل جبلاً تعلوه شجرة جرداء وظلياً طويلاً القرنين. شعرت فجأة بأن هبة شيئاً مألوفاً لي بصورة غريبة. أحسست هجأة بالدوار، وجلست، وأغمضت عيني. بدا لي أن صداعي ما زال مستمراً. حينما أغمضت عيني أصبح الدوار عنيفاً كما لو أنني سقطت في دوامة، هفتحت عيني ثانية ونظرت إلى الكتاب. وحينئذ وفي وضوح كامل عرفت ما كان يحدث. كنت "قد أصبحت" أيزموند مرة أخرى. ولكنني في هذه المرة لم أكن أرى العالم بعيني. وإنما كان الأمر كما لو كنا نقسم رأسي. فنرى الأشياء بصورة مزدوجة وبمعنيين مختلفين. ولكنني عرفت الآن لماذا كان الكتاب مألوفاً لدي. كنت قد رأيته من قبل، فأنا لذي إحساساً بالتفوق. كان شيء منفر غير سار مرتبطاً به.

نظرت في الكتاب، وإلى ما وراءه شاعراً بصدمة مفاجئة. فتح الباب، ودخل منه هوراس جليبي حاملاً صينية. نظر إلي وقال:

- "أنت بخير؟"

اختفت الرؤية المزدوجة، وتعرفت إلى المتكلم وكان الستير جليبي. قلت:

وبين زوجة شقيقه، وكان الستير ما يزال يدرس في كلية سانت اندروز. وكانت الضرائب الفروص على الشركة ثقيلة، وحينما تمت عملية تصفية حسابات الستير لم يكن قد بقي له إلا القليل بالإضافة إلى قصر جلوسي (رغم أن الستير كان له دخل مستقل ورثه عن جنته لأمه). كان قصر جلوسي نادراً مثل فيل أبيض، ولكنه أيضاً كان متهاكاً فقد أكد لهم الوكيل أنه لم يكن يساوي متاعب بيعه، وأن الثمن المحتمل لن يكفي لتغطية الرسوم القانونية للبيع. ومع ذلك فقد قرر هو وزوجة أخيه أن يبيعاه. وفي خلال أسابيع قليلة تسلما عرضاً كبيراً إلى درجة لا تصدق من رجل أعمال كندي كان يريد "قلعة اسكتلندية" لكي يستخدمها كمقر له في إجازاته. أبرما الصفقة بسرعة، وقرر الستير أن هذا هو الوقت المناسب لتحقيق أمله في تكوين فرقة للغناء "البوب" فانتقل إلى لندن. ولكن مشروع الفرقة لم يتحقق، فأصبح يعيش يهدوء في هولنديارك ويدرس فن التصوير على أمل أن يصبح مصوراً صحفياً.

سالته كيف أصبح مهتماً بدونيللي.

- "أظن أنه من الأفضل أن أترك أنجيلا لكي تشرح ذلك. إنها زوجة شقيقي غوردون. وهي تنتظرنا في الشقة."

يجب علي أن أعترف بأنني شعرت بنوع من خيبة الأمل. كان الستير جليبي شاباً لطيفاً يبعث على البهجة بشكل واضح، غير أنه كان من الصعب أن يبدو في صورة تلاءم ويحني عن دونيللي. ولكنني ظننت أنه من الممكن أن تكون لمسة ساخرة في مقدمتي لكتاب "مذكرات أفاق إيرلندي" إذا أنا ذكرت أن لورد جليبي الحالي مغني "بوب" فاشل وأنه يطمح في الدخول إلى عالم الصحافة. ولأنه - على الأقل - مهتم بتاريخ أسرته، فقد لخص لي ما حدث لهم في القرن التاسع عشر، وكيف حدث أن تزوج اللورد اسكندر جليبي - جده - واردة أمريكية في عام ١٩٠١. فاستعاد بذلك ثروة الأسرة. ولكن والده عاد بهم إلى الفقر بإقامته في لندن واتخاذ نصف "دستة" من العشقات.

وصلنا إلى شقته في حوالي الثالثة والنصف. كان عصراً ناعماً ذهبياً، واجتاحني فجأة إحساس بالرءاء وسعادة الحظ وأنا ألق على رصيف الشارع في "هولاندميوز" أراقبه وهو يغلق السيارة. كانت فتاة تقف في النافذة وتنظر إلينا، وتلوح لنا. فقال لي: "هذه هي أنجيلا".

"أجل. إنني أعاني من صداع خفيف. هذا كل شيء".

نظر إلى الكتاب على حجري:

"أوه، أتعرف ذلك الكتاب؟"

"كلا".

دخلت أنجيلا، فقال:

"ليس هذا مدهشاً يا أنجي؟ لقد عثر على كتاب "خطابات من أحد الجبال" ألا يثبت هذا شيئاً ما؟"

كانا قد أعدنا بعض الشطائر، فتبينت أنني كنت جائعاً. وبينما كنت أتناول الشطائر واحدة بعد الأخرى، اختفت آخر أثار الدمار. كنت قد أصبحت "نفسى" تماماً هذه المرة. واكتمل العلاج بثلاثة أقلام من الشاي الساخن. وفي أثناء الأكل سألتني عن السبب الحقيقي وراء اهتمامهم بإيزموند دونيللي. فبعد موت زوجها، قررت أنجيلا أن تكمل دراستها الجامعية التي كانت قد هجرتها لتتزوج، فأدرجت اسمها في جامعة أدنبرة، وكان أستاذها هو البروفيسور ديفيد سميثلي، كاتب ترجمة جيس هوج، وحينما اكتشف سميثلي أن أنجيلا هي لادي جليبي، سر وثارت حميته العلمية. كان يكتب تاريخاً عن مجلة "آدنبرة وريفيو" وكان جليبي واحداً من كتابها الأصليين، ولكنه كان قد أبعد عنها على يد الدكتور جيلبرت ستيوارت، وهو رجل كانت سمته المميزة الأساسية هي الحقد والضغينة. كانت حدة اللهجة سبباً في أن حققت مجلة "الريفيو" نجاحاً هورياً منذ صدور عندها الأول في شهر يونيو عام ١٧٧٢، وكان جليبي قد كتب في العدد مقالاً نقدياً ممتازاً عن لورد مومبودو، كما كتب عرضاً فيه شيء من الخشونة لكتاب في التاريخ من تأليف الدكتور هنري، وهو واحد من أكثر الكتاب الإسكتلنديين نجاحاً في ذلك الوقت. وأخيراً، وبشكل واضح، بدأ جليبي يشعر - مثل عدد كبير آخر من الناس، بأن كل هذه البرارة والسخرية لم تكن لتبلغ أي هدف، فكتب إلى ستيوارت خطاباً طويلاً - في أكتوبر ١٧٧٢ - موضحاً إحساسه بأن على مجلة "ريفيو" أن تهدف إلى أن تكون أكثر قوة وبناءً، وأنه لا شك في أن كلا من هنري، وروبرتسون وبلاير يتمتعون بقيمة حقيقية، مثلهم في ذلك مثل عدد كبير آخر من الكتاب الذين حقر من شأنهم على صفحاتها. وكتب ستيوارت ردّاً ودياً ومعقولاً، ولكن يبدو

أنه شك في ذلك الوقت من أن جليبي قد وقع تحت تأثير هنري أو بلاير، فكتب خطاباً ثانياً وصف فيه جليبي بأنه "كلب حراسة كهنوتي"، (وكان هنري (كاهناً) مسيحياً).

ويمكن أن يعثر القارئ على ملخص لهذه القصة من كتاب إيزاك ديزرائيلي "خصومات المؤلفين ومعاركهم". وفي شهر نوفمبر، نشرت مجلة "سكوتس مكارزين" وهي مجلة منافسة، دفاعاً قوياً ودكياً عن هنري وروبرتسون، اختتم بهجوم ماهر مميت ضد ستيوارت، ويقتطف ديزرائيلي هذا الدشاع كله. وعلى صفحات مجلة "ريفيو" أكد ستيوارت أن كاتب الهجوم - الذي وقع بحروف "أم د" - كان هوراس جليبي. وأجاب جليبي بخطاب على الفور، يقول فيه لستيوارت أنه بينما يوافق على كل ما جاء في الهجوم، فإن كتابه الحقيقي كان صديق إيزموند دونيللي. وكانت نتيجة هذا الخطاب نقداً عنيفاً لكتاب دونيللي "ملاحظات عابر في فرنسا وسويسرا" في عدد فبراير من مجلة ستيوارت. ويقول ديزرائيلي أن جليبي أراد أن يتحدى ستيوارت بما يمتلكه من أدوات، ولكن دونيللي منعه من ذلك وضبط من عزمه.

استمرت المعركة، حتى بعد أن انهارت مجلة ستيوارت. ذهب ستيوارت إلى لندن، وسأهم بانتظام في الكتابة لمجلة "جنتلمان مكارزين". وفي هذه المجلة، وفي يونيو عام ١٧٨١ تحديداً، حدث أن ظهر عرض قصير وإن كان فيه شيء من سوء النية المقصود لكتاب "خطابات من أحد الجبال" وصف فيه الكتاب بأنه: "بخرقة عقل مختل بسبب الشهوات المريضة والحماس الهوائي. وفي العدد التالي من المجلة، أعلن أن مؤلف كتاب "خطابات من أجل الجبال" كان في الحقيقة هوراس جليبي.

مات ستيوارت بعد ذلك بخمس سنوات، في سن الرابعة والأربعين، مليناً بالمرارة، يمور صدره بالكرهية، مقتنعاً بأن أعداءه قد تأمروا لكي يحطموه.

كانت هذه هي القصة التي سردها علي أنجيلا جليبي. وكان من الممكن أن نثيرني أكثر مما فعلت بالفعل. لو أنني كنت أقل تعباً. في كل مرة ذكرت فيها اسم هوراس جليبي، كنت أنظر إلى أستر جليبي. والتعجب إن كان حقاً يشبه جده ككل هذا الشبه الذي خيل إلي. فإذا تحققت من ذلك، لحصلت على برهان يثبت أنني كنت على اتصال نفسي (أو روحي) بإيزموند. وحينما انتهت من حكايتها، سألت إن كان هناك صورة لهوراس جليبي في جلوسبي.

"أوه، أجل".

"كيف يبدو؟"

نظر أحدهما إلى الآخر وضحكا. قالت أنجيلا،

"إنه يشبه الستير إلى حد مذهل. وهذا هو السبب الذي يجعله مهماً به إلى هذه

الدرجة؟"

وبذلك لم يكن هناك أي احتمال للشك. وبدلاً من أن أحس بالاستنارة لهذا الكشف،

شعرت بالانقباض.

التقطت كتاب "خطابات من أحد الجبال" وقلت،

"ما موضوع هذا الكتاب؟"

"أوه، إنه عمل معقد متشابك. يظن دكتور سميللي أنه متأثر بكتاب "الواطن

العالي" الذي كتبه غولد سميث. إنه في الحقيقة قريب الشبه بالروايات القوطية - أقرب

شبهاً برواية "قلعة أوترانتو" التي كتبها والبول. إنه كتاب مذهل حقاً بالنسبة لعصره -

حينما تضع في اعتبارك أن مسز رادكليف وماتيوورين لم يكونا قد شرعا في الكتابة بعد".

"أيمكنك أن تسرد علي ملخصاً لقصة الكتاب؟"

"القصة تدور حول صديقين اسم الأول كونيارد والآخر رودلفو. إنهما يشبهان داود

وجوناфан في الكتاب المقدس. حينما يقعان في حب نفس الفتاة، يحاول كل منهما إقناعها بأن

تقبل الآخر. يذهبان إلى الجامعة معاً ويقسمان علي الصداقة الأبدية وأخوة الدم - أنت تعرف

مثل هذه الشعائر - . وذات يوم، بينما كان رودلفو واقفاً في إحدى المكتبات، يقرب منه

مراكشي غامض يدعى عبدالله صباح، يعرض عليه أن يقرأ له طالع. يقول له أن من

القدر له أن يكون واحداً من حكام العالم، ثم يدعو للمجيء إلى بيته. ويذهب رودلفو - رغم

تحذيرات كونيارد - فيقع في حب فتاة تدعى نوري - من المفترض أنها ابنة عبدالله صباح..."

عند هذا، قاطعها الستير قائلاً: "من المؤكد أنه لا يريد أن يسمع كل كلمة جاءت في

هذا الكتاب".

أكلت له أنني أريد هذا. استمرت أنجيلا في سردها بشرى المراكشي رودلفو في احتفالات طقوس سحرية تتضمن كرة من البلور. يقفان في أثنائها فوق قمة برج مرتفع تحت ضوء القمر للتمتع وينظر رودلفو إلى الكرة البلورية. يرى فيها شعباً ضخماً ينظر إليه بعينيه الصفراوين، ثم يبدو أنه ينقض عليه. وتنقذ نوري رودلفو من السقوط من فوق البرج، ومن ثم تصبح عشيقته وتعدده بأنها ستزوجه إذا وافقت أسرته على ذلك. وتعترف له بأن عبدالله ليس والدها، وأن العملية كلها مؤامرة الهدف منها ضم رودلفو إلى جمعية سرية هرعية تخطط لتدمير أوروبا.

وفي اليوم التالي يكتشف أن نوري و"بأها" قد رحلا. يمتلكه اليأس ويبحث عنهما في كل مكان. وذات يوم، وفي كنيسة قديمة يرى تمثالاً للنعبان ضخم مصبوب من البرونز فيشتره بعدد قليل من الكرونات. ثم يكتب كتاباً في أدب الرحلات، يصف فيه الأماكن التي زارها في أثناء بحثه عن نوري، ويطلع على الغلاف صورة النعبان. وبعد بضعة أسابيع يتلقى رودلفو مظهروها مغلفاً يحتوي على رسم للنعبان، وأمر بأن يحرق كل نسخ كتابه. وينفذ رودلفو الأمر بأن يشعل النار في مخزن ناشره في لندن، ويموت عدد من الناس في الحريق، الذي انتشر حتى اشتعل في المنازل المجاورة. وحينما يتم ذلك، يتصل به المراكشي مرة أخرى، فيصبح في مقدوره أن يرى حبيبته وسيدة أحلامه. وبذلك يصبح عضواً كاملاً في الجمعية الشريرة المعروفة باسم "أمر النعبان". ويشعر أعضاء الجمعية بأن لنوري تأثيراً سلباً أو بالأحرى طيباً - عليه، فيأمرونها بالابتعاد عنه ولكنها ترفض هيقتلونها. ولما كان رودلفو قد أصبح خاضعاً تماماً لأوامر النعبان فإنه يقبل بدلاً منها عشيقه جديدة تدعى فاتيما، وهي الأخرى ساحرة...

قد يكون من الممل أن نلخص بقية القصة المضطربة والميلودرامية. ولا يمكن أن يكون ثمة شك في أنها تدبّر بالكثير لرواية "قلعة أوترانتو" وأنها بدورها قد أثرت في كتابات مسز رادكليف وماتيوورين. إن رودلفو يقع فريسة الإغراء بالقيام بأعمال أكثر شراً باستمرار، على الرغم من محاولات كونيارد إنقاذ حياته. وأخيراً يؤمر بأن يقتل كونيارد، ولكن هذا كان أكثر مما يحتمل. إن الرابطة التي تربطهما والتي تشبه علاقة داود وجوناثان قوية إلى درجة كبيرة رغم تعاقب السنين. وفي اللحظة الأخيرة يرمي رودلفو بالخنجر ويتعاقق هو وكونيارد. ويمتلك اليأس رودلفو بسبب أعماله الشريرة، فيقرر أن الذهاب إلى جبل آشوس

القرفة حينة وذهاباً. وبينما كنا نسير متجهين إلى الطعام، قال: "هل تعرف أن هذا هو أكبر اكتشاف أدبي منذ اكتشاف أوراق البحر الميت؟"، وكان فكاهياً فقد شرعت أنا وأنجيلا على الفور في الضحك.

ولكنهما لم يشارا حقاً إلا حينما أخبرتهما بأن أيزموند كان قد أعيد إليه هوراس جليبي منفذاً لوصيته الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي. كانا ياملان في العثور على بعض ما تركه جليبي من مواد في جلوسي، فأصبح من الممكن الآن أن يعثر أيضاً على بعض من أوراق أيزموند هناك. وأشارت أنجيلا إلى أنه من الممكن أن يعتبر الستير منفذاً لوصية أيزموند الأدبية ومتصرفاً في تراثه الأدبي طالما أنه حفيد مباشر لهوراس جليبي الابن. ولم يكن هناك من بقي على قيد الحياة من أسرة استون. وهذا يعني أنه إذا نشر المزيد من أوراق أيزموند فإن الستير وأنجيلا يمكن أن يشركا في الأرباح. وكنت قد حصلت بالفعل على أكثر مما يكفي لطبعتي الخاصة من كتاب "مذكرات آفاق إيرلندي".

جلسنا حتى الثانية من صباح اليوم التالي نتبادل الحديث عن أيزموند وهوراس جليبي. وكان ندمهما الرئيسي بالطبع صادراً من أن أحداً منهما لم يهتم بحياة جليبي قبل بيع قصر جلوسي. وتذكرت أنجيلا أن زوجها كان قد أطلعها على حجرة في قصر جلوسي حيث وقعت في الماضي جريمة قتل - إذ عثر على رجل ميتاً في ظروف غامضة. وظن الستير أنه يتذكر شيئاً من هذا النوع هو الآخر. ولكننا حين وصفت الحجرة، لم تكن هي التي تذكرها الستير باعتبارها "حجرة القتل".

نمت ليلتي على أريكة في حجرة الجلوس، وكانت أنجيلا تحتل السرير الموجود في حجرة الضيوف. وكان الستير يريد أن يرحل إلى اسكتلندا في صباح اليوم التالي، ولكن أنجيلا قالت أنه ما يزال عليها أن تقوم ببعض البحوث في مكتبة المتحف. وقررت أنا أنه من المناسب لي أن أذهب معها. قضيت الصباح هناك، وعثرت على نسخة من نشرة "مارتل وسميشون" التي كتبها عن جماعة العنقاء. شعر تيم موريسون بالحرج حينما أشرت له إليها، وقال أنه لم يلتفت إليها في بحثه لأن عنوانها كان "جمعية العنقاء". ولكن أقارن بينها وبين النسخة التي رأيتها معه من قبل، طلبت منه أن يصورها لي لكي أحمل الصورة معي.

تناولت أنا وأنجيلا طعام الغداء في مطعم يوناني بالقرب من سيرك كامبريدج. قلت لها فحاجة أنه كان عطفاً من جانبهم أن يتقوا بي كل هذه الثقة، فنحن على أي حال.

لكي يطلبها الغفرة. وفي المرحلة الأخيرة من رحلتها، يستيقظ رودلفو في الليل على صوت نوري الليئة، هيمشي في أثر الصوت الذي سمعه، ولكنه يسقط من فوق قمة الصخرة. وحينما يعثر على جنته، يكون الوجه قد تشوه تشوهات فضيحة حتى أن رهبان جبل أتوس رفضوا دفنه في أرضهم المقدسة، معلنين أنه من الواضح أن هذه حبة شيطان. ويقوم ككونراد بنفسه بنفنه في وسط منطقة جرداء، ثم يذهب إلى جبل أتوس، حيث يكتب قصته على شكل خطابات إلى القسيس الكاهن الذي يتلقى اعترافاته.

بينما كانت أنجيلا جليبي تلخص حبكة الرواية، اختفى ما كنت أشعر به من التعب. عرفت في تلك اللحظة أن بحثي عن دونيللي قد دخل مرحلة حجرة. إن أكثر أجزاء لغز الخطوط المتشابهة أهمية قد كشف عن مكانه الصحيح. كنت أعرف أن أيزموند كان قد تلقى - في الحقيقة - رسم العنقاء بعد طبع كتابه "ملاحظات" عام ١٧٧١ بوقت قصير، وكنت أعرف أن الطبعة كلها كانت قد دمرت في حريق أتى على مخزن الناشر في لندن. والآن كان من المستحيل أن أشك في أن أيزموند قد تلقى رسالة اتصال من جانب جماعة العنقاء في عام ١٧٧١. إلا أنه في ذات الوقت، لا يمكن النظر إلى بقية القصة بجدية. فإن أيزموند لم يشترك في أية خطط شريرة بعد ذلك التاريخ. وظل هو وجليبي على صلة ودية وثيقة بعد ذلك طوال سنوات، والمقالة المنشورة في مجلة "سكوتس مكايزن" في عام ١٧٧٤، قد كشفت عن أنه كان ما يزال قارئاً مخلصاً لكتب الصلوات. ولم يحدث أن كتب جليبي رواية "خطابات من أحد الجبال" إلا بعد ذلك بعشر سنوات.

إنني مدين بهذا المفتاح الرئيسي لكل من الستير وأنجيلا جليبي. ولذلك، فقد كان من الواضح أنني أدین لهما بحكاية القصة الكاملة لبحوثي الخاصة. وهكذا، فعندما سألتني أنجيلا: "والآن، ما الذي اكتشفته عن أيزموند دونيللي؟" اقترحت أن تشرب كأساً من الويسكي، ثم سردت عليهما القصة الكاملة، بالصورة التي كتبتها بها هنا، استغرقت عملية السرد ثلاث ساعات، وانتهيت منها في مطعم في توتينج هيل ونحن نتناول طعام العشاء. كنت أحمل معي مذكرات أيزموند، بالإضافة إلى خطابات جليبي، كنت سعيداً بهما لأنه كانت هناك أوقات لاح لي الأمر كله سخيلاً لدرجة أنه كان من بواعث الراحة أن أقع نفسي بأنه لم يكن حلماً متشابك الأطراف انتابني وأنا غارق في النوم. أصغت أنجيلا دون أن تنبس ببنت شفة، ولم تصرف عينيها عن وجهي طوال الوقت. وظل الستير يردد، "يا إلهي" وهو يتمشى في

الخطاب الذي جاءني من كلاوس دنكمان. كنت أحمل عنوانه ورقم تليفونه في كراسة
العناوين التي أحملها. قالت:

- "لماذا لا تتصل به؟ قد يكون على شيء من الأهمية؟"

- "أعتقد أنه يجب على ذلك".

ذهبت إلى تليفون الطعام. أجابني امرأة ذات لكمة أجنبية، ولاح على صوتها شيء من
العداء حتى ذكرت لها اسمي، فأصبحت ودية للغاية، وقدمت نفسها باسم أناليزا دنكمان،
وسرعت تتحدث بإسهاب عن مكتبي. وأخيراً جاء زوجها لكي يكلمني بالتليفون؟ سألتني إن
كان يوسعي أن أزورهما وأتناول معهما طعام الغداء. قلت أنني سأتي إليهما في الموعد المحدد
ولكنني سألت إن كان يوسعي أن أذهب في وقت متأخر من عصر اليوم، فاتفقنا على موعد في
الساعة الرابعة.

لم أكن سعيداً سعادة كاملة بهذا التطور، وبدأ لي أنه لن يؤدي إلا إلى طريق مسدود.
ولكن أجبلاً قالت: "جيد جداً، إنه يبدو على شيء من الأهمية. أيزعجك أن أتي معك؟"

أمضيت ساعة أخرى في المتحف، ولما كان عصر اليوم دافئاً ومشمساً فقد قررنا أن
نتمشى حتى هامبستيد، سرنا عبر حدائق بلو مزيري على طول كامدن تاون، ثم أخذنا
سيارة عامة إلى بلزي بارك. كان عنوان أسرة دنكمان في كيتس جروف.

فتح الباب فظهر وراءه رجل طويل نحيل يرتدي نظارة سمكة جداً جعلت عينيه
تبدوان بعيدتين وغريبتين، مثل أخطبوط ينظر من وراء حوض زجاجي كبير. بدت عليه
دهشة ضئيلة حيناً رأى أنجيلا، دعانا للدخول بطريقة مهذبة. تبعناه عبر ممر طويل حتى
قاعة عمل (استديو) تسطع بنور الشمس. كانت الأرضية مغطاة بتراب الأحجار النحوت،
وكانت هناك تماثيل هائلة الحجم لنساء أمازونييات ذوات أذناء وأرداف هائلة. تقدمت إلينا
لتحييتنا امرأة ضخمة الحجم رماندية الشعر بعد أن وضعت على المائدة مطرقتها وأزميلها.
صافحتني بحماسة قبضة مثل قبضة مصارع. وأومات في لا مبالاة ميكانيكية إلى أنجيلا.
كانت أقل طولاً من زوجها، إلا أنها كانت تملك بنية مصارع حقيقي، وبدأ أن ذراعها
الكشوفتين تحت الكمين اللشمرين إلى ما فوق المرفقين - قادرتان على الإطاحة بأي واحد منا

متنافسون من الناحية التكنيكية. فقد كان من المحتمل أن يقوموا - عاجلاً أو آجلاً -
والأكثر احتمالاً أن يكون ذلك عاجلاً - بالبحث عن أوراق جليبي في قصر جلوسبي، وأن
الاكتشاف في تلك الحالة - إذا افترضنا أنهما حققا أي نوع من الاكتشافات - كان سيعزى
إليهما بشكل كامل. قالت:

- "كلا. إني سعيدة بانضمامك إلينا. إننا نثق بك".

قلت لها شكراً لك، قالت:

- "في الحقيقة، إني ممتنجة لحيثك. أتعرف أن الستير كان يعبد أخاه غوردون. وكان
الستير هو الذي ألقيني بالزواج من غوردون في الحقيقة. كان مصرراً على التحدث عن
فضائله والإسراف في إبرازها لكي يقنعني بأن التقي به.

وينبغي أن تعرف أنني كنت صديقة الستير في البداية".

- "لم يجرحه زواجك من غوردون؟"

- "أوه، كلا. لقد ابتهج بذلك. اتفهم ذلك؟ هذا الزواج قربه من غوردون أكثر - كان
معنى هذا أنه قد منح لغوردون شيئاً ذا أهمية حقيقية. على أي حال، إنما أردت أن أقول لك
في البداية أنني أظن أنه مال إلى أن ينظر إليك بنفس الطريقة التي كان ينظر بها إلى
غوردون".

- "ولكنه لم يعرفني إلا منذ أربع وعشرين ساعة".

- "لا يؤدي هذا إلى أي فرق. والشئ الغريب هو أنك على شيء من التشابه مع غوردون،
من الناحية الجسدية".

توقفت عن الكلام، وطلعت أن وجهها علاه شيء من الاحمرار. شربت جرعة كبيرة
من الجعة اللينة لكي تغطي احمرار وجهها. أدركت ما كانت تفكر فيه، وهو أنه إذا كان
الستير قد أهداها إلى غوردون، فإنني يجب أن أعتبر صاحب المكان التالي من بعده. غيرنا
الوضوع وتحدثنا عن دونيللي. وحينذاك تذكرت شيئاً كنت قد نسيت ذكره من قبل،

بضربة واحدة. كانت لكنيتها الألمانية اوضح من لكنة زوجها، ولكنني لن أحاول إبرازها هنا، ولن أحاول إبراز تكوينات جملها الغريبة. وضعت يداً على كتفي وقالت:

- "حسناً، لقد كنت أنتظر نافذة الصبر تماماً. فعند أن قرأت كتابك "اليوميات الجنسية" أردت أن أقابلك. هل لك أن تأتي معي قليلاً إلى حجرتي الصغيرة الخاصة". ثم التفتت إلى أنجيلا وابتسمت وقالت: أسمحين؟ أريد أن أتحدث إليه على انفراد. كلاوس سيفرحك على الحقيقة".

كانت دهشة أنجيلا أقوى من أن تسمح لها بالاعتراض. أما السيدة دنكمان فقد جلبت ذراعي بقبضة من حديد، ودفعني لصعود بضع درجات. التقت عيناي بعيني أنجيلا للحظة، فرفعت حاجبها وعضت على شفتها السفلى.

قادتني أنا - اسمها الأول الذي أصرت علي أن أدعوها به على الفور - إلى غرفة صغيرة مريحة كانت تفوح منها رائحة التبغ. في الخزانة الجانبية المفتوحة، كانت هناك ثلاث زجاجات سعة كل منها "غالون" تحتوي بالتتالي على مشروبات الجن والويسكي والبراندي. عرضت علي أن أخذ كاساً، ولكنني قلت أن الوقت مبكر جداً على الشرب. صبت لنفسها كاساً ضخمة من الجن، ثم ملأته حتى الحافة عصير الليمون الحامض، ثم أشعلت سيجارة وضعتها في "مبسم" للتدخين لا يقبل طوله عن قدم، وألقت نفسها على مقعد مريح ذو مسندين وقد صالبت ساقبها. وفي نفس الوقت، شعرت بالقلق وعدم الراحة لقدرتي على رؤيتها تفعل الكثير من الأشياء، ورؤية جزء كبير من جسدها في مثل هذه اللحظة الخاطفة والنظرة القصيرة، ذلك أن الأزرار القصير للصنوع من صوف التويد لم يكن يبلغ الطرف العلوي لجوربها الطويل إلا بصعوبة وهي واقفة. أشارت إلي للجلوس على المقعد المقابل لها الذي لم يترك لي فرصة سوى النظر إليها وتأملها.

٣٠. جل. إنك تتمتع بقدرية على النفاذ أكثر جداً مما يسمح به لشاب صغير. كم عمرك؟ حقاً؟ إنك تبدو أصغر بكثير. حينما قرأت كتابك قلت لكلاوس! "أه، لشد ما أسف لأنه لا يعيش في لندن. هناك الكثير الذي نستطيع أن نعلمه إياه". وهالانت الآن هنا لمدة يوم واحد! يا له من أمر شنيع! ماذا يمكنك أن تفعله في يوم واحد".

قالت لي أن كل كتبي تشهد بأنني أمتلك قدراً كبيراً من الذكاء، والحدس العظيم، ولكن التجربة هي ما ينقصني. "يجب ألا تشعر بالغضب إذا قلت لك أنك غير ناضج في جوانب كثيرة". قلت إنني لست غاضباً. حينئذ، ودون أن تكلف نفسها مشقة تفسير تحول مجرى الحديث، بدأت تتحدث عن مؤهلاتها الخاصة التي تسمح لها بتعليم الشباب. كان المفروض أن أصبح مدرسة مثل أمي. ولكنني لا أملك صبراً مع الأعداد الكبيرة من الطلبة. إن ما أربغ فيه هو اثنان أو ثلاثة من التلاميذ النجباء. إنني خلافة مبدعة، أفهم؟ لا بد ليدي من تشكيل الحجر والطين، ولا بد لعقلي من تشكيل الأرواح".

نظرت في عيني بطريقة نفاذة وقالت: "والآن أريد أن أسالك سؤالاً صريحاً. حينما تمارس الجنس مع امرأة ما، هل تستطيع أن تسيطر على ذروة نشوتك فلا تبلغها إلا بعد أن تعطيها كل ما تحتاج إليه من متعة؟"

فكرت في ديانا، ثم قلت إنني أضن أنني أفعل هذا.

- "كلا، كلا. ليس هذا ما أردت سماعه. إنما أردت إجابة مخلصة صريحة. يجب أن تفكر في اعتباري طبيببة - كما لو كنت طبيبتك النفسية..."

أخلت جرعة طويلة من الجن، وملت يدها لتأخذ سيجارة جديدة، وفكت تصالب ساقبها. كان من الصعب أن احتفظ بعيني مركزيين على وجهها. صرخت نظرها عني لحظة، ثم رمقتني بنظرة سريعة، وكان من الواضح أنها تأمل أن "تضبطني" وأنا أتفحص جسدها، ثم ألقت برأسها إلى الوراء فاستندته على وسادة للقعد، وأصبح وجهها مصوباً إلى السقف. وأغمضت عينيها. تساءلت إن كان في هذا الوضع نوع من الاختبار. كانت ترتدي سروالاً داخلياً ربما كان مصنوعاً من السيلوفان القرميز. وكانت تواجهني بقدميها اللتين رفعنهما على وسادة جلدية عن الأرض، وقد انفرج ما بين ركبتيها... كانت مؤخرتها وساقها جميلة. لكن الذراعين القويتين والكتفين العريضتين والشعر الرمادي، جعلتها تبدو كما لو كانت وحشاً أسطورياً، نصفه الأعلى من جنس يختلف عن نصفه السفلي. نظرت عامداً إلى ناحية اللهاة الخالية، وركزت نظري هناك. كانت تقول:

٣١. أحس أنك شخص بالغ الخجل يحاول أن يخفي تلك الحقيقة. في هذا أنت تشبه

كلاوس إلى حد ما. إن كلاوس هو ابني، بالطبع..

- "أينك؟" صدمتني الدهشة لسماعي ذلك.

- "ليس حرفياً. أعني أن علاقتنا هي علاقة أم بابنها. إنني الطرف الخلاق في العلاقة. الأرض الأم. مثل "أردا" عند هانكر. علاقتنا قوية جداً. إنني مدرسته. لو أنك سألته لقال لك إنه قد أصبح شخصاً مختلفاً منذ أن عرفني، أكثر عمقاً وأكثر حساسية. إنني أملك تلك القدرة على نقل مواهبي إلى أولئك الذين أحبههم. وحينما أقول "الحب" أعني بالطبع حب المدرسة للتلميذ، لأنه ليس هناك ما هو أعمق من هذا الحب..."

كنت ألقى عليها نظرة سريعة من حين إلى آخر، لكي أكتشف أنها قد غرقت في مقعدها أكثر، حتى أنها كانت تجلس في وضع الجماع على الظهر. ولكنها ظلت تتحدث دون علامة تدل على الحرج. كما لو كانت تقف في مواجهة صف من التلاميذ تناقش رسماً توضيحياً على اللوحة. لاح لي أن ما كانت تسأل عنه - بطريقة معقدة وملتوية - هو ما إذا كنت أود أن أنضم إلى كلاوس كواحد من تلامذتها، لكي أمتص بركات معرفتها وموهبتها الخلاقة. كانت تشرح لي الفرق بين ذهن الأنثى وذهن الذكر وذكائهما، حينما سمعنا طريقة رفيقة على الباب. تجاهلتهما واستمرت في الكلام. توقعت منها أن تضم ساقها، أو أن تعتدل قليلاً في جلستها على الأقل، ولكنها ظلت في وضعها دون حركة على الإطلاق. أطل كلاوس من الباب لينظر إلى الداخل.

- "هل ستأتين إلى الطابق الأسفل يا شانز؟"

- "بعد لحظة".

كان منظر ساقها المنفرجتين من المكان الذي نظر هو منه أقل قرباً إلى عيني. فقد كان بوسعي أن انحنى إلى الأمام فادس أصبعاً - ولكنه كان يستطيع أن يستوعب هذا المنظر كاملاً. لم تلج عليه الدهشة. قال:

"ربما أرادت السيدة الشابة أن تتناول كأساً هي الأخرى. وهذه الحجرة صغيرة جداً. حينئذ سمعت خطوات "السيدة الشابة" وهي تصعد الدرجات. كان علي أن أعجب بتوقيتها المناسب. للحظة، ظننت أنها كان تعني أن تظل ساكنة في وضعها لكي تسمح لأنجيلا بالانضمام إلى المتفرجين، ولكن قبل وصول خطواتها إلى الباب بنواً قليلة، تضاءلت، وضمت ساقها واعتدلت جالسة وقالت:

- "إذن، فلنذهب".

واتجهت إلى الباب، وناولت كلاوس ضربة مداعبة ولكنها قاسية على مؤخرته، وأشارت إليّ وهبطنا إلى الطابق الأسفل في "طابور" واحد. حينما وقعت عيناها على أنجيلا، قطبت تقطبية خفيفة، كما لو كانت تجد صعوبة في تذكر من تكون، ثم لاح عليها تعبير من استطاع أخيراً أن يتذكر وهو يقول لنفسه المتعب:

ذهبنا إلى حجرة أكبر وأوسع. أذاها أكثر طبيعية. قبلت كأساً صغيرة من الشراب وكذلك فعلت أنجيلا. ولدهشتي، أصبحت السيدة دنكلمان الآن ودیعة جداً مع أنجيلا. وربما كان ذلك لأن أنجيلا قالت أنها لم تقابلني إلا بالأمس فقط. سألتها كم من كتيبي قرأت؟ وحينما اكتشفت أن الإجابة كانت إلا أكاد أكون قرأت له شيئاً على الإطلاق، أشارت إليها بسبابتها اليمنى وقالت، "عليك أن تبداي قراءتها على الفور". وبذلك كانت أنجيلا قد لقيت القبول في القطيع بوصفها تلميذة، وسمعت محاضرة عن القدرة على الإبداع والخلق. جلس كلاوس في أحد الأركان، وهو يرشف ماء الصودا ("ليس من المسموح له أن يشرب فالشراب يجعله مسرف العاطفية") ودون أن يبذل أية محاولة للتدخل في الحديث. وحينما توقفت أنا عن الكلام لكي تأخذ كأساً آخر. طلبت منه أن يقص عليّ شيئاً عن كورنر. قال بسرعة،

- "إنني لا أنصحك بأن تهتم به أو تنزعج بشأنه. إنه "شارلتان" مهرج حتى "النخاع".

قالت زوجته، "ليس هذا القول عادلاً تماماً. إنني أوافق على أنه قد أصبح مهرجاً. ولكنه لم يكن كذلك دائماً". ثم وجهت كلامها إليّ، "هل تعرف شيئاً عن رايخ؟"

- "ليس الكثير".

- "كان علاماً سيكولوجياً عظيماً - في مثل عظمة فرويد. وقد آمن بأن الطريق الوحيد الفردي إلى خلق مجتمع صحي هو الحصول على أناس لا يعانون من أي كبت جنسي".

- "هذا يماثل ما جاء به فرويد".

"بالتأكيد، إن افكاري الأساسية تشبه تلك التي جاء بها فرويد إلى حد كبير، وخاصة مساهمته العلمية العظيمة في مجال معالجة الأمراض العصبية، لقد آمن بأن أنواع الكبت تشكل نوعاً من الصدقة أو المزاولة الصلبة فوق الشخصية، مثل السلحفاة، أتعرفها؟"

لوت وجهها التواءة شنيعة ورسمت بيديها حركة تشير إلى الذراع التي تحملها السلحفاة. أشارت إلى زوجها وقالت:

"حينما التقيت به أول مرة كان وجهه يشبه القناع - كانت كل عضلاته متوترة مندودة. كان من الضروري أن أعلمه كيف يسترخي استرخاءً كاملاً وأن يحب أعضائه التناسلية".

جفلت آنجيلا لسماعها التعبير الغريب، سألتها بحذر:

"بأي شكل؟"

"بأي شكل؟"

"إن يكون صريحاً وواضحاً في كل ما يتعلق بوظائفه الجنسية. كان من عادتنا في ستوكهولم أن نعقد اجتماعات للعلاج النفسي الجماعي. كان علينا أن نجلس دون أي بنظارات أو ثياب، وندير مناقشة فيما بيننا، نشرب القهوة، ويشجع الرجال على أن يلعبوا بأعضائهم التناسلية. تماماً مثل الأطفال. كان هذا رائعاً".

قال كلاوس بوقار:

"تعودت أن تأتي فتجلس إلى جوارتي، ثم تجلد لي عميرة بينما نحن نناقش مشاكلنا. كان في هذا تخفيف عظيم لكل التوترات. أن أعلم ألا أخجل من اللعب بالأعضاء التناسلية. حينما كنت صغيراً، كان من عادة مربيتي أن تضربني إذا لمست عضوي. وقد علمني رايش أن العضو التناسلي ليس سوى أداة للتواصل الاجتماعي، تماماً مثل اللسان أو اليد".

نفذ صبرانا لكل هذه المقاطعة، فضربت ذراع المقعدة بقبضتها وقالت:

"لو فهم الناس نظريات رايش فهماً صحيحاً، لكانت الحرب الأخيرة مستحيلة. لقد استخدم هتلر الكبت الجنسي كسلاح سياسي. إن الألمان هم أكثر الأمم كبتاً في العالم وهذا هو السبب في عدوانيتهم الشديدة".

سألتها، "وماذا من أمر كورنر؟ إلى أين وصل؟"

"إنه هو الذي نظم جماعات العلاج النفسي في ستوكهولم. إنه هو مبتكر فكرة الكبت الجنسي الجماعي وليس رايش. كان رايش ما يزال تلميذاً نجيباً صغيراً. أنت تعرف هذا النوع وفي ذلك الوقت كان ما يزال مصرراً على تلك الأفكار المجنونة حول الطاقة الأصلية العضوية، قائلًا أنها زرقاء اللون - وقال أن الطاقة العضوية الأصلية هي التي تجعل السماء زرقاء".

قال كلاوس بكابة،

"في هذا الوقت، أمانا بأن كورنر وحده هو الذي يحفظ التعاليم الحقة في نقائنا الأصلي. ولذلك فإنه حينما جاء إلى لندن، جئنا معه".

"وهل مضيتم في عقد اجتماعاتكم للتعبير الجنسي الذاتي؟"

"أجل، أكثر من ذي قبل. وكانت هذه هي المشكلة. كان رايش قد حذرنا من أننا إذا لم ننتبه بما فيه الكفاية، فإن هذه الاجتماعات لن تظل ذات قيمة علاجية، فنتحول إلى احتفالات جنسية صاخبة. ولكن كورنر لم يلق أذنًا صاغية لهذا التحذير. كانت تسيطر عليه فكرة معينة مؤداها أن يظهر الدافع الجنسي كان هذا هو تعبيره عن فكرته. قال أن الجنس يجب أن يتخلص من كل خجل. وعلى أي حال، فإن أكثر الحساسين من الناس مصابون بالخجل الاجتماعي، فإذا كان عليهم أن يقفوا على منصة مرتفعة وأن يخطبوا في جمهور محتشد، يصابون بما يسمى "الخوف من المنصة". إلا أنهم بسهولة يستطيعون التغلب على هذا الخوف، وحينما يتغلبون عليه يعبرون عن أنفسهم بحرية، دون خوف. لقد أراد كورنر أن يتغلب الناس على خوفهم الجنسي من المنصة".

كان قائل هذا الكلام هو كلاوس. كانت إنكليزيته أكثر طلاقة بكثير من إنكليزية زوجته. كانت آنجيلا تقطب حاجبيها، قالت:

- "ولكن ألا يكون من نتيجة الحرية الجنسية الزائدة كثيراً عن الحاجة تدمير كل ما

فيه من متعة؟"

- "كلا!" كذلك صاحبا في لحظة واحدة. أسكتت أنا زوجها بنظر صارمة، ثم استمرت

تقول في تصميم،

- "بالعكس، إن الخجل الشديد الذي يملك الناس هو الذي يمنعهم من أن يتعلموا

كيفية الاستمتاع بالجنس، برأيك لماذا كل هذه حوادث الاغتصاب وجرائم القتل

الجنسية؟ لأن هناك جدراناً سميكة بين الجنسين. يركب رجل سيارة عامة، وتكون هناك

فتاة جميلة، فيصبح مثل الثعلب مع الدجاجة، إنه لا يغتصبها لأنه ليست هناك فرصة

لذلك، وربما كان خائفاً من القانون. هذه ليست علاقة طبيعية بين الجنسين. المجتمع

كله حائض جنسياً. في مجتمع صحي، يستطيع أن يجلس إلى حوارها، وأن يقنعها بأن تجلد له

عميرة، دون أن يولي أي إنسان للأمر أية اهتمام. لم لا؟ أنت - "انطلق إصبعها فجأة نحو

أنجيلا، التي كانت تجلس متحنية إلى الأمام وقد وضعت معصمها على ركبتها - "لماذا

تجلسين في هذا الوضع؟ لأنك تظنين أنه وضع طبيعي. ولكنه ليس كذلك. إنك ترتدي

"تنورة" قصيرة لأنك تظنين أنها جذابة. لماذا لا تفتحين ركبتك في جسارة؟"

ابتسمت أنجيلا - وقد تراجعت قليلاً إلى الخلف - وحاولت أن تحول الأمر إلى

نكتة، وقالت:

- "إذا فعلت هذا فإنني قد اغتصب".

- "كلا ليس هذا منطقياً! لماذا ترتدي النساء "تنورات" قصيرة؟ لكي يثرن اهتمام

الرجال. إنك تلعبين مباراة مع نفسك لكي تنظري إلى أي حد يمكنك أن ترفعي "تنورتك" إلى

أعلى. ألا ترين ما يعنيه هذا؟ إنك تريدان استعراض أعضاءك التناسلية. ولكنك خائفة. إنك

تريدان أن تجعل الرجال يحذقون فيك، ولكنك خائفة من الاغتصاب. اليس هذا دليلاً على

أن ثمة خطأ في مكان ما؟"

بشكل تلقائي أمسكت أنجيلا بطرف "تنورتها" وجذبتها إلى أسفل. أكملت الأخرى

تقول،

- "أترين؟ لماذا ترتدينها إذا كنت تريدان أن تنزليها إلى أسفل؟ لماذا لا تجلسين هكذا؟

انحنيت في مقعدها إلى الوراء وفتحت ركبتها، حتى استطاعت أنجيلا أن ترى نفس

النظر الذي كانت قد رأيته في الحجرة الصغيرة الخاصة بالطابق العلوي. غضت أنجيلا من

بصرها، دون أن تضم أنا ساقيها ثانية، مضت تقول،

- "كلا! إن علينا أن ننمي وجود مجتمع متحرر تماماً من مخاوفه الجنسية ودون

رغبات محبطة مكبوتة. إذا أراد الشاب الذي يركب السيارة العامة معك أن يعرف إن كنت

ترتدين سروالاً أو مشدأً، فإنه يجب أن يسمح له بإلقاء نظرة ليتأكد".

تدخلت لكي ألفت الأنظار عن أنجيلا،

- "لماذا تقولين أن كورنر أصبح مهرجاً؟"

- "لأنه بنظرية مثل تلك، يمكنك أن تجذب كل الناس غير المناسبين الذي تدفعهم

كل الأسباب غير المناسبة. هذا هو ما فعله. إنه يقول بأن غرضه هو أن يعلم الناس الوصول

إلى النشوة الصوفية عن طريق الجنس. ولكن كل ما يفعله هو تنظيم حفلات للفسق".

كان من الصعب إيقاف هذا الفيضان من الكلام الذي استمر على هذه الصورة لمدة

نصف ساعة أخرى وبدأ لي ما قالتها في صورة فهم جيد إلى حد ما لبعض المشاكل النفسية.

من الحق أن أكثر الناس يسيطر عليهم هاجس جنسي من نوع ما بطريقة سلبية. ولكنني

حينما فكرت في ديانا وفي موبسي، وفي مكتبتني التي تحيط بها الكتب على الجدران من كل

جانب، طرأ لي أن هناك أشياء كثيرة أكثر أهمية من الجنس. ليست الطريقة المثلى لمعالجة

رجل يسيطر عليه هاجس الجنس هو أن أقول له أن يجلد عميرة في السيارات العامة، ولكن أن

أدفعه إلى أن يتعلم كيفية الاستمتاع بالموسيقى والأفكار والشعر. وحينما اقترحت ذلك

لأسرة دنكان، وجهت بانفجار من الاحتقار العاصف.

- "ليس هذا سوى ما دعاه فرويد بالإعلاء. إنه رفض لمواجهة المشكلة الحقيقية. إنك

تكبت مصدر المشكلة، ثم تتظاهر بالاهتمام بشيء آخر.

بدأت أشعر بنفاد الصبر. كانت الساعة - على أية حال - قد قاربت الساعة - وكان

لا بد أن يبدأ الستير في التساؤل عن مكاننا. قلت أن علينا أن نرحل. حاول أن يقنعنا بالبقاء

لتناول العشاء، ولكننا انتحلنا بعض الأعذار. قالت أنا أنها سوف تكتب إلي خطاباً طويلاً، وأني ربما أجد الفرصة لمساعدتها في إنجاز تأليف كتابها حول الحرية الجنسية للجميع.

وحينما وقفنا استعداداً للانصراف، سألت أنجيلا:

- "بالناسية، هل تعرفان شيئاً عن جماعة العنقاء؟"

هزت أنا كتفها وقالت:

- "وما تلك؟ جماعة مهووسة جديدة من الشبان؟"

كان من الواضح أن الاسم لا يعني شيئاً بالنسبة لها، لم تلح أنجيلا على طرق الموضوع. وعند الباب، قال دانكلهام:

- "إنك مغادر لندن اليوم، صحيح؟"

- "غداً".

- "أمل أن نلتقي حينما تأتي إلى هنا في المرة القادمة".

انحنى انحناءً يابسة، قلت:

- "يجب أن أكتب إلى البروفيسور كورنر".

قالت أنا: لن تكون هناك أية فائدة من ذلك. لقد أمرته الشرطة بمغادرة إنكلترا فعاد إلى ألمانيا".

- "أوه، إنني أسف لذلك. ولكن، لماذا؟"

قال كلاوس: لم يكن أكثر من صاحب بيت دعارة محترف".

في سيارة الأجرة، وفي طريق العودة إلى هولنديبارك، قالت أنجيلا:

- "من المؤكد أنك تبدو كما لو كنت قد قابلت أناساً يبعثون على الدهشة. من المؤسف حقاً أننا لا نستطيع أن نقابل الدكتور كورنر".

- "ولكن من المحتمل جداً أن تكون هذه طريقاً مسدودة. عليّ أن أعترف بأن دانكلمان قال لي أن كورنر كان أول من ذكر أيزموند دونيللي، ولكنني افترض ببساطة أنه كان قد قرأ كتابه "عن افتراع العذري".

تحدثنا عن أسرة دانكلمان. قالت أنجيلا:

- "لا أظن أنك على صواب في النظر إلى كلاوس باعتباره زوجاً ضعيفاً تسيطر عليه زوجته. لقد اجتاحني إحساس غريب جداً حينما نظرت إليّ أول مرة".

- "بأي شكل كان هذا الإحساس؟"

- "أحسست إحساساً فكهياً بأنه كان يريدني أن أفتح ساقي. لقد رايت الوضع الذي كنت أجلس به - حتى زوجته لاحظت ذلك".

- "إنني أظن - على أي حال - أنها نصف شاذة جنسياً".

- "ما كنت لأدهش من هذا، لم يسبق أبداً أن شعرت بمثل هذا الشعور السيئ الذي اجتاحني وأنا أتحدث معهما. هل لاحظت ذلك؟"

- "أي نوع من المشاعر السيئة؟"

- "حسناً - إنهما "قبيحان" جداً، وهما حقاً منفردان جداً حينما يتحدثان كل هذا الحديث عن الجنس. ومع هذا فقد كان لحديثهما - من جانب آخر - سحر من نوع خاص".

كنت أعرف ما تعنيه. فحتى ذهابنا إلى أسرة دانكلمان، كنت قد نظرت إلى أنجيلا ككونها شخصية تبعث على السرور إلى حد كبير، ولكن دون مزيد من الاهتمام الجنسي الذي يزيد عن شعوري إزاءها لو كانت شقيقتي. أما الآن وأنا أجلس إلى جوارها، فقد وجدت نفسي أنظر إلى استدارة نهدتها تحت الصدر الصوفي الأسود، وأشعر بأن عليّ أن أصعبت رغبتني في مداعبتها. كانت أنا دانكلمان قد دفعتني إلى هذا الشعور بشكل ما، بتوجيه الانتباه إلى أنجيلا باعتبارها موضوعاً جنسياً.

قالت فجأة: "أنا سعيدة لأنك كنت هناك"، وارتجفت وهي تتحرك لتصبح أقرب إليّ. كان من الطبيعي أن أضغ ذراعي حول كتفها. بعد لحظة، ارتفع وجهها نحو وجهي،

وكنيت قبلها بانفعال عاطفي حفلت أنا لقوته. كان الأمر مثل التهام ملء فم من الطعام، ثم تكتشف بعد هذا أنك جائع جوعاً وحشياً، تعانقنا بقوة متعلقين أحداً بالآخر، ولساني داخل فمها، ويدي تسحق النهد الذي كنت أنظر إليه منذ لحظة واحدة. لم تكن هناك مجرد رغبة بسيطة في ملاطفة جسدها، ولكن كانت الرغبة هي جرحها، عصرها، التهامها وامتصاصها. كانت متعلقة بي في استسلام كامل، وحينما تركت يدي إلى أسفل، ضاغطة بقوة على ضلوعها، ثم على معدتها، انفرج ساهاها (..) كنت في حالة حادة من التعب في جلستي، بعد أن وصلت إلى هذه النقطة، كان الأمر الطبيعي أن أخلع ما تبقى من ثيابها.. ولما كان ذلك مستحيلاً، فقد تحول جسدي إلى قضيب حديدي من الشهوة.

انحرفت السيارة مرتين متتاليتين لكي تتفادى سيارة أخرى كانت تندفع ناحيتنا باضوائها الباهرة. انفصل أحداً عن الآخر مثقلاً بالإحساس بالإثم.

قالت، "سفة".

- "لماذا؟"

- "كانت هذه غلطتي. لقد كنت أريدك أن تفعل هذا منذ غادرتنا منزل دانكلمان".

كننا ما نزال متعانقين، وكان قلبي ما يزال يضرب بعنف حتى كان من الصعب أن اتكلم. قالت،

- "لم أفعل هذا أبداً من قبل - ليس بهذا الشكل. لا أعرف إن كنت ستصدقني. ولكنني ظهريه متزمتة تماماً من الداخل".

قلت، بطريقة نصف تهكمية، "لقد نوماننا مغناطيسياً".

نظرت إلي بجديّة وقالت: أظن أن هذا يمكن أن يكون صحيحاً. إنني واثقة من أن لهما قوة غريبة من نوع ما. سوف أقول لك شيئاً يصدمك من الدهشة. لو أنني هناك بمفردي، لانتهيت إلى أن أمنح نفسي لهذا النفر كلاوس".

قلت ضاحكاً، "ولو أنني ظللت وحيداً في تلك الحجرة الصغيرة لمدة عشر دقائق أخرى، لانتهيت إلى ممارسة الجنس مع أنا".

- "ولكنها منقرة إلى حد مروع".

أخبرتها بما كان من جلوسها وقد فتحت ساقها، وكان صحيحاً ما قلته من أنني لو بقيت جالساً أمامها بمفردي لمدة خمس دقائق أخرى، لانحنيت إلى الأمام لكي ألسها (....) ومن المؤكد أنه كان من البلاء أن أرفض ذلك.

توقفت سيارة الأجرة خارج المنزل. قالت،

- "من الأفضل أن أرتب ثيابي".

أدركت ما كانت تعنيه. فقد كنت أتوهم أنا أيضاً أنني مهوش الشعر والثياب كما لو كنت قد نهضت من الفراش لتوي. دهعت الحساب لسائق السيارة بينما مرت بسرعة على شفاهاها بإصبع الأحمر وجرت الشط في شعرها على عجل.

فتحت أنجيلا الباب لفتحها، ودخلنا إلى الشقة. كان كل شيء ما يزال على حاله كما تركناه في الصباح. نادت قائلة، "الستير"، ولكن لم تسمع إجابته. هزت رأسها وقالت، "لا" وعرفت أنها لم تكن تعلق على غياب الستير، وضعت يدي على صدرها. قالت، ليس هناك وقت". ولكنني أدركت أنها لم تكن جادة. كنت ما أزال ساخناً مفعماً بوهج الشهوة الغريبة العنف، التي كانت تكون كالحمى. جذبت طرف الصدر الصوفي فنزعت من تحت وسط الأزوار ودفست يدي تحت الصدر. كانت ترتدي حمالة صدر، وبحركة جذب بسيطة عريت النهدين. أخذت الحلمة بين سبابتي وإبهامي ودعكتها. اندفعت إلى حضني وفتحت فمها مرة أخرى (....) وقلتها إلى غرفة النوم...

نادراً ما وجدت الجنس مدوخاً كالديوران بهذا الشكل. وأظن أنه لو ظهر في تلك اللحظة حشد كامل من المصورين عند الباب بآلات تصويرهم ذات الأضواء الخافتة، لظلنا على ممارستنا للجنس، عاجزين عاجزاً مطلقاً عن الفصل بين جسدينا. كان الإحساس الشبيه بالحمى ما يزال قائماً مضافاً على الغرفة جواً غير واقعي. بدونا كما لو كنا قد غرقنا في مياه العرق والإفرازات الرطبة... فكرت بأن الستير قد يدخل الآن في أية لحظة، ولكن كان هناك نوع من المتعة من التفكير بأن يراها شخص ما. ثم أصبحت اللذة أكثر حدة من أن تكبح أو تمنع من الوصول إلى ذروتها..

بعد عدة دقائق، رقدنا جنباً إلى جنب، وبدأ العرق يبرد. فتحت عيني ونظرت إليها، وتبينت مصدوماً أن أنجيلا هي التي كانت بجانبني، الفتاة الإسكتلندية الرزينة المحتشمة التي بليت لي في صورة الفتاة "اللطيفة" ولكنها ليست من النوع الذي أحبه. فتحت عينيها، ولاحظ أنها جففت عندما رأتني. وهجاء، تذكرنا معاً أن نصف ملابسنا ملقاة على الأرض في الحجرة الأخرى، وأن الباب كان مفتوحاً. نهضت وذهبت إلى الحجرة الخارجية لكي أجيء بالملابس. وحينما عدت كانت واقفة تشد سروالها الداخلي إلى وسطها. ذهبت إليها وقبلتها. أعطتني فمها بطريقة الية، كما لو كان تمنحني قبلة ما قبل النوم بشكل عادي كل يوم. ثم، كما لو كانت تتأسف على ذلك، وضعت ذراعيها حول عنقي. قالت:

- "ما الذي حدث لنا؟"

أدركت ما كانت تعنيه. لم يكن ذلك جنساً "عادياً"، الجنس الذي يمارسه شخصان قررا أن أحدهما يروق للآخر وأراد كل منهما أن يكتشف جسد صاحبه ويرتاده لنفسه. إنما كان نوعاً من النوبة العصبية، كما لو كنا زوجاً من الحيوانات. ولكنني كنت الآن "مستر سورم" مرة أخرى، وكانت هي قد عادت فأصبحت لادي أنجيلا جليبي، وكنا شخصين راق كل منهما للآخر، ولكن لسنا عاشقين، بالطبع، فيما عدا أنه كان من المستحيل بالنسبة لنا ألا نكون مدركين أن كلا منا قد أفنى نفسه في جسد الآخر منذ قليل.

قالت هجاء، "يا إلهي، لقد نسيت. هذه أسوأ فترة من الشهر".

وضعت يدي برقة على معدتها، قلت: "إذن فمن المحتمل أن يكون هناك سورم صغير هنا بالداخل".

- "هذا محتمل".

- "هل يزعجك هذا؟"

ضحكت هجاء.

- "كلا. لا أظن ذلك".

دق جرس التليفون. كان الستير هو المتكلم، ليقول أنه يحتسي كاساً مع بعض أصدقاء دراسته، وأنه لن يعود إلا بعد ساعة أخرى.

دخلت أنا وأنجيلا الحمام وتحممنا معاً. أحسست بأنني منتعش رطب الجسد بشكل غريب، مسرخ تماماً. وفي كل مرة نظرت إلى أنجيلا، عانيت صدمة واهنة كما لو كان ما حدث مجرد خيال جنسي حدث داخل رأسي فحسب.

بعد نصف ساعة، وبينما كنا نجلس متقابلين أمام جانبي المدفأة. نحسسي كؤوس الفودكا، قالت:

- "أظن أنهما وضعنا لنا شيئاً في كؤوس الشرب".

"آعنين عقاراً مثيراً للشهوة الجنسية؟ لا أظن هذا. إن للندابة الإسبانية تأثيراً مزعجاً ومنبهاً للعصارة العوية - وقد ذقت شيئاً منها في الجزائر".

- "ولكنك بالتأكيد لا تعتقد أن للنبيه هنا كان نفسياً. اعتقد ذلك؟"

قلت: "سأقول لك ما اعتقدته. اعتقد أن كلاوس أراد أن يمارس معك الجنس، وأنها أرادتني أن أمارس الجنس معها. ولو أننا تناولنا العشاء معهما، لانتهى كل منا إلى الفراش مع صاحبه. ولكن ما حدث، وأيا كان ما فعله بنا، هو أنهما جعلانا يرغب كل منا في الآخر".

وحينما عدت بذاكرتي لكي أفكر في عنف وسخونة ممارستنا للجنس، عرفت أنه كان على شيء من الغرابة.

قالت: "إن هذه الغرابة تجعلك تتساءل عما إذا كان هنالك حقاً شيء ما في تلك القصص التي تحكى عن تمانم الحب - مثلما قبل في أسطورة تريستان وإيزولده، وما إلى ذلك؟"

- "لقد عرفت رجلاً بوسعه أن يقول لك - رجلاً يدعى كارادوك كينينجهام".

- "أجل، إنني أسمع عنه. لقد قرأت كتابك. ولا أظنني أحب أن أقابله".

حينما جاء الستير بعد نصف ساعة، كانت تطهو وجبة طعام، وكانت الشقة مفعمة برائحة الخل والنوم. قال:

- "أرجو ألا تكونا قد سئمتما من الضجر بدوني".

قالت أنجيلا، "كلا، لقد وجدنا الكثير مما نفعل".

"تفعلان؟"

"أعني مما نقول ونتحدث عنه".

كان ينكت بالطبع؟ كان يعرف أنه لا أنجيلا ولا أنا من النوع الذي يمكن أن يقع في

حب الآخر في خلال ساعات من اللقاء الأول.

- ١٧ -

□ في الليل، انتابتني أحلام مزعجة لا أستطيع تذكرها. ولكنني حينما استيقظت كنت أيزموند مرة أخرى. كان هذا هو أغرب ما أحسست به حتى ذلك الحين، كنت قد شربت قدرًا كبيرًا من عصير التفاح الخمر بعد العشاء، ورغم أنني لم أسكر أو أفقد وعي الحقيقي، إلا أنه انتابني ذلك الإحساس بالانفصال البسيط عن الواقع، وباللامعنى. ومن الجانب الآخر، كان أيزموند مستيقظًا بقطة كاملة. بالنسبة له، بدت هذه الحجرة ذات السقف المرتفع مألوفة بشكل كاف، وكان العنصر الذي يسبب له قدرًا بسيطًا من عدم الفهم هو صوت سيارة ركوب أو شحن عابرة تجري على طريق هولاند بارك. كان إحساسي بالعودة إلى القرن الثامن عشر أكثر قوة مما كان في دبلن، ربما لأنه لم تكن هناك عناصر تشتتت في وسط الظلام. غرقت في النوم مرة ثانية، وغصت في أحلام مشوشة عن هوارس والبول، وليتشينبرج وبوزويل وجونسون. وعندما استيقظت في الصباح، كنت أذكر جونسون بوضوح تام وهو يقول مؤكداً بقوة - وهو ينثر الرذاذ بشفته السفلى الكبيرة للتدلية، "إن الرجل متشرد محتل وغد شرير يا سيدي، ولسوف تحسن صنعاً لو أنك تجنبته تماماً".

أخذنا طائفة في الحادية عشرة والنصف، فوصلنا أدنبرة بعد ساعة ونصف. تناولنا طعام الغداء في غرفة خلفية بإحدى الحانات مع الدكتور دافيد، سيميلي، أستاذ أنجيلا، وهو رجل ضئيل الحجم له وجه كوجه كلب صيد صغير. كان قد كتب ذات مرة

عرضاً شريزاً بشكل خاص لأحد كتبي، ولذلك فقد ابتسم بخنوع وهو يقدم إلي، ولكنه حينما أشار إلى الموضوع إشارة متعمدة، تظاهرت بأنني لم أقرأ المقال وأن علاقتنا طيبة بشكل كاف. لم تكن بي حاجة إلى أن أتحدث كثيراً - فقد أراد كل من أستير وأنجيلا أن يخبراه بكل ما يتعلق بأيزموند دونيلي وباكتشافاتي. أنصت بأدب لبرهة، ثم قال:

"أخشى أن أقول أنني لا أرى السبب الذي يجعلك تنظر إليه بكل هذا الاهتمام. إنه يبدو لي كما لو كان اتفاقاً نموذجياً من أواخر القرن الثامن عشر. هل حدث أبداً أن فكر في أي شيء آخر باستثناء الجنس؟"

نظرت أنجيلا إلي، وأظن أنها كانت تميل إلى الموافقة. قلت:

"بمعنى ما، كلا. وبمعنى آخر، فإن الجنس لم يكن يهمهم على الإطلاق".

قال بخبت: "ليس هذا هو ما يدعى بالتحايل الشرعي على القوانين؟"

لم يكن متعاطفاً أو لطيفاً، ولكنني قررت أن أحاول الشرح. قلت:

"كلا. إنما أرى أيزموند كرجل تملكته وسيطرت عليه مشكلة المعنى".

"معنى ماذا؟ الوجود الإنساني؟" تذكرت أنه كان قد كتب عدداً من التعليقات الحادة المرفوعة النبذة في مقاله عن كتابي حول ما دعاه بأنه "هاجس العجز الديني المتسلط علي". ولكنني أرت أن أوضح الموقف للآنئين الآخرين، قلت:

"إنها مسألة إما أن تفهم أو تعجز عن الفهم. بالنسبة لي، إنها مشكلة واضحة في حد ذاتها. أحياناً تبدو الحياة مثيرة للاهتمام بشكل واسع وعميق مفعم بالمعنى، فيبدو هذا المعنى حقيقة موضوعية، مثل ضوء الشمس. وفي أحيان أخرى تبدو عقيمة خالية من المعنى مثل الريح. إننا نقبل هذا الخواء من المعنى، هذا الانتهاء في وجوده، مثلما نقبل تقلبات الطقس. إنني إذا استيقظت مصاباً بالصداع أو بنزلة برد سيئة، فإنني أبدو كما لو كنت غير قابل لإدراك أي معنى. والآن، إذا استيقظت وأنا مصاب بصمم حقيقي أو وأنا نصف أعمى حقاً، فإنني ساحس بأن ثمة خطأ ما في جسدي وسوف أذهب لاستشارة طبيب. ولكنني إذا كنت غير قابل لإدراك أي معنى، فإنني أقبل هذا الوضع كما لو كان شيئاً طبيعياً. ولكن أيزموند لم يقبله كشئ طبيعى. وقد لاحظ هو الآخر أننا في كل مرة نستشار هبها

جنسياً، يعود إلينا المعنى. يمكننا حينذاك أن نسمع من جديد. هكذا فقد ألح في طلب الجنس باعتبارها سبيلاً لاستعادة المعنى".

سألت أنجيلا، "وماذا من أمر هوراس جليبي؟"

- "كلا. إنه لم يكن مهتماً ببحث أيزموند عن المعنى. لقد أعجب بأيزموند، ولكنه لم يفهمه".

ظل سيميلي على عدم الفتناعه وقال: "إنني وقد قرأت كتابه "عن افتراء العذارى" فإنني لم أجد شيئاً يمكن فهمه". قلت:

- "إنني لا اعتقد أن أيزموند كتب هذا الكتاب".

- "لم يكتبه؟ إذن من كتبه؟"

- "لا أعرف. ولكن أسلوبه ليس أسلوب أيزموند".

هز كتفيه كما لو كان يقول أنني أستطيع أن أغرق في أي نوع من الخيالات يروق لي، ولكن هذا ليس من شأنه. قلت:

- "هل حدث أن رأيت التاريخ المكتوب على الطبعة التي قرأتها؟"

- "بالطبع. كان ١٧٩٠".

أثارتني هذا. كانت الطبعة التي رأيتها في غالوي قد طبعت في لايبزيغ عام ١٨٣٠.

- "من الذي طبعها، وأين؟"

- "لم يذكر اسم الطابع. ولكن قائمة الجامعة تقول أن الكتاب طبع في مطبعة خاصة في أدنبرة".

- "أنت واثق من هذا؟"

- "ليس من عادتي أن أخلط بين ما أقوله من حقائق". تذكرت أن هذه كانت واحدة أخرى من لمزاته القارصة لي، وهكذا فقد تجاهلت الموضوع. ولكن الأدب والمجاملة اللذين

أبديتهما وأنا أضافه منذ نصف ساعة مضت لم يكونا قد وهنا تماماً. هكذا اتضح جزء آخر من اللغز وطرح سؤاله الجديد. وبدأ أحد الشكوك التي كانت قد راودتني من قبل يظهر في صورة أقل عبثية، لأنه إذا افترضنا أن كتاب "عن افتراء العذارى" كان مزيفاً ومنحولاً، فمن الممكن أن يكون قد كتبه؟ من الواضح أنه شخص كان يهتم بأن يظهر أيزموند في صورة الأفاق كاتب أدب الدعارة. من السهل أن نفترض أن الكاتب هو جيلبرت ستيوارت، الذي كان على علاقة ودية مع هوراس جليبي، والذي كانت له مصلحة في أن يطلع سمعة أيزموند بالوحد. ولكنه كان قد مات في عام ١٧٨٦. وهذا يدفعني إلى التفكير جدياً في مرشح واحد فقط لتأليف الكتاب، وهو جليبي نفسه. وإذا كان كتاب "الافتراء" قد طبع في أدنبرة، فإن التفكير يصبح قوياً إلى أقصى حد.

كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر عندما غادرنا أدنبرة أخيراً في سيارة استأجرناها وشرعنا في مسيرتنا الطويلة نحو الشمال - وهي مسافة تكاد تبلغ المسافة بين لندن وأدنبرة نفسها. قطعنا السير في مدينة بيتلو شيري، وغادرناها في ساعة مبكرة من الصباح. وفي الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم كنا نقطع المرحلة الأخيرة من رحلتنا، وهي المسافة من بلدة دورنوش إلى جلوسبي. كانت المروج البرية الواسعة ومناظر البحر المفاجنة شديدة الوقع، ولكن الشيء الذي شغل أفكاري حقاً هو المجهود الخالص الرامي إلى استعادة نفس هذه الرحلة في عام ١٧٧٠، في عربة متارحجة، فوق طرق كانت أحسن قليلاً من "الدقات" الزبانية القنطرة. من المحتمل أن أكثر قاطني جلوسبي لم يسافروا إلى أبعد من دورنوش أو أينفرنيس. فلا عجب إن كان هوراس جليبي موضع كل هذا الإعجاب بعد عودته من رحلاته الأوروبية. توقفاً في القرية للاتصال بفرانكلين ميلر - المالك الجديد لمنزل جلوسبي - ثم اتجهنا إلى الشمال الشرقي. يقع قصر جلوسبي فوق منحدرات جبل بين هورن، مطلاً على بحيرة لوش برورا. وبينما كنا نقطع هذه المرحلة القصيرة الأخيرة من الرحلة، حاولت جاهداً أن استرخي، وأن أراها بعيني أيزموند، ولكن لم تكن ثمة جدوى، كان الأمر كله بالغ الغرابة. سطعت ومضة من التعرف كالدكرى وأنا أنظر إلى الميدان والمنزل الرمادي. ولكن كان من الممكن أنني أخدع نفسي.

كان هناك عدد كبير من الدعامات الخشبية مرتفعة أمام واجهة المبنى، ومن الواضح أن المالك الجديد كان يصلح المنزل. كان الطريق الخاص المؤدي من الشارع العام إلى

البنى قد أعيد رصفه، وبنت أحواض الحديقة في حالة جيدة. كان من الممكن أن يكون فندقاً فخماً غالباً.

كان فرانكلين ميللر رجلاً ضخماً الجسد ودوداً بدا كما لو كان قد ولد لكي يكون مالكاً من ملاك الأرياف. وبدا مبتهجاً حقاً لـ "حصوله" علينا ضيوفاً في منزله الجديد. قادنا إلى المكتبة الضخمة، حيث كانت مدفاة ضخمة - تعمل بكتل الخشب - مشتعلة بنار كبيرة. قبلنا كؤوس الشراب، وقابلنا مسز ميللر التي رجتنا أن نبقى عندها أطول مدة ممكنة. بعد أن تمشيئنا حول الحديقة وهبطنا إلى جانب المنحدر الملحق بالقصر، سألت إن كان بوسعنا أن نمضي ساعة قبل العشاء لنلقي نظرة على الطابق العلوي الغلق (السقيفة) حيث كان أستير قد رأى رزماً من الأوراق القديمة. قال لنا مضيفنا أن تعامل المنزل كما لو كان مالكة لم يتغير أبداً، وخرج لكي يرى ما كان عماله يفعلون.

قال أستير: "إنني أعرف أين يجب أن نبدا. يجب أن ننظر إلى كتاب العائلة المقدس. إنه يضم قائمة بتواريخ ميلاد وموت كل من عاش من أسرة جليبي في جلوسي".

كان الكتاب المقدس في المكتبة. موضوعاً فوق رف مرتفع - كان مجلداً فخماً، ذا غلاف من الجلد اللامع، كان وزنه ما لا يقل عن خمسين رطلاً. كانت نسخة من "الكتاب المقدس العظيم" - طبعة غرانمر التي صدرت في ١٥٣٩. وخطر لي أنها يمكن أن تساوي مثلما دفع في منزل جلوسي نفسه، ولكنني لم أحب أن أقول ذلك. كانت الصفحات الست في نهاية الجلد مغطاة بكتابات صفحة بعد أخرى في خط كالخريشة لا يقرأ، كتب بحبر ذوى لونه وبهت، بدأت باسم إسكندر جليبي، الذي مات في عام ١٥٧٩ (قبل أن يغادر شكسبير بلدة ستراتفورد أون أفون) والذي كان من الواضح أنه نال مرتبة فارس من الملك هنري الثامن. كانت أسرة جليبي قد رفعت إلى مرتبة النبالة على يد جيمس الأول. وفي بعض الأحيان كانت تتلو الأسماء أسباب الموت، "حمى"، "تسمم كحولى"، و"خصر مكسور" (أياً كان معنى ذلك). كانت هناك سطور تعليقات عديدة بخط تعرفت فيه على خط هوراس جليبي. كان اسمه متبوعاً بتاريخين: ١٧٤٧، ١٧٩٦، ولكن لم يكن هناك ذكر لسبب الموت. مات والده في عام ١٧٧٨، فأصبح أخوه موراي هولورد جليبي. وقتل موراي بسبب "السقوط من فوق ساري"، (هل كان يقصد "ساري" للوخزة في سفينة؟) في عام ١٧٨١، مما أدى إلى أن ورث أخوه الأصغر لقب الأسرة.

كان في هذا بعض العون على الأقل، فقد عرفت ساعتها تواريخ ميلاد وموت هوراس جليبي على وجه الدقة. ولكنني لم أعرف سبب موته. سألت أستير إن كان يستطيع أن يتذكر الغرفة التي قيل له أنها "غرفة القتل".

"أوه، أجل، الطبع. قادني إلى خارج المكتبة، وصعدنا السلم الرئيسي، وعلى طول ممر بين بعض الحجرات. طرق الباب، ثم فتحه. كان من الواضح أن الحجرة الآن هيئت لتكون غرفة نوم الضيوف، كانت تطل على المنحدر، وكان أحد العمال يصفر على "السقالة" خارج النافذة.

قالت أنجيلا: "بالتأكيد لم تكن هذه هي الغرفة التي أطلعني عليها غوردون كانت الأخرى في الجناح الآخر".

وبعد بعض التردد عثرنا على الغرفة الأخرى. كانت تطل على القسم الخلفي من المنزل، وكانت النافذة تؤدي إلى مسقط عميق يؤدي إلى فناء صغير. كانت حجرة عارية باردة، ولم يكن أحد جدرانها يحمل أي شيء من الزخرفة أو التجميل. كان حجر الجرانيت قد سحج حتى أصبح مسطحاً ناعماً. أشارت أنجيلا إلى أثر طولي بني اللون جرى فوق ذلك السطح حتى بلغ الأرض وقالت: "قال لي غوردون أن هذا الأثر كان لبعض الدماء - وإن القتل كان يرفد على السرير حينما أطلق عليه أحدهم النار من النافذة".

كان هذا ممكناً، وقد بدا الأثر كما لو كان أثراً للدماء فعلاً. ومن جانب آخر، بدا لي أنه من الأمور البعيدة الاحتمال أن ينام سيد المنزل في حجرة بهذا الشكل. وكان الأكثر احتمالاً أن أثار الدم هي التي أدت إلى خلق قصة عن جريمة قتل.

ثلاثة منعطفات أخرى من الدرجات قادتنا إلى السقيفة العلوية التي وجدناها مظلمة ومترية حتى اضطر أستير أن يهبط ثانية لكي يستعير مصباحاً. جلست أنا وأنجيلا فوق صندوق ادراج قديم، بعد أن نفخت الثراب بمنديلي. كنا متعبين، فقد كانت الرحلة طويلة وكنا بحاجة إلى راحة طيبة تلك الليلة. وضعت ذراعي حول كتفيها، فمالت برأسها وأسندته على كتفي. تركت خدي يستريح على شعرها وأغمضت عيني. كان المكان بالغ الهدوء، ولم يكن ثمة صوت سوى هسيس الرياح إذ تصطدم بجواف الجدران العليا بالخارج، مصحوبة بسقسقة طائر بعيد. كان إحساسي بدفئها ملاصقاً لي إحساساً ممتعاً. وفجأة

ودون مقدمات، تذكرت. أو بالأحرى، تذكر أيزموند. كانت رائحة التراب مالوفة، كذلك كانت رائحة شعر أنجيلا. تحققت من الخطأ الذي لم أتبينه من قبل. فإننا حينما نرى أياكنا جديدة بالنسبة لنا، يجدها العقل غريبة، فيبدل "مجهوداً" لكي يحيط بها من أجل أن يتواءم معها ويقبل بوجوده داخلها. وهذا المجهود هو ما يدمر الألفة الغريزية للذاكرة. كنت شديد التلهف إلى دخول خزانة هذا المنزل، لكي أتذكره، حتى إنني كنت أختلق انطباعاتي عنه اختلاقاً. والآن، للحظة، كففت عن النظر إليه باعتباري غريباً، استرخيت وشعرت كما لو أن صورة قديمة قد طبعت نفسها بقوة فوق انطباعاته الجديدة عن المنزل. ثم امتزجت معها. كنت أعرف هذا المكان، كنت أعرف المنحدر والتلال ومنظر البحر البعيد تحت الوادي. وكنت أعرف أيضاً أن أنجيلا كانت على صواب. لم تكن الحجرة التي رأيناها منذ لحظات هي الحجرة التي قتل فيها هوراس جليبي. ولكن أنجيلا كانت مخطئة في نقطة واحدة، إنه لم يطلق عليه الرصاص. لقد طعن بنصل حاد. شعرت بيقين عجيب من هذا.

عاد أستير يجبر وراءه حبلاً طويلاً من السلك الكهربائي وواحداً من تلك الأقفاص العنكبوتية المزودة بمصباح في داخلها والتي يستخدمها مصلحو آلات السيارات. وصلنا طرف السلك بنقطة توصيل كهربائية في الطابق الأسفل، وعلقنا المصباح داخل قفصه فوق دعامة خشبية منخفضة في سقف السقيفة. ثم أخذنا في مسح المكان. لم يكن ثمة شيء واضح أكثر من أن هذا المكان لم يطأه إنسان منذ سنوات. ولم يستطع أستير أن يتذكر أنه قد بحث فيه عن شيء حتى في طفولته. كان كل شيء غارقاً تحت عدة بوصات من التراب مع نوع من الزغب المندوف، وكان نصف السقيفة مغلفاً بواسطة سلسلة متتالية من نسيج العنكبوت التي جللها التراب حتى صنعت ستارة كثيفة عازلة. (وكنتم دائماً أتعجب من كيفية ملاحظة العنكبوت على حياته في الأمكنة المغلقة). ولكن كان هناك الكثير - بوضوح - الذي لا بد من استقصاء حقيقته، بما في ذلك كومة من الغلابين الكبيرة المحطمة. مع كل خطوة نحر كناها كان التراب يغزو أنوفنا. حطمت نسيج العنكبوت بمحرك مدفئة معدني قديم، ونظرت إلى القسم الثاني من السقيفة. كانت هناك كل أنواع الصناديق والعلب الورقية وأكوام من دفاتر الحسابات وحزم الأوراق. حاولت أن أهلك إحدى تلك الحزم، فبدأت الأوراق تنهشم تماماً كما لو كان الورق الذي صنعت منه قد جفف بالنار. وكانت حزم أخرى غارقة في نوع من الطلاء الزيتي جعلها مستحيلة القراءة.

بعد نصف ساعة من هذا البحث أصبحنا جميعاً في غاية العطش ورحنا نعطس مرة كل دقيقة. صعد أليسا فرانكلين ميللر لكي يستقصي أمرنا، ونظر حوله لمدة دقيقة أو اثنتين ثم انصرف وهو يقول: "الأفضل أن تبحثوا أنتم، لا أنا". وأخيراً قال أستير: "أظن أنني ساهبط إلى الطابق الأرضي لأشرب زجاجة من البيرة. هل يأتي أحدكم؟" قالت أنجيلا: "أنا آتية معك"، ولكنني قررت أن أبقى هناك لفترة أخرى، ولكن خمس دقائق كانت كافية. بدأت أفكر باشتياق في قدح من الجعة كبيرة وبارد في الحانة المحلية. كانت عيناى تدمعان، وكان صبري ينفذ بسرعة، حتى إنني كنت كلما تحركت أثرت معي قدراً من الغبار والتراب لا ضرورة لمزيد منه. شعرت كما لو كنت بحاجة إلى حمام جيد. وكما لو كان شعري قد امتلأ بعناكب صغيرة خرجت لتوها من بطن أمها. وبعد أن جذبت درجاً هائل الحجم من قلب خزانة، وكافحت من أجل أن أصل شريطاً جليداً ربطت به إحدى الحزم وتجمدت حتى صار في صلاية الفولاذ، تحركت إلى الباب الواطئ لكي أستنشق بعضاً من الهواء النقي. جلست عند الباب، أثناء، وأفكر في أنه إذا كان أيزموند ينوي أن يساعدني فإن الآن هي اللحظة المناسبة لتلك المساعدة. سار عنكبوت فجأة على عنقي، فوقف على قدمي مجفلاً حتى أنني ضربت رأسي في إحدى الدعائم الواطئة، فجلست على الأرض وراحت الأضواء تراقص ملتعة وخابية أمام عيني. جلست في مكاني محملاً بانزعاج في العنكبوت الذي تعلق قارباً بخيط طويل متدل من فجوة صغيرة ثبت فيها شيء مثل توصيلة كهربائية قديمة علقت في السقف بمسمار كبير. تسلفت السلم هابطاً، وجسدي يحتك بالحاجز هابطاً نحو الأرض وأنا أنظر بجدس إلى رجل يصيد السمك من قارب في البحيرة القريبة.

مددت يدي إلى أعلى لكي أقطع التوصيلة الكهربائية التي كانت تضيء السقيفة، حينما خطرت الفكرة فجأة على ذهني. إذا لم تكن هناك إضاءة في السقيفة، لماذا كانت هناك تلك التوصيلة الكهربائية التي تعلق بها خيط العنكبوت؟ صنعت السلم ثانية. وتناولت منفضة، ونفضت نسيج العنكبوت الذي كان يغطي مساحة الورق المفروود. ونظرت نظرة أكثر تدقيقاً، فعرهت السبب الذي جعلني أخطئ فأظن الشيء الذي رأيته توصيلة كهربائية. كانت مساحة الورق صندوقاً كبيراً رسمت على ظهره رسوم دقيقة، ويحتوي على عدد كبير من الصناديق الصغيرة التي ربط بعضها إلى البعض بخيط واحد. كان على كل صندوق حروف كتبت فوق ظهره، وعلى أحد جوانب كل صندوق كانت هناك

قائمة أخرى من الحروف الأبجدية التسلسل، وهناك كتابة أمام كل منها. لم أكن أعرف ماهية تلك الصناديق وأنا أحملها إلى أسفل، كان حنسي يعمل مرة أخرى. كان التراب كثيفاً عليها حتى عجزت عن قراءتها في هذا الضوء اللعتم، هبطت إلى الطابق الأسفل، ونفضت عنها التراب بعناية مستخدماً منديلاً، وأخذتها إلى قرب النافذة. وقد كانت "رسماً" توضيحياً للسقيفة نفسها. ولو أنني فكرت فيها بعناية منذ رايته، أو لو أنني فكرت في السقيفة نفسها منذ أقيمت عليها نظرتي الأولى، لكنت قد لاحظت أن الخزانات المختلفة والحزم الموجودة في السقيفة كانت موضوعة بطريقة مرتبة ومنظمة توحى بأن شخصاً ما قد وضع هذا النظام، وأياً كان الشخص الذي رتبها فإنه قد صنع أيضاً هذا الرسم كدليل لن يريد البحث عن أي شيء فيه.

سمعت الستير ينادي: "الن تهبط الآن يا جيرارد؟ سيعد العشاء بعد نصف ساعة".

قلت: "من كان الشخص الذي اسمه ج. راليون؟"

"جورج راليون؟ كان شيئاً كالساعد العام هنا في زمن حدي. وقد عاش حتى بلغ الواحدة والتسعين وهو يسكن منزل البوابة. ماذا؟"

أريته الجانب الآخر من الرسم. كان التوقيع الواضح يقول: "ج. راليون". جريت بإصبعي حتى توقفت عند حرف "ك"، "أوراق، ل، حتى ٩. لورد جليبي" كان هذا هوراس جليبي. قلبت الورقة إلى الزاوية المقابلة. كان "ك" موجوداً في الركن القصي من السقيفة.

تبين أن "ك" كان خزانة ضخمة من الصفيح أو الصاج، وكان المقيض قد علاه الصدا حتى أصبح فتحه عسيراً. فتحناه عنوة بالاستعانة بمحراك اللدفاة. كان مزدحماً مشوشاً بكراسات الحسابات، والخطابات والأوراق السائبة، فاما أن أحداً قد عبث به منذ عهد "ج. راليون" وإما أن محتوياته قد وضعت دون محاولة لترتيبها بالداخل. فتحت خطاباً. وكان يبدأ: "عزيزتي ماري" وبدأ من الضموم أن الخطاب كان حول مشكلة عائلية عن بيع أحد المنازل في كيلفورد. دفعت يدي في الخزانة، وفتحت عدداً آخر من الخطابات عشوائياً. كان أحدها موجهاً إلى ميس هيونا غوتري، وكان يبدأ: "عزيزتي ميس غوتري" وينتهي بعبارة: "المخلص الذي يحترمك". كان هذا مؤرخاً في أغسطس عام ١٧٦٦، وموجهاً من

غوتريين - وهذا معناه أنه أرسل قبل شهر قليلة من الأحداث التي وصفها في خطابه إلى أيزموند.

حاولت أنا والستير أن نحمل الخزانة لنهبط بها السلم ولكنها كانت ثقيلة جداً. فقررتنا تركها في مكانها، وسرنا شاعرين بالانتصار فهبطنا إلى حجرة الطعام للإعلان عن الاكتشاف، فأثرنا من الانفعال ما كان مكافأة معقولة ومؤقتة لي. تركتهم بعد قليل وصعدت ثانية لكي أفحص الخزانة، بينما كنت احتسي كاساً من الجعة الثلجة، ثم ذهبت لكي أستحم. وحينما عدت إليهم، كانوا قد كوموا حزمًا من الأوراق والملفات على بساط اللدفاة، وكانوا ينظرون إلى ما فيها. نظرت إلى ما تم العثور عليه، ولكنني لم أجد شيئاً ذا أهمية.

تأخر العشاء نصف ساعة. فأكلنا كميات كبيرة من شواء الحجل وطيور الغاية وشربنا نبيذ بوجوليه، الأمر الذي جعلنا جميعاً نشعر بالنعاس، فذهبنا إلى الصالون لكي نشرب القهوة ونشاهد التلفزيون. في التاسعة والنصف سألت إن كان بوسعي أن أستخدم التليفون، وأني لم أكن قد اتصلت بديانا منذ تركنا لندن.

كان الخط التليفوني جدياً، فكان بوسعي أن أسمعها كما لو كانت على بعد ميل واحد. أخبرتها بما جرى - عن أنني قد عثرت على شيء من أوراق جليبي، ولكن لا شيء يمكن أن يُعد بشيء كثير. سألتها إن كان لديها أي أخبار.

"ليس الكثير. هناك خطاب من فتاة تريدك أن تذهب لكي تعيش معها في ميامي، وخطاب آخر من رجل يريدك أن تُولف كتاباً تحمل فيه على العقول الإلكترونية. وهناك خطاب قصير من رجل يدعى كورنر يقول أنه يجب أن يراك حينما تذهب إلى لندن في المرة القادمة".

"كيف تتجهين هذا الاسم؟"

"ك - و - ر - ن - ر".

صحت: ماذا؟ ما اسمه الأول؟

"لا أتذكر، هل أبحث عن الخطاب؟"

- "أجل، أرجوك".

عادت بعد دقائق قليلة، وفرات لي الخطاب. كان المرسل هو أوتو كورنر، الرجل الذي قالت لي أسيرة دانكمان أنه أبعد عن البلاد. كان يعيش في ويست هامبستيد. قال أنه قرأ خطابي عن إيزموند دونيللي في الملحق الأدبي للتايمز، وأنه يود أن يتحدث معي بشأنه، وكتب رقم تليفون في النهاية.

حينما أنهت ديانا المكالمات، اندفعت إلى حجرة الجلوس، صانحة وأنا أرقص ملوحاً بالورقة التي تحمل عنوان كورنر. شعرت بأن هذه الخطوة ستكون انطلاقة كبرى إلى الأمام - ليس لأنني توقعت من كورنر أن يعرف شيئاً عن دونيللي لم أعرف أنا به بعد، وإنما لأنني شعرت بأن هناك من يقف إلى جانبي. كاد سرور ميللر بهذه الأنباء يعادل سرورنا، كان قد شرع يقع في شبكة "البحث عن إيزموند دونيللي". قال: "لماذا لا تتصل به الآن على الفور؟" ولم أكن بحاجة إلى مزيد من الحث أو التشجيع فبعد خمس دقائق، كنت أسمع صوتاً مثل صوت ممثل كوميدى يقلد استاذاً ألمانياً عجوزاً، يقول:

- "جميل جداً أنك تكلمت، يا زورم. حنئنا (عندنا) الكثير الذي يجب أن نناقشه).

قلت: "لقد رايت دانكمان وزوجته في لندن منذ يومين. وقد قالاً لي أنك عدت إلى ألمانيا".

- "ماذا! إنهما يعرفان أن هذا غير صحيح! يجب ألا تثق بهما..."

استمر يتحدث طوال عشر دقائق عن دانكمان وزوجته، مستخدماً كلمات من الألمانية من حين إلى آخر. وانتهى إلى أن نصحني بقوة ألا أعود إلى رؤيتهما مرة ثانية حاولت أن أكتشف السبب الذي يجعله يعاديهما إلى هذا الحد، ولهذا قلت له إنهما يبدوان كزوجين لا ضرر منهما. صاح يقول:

- "ماذا؟ لا ضرر منهما؟ كيف. إن هذا الرجل قاتل".

- "أنت واثق؟"

- "واثق تماماً. إنه قاتل. لقد تزوج فتاة ثرية في سويسرا ثم سلق جسدها في وعاء صنع الفراء. كان في هذا الوقت يملك مصنع للفراء - واختفت بعد زواجها منه بأسابيع قليلة. وقد قام طبيب بتحليل عينة من الفراء الذي أنتجه في تلك الفترة وقال أنه كان مصنوعاً من عظام آدمية. ولكنهم لم يستطيعوا إثبات أي شيء. وأنه جدير بأن يسجن ثلاث سنوات بتهمة تعدد الزوجات".

بلدت لي القصة مثيرة إلى درجة تجعلها غير قابلة للتصديق. (وفي الحقيقة، اكتشفت فيما بعد أن كورنر لم يسرد علي أكثر التفاصيل رعباً - وهو أن كلاوس مزق جسد زوجته السويسرية قطعاً صغيرة بشفرة حلاقة، وأطعمها السمكة البيرانها المتوحشة التي كان يربئها في منزله). تحدثت مع كورنر لعدة دقائق أخرى، ووعدته بأن أتصل به في طريق عودتي إلى إيرلندا. قال: "حسناً. أرجو أن تمضي في لندن عدة أيام. إن لدي الكثير الذي أود أن أقوله لك".

لاح لي الأمر وكأنه محملاً بالوعود الطيبة. عدت لكي أغير أجلياً بالتفاصيل الجديدة عن كلاوس دانكمان، وانتهينا إلى سرد حكاية زيارتنا بالتفصيل لمضيفنا ومضيفتنا، ولكننا حذفنا ما حدث بعد ذلك.

- ١٨ -

□ كنت بالغ التعب حتى أنني ذهبت مبكراً إلى الفراش. ولكنني استيقظت في السابعة من صباح اليوم التالي، هارتديت معطفاً فوق سرتي، وجلست على مقعد صغير واصل في السقيفة، ورجت أحمل بعناية كل حزمة أو ملف من الخزانة، وأضعها الأوراق السائبة في كومة مستقلة مرتبة. كان قد مضى علي نصف ساعة من البحث قبل أن ألتقي بأول اكتشاف منعش للأمل، حزمة من الخطابات ربطت بشريط جميل، وقد كتب العنوان على كل منها بخط بناتي مستدير: "السيد هوارس جليبي، فرديناند ستراسه رقم ٩ (منزل هون هير يوليش) غويتفين" كانت كاتبة تلك الخطابات هي هبونا غوتري، وأرسلتها إلى هوارس جليبي، وبلدت في فبراير عام ١٨٦٧ - بعد شهر من حادثة اقترابه من اغوائها. كانت الخطابات

من فتاة واقعة في الحب، والأكثر من هذا، كانت خطابات من فتاة شعرت بأنها مرتبطة ومخطوبة. كانت الخطابات مليئة بما يدور في بيتها من إشاعات وهمسات، وعن شقيقته ماري، وعن كلب كان قد أعطاه لها. وجدت قراءة تلك الخطابات مثيرة للشفقة، لأنها أعطت لكاتبها مساحة من الحقيقة الواقعية - تلميذة تقع في الحب لأول مرة، فتاة منحت حبيبها شيئاً من الحرية في التصرف معها لأنها لا تستطيع أن ترفض له أي طلب. وتظن أنه يفكر فيها باستمرار بنفس الطريقة التي تفكر بها هي فيه. كانت هناك ملاحظة من ماري في أحد الخطابات تقول، "أرجو أن تكون الفتيات عندك في مثل قبح الحمير" ويبدو أن هوارس قد أجاب عليها إجابة مطولة، وراح يذكر أيزموند بحماس كبير. لأن هيونا تقول، "أنا واثقة من أن صديقك أيزموند دونيلي طالب متقدم و(ذكي) ولكنني (أنا) لا أستطيع حقاً أن أعجب به دون أن أقابله... إنني أفضل أن أسمع تفاصيل عن أعمالك أنت". فمن الواضح أن هوارس قد استهلك الكثير من الوقت في الثناء على أيزموند.

في عيد الميلاد التالي (١٧٦٧) يبدو أنهما تشاجرا بسبب إحدى الخدمات. "إنني أتمنى لو أستطيع أن أفهم لماذا تحب أن تلمس مثل هذه المخلقة الملوثة بالدهن"، الأمر الذي يفسر دون شك السبب الذي جعل هيونا تحافظ على عذريتها عاماً آخر. ولابد أنه كان عيد ميلاد مليناً بعوامل الإحباط بالنسبة لجليبي بعد فشله في محاولة الإغواء للخطلة التي قام بها في لوزنا بروك.

وضعت خطابات هيونا جانباً لكي أتمكن من دراستها فيما بعد دراسة أكثر دقة، ومضيت في عملية إفراغ الخزانة. بالقرب من القاع، بدت لي المحتويات أقل فوضى وأكثر ترتيباً، وقد كومت دهائر الحسابات في ركن واحد. أخرجت كل هذه الدهائر، وحينما أزحت آخرها، رايت صندوقاً معدنياً أسود اللون مدفوناً تحت حزم كثيرة من الأوراق. أخرجته بجهد، ووجدت أنه يبلغ حوالي ثمانين عشرة بوصة طولاً، وأن عمقه يبلغ حوالي تسع بوصات. لم يكن مغلقاً. فتحتة، فوجدت نفسي أنظر إلى الصفحة الأولى من مخطوطة كتاب كتبت بخط اليد، وتقول، "خطابات من فوق أحد الجبال" تأليف "جورج سيمشسون، د.د." عثرت على الكراسة الصغيرة التي استخدمها لجمع مادتي عن دونيلي. وكان الأمر كما قدرت هو أن الطبعة المنشورة من كتاب "خطابات من فوق أحد الجبال" كانت من تأليف ريفنالد سيمشسون. ولكن النشرة المكتوبة حول "جمعية العنقاء الشريرة" كانت من

تأليف هنري مارتل وجورج سيمشسون، د.د. وكانت هذه النشرة قد صدرت بعد عشر سنوات من صدور الرواية. ومع هذا فإن جليبي قد غير الاسم الأول للمؤلف. وتفسير ذلك عندي أن جليبي كان قد كتب النشرة قبل كتابة الرواية، وقد غير الاسم للوجود على الرواية لكي يتجنب تكرار ذلك الاسم الذي وضعه على النشرة.

تناولت حفنة من الأوراق بطريقة عشوائية وألقيت عليها نظرة فاحصة. وعلى الفور تقريباً وقعت عيني على عبارة "جماعة العنقاء". قرأت النص. لم يكن هناك احتمال للشك. ففي المخطوطة الأصلية - وقد وضحت التصحيحات والتغييرات أن هذه المخطوطة كانت هي المخطوطة الأصلية حقاً للرواية - كان جليبي قد أشار إلى "جماعة العنقاء" وليس إلى "امرئ النعبان". من الواضح أن كان قد قرر أن يغير اسم الجماعة. أخرجت المخطوطة كلها من الصندوق. لم تكن الأوراق التي كتبت عليها موحدة الحجم، ولكن تلك التي كانت في قاع الصندوق من حجم أصغر. ثم رايت أنها لم تكن جزءاً من المخطوطة، وأنها كانت مكتوبة بخط أيزموند دونيلي. وقد بدأت الصفحة الأولى كما يلي:

جليبي العزيز

أرجوك أن تصدقني حينما أؤكد لك، مقسماً على كلمة الشرف الأكثر صدقاً من أي كلمة، أنك مخطئ في خوفك على سلامتي. وأستطيع أيضاً أن أؤكد لك أنك مخطئ تماماً في تصورك عن طبيعة جمعيتنا. إنها ليست "سرية" بالمعنى العادي لهذه الكلمة. هل يمكنك أن تقول أن الجمعية الملكية سرية؟ ومع ذلك فإنه إذا حدث أن تسلسل شحاذ إلى اجتماع للجمعية الملكية فإنه سوف يعتقد أنهم يتحدثون بلغة غريبة لكي يخفوا عن الغرباء أغراضهم الحقيقية.

- ١٩ -

■ تملكنتي نشوة لذينة، وأنا أحصل على الاكتشاف الكبير الذي استطعت الوصول إليه اليوم، وهو الاكتشاف الذي كنت أحلم به في لحظات يقظتي طوال الأسبوع الماضي، وهو حصولي على دليل حاسم ومؤكد على انضمام أيزموند إلى جماعة العنقاء. وهكذا

رجعت إلى غرفة نومي وأنا أحضن صندوق الصفيح الأسود الذي وجدت فيه المخطوطات والأوراق والخطابات. استخدمت التليفون الموضوع بجانب الفراش - والذي أدخله مضيقنا بناء على فكرة صائبة - لكي أسأل المطبخ إن كان من الممكن أن يرسلوا إلي إقطاراً خفيفاً في حجرتي. لم يزعجني أحد أو يقطع علي وحدتي، رغم أنني سمعت الستير يمر أمام باب حجرتي في طريقه إلى السقيفة. وفي خلال الساعة التالية عرفت عن أيزموند أكثر مما عرفت في خلال أسابيع البحث السابقة.

لن أنقل هنا تلك الخطابات كاملة، لأسباب ضيق المساحة، فإنها قد تحتل خمسين صفحة. كانت القصة التي جمعت أجزاءها من الخطابات كالتالي، كان أيزموند قد عرف بوجود جماعة العنقاء من مصدرين: روسو ورستيف دي لابرنتون. وكان الأخير عضواً فيها، مثلما اكتشف أيزموند فيما بعد. وكان أيزموند قد وصل بنفسه إلى أفكار قريبة من أفكارهم مثلما رأينا - ومثلما وضحت تلك الخطابات توضيحاً كاملاً، عرف بوجود الجماعة، ولكن لم تكن لديه فكرة عن كيفية الاتصال بها. وهكذا فقد أصدر كتاب "ملاحظات على فرنسا وسويسرا" ورسم على الغلاف صورة العنقاء، وأضاف إلى الكتاب قصة مختصرة تحكي تاريخ الجماعة وعزاها إلى الراهب اللوئري (الوهمي والذي لم يكن له وجود).

ونحن نعرف ما حدث بعد ذلك. فقد وصلته بالبريد صورة العنقاء الجميلة المرسومة. ومن كان أول شخص يصله بالجماعة بصورة فعلية؟ من الضحك والسخيف معاً أن تكون هي أول فتاة أدخلته عالم مباحج الحب، خادمة شقيقته ماري، أو مينو. كانت مينو قد استأنفت حياتها المفعمة بالغلمة الجنسية في باريس، وأصبحت عشيقة أحد أعضاء الجماعة الذي رأى في عبادتها الخالصة من أي هوى لأعضاء الذكر التناسلية جوهر المؤمن الحق بأفكار الجماعة.

كان جليبي وأيزموند صديقين حميمين. ولكن جليبي يفتقر إلى الميزة الأساسية اللازمة لعضو الجماعة، السعي الذي لا يكل وراء الجنس باعتباره تجربة تسمو على أي تجربة شخصية. ورشحه أيزموند لكي يكون عضواً، وأمضى جليبي يومين في باريس بصحبة أيزموند وعبدالله مؤمن (الذي يظهر في رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" باسم عبدالله الصباح، وقد اختار جليبي هذا الاسم بعد أن استعاره من الأستاذ الأعظم لجماعة

الحشاشين)^(١). ولكن ما حدث في خلال هذين اليومين ليس واضحاً، فيما عدا أن أيزموند تشارك مع جليبي فرحل جليبي غاضباً. وبعد شهرين التقى أيزموند مرة أخرى في لندن، فتصالحا وسوبا خلاهما، وكان ذلك بمبادرة من جليبي فيما هو واضح. وخلال هذه الزيارة، حدث أن قابلاً ماري وشارلوت اتجسرت، ابنتي إيرل فلاكستيد، اللتان كانتا تقيمان مع ابنة عم أيزموند، إليزابيث مونتاجو، وعقدتا اتفاقاً فكاهياً (يتزوجان بمقتضاه من الفتاتين على أن يقتسماهما فيما بينهما). وفي أحد الأيام طلب جليبي من أيزموند أن يخبره بما يعرفه عن جماعة العنقاء. وفي لندن قابلاً رستيف أيضاً مرة أخرى - وكانت النتيجة مشاجرة أخرى، أو بالأحرى، انفجاراً غاضباً آخر من جانب هوراس جليبي. (وقد أكد كل ذلك تخميني السابق من أنه كانت في هذه العلاقة، من جانب هوراس جليبي، ميول شاذة جنسياً). واستأجر جليبي منزلاً صغيراً في شارع جراب ليقوم فيه ببحوثه، وكتب نشرة "حول جمعية العنقاء الشريرة". ووصلت أخبار هذه النشرة إلى أيزموند، فاقنع جليبي ألا ينشرها. ووافق جليبي، فكرس خريف عام ١٧٧٢ لإغواء ماري اتجسرت، بينما التقى أيزموند حصاراً ناجحاً حول شارلوت. ولكن وقعت في نوفمبر مشاجرة أخرى، وعاد جليبي إلى اسكتلندا وكتب هناك رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" في الفترة بين ديسمبر وفبراير التالي. كتب إلى أيزموند لكي يقول إنه بينما يقبده وعده ألا ينشر النشرة التي كتبها، فإنه شعر بأن هذا العمل الروائي الخيالي كان شيئاً مختلفاً كل الاختلاف. (وقد كان هذا التصرف محاولة لجذب انتباه أيزموند بأي ثمن؟) وكانت النتيجة ذلك الخطاب الطويل الذي وصل من أيزموند وهو الخطاب الذي وجدته في نهاية المخطوطة.

لقد كنا صديقين - أنا وانت - سنين عديدة - ولا أقول شقيقين. كثيرة هي الزجاجات التي أفرغناها معاً، وكثيرات هن الخدمات اللواتي حررناهن من - فضيلتهن بملاطفاتنا وأرجحاتنا المتبادلة. فلماذا، إذن، تختار هذا الوقت بالذات لكي تتهمني بأنني أتعامل على الوجهين؟ ما الذي حدث لتلك الأخوة التي أقسمنا عليها في الفندق في هانديرخ، حينما مررت ذراع شخص سافل، وضربت أنت سافلاً آخر على عينيه حتى أعماه؟

(١) الحشاشون - جماعة أسسها الحسن بن الصباح في القرن الحادي عشر في شمال العراق وإيران، وكان ابن الصباح من الفاطميين الإسماعليين، نسجت حولته وجماعته العديد من الأساطير، وذلك بسبب سرية تنظيمهم، واحتمالهم بقلعة (الوث) والتي اعتنقها اتباع ابن الصباح جنة الله الحقيقية، وكانت لابن الصباح وجماعة الحشاشين آراء متطرفة، خاصة انتهاجهم لسياسة انتهازية ودموية في نشر حركتهم رغم سرية الحركة في مراحلها الأولى.

تبدو هذه الذكريات عن الصداقة القديمة، عن وجبات الطعام التي تناولها معا والنساء اللواتي اشتركا في اغوائهن، تبدو شيئاً لا قيمة له وتصرفاً لا جدوى منه من جانب ايزموند. كان هوراس جليبي مجبولاً من عنصر أكثر خشونة كان هو يعرف ذلك. وكان ما يقوم به في تلك اللحظة شيئاً أقرب إلى ابتزاز ايزموند، - وكان - كلاهما - يعرفان ذلك. كانت علاقتهما علاقة استاذ يتابعه. لقد التقيا حينما كان التفوق - ايزموند - قد اكتشف مباحج الجسد الأنثوي، فراح يعظ حواريه الجديد عن موضوع إغواء النساء بحرارة ثوري وحماسته. ولقد رأينا كيف استجاب جليبي لهذه المواعظ - في قصته عن فيونا وماري. ومن قائمة الأسماء التي ذكرها ايزموند، يمكننا أن نستخلص أنهما اشتركا معاً في عدد كبير من العشيقات في غوتيفين. ولكن ايزموند لم يكن مهتماً بصورة أساسية بالجنس في حد ذاته. بالنسبة إليه كان الجنس مفتاحاً لحل لغز معين، وكان هذا اللغز هو ما يثير اهتمامه. ولكن هوراس جليبي - من ناحية تكوينه المزاجي - كان يتشابه في كثير من الجوانب مع كازانوفا، الذي كان قد قابله ذات مرة في أوترخت. كان يحب طبيبات الحياة، وقد أحب من بينها النساء. ولم يستطع أن يفهم لماذا لا يستطيع ايزموند - استاذة في فن الإغواء أن يعيش في لندن عاصمة إنكلترا ليشترك في نادي نيران الجحيم الذي كان السير فرانسيس داشوود قد ترك رئاسته. بالنسبة لجليبي، كانت لندن هذه - مدينة شيريدان وويلكيز وداشوود - هي أكثر مكان في العالم سحراً وجاذبية، صراع الديوك وسباق الخيل ومباريات الملاكمة بالقبضات العارية (رياضة كانت جديدة تماماً) وليالي دروري لين، وصحبة النساء الجميلات. فما الذي يريده ايزموند أكثر من هذا؟ لماذا أصبح مفسداً لجمال اللعبة إلى هذا الحد؟ وقد كشف إغواؤهما المشترك للشقيقتين أنجستر عن أن زماثلتهما كانت قوية كعهدهما أبداً. فمن كان هذا العربي الذي لا يقاوم والذي يتحدث الفرنسية بطلاقة كاملة والذي لا يبدو أن من الممكن إبعاده عن ايزموند؟ وحينما اعترف ايزموند أخيراً بأن الرجل ينتمي إلى جماعة العنقاء، بهت جليبي. كان ايزموند ما يفتأ يحدثه عن هذه الرابطة الأخوية التي تربط أعضاء الجماعة، فقد سحرته منذ حدثه عنها روسو. ولكن جليبي لم يصدق أبداً بوجودها. وهاهو ايزموند. الآن يصبح عضواً فيها! لقد فسر "ذلك" كل شيء. أن ايزموند لم يعد مطاردًا حراً للنساء لأنه وقع بين أيدي جمعية - سرية يديرها بعض الأجانب، كان هذا العربي العملاق ذو الندبة الواضحة نموذجاً لأعضائها. كان رد فعل جليبي مزيجاً من الخوف والاشتياق والغيرة - مع غلبة هذه العاطفة الأخيرة. فراح يتحدث

بصراحة في كل مكان زاره في لندن عن جماعة العنقاء - ولا بد أن جونسون التقط في أحد هذه الأماكن ما كان يقال عن ايزموند همساً وفي الشائعات - فكتب نشرته. ولو أن ايزموند كان أقل إخلاصاً لصديقه لكان قد عاد إلى إيرلندا وقطع علاقته به. ولكنه بدلاً من هذا حاول أن يهدئ ثأرته. وربما كان الأصدق أن نقول أنه حاول أن يفهم جليبي ما طرأ عليه من تغيرات منذ أيام وجودهما معاً في غوتيفين.

"كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن هذا العالم في قرارته عالم سحري، وأنا إذا لم تكن سحرة فإن الخطأ يقع على عاتقنا نحن. إن ديلرو يجعل الدامير يقول، لماذا أكون على ما أنا عليه؟ لأن هذا يبدو لي في صورة أكثر الأشياء تحكيمية وإطلاقاً في العالم". إنني قد أكون أي شيء أو في أي مكان. قد لا يكون شكلي أكثر ثباتاً من قبضة دخان تتصاعد من نار مشتعلة. في صباح ساكن الهواء، قد تبدو قبضة الدخان ساكنة ثابتة مثل عمود من المرمر، ولكننا نعرف أن أقل هبة هواء يمكن أن تغير شكلها وأن تبددها في الفضاء دون نهاية. لقد جلست ذات صباح على أحد الجسور ورحت انتظر شلال المياه الذي يسقط بالقرب من مونت بلانك، وتملكتني فجأة فكرة أن الناس تحاصرهم قوى يعجزون عن فهمها، ومع ذلك فإنهم يتوهمون أنهم باقون بقاء الصخور في العصور التي عاش فيها الناس كصيادين ومحاربين لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي للتوقف والركود، لقد أدركوا طبيعتهم الخاصة، ولم يظنوا قبضة الدخان عموداً من المرمر. وفي هذا الجانب يمكن أن نقول أنهم فهموا العالم بشكل أفضل من فهم مستر ديلرو أو مستر فولتير له. ولكن الأبله وحده هو من يجب أن يعود إلى الحياة التي عاشها المتوحشون الرعاة، وبالنسبة لنفسى، فإنني لست بالصيد ولا بالمحارب. ولكنني طالما لاحظت أنني حينما يفرق مهري للنطلق في بيته الذي كان ينتظره، سواء كان ذلك البيت بين فخذي سيدة ذات لقب رفيع أو خادمة في اصطبل، فإنني كنت أرى لحظتها أن العالم ثري دون حاجة إلى برهان، وأنه دافئ ولا نهائي. تسقط الغمامة التي تعميني عن عيني، وينزاح الثقل الذي يكبل حواسي، أأرى في لحظة واحدة وعلى التو أن الإنسان قد ترك ما كفله له ميلاده من حقوق نهباً للسارقين والناهبين. ولكن إذا كانت هذه الرؤية السحرية هي حقي بحكم المولد، فلماذا ينبغي علي أن اتقبلها في شكل شذرات متفرقة غير موصولة، مثل كلب يختطف مزقاً من اللحم يلقيها إليه على الأرض سيده؟ إنها ملكي، إن أمسكها وأقبض عليها باليمين؟

هذا ما أمنت به دائماً، وأنا أعرف الآن ما يكفي من اللاهوت لكي أعرف أن حق الولد هذا هو ما فقدته البشر بسبب خطيئة آدم. ولكن كيف لنا أن نأمل في العثور على ما فقدناه إلا بالبحث المنهجي المنظم؟ لقد أمنت دائماً بأنه لا بد أن يكون ثمة سبيل لاستعادة تلك القوة الضائعة. ولقد اكتشفت الآن أن هناك رجالاً كرسوا حياتهم للبحث عن هذا السبيل، وأنه يمكنهم أن يعلموني شيئاً من أساليبهم. فهل يمكنك حقاً أن تصدق أن مثل هؤلاء الرجال يمكن أن يكونوا أشراراً، وأن هدفهم هو أن يستولوا على روحي الخالدة؟ وما الذي يمكن أن يعنيه هذا حتى ولو كان صحيحاً ما تقوله عنهم؟ لأنني، ولا أنت، اصدق أن الروح يمكن أن تسلم رهينة أو سبية، إلا إذا أسرتها البلادة والغلظة وكثرة الاهتمام بما لا أهمية له.

كلا، إنني أسعى وراء شيء أكثر أهمية بكثير من بركات الفتيات اللواتي لم يسهن بشر قبلي.

ولكن ما الذي كانت جماعة العنقاء تفعله بالتحديد؟ يعبر أيزموند عن هدفها الأساسي في جملة واحدة: "ليس هدفنا هو تلوين الأحاسيس الدينية، أو الانحدار بها عن طريق التلذذ الحسي، وإنما هو الصعود بالتلذذ الحسي إلى مستوى الأحاسيس الدينية". ولكن كيف كان من المفروض أن يتحقق ذلك؟ يتعمد أيزموند أن يكون غامضاً في هذا الصدد. كان لديه السبب الذي يدفعه إلى عدم الوثوق في جليبي. ولكن كان من الواضح أنه حينما جاء إلى غلوسين - في إبريل عام ١٧٧٢ - أخبر جليبي بالتفصيل أكثر بكثير مما كان على استعداد لأن يسجله كتابته، وكتبت جليبي بدوره بعضاً مما أخبره به أيزموند، بنية أن يستخدمه كمادة في كتابه الروائي الذي أزمع كتابته. وأظن أنه من المستحيل أن نشك في أن جليبي كان ينوي دائماً أن ينشر الكتاب. وأنا شخصياً مررد في أمر إدانته. إن الكتاب عمل جدير بالإعجاب، رغم كل ما يحتويه من سخافات عابثة. وقد يكون من حق المرء أن يقول أنه يكون ما أو كله هوراس جليبي من مهام إلى الأجيال القادمة. فهل يمكن أن يوجه اللوم إلى كاتب لأنه لم يدمر أحسن أعماله بيده؟

من خلال مذكرات جليبي - التي سوف الخصها أكثر مما اقتطفها كاملة هنا - يبدو واضحاً أن جماعة العنقاء تشارك في الكثير مع جماعة "الصلب الوردي" أو الماسونيين الأحرار. كان هناك أستاذ أعظم، لديهم أشبه بالبابا، تنتخبه لجنة تعرف بـ "لجنة الشرفين"، واسمهم بالإنكليزية The dominoes جاءت ربما من كونهم كانوا يرتدون عباءات ذات

أقنعة تغطي رؤوسهم، من النوع الذي يرتديه الرجال في الحفلات التنكرية. وكان لكل بلد مشرف واحد. في فرنسا كان للشرف هو الكاتب شوبرول دي لاكلو، مؤلف رواية "العلاقات الغرامية الخطيرة" وقد أصبح أيزموند فيما بعد هو المشرف في إيرلندا.

والشيء الواضح تماماً، من مذكرات جليبي ومن كتابته "خطابات من فوق أحد الجبال" هو أنه كان هناك دائماً نوع من الخلاف الأساسي في الرأي داخل الجماعة حول نقطة جوهرية من نقاط القانون الأساسي. كانت الجماعة تؤمن بأن الإنسان ينظر إلى معنى العالم باعتباره "لفزاً سحرياً" بصورة أكثر دواماً من خلال الفعل الجنسي مما يحدث من خلال الدين أو الفن. (والكلمة الهامة هنا هي كلمة "الدوام". إن أحداً لم يفكر أبداً أن ما تحققه التحليات الصوفية من أنواع النشوة يمكن أن تبلغ أعماقاً أعظم من أي أعماق يمكن أن يبلقها الإنسان عن طريق الجنس. ولكن الإنسان من ناحية أخرى، يستطيع أن يقترب من أسرار الجنس بكل يوم).

وقد لاح لي أن كل أعضاء الجماعة وافقوا على أن مجرد الاتصالات الجنسية غير الشرعية، دون سيطرة، ستؤدي إلى الضجر والملل. ولكن كان هناك اختلاف كبير في الرأي حول العلاج المقترح لذلك. كان التقليد الذي اتبعته الجماعة - منذ أربعة قرون - هو أنه لا بد أن ينظر إلى النساء باعتبارهن أوعية تحتوي السر الأعظم الغامض. وقد دفع آباء ورهبان جنوبي روسيا بهذه الفكرة إلى أكمل تطور لها في القسم الأخير من القرن السادس عشر. ومن جانب آخر، فإن الهولنديين، وهم جماعة نشأت بين قبائل الألمان (استمد اسمهم من اسم ربة الزواج التيوتونية)، كانوا أقرب إلى أولئك "الرهبان" الأوائل الذين ارتكبوا جرائم الاغتصاب كلما أمكنهم ذلك، فقد آمنوا بأن الجنس يصبح أكثر إشباعاً ووصولاً إلى السر الغامض كلما كان عنيفاً ومفاجئاً. وفي القرن الثامن عشر، كان الانضمام إلى جماعة الهولنديين، يعني أن العضو يحاول ولوج أكثر عند ممكن من الأعضاء الأنثوية، والأفضل أن تكون لعزراوات. وكان هوراس جليبي هولندياً دون أن يعرف ذلك، وكذلك كان أيزموند في أيامه الأولى. وكان لاكلو هولندياً، وكذلك كان الأستاذ الأعظم، عبدالله يحيى، وخلفه هندريك فان جريس، أما الرجل الذي كان مسؤولاً عن انضمام أيزموند، عبدالله مؤمن، فقد كان ينتمي إلى تقاليد آباء الكنيسة الروسية ورهبانها الهيكومونيين Hegumenos.

وكان الهيكومونيون الأوائل (الذين أخذوا اسمهم من قائدهم الأول) الأب الراهب الطرود من الدير، والذي كان عضواً راهباً بين جماعة من رهبان الأبراج) قد اختاروا فتاة صغيرة جميلة كنوع من الكاهنة الأولى، واختاروا اثنتي عشرة فتاة أخرى بوصفهن وصيفات لها. وكانت هؤلاء الأخريات كاهنات أيضاً، وعبدت النسوة بوصفهن كائنات مقدسة. ولكن الأعضاء الذكور في الجماعة كانوا يتمتعون بقدر معين من الحرية مع هذه الكائنات المقدسة، وهي الحرية التي كان من الممكن حتى أن تصل إلى مرحلة الجماع الجنسي الكامل. ومن أجل الوصول إلى هذه المرحلة، كان على الذكر أن يصوم ثلاثة أيام من كل أسبوع طوال عدة شهور قبل أن يتم الاتصال، ثم يمر بسلسلة من المراحل المحددة بدقة يقرب فيها من السر بالتدريج. فإذا استطاع أن يرقد عارياً على درجات "العبد" الحجرية في ليلة شتائية - من الغسق حتى الشروق - فإنه سيسمح له بأن يقوم بدور الخادم لثلاث من الكاهنات لمدة ساعة كل يوم، فيحمل إليهن الطعام وينظف حجراتهن. وكان يسمح له بأن يأكل بقايا الطعام. وبعد مزيد من الاختبارات، تتضمن غرس شظايا من الخشب تحت أظفاره، ولسع نفسه بالنار عند الأجزاء اللينة من ذراعه، فإنه سيسمح له بأن يصبح، "خادماً خاصاً" لثلاث كاهنات أخريات، فيغسل ثيابهن، ويخيطها ويغسل لهن شعورهن. كانت إهرازات أجسادهن تعتبر أشياء مقدسة، وكانت وظيفة هذا الخادم الخاص أن يأخذ تلك الإهرازات إلى مكان قصي من الغابة فيدفنها هناك حتى لا يستطيع أي ذكر آخر من القبيلة أن يعثر عليها. ولكنه - وحده - كان يسمح له بأن يلوث نفسه ببرازهن، ثم يحمم جسده ببولهن وهذه ميزة كان يحسده عليها كل ذكور القبيلة الآخرين. وكان مزج السائل اللوي للعباد بإهرازات "المقدسات" ينظر إليه باعتباره المرحلة الأولى من مراحل الاتحاد بالكانن المقدس. فإذا استطاع أن يعمر بالمزيد من الهام المتزايدة الصعوبة والألم، فإنه كان ينال الإذن بممارسة المزيد من الامتيازات، حتى قد يصبح واحداً من الرجال الثمانية الذين يقومون بدور "الخدم الخصوصيين" للكاهنة الأولى المقدسة نفسها. وفي هذه الحالة فإنه قد يكون الشخص الوحيد الذي يختار بالقرعة من بين الثمانية لكي يشترك معها في طقوس الاحتفالات التي تقام ليلة اكتمال القمر بعد الحصاد، ثم يجامعها مرتدياً جلد عجل. كان عضو الكاهنة الأولى وعضو عابدها الذي شاركها في إقامة الشعائر يحققان بقطعة مقدسة من نسيج التيل بعد الاحتفال، ثم تمزق قطعة النسيج وتقسّم إلى ثمانية أقسام ويعطى كل

واحد من الخدم الثمانية قطعة منها، يعلقها كل منهم على رأس عضوه طوال ما بقي لهم من زمن يقضونه في وظيفتهم السامية.

وأظن أنه من الممكن أن نرى أن الفكرة الأساسية لدى الهيكومينيين، كانت هي محاولة بناء حالة من الشبق والتوتر الجنسي مرتبطة بالوله الديني، وأن كل مرحلة صعبة أو مؤلمة كانت مرسومة بحيث تمنع الطامح في الوصول من أن يصبح بأي شكل مسترخياً أو غير مبالي بمهمته. فإنه إذا فقد حالة تعاظه في أي وقت في حضرة الكاهنات، فإنه يجلد ويعاد إلى القبيلة محقراً مهاناً. وكان معنى هذا أنه أصبح يعتمد على خياله إلى حد كبير. ويجب أيضاً أن نلاحظ أن وضعه الحقيقي كان أشبه بوضع خادمة إحدى السيدات، فكان يعامل باعتباره امرأة، حتى يشعر بالهانة، وحتى تصبح ميوله الجنسية قوية ومنمّرة. وتقدم الفكرة كلها على أنه لا ينبغي أبداً أن يعامل الجنس كشيء "فوق المستوى" أو كشيء عادي، أو أن ينظر إليه كشيء من المسلمات. كل شيء مرتبط بشعائر الطقوس أصبح مقدساً مخيفاً، ومثيراً جنسياً. وأصبح عضو الكاهنة هدفاً مقدساً نهائياً وينظر كل ذكور القبيلة بحسد إلى الخدم الثمانية لأنهم يحملون على رؤوس أعضائهم قطعة النسيج المبللة بإهرازها الجنسي.

وقد فضل أيزموند تعاليم الهيكومينيين على تعاليم اليهودانيين. وقسم كبير من الخطاب الطويل الذي كتبه إلى جليبي مكرس للمناقشة ضد النوع من الإغواء الذي كان أيزموند يدعو له من قبل. ويظل يردد أن هذا النوع ليس له تأثير دائم، أنه يؤدي إلى الإشباع.

والقصة التالية تعد واحدة من أكثر قصص العلاقة بين أيزموند وجليبي أهمية. ومن أسوأها تسجيلاً. وقد أمكنني أن أجمع أجزاءها من عدة مصادر، بما في ذلك بعض خطابات أيزموند - تلك التي وجدت في الصندوق في السقيفة - وخطابات ويوميات كتبها هوراس جليبي. وخطابات أخرى كتبها ماري وموريس أنجستر. أما القصة التي يمكن استخلاصها منها فهي كالتالي،

حينما تم الصلح بين أيزموند وهوراس جليبي في لندن في شهر أكتوبر عام ١٧٧٢، كان أيزموند يقيم في منزل ابنة عمه صوفيا في سانت جيمس. كانت صوفيا تسمى صوفيا بلاك وود بعد أن تزوجت السير آدموند بلاك وود، وهو مالك ثري لأحد مصانع

الشباب، كان والده أحد من ساندوا الموسيقار هاندي. وكانت لادي ماري وشارلوت أنجستر تقيمان مع إليزابيث مونتاغو، صاحبة الجورب الأزرق، التي كانت تلقنهما علم الفلك والتنجيم. واقتنأ أيزموند بشارلوت اللذيذة الرائعة، التي كانت عند ذاك في التاسعة عشرة والنصف من عمرها. أما جليبي فقد أسرته لادي ماري، الذكية الجميلة والأكثر تماكاً لنفسها من أختها، رغم أنها كانت تصغرها بعام كامل. (وهذا الاختلاف يعبر بدقة نموذجية عن الاختلاف بين شخصيتي الرجلين، إن أيزموند الماهر المسيطر، قد فضل الحلاوة والبراءة، وجليبي غير الوائق بنفسه تماماً، دوخته الأكثر ذكاء وثقافة بين الاثنين).

ويبدو أنه من المحتمل أن جليبي ما كان يمكن أن يرمي إلى مثل هذا الهدف البعيد لولا تشجيع أيزموند، فقد كان يشعر براحة أكبر وهو يفوي من همونه في الوضع الاجتماعي. أما ما كان مصدر التأثير على أيزموند، فهو أن أكثر الرجال نباهة كانوا يخجلون من ابنتي أنجستر لما اشتهر عنهما من ذكاء وفروة كبيرة. كانت جماعة الرياضيين تعقد مراهنات سخيفة عليهما، وكانوا يشعرون بصعوبة منال الفتاتين لراجحتي العقل والمركز الاجتماعي، أما المحترمون من الشباب - الذين من المحتمل أنهم كانوا يبدون في صورة هريية من شخصية "دارسي" التي رسمتها حين أوستين أو مستر بنجلي - فإنهم كانوا يغمرون الفتاتين بكلمات الشناء والمجاملة وكانوا يحاولون فتح المناقشات النقابية معهما. أما استجابة أيزموند فكانت أكثر بساطة. لقد فكر فيهما معاً باعتبارهما فتاتين للذلتين، وقال لجليبي أن الرجل جدير بأن يقضي ليلة مشهودة بينهما معاً.

وكان جليبي يعرف أنه حينما يقول أيزموند شيئاً من هذا القبيل، فإنه لا يكون يعبر عن مجرد أمنياته التي لا سبيل لتحقيقها. ولو كان هناك أي رجل في لندن قادر على إغواء ابنتي أنجستر، فإن هذا الرجل هو أيزموند. كان يتمتع بالمؤهلات المثالية لإغواء الفتات اللنقات اللدريات على التعامل الاجتماعي، العقل الجيد، فقد كان هوليتشنج أبرز وأفضل طلبة الرياضيات بين جيلهما في غوتيفين. وكانت ابنتا أنجستر تعرفان ليتشنج بالفعل - فقد حدث أن قدم إليهما عن طريق شخص لا يقل مرتبة عن الملك نفسه، في هامبتون كورن، وفصحفت الفتاتان منظار الملك العظيم هناك تحت إشراف ليتشنج. ومن الواضح أن أيزموند لم يكن يجد صعوبة في أن يلتقي كثيراً بابنتي أنجستر، طالما أنهما كانتا تقيمان عند إليزابيث ابنة عمه صوفيا. وكان منظر أيزموند الخاص - الذي قام بصنعه مصنع

شوارمز في لندن - قوياً قوة غير عادية، فأقامه في حجرة السفينة في منزل صوفيا بلاك وود، وثبت رسومه التوضيحية وخرائطه بالدبابيس في الحائط، ثم دعا إليزابيث مونتاغو وصيفتيهما الساحرتين لدراسة النجوم معه ومع ليتشنج. وكان إليزابيث متلهفة إلى هذا العمل. وكان من حسن تصرف أيزموند أن أعد وجبة صغيرة في "مراقبه" - من دجاج الحجل وطيور الغابة (نقار الخشب) والسمان، والخنزير الإيرلندي. وبعض الطيبات الرقيقة الأخرى. طرحت السيدات أسئلة عديدة، وحققن في المنظار لمدة تزيد على الساعة. ثم انتقلت المحادثة إلى الفلسفة، وراح أيزموند وليتشنج يتناقشان في لينز وهولتير وهيوم، وفي المقالة الافتتاحية للألماني الكبير إيمانويل كانت التي يقول فيها الحقيقة غير قابلة للمعرفة، وأن الحواس هي التي تملي شكل معرفتنا لكل الظواهر. (كان كتاب "النقد" الذي تطورت فيه هذه الآراء لم يكن قد صدر بعد، إذ لم يصدره كانت إلا بعد ذلك بتسع سنوات). تأثرت إليزابيث مونتاغو تأثراً عميقاً، وقالت أنها لم تستمتع أبداً إلى مثل تلك المناقشة العميقة الشاملة للقلقة. كلا، ولا حتى من بيرك وجاريك، ولا حتى من جونسون نفسه. لقد كانت شيئاً قليلاً على الرأس، تلك الفلسفة النقدية الألمانية. ولكن التأثير المطلوب كان قد تحقق وقالت إليزابيث مونتاغو فيما بعد أن أيزموند كان واحداً من أكثر "العازبين" الشبان نباهة في لندن. واقتنع أيزموند بالفعل بأنه قد ترك انطباعاً طيباً عند شارلوت. أخذ يدها للحظة متظاهراً بأنه يساعد على الهبوط في ركن مظلم من السلم، فسمحت له بأن يستبقي يدها في يده لمدة دوان أكثر من اللازم.

ولم يكن هوراس جليبي حاضراً في تلك المناسبة. ونحن نعرف السبب بالتحديد، لأن أيزموند يفسره في واحد من الخطابات الموجودة في مخطوطة "خطابات من فوق أحد الجبال". كان أيزموند يعرف أن جليبي لن يستطيع أن يترك تأثيراً قوياً على السيدتين، لأنه على شيء من الخجل (ولكن ما كان أيزموند يعنيه بوضوح هو أن جليبي ما كان يمكن أن يلاحظه أحد وسط جماعة تضم ليتشنج وإليزابيث مونتاغو وهو نفسه). كان عليه أن يحسن إعداد "مدخله". واكتشف أيزموند ما كانت ماري أنجستر تقرأه، وأمضى جليبي أربعاً وعشرين ساعة في تفضص الكتاب ووضع ملاحظات ذكية. خرج أيزموند للركوب في الحديقة مع الشقيقتين بعد يومين من ليلة المنظار، وحكى لهما عن شخصية صديقه جليبي الرفيق الخجول النبيل. قال لماري أن جليبي قد نشئ بأسلوب ديني متزمت، وأن معرفته بالفلسفة الألمانية تدمر عقيدته، ثم اخترع حكاية مؤثرة بشكل خاص عن جليبي في

كاثرة تشاثر، وهو يسأل والدموع في عينيه: "هل كل هذا المجال مجرد نصب تذكاري لقدرة الإنسان على أن يخدع نفسه؟". وهكذا فإنه حينما أخذ جليبي لزيارة أيزابيث مونتاغو بعد ذلك بيومين، لم تكن هناك حاجة لتشجيع ماري لكي تهتم به. فقد انتهزت أول فرصة لكي تأخذه إلى ركن هادئ، حيث تستطيع أن تسأله بإخلاص عن شكوكه. وكانت المقابلة أكثر نجاحاً مما كان يتوقعه أي منهما. فقد وافقت على أن تخرج للركوب مع جليبي في الحديقة في اليوم التالي، وقضت الليلة في حفظ الحجج التي أوردها بتلر وتيلوتستون للبرهنة على وجود أثر صناعة الله في الطبيعة. وفي مقابل هذا، قام جليبي ببعض العمل التأثيري لصالح أيزموند، بإشارات غامضة عن أحزان سرية وحب مفقود. ولا شك في أنهما كانا يكونان فريقاً قوياً التأثير.

وتم اختيار أيزموند لكي يشكل مكاناً مثالياً بتكليفه بتمضية قدر كبير من الوقت مع شارلوت. كانت أيزابيث هي ابنة عمه، وكانت الفتاتان قد أصبحتا صديقتين لصوفيا بلاك وود. ولم يكن بمقدور أحد أن يظن أنه من غير الطبيعي إذا سارت شارلوت من ماري هير حتى سانت جيمس لكي تزور صوفيا وتناقشها في الثوب الذي ينبغي أن ترتديه في حفلة الخريف التي تقيمها لادي ساندويتش. فإذا لم تكن صوفيا في البيت، فلماذا لا تمضي ساعة أو نحوها في مناقشة الفلك واليتافيزيقا مع ابن عم صوفيا؟

وعندما وصل شهر أكتوبر إلى منتصفه، كانت شارلوت تعرف لماري بأنها ستكون مبالاة إلى القبول لو أن أيزموند تقدم لخطبتها. ولحت ماري بذلك إلى جليبي الذي أخبر أيزموند. ودهش حينما لم ير أن صديقه يغمره سرور من نوع خاص لسماعه هذه الأنباء. ولكن أيزموند كان يرى الأمور بوضوح صافٍ إلى درجة كافية لكي يرى أن الموقف كان يتطور بسرعة أكثر من اللازم، وأنه بدأ يبدو موقفاً خطيراً. فإذا كانت صوفيا وأيزابيث وماري قد عقدن عزمهم على القيام بخطبة، فإنه قد يجد نفسه مرتبطاً بخطوبة قبل نهاية الموسم. كان الوقت قد حان للقيام بمراجع مؤقت.

عند هذه النقطة قرر هوراس جليبي أن يزيد من وضوح قصته عن "الحب المفقود" وأن يضيف إليها تفاصيل ضرورية فأسر إلى ماري أن أيزموند مرتبط بابنة كاهن سويسري، وأن والد أيزموند قد اعترض على فكرة ارتباط ولده بابنة قسيس كالفيني وأنه هدد بجرمانه من الميراث. وأن أيزموند، مثلما قال جيبون، "تنهج كما يتنهج العاشق، وأطاع

كما يجدر بالابن أن يطيع"، وأن العاشقين قد انفصلا منذ ما يقرب من العام، وأن الفتاة قد كتبت إلى أيزموند تقول له أنها قد خطبت إلى تاجر نبيذ من جنيف، ولكن أيزموند قد بلغه أخيراً أن هذا غير صحيح، وأنها ما تزال دون زواج وأنها لم تخطب، وأنها ربما كانت تنتظر أيزموند.

استبد الغضب بأيزموند حينما أخبره جليبي بما فعله. لم تكن لديه رغبة في أن يثر غيرة شارلوت ولا أن يشعرها بالتعاسة، وإنما أراد فقط أن يختفي لمدة طويلة حتى تناس منه الغاضبات. أما الآن فقد اعتقد الجميع أنه أراد أن يعود إلى سويسرا لكي يلقي نظرة أخرى جديدة على حبه الضائع. ولم يكن من صالحه أن ينكر وجود مثل هذا الحب، فإن أحداً ما كان ليصدق.

وفي إحدى الأيام عندما كان راكباً مع شارلوت في مارليبون فيلدز سألته أن يظل في لندن حتى يستطيع أن يصحبها إلى حفلة لادي ساندويتش. وعرف أيزموند أن هذا التصرف يمكن أن يكون قاتلاً، فشرح لها استحالة ذلك، وعادت شارلوت إلى البيت باكية. وفي اليوم التالي ذهبت ماري أنجست لزيارة صوفيا، واشتركت الاثنتان في الإلحاح عليه للبقاء. وقالت صوفيا أنه من السخف وقلة العقل أن يرحل لندن في قمة الموسم، وأن عمله في أيرلندا يمكن أن ينتظر. وحاول أيزموند أن يقلل من الضغط الموجه إليه بالقول بأنه سوف يعود إلى لندن حالما ينتهي من أعماله، لكن لم تكن في هذه أية فائدة. فقد كانت شارلوت مقتنعة بأنه إذا غادر لندن الآن، فإنه لن يعود إليها ثانية أبداً.

جاءت إلى المنزل في عصر اليوم التالي وكانت صوفيا بالخارج - وحاولت إقناعه بالبقاء. واعتذر لها أيزموند بلباقة قائلاً أنه لا بد أن يرحل للقيام ببعض الأعمال العائلية الضخمة المتعلقة بالمزرعة. سألته بصراحة عن طبيعة هذا العمل، ولماذا لا يستطيع أن ينتظر، ثم لجأت إلى البكاء، ووجد أيزموند نفسه يلاطفها ويهدئها ويربت عليها. كان في الرابعة والعشرين وكان كثير الشكوك. وكانت هي هانقة الجمال. وقد كتب يقول في خطاب إلى لاكلو بعد ذلك بعدة سنوات،

لقد كنت أؤمن دائماً بالرأي القائل بأن أكثر الفتيات فضيلة وبراءة، هن أولئك اللواتي دربتن طبيعتن أفضل تدريب على فن الإغواء، فإذا وقعن في الحب، فإن مقاومتهن تكاد مستحيلة. والمرة الوحيدة التي وقعت أنا فيها فريسة للإغواء، حدثت على يد عذراء من

هذا النوع. وقد حدث أن صديقاً غيباً جعلها تصدق أنني أنوي أن أسرع إلى الزواج من امرأة أخرى كنت قد برهنت لها على حداثتي بحبيها. وجاءت ذات يوم - كنت فيه وحيداً في المنزل، لكي تقنعني. وحتى تلك اللحظة لم أكن قد فعلت معها أكثر من تقبيلها. وحاولت في البداية جاهداً وبأمانة أن أقنعها، قلت لها أن صديقي كان ابله، وأنني لم أكن أنوي أن أذهب إلى سويسرا. فسالتني عن السبب الذي يجعلني - في هذه الحالة - مضراً على الرحيل والذي يمنعني من البقاء عدة أسابيع أخرى. ثم راحت تبكي فأخذتها بين ذراعي. حينما قبلتها كفت عن البكاء، ثم بدأت تقبلي بشغف وحرارة وحتى أنني بدأت اتسائل عما إذا كانت فاضلة حقاً بالشكل الذي كنت أظنها عليها. دلني ذوقي على أن الوقت قد حان للتوقف عن تبادل القبلات، ولكن حينما حاولت أن أهدئها، أغلقت فمي بالقبلات وضمتني بشكل أقوى. ثم قالت أنها تشعر بأنها على وشك الإغماء، ثم جلست على أريكة، قلت أنني سأذهب للبحث عن بعض الماء، ولكنها رجتني أن أبقى وأن أجلس إلى جانبها. والأن، هل يمكن أن تعتقد أنه من غير العقول - في ظل تلك الظروف - ألا افترض أنها لم تكن بريئة - أو أنها لم تكن تتعمد التأثير الذي أحدثته بالفعل على العضو الذي أعبدتها به؟ دلني منطقي على أنني إذا جابقتها بما اكتشفته عن نواياها، هربما صدمت وتخلت عن تواضعها ولجأت إلى التظاهر الكذاب. ولذلك، فإني بعد أن ركعت إلى جوارها ووضعت رأسي على صدرها، دسست يدي تحت صدر ثوبها الفتوح وحررت أحد نهديها من حمالته المشدودة. وحينما لم تحتج، أدركت أنها سمحت لي بذلك لأنها أحست أنها بهذا الشكل تكسبني وتأخذني من الفتاة الوهمية التي تنتظرني في جنيف. وثار فضولي لاكتشاف المدى الذي يمكن أن يصل إليه بها هذا التفكير. تحولت بشفتي إلى قدميها لم تكن ترتدي جورباً وكانت ساقاها ناعمتين لينتين. وحينما بلغ رأسي ركبتيها، دسست أصابعها في رأسي، فظننت أن هذا كان بهدف منعي من القيام بأي تقدم آخر، ولذلك فقد تقدمت فعلاً ولكن بتصميم أشد. ولكنها لم تبذل أية محاولة لإيقافي، حتى حينما رفعت ذبول ثيابها الداخلية إلى أعلى، حتى وسطها وكشفت عن تل صغير ناهد (...) قالت الآن "لا، لا" وحركت ردفها إلى جانب من الأريكة، ولكنها - فيما عدا هذا - لم تبذل أية محاولة جادة لمنعي (...) ورقعت بعد ذلك في مكانها، وقد احتضنتني بقوة، عارضة أنها ليس لها الآن أن تخشى أي هجران، وربما كان من المعقل أن تنتظرني أتقدم لخطبتها. شعرت بأنها كسبت انتصارها بسهولة بالغة. ولذلك فإني بعد أن استلعت قواي الحيوية، ذهبت إلى الباب فأغلقتة بالفتاح وألقيت مزيداً من كتل الخشب في

النار، ثم علت إليها - وكانت واقفة تنظر في منظر هنكي كان منصوباً على حامل منخفض - وشرعت أحل أشرطة ثوبها. احتجيت ولكنني تجاهلتها، لأنني شعرت بأنها إذا كانت قد عزمت على أن تصبح زوجتي، فإن عليها أن تبدأ في أداء واجباتها على الفور. ولم تكن الاحتجاجات مقصودة بشكل جدي، لأنها سمحت لي بأن أخلع عنها كل ثيابها قطعة قطعة بعد ذلك جعلتها ترقد أمام نار المدفأة، ورحلت أبذل جهودي مع نهديها بإرادة قوية...

وبعد أن سمحت لها بارتداء ملابسها، هبطنا إلى الطابق السفلي ودققنا الجرس طلباً للشاي، وأمضينا نصف ساعة نتحدث عن الزواج. وبعد ذلك، ولما كنا ما نزال وحيدين، قلت لها أن تأتي معي إلى حجرتي لكي نبذل محاولة أخرى واحدة، فجاءت معي على غير رغبة منها...

هكذا نعرف كيف تحقق ما كان يبدو من الظاهر مستحيلاً، وسلمت لادي شارلوت أنجستر عنديتها لرجل كان مصمماً على أن يرفضها. وتادراً ما تدخل خطابات أيزموند إلى لاكلو إلى مثل تلك التفاصيل الجسدية. فقد كان كل من الرجلين مهتماً أكثر بمناقشة الخصائص النفسية للنساء. فهي سن الرابعة والعشرين، لم يكن أيزموند يملك الخبرة الكافية لكي يدرك أن شارلوت أنجستر كانت تتميز ببعض خصائص الشخصية المأسوسية الواضحة، لقد أرادت أن يمتلكها الرجل القادر على أن ترقد على الأرض وأن تفتح ساقها. أصبحت عشيقته أيزموند، وراحت تتابعه في كل مكان بنفس الطريقة التي تابعت بها لادي كارولين لامب فيما بعد اللورد بايرون. ومما يشير أيضاً - بنفس القدر من الأهمية - إلى مزاجها الاستسلامي أنها بعد أن أصبحت عشيقته كفت عن حديث الزواج. فمرة أخرى، أثارت نزعتها المأسوسية في داخلها وضعها الشاذ غير السوي.

ولابد أن نلخص ما حدث بعد ذلك باختصار. ربما كانت بعض الإشاعات قد وصلت إلى أدني إيرل أوف فلاكستيد عن ابنته مع أيزموند. فقد أخبرها ذات يوم بأنه قد اختار لها زوجاً. وهو بارون اسكتلندي محترم يمضي جل أيامه في الصيد في أحرشه الشمالية. فقالت أنها تريد أن تتزوج أيزموند، ولكن أباه أجابها بأن عليها أن تنسى كل شيء من هذا القبيل. إن أيزموند لم يكن شيئاً مذكوراً. إذ هو ابن أحد ملاكي الأراضي الإيرلنديين لا يملك ما يكفي من المال لإعالة بيت محترم في لندن. وكانت هناك مواقف مشهودة كثيرة، وتعددت نوبات الغضب والبكاء. فأخذت الفتاة وأعيدت إلى بيت الأسرة في ويستون على نهر ترينت،

حيث سقطت مريضة لعدة أسابيع، وكتبت ماري أنجستر إلى صوفيا، تطلب منها أن تنصح أيزموند بالعودة إلى إيرلندا، لأن أباهما كان مصمماً على إبعاد شارلوت عن لندن طالما كان أيزموند موجوداً فيها. ورحل أيزموند. ومن الغريب تماماً أن ماري أصبحت معادية لشقيقتها بعد تلك الأزمة. ربما كانت حانقة للسهولة التي أسرت بها هذه الفتاة الرقيقة الحلوة الطباع شخصاً مثل أيزموند، الذي كان ملائماً أكثر لماري نفسها.

فماذا كانت الفضيحة التي عرفت عن لادي ماري والتي أخبرتني بامرأها الأنستان دونيللي؟ كانت الفضيحة هي أن ماري قد فضلت أيزموند على هوارس جليبي الذي تزوجته في أغسطس عام ١٧٧٢. وكانت هذه غلطة جليبي إلى حد كبير. فبعد أن أسكن زوجته في الجناح الغربي من قصر كلوسي، ودعا شارلوت لكي تأتي للإقامة عندهما، لم يتأخر عن دعوة أيزموند. ولبي أيزموند الدعوة على الفور، واستأنف علاقاته بشارلوت فور وصوله. أمضت الفتاة كل لياليها في حجرته، لتعود إلى حجرتها عند الفجر.

وقد وصلنا وصف الحادثة في خطاب كتبه أيزموند إلى لاكلو، حيث ينتقد أيزموند قصة وردت في كتاب بريفو "ذكريات ومغامرات رجل ذي حيثية" يصف فيها كيف دفعت سيدة فاضلة خادماتها للنوم مع حبيبها حتى تستطيع أن تحافظ على طهرها. ويقول أيزموند أن هذا كلام سخيف ومستحيل إلا إذا كانت الحبيب سكران.

لقد حدث منذ بضعة سنوات أن كنت مع أحد الأصدقاء، وكنا نشرب البورت أمام نار المدفأة، بعد وقت طويل من انصراف زوجته وشقيقتها - كل إلى غرفته - للنوم. ودفعنا الحديث إلى مناقشة اختلاف بين مزاج كل من اللاتين، فقال إنه كان من الممكن أن يكون أكثر سعادة لو أنه تزوج شقيقة زوجته. وناقشنا كيف ينعكس مزاج كل منهما في طريقة ممارستها للجنس، وسرعان ما اكتشفنا أن الشقيقتين تشابهان في شيء واحد. وهو أنهما إذا كانتا نائميتين، فإنهما تسمحان لرجليهما بمواقعتهم دون أن تستيقظ إحداهما بقلعة كاملة. وأدى بنا هذا إلى فكرة أننا قد نجرب أن نكتشف ما قد يحدث لو أنه أتيح لي أن أنهب للنوم مع زوجته، وأن يذهب هو للنوم مع شقيقتها التي هي عشيقتي. بليت لنا الفكرة مسلية، هجر بناها... ونجحت...

ولكن ما لم يذكره أيزموند في ذلك الخطاب، هو أنه نتيجة لتلك الليلة التي قضاها مع ماري، شرعت هي تعامله بصراحة كما لو كان زوجاً ثانياً لها - والأمر الذي كان فيه

مهانة لشارلوت. وبعد أن قضينا هذه الليلة معاً، لم تعد ماري تشعر بحاجة إلى إخفاء مشاعرها إزاء أيزموند. كانت مفتونة به منذ البداية، منذ ذلك اللقاء الأول الذي شرح فيه مع ليتشنج فلسفة كانت النقدية. أما علاقتها بزوجها فكانت مختلفة اختلافاً كاملاً. كانت مغرمة به ولكنها لم تستطع أن تعجب به، وكانت تدرك أن عقله - على صورته التي عرفت - كان بأكمله تقريباً من صنع أيزموند - إلى درجة أقل - من صنع ليتشنج. وحينما عاد أيزموند إلى لندن - وكان في ذلك الوقت قد اشترى المنزل الطويل الضيق في هليت ستريت قريباً من منزل الدكتور جونسون - تبعته ماري، وأقامت عند صوفيا بلاك وود. وسرعان ما انتشرت إشاعة تقول أن أيزموند نام مع شارلوت وماري في فراش واحد وليس هناك دليل يثبت هذا، رغم أنه من الأكثر احتمالاً أن أيزموند ظل عشيقاً للرائتين معاً. ونحن نعرف أن أيزموند كتب إلى إيرل أوف فلاكستيد في ٢٢ نوفمبر عام ١٧٧٢، طالباً يد ابنته بشكل رسمي، وأنه في ٢٨ من نفس الشهر، تسلم رداً بارداً مختصراً يقول فيه الإيرل أن شارلوت كانت مخطوبة بالفعل "لسيد نبيل من نبلاء كنت". ونحن لا نعرف أي نوع من الضغوط استخدمه الإيرل ضد ابنته التي كانت ما تزال أقل من سن الرشد، وقد قالت شارلوت فيما بعد لماري أنه هدهدها بأن يحلق شعر رأسها ثم يرسلها إلى دير بلجيكي. وبعد يومين من عيد الميلاد التالي، تزوجت شارلوت بهدوء من السير راسل فريزر، لورد أوف سيفين أوكس. وهو نبيل يشير إليه دالبول بقوله أنه "معتوه". ويقال أن الإيرل قد قال لواتد توماس جريفي، كاتب اليوميات المشهور، "إنها الآن قد خرجت من يدي، فلا يعنيها ما تفعله بنفسها". أما القصة التي يحكيها جريفي عن مباراة حدثت بين أيزموند وبين والد شارلوت فتبدو واحدة من تلك الاختراعات الخيالية التي لا يمكن اقتفاء أثرها لاكتشاف مصدرها. وإذا كان فريزر "المعتوه" قد عرف مقدماً بقصة افتتان زوجته بأيزموند وتعلقها به، فإنه يكون جديراً بالإيغار من بعد. ذلك أن أيزموند وجليبي كانا زائرين كثيري الرد على "بليدز هاوس" في سيفين أوكس خلال الأعوام التي تلت عام ١٧٨٠. لقد ذهبت شارلوت إلى فريزر منقادة تماماً، ويقال أن فريزر كانت له عشيقة فرنسية في دوفر. وعلى ذلك فإن الأمر يبدو كما لو كان صورة نموذجية من تلك الاتفاقات المتحضرة التي تميز بها القرن الثامن عشر. وقد وصفت صوفيا بلاك وود صديقته شارلوت بعد عام من زواجها قائلة أنها "تزدهر وفي غاية السعادة".

□ وربما كانت قصة مورين أنجستر، أصغر الشقيقات الثلاثة، هي أكثر القصص الثلاث أهمية وإمتاعاً، ولكن سوء الحظ، أنها أسوأها تسجيلاً وحفظاً. ويقتطف بوزويل من هوراس والبول قوله أنها لابد أن تكون تجربة مبهجة أن ينال اللذة حب مثل تلك الشقيقات الجميلات الثلاث، وأنها تجربة لابد أن يحاول كل رجل أن يمر بمثلها خلال حياته. وكانت مورين - عندما تزوجت ماري من هوراس جليبي - في الثالثة عشرة من عمرها فحسب، ورفض والدها أن يسمح لها بالذهاب إلى لندن لكي تقيم عند اليزابيث مونتاقو، بعد أن عرف - دون شك - بما حدث لابنتيه الأخريين هناك. ولكن طالما أن ماري قد تزوجت، فقد كان من المستحيل أن تمنع مورين من الذهاب إلى كلوسيبي والبقاء هناك. ومن الغريب تماماً، أن الإيرل كان يقدر هوراس جليبي تقديراً عظيماً، وفي عام ١٧٨١، بعد أن ورث جليبي اللقب من أخيه، وصفه الإيرل بأنه "أكثر الرجال عطفاً وبهجة في إنكلترا". وهذا جانب من جوانب جليبي لابد أن نتذكره. ولما كان صديقاً ملازماً لأيزموند، فإنه عندما كان يقف بالقرب منه، كان يظهر في صورة غير مناسبة. ولكن إذا لم تأسره الغيرة، أو إذا لم يحاول أن يقلد أيزموند أو أن يعتمد التفوق عليه، فإنه يبدو كما لو كان رجلاً جذاباً مثيراً بالإعجاب، أصبح بالتدريج نموذجاً من نماذج الأرستقراطيين الرياضيين. (وهناك جانب آخر من طبيعته، يتمثل في اهتمامه بالحكايات الشعبية الاسكتلندية. وكان اقتناعه بأن ملحمة "وسيان" كانت عملاً مزيفاً هو الذي دفعه إلى اكتشاف قصص المرتفعات الشمالية الشعبية الأصلية، التي قام بتجميعها، في شكل أقرب إلى شكل مجموعة لونيوت كالبافالا، حولها إلى بناء قصص واحد تحت عنوان "ذخائر الشمال" في عام ١٧٩٣).

وفي الخطابات التي وجدها في نهاية مخطوطة جليبي، لم أعر إلا على إشارة واحدة لما حدث بين أيزموند ومورين أنجستر. ففي الخطاب الثاني، يكتب أيزموند قائلاً: "تؤمن قبيلة جرمانية معينة تعيش في المناطق الشرقية العليا من الدانوب بأن بعض العذارى لهن قدسية خاصة، وأنه يجب النظر إليهن باعتبارهن الحافظات المقدسات لأسرار الخليقة... ويمكن معرفة مثل تلك النسوة من خلال ما يبدو في عيونهن من قدرة دائمة على الحلم والابتعاد الأحلام في الآخرين، مع رقة في التعبير الصحوبة بالرشاقة الطبيعية الجديرة بربة من الربات. وحينما يلتقي الرجال بمثل تلك النساء، فإنهم يصبحون غير مطالبين إلا بأداء واجب واحد،

أن يعبدوهن. وبعبادتهن، أعني تأكيد جلال الربة في قدسيتها الأبدية". وعلى هامش هذا الخطاب إلى جوار تلك السطور، هناك سطر بخط هوراس جليبي يقول فيه: "بهذا، فاز بذلك، بمورين أنج".

وكانت هذه، حتى تلك اللحظة، هي كل معلوماتي عن مورين أنجستر. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم، قمت أنا وأنجيلا والستير بفحص كل ما وجدناه في الخزانة التي أخذناها من السقيفة. ولكننا لم نعثر على المزيد الذي يمكن أن نفعنا في تحقيق هدفنا. وسوف أكتب في مكان آخر عن الرواية التي كتبها أيزموند في مرحلة باكورة - في سن التاسعة عشرة - تحت عنوان "الأردنيس وليونيتا" - حينما كان في غوتيفين، وعن قصيدته الطويلة "في ذكرى تشارلس تشيرشيل" التي كتب في نفس الوقت تقريباً. وقد عثرت على الرواية والقصيدة معاً في المكتبة الكبيرة في قصر كلوسيبي، ولا شك أنهما وصلا إلى يدي هوراس جليبي تنفيذاً لأوصية أيزموند. والقصيدة لا يمكن أن تكون خالية من أي قيمة. كان تشارلس تشيرشيل واحداً من أفضل الشعراء المعروفين في عصره. كان فسيحاً، ساخرًا في أسلوبه، مصارعاً (فقد كان ذا جسد هائل القوة) وكان عضواً في نادي نيران الجحيم، مات في سن الثالثة والثلاثين نتيجة إصابته بعدوى الحمى عندما كان يزور ويكليز في فرنسا. وقابله أيزموند، وأعجب به بوضوح، وفي مخطوطة رواية "خطابات من فوق أحد الجبال" يذكر تشيرشيل (كذا) باعتباره "واحداً من أسوأ أعضاء جماعة العنقاء شهرة. فإذا كان هذا صحيحاً - وهو محتمل تماماً كما نعرف من خلال كل المعلومات المنقولة عنه - فإن هذا يثير الاهتمام باحتمال أن تشيرشيل كان أول من أخبر أيزموند بأمر الجماعة.

بلغت استنارتي بسبب اكتشافي لذلك المزيد من المواد حداً جعلني أكتب خطاباً طويلاً إلى فليشر من قصر كلوسيبي - الخص له فيه اكتشافاتي حتى تلك اللحظة - بما في ذلك بعض المعلومات عن جماعة العنقاء - مقترحاً أنه من الأفضل أن أكتب هذا الكتاب (الذي تقره الآن) كمقدمة مستقلة لمذكرات أيزموند. كانت ما تزال هناك بعض الأسئلة دون جواب، كيف مات هوراس جليبي؟ ما الذي حدث لمورين أنجستر؟ وقبل كل شيء، ما الذي حدث لأيزموند في سنواته الأخيرة؟ ولكن كان من الممكن أن تترك هذه الأسئلة جانباً لتكون موضوعاً لأبحاث أخرى.

وقبل مغادرة قصر كلوسي - بعد يومين من كتابة هذا الخطاب - اكتشفت أجوبة جزئية لاثنتين من تلك الأسئلة. كنا قد قررنا أن نرحل في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، لكي نحاول الوصول إلى انفرن في وقت متأخر من الليل. تناولنا طعام الإفطار مبكرين. وبينما كانت أنجيلا تحزم آخر ما سوف نأخذه معنا في الدقائق الأخيرة، درت أنا دورة حول المكتبة. كان الكثير من الكتب قد أفسدته الرطوبة أحياناً، وكان أحدهم قد صنع كومة من تلك الكتب المتلفة في أحد أركان الحجرة، ربما بنية أن يرسلها لكي يعاد تغليفها في مكان ما. كنت أعرف أن هذه الغرفة لابد وأنها تبدو بنفس الصورة التي كانت عليها حينما اشترك أيزموند وهوراس جليبي في الشرب في أواخر كل ليلة هنا - ثم قررا أن يتبادلا الفراش.

حاولت عدة مرات أن أضع عقلي في وضع أو حالة سلبية، لكي أحاول أن "ألتقي" أيزموند (كما يتلقى جهاز الاستقبال رسائل لاسلكية) ولكن المنزل كان يعج بالحركة وأصبحت عاجزاً عن التركيز. وفجأة تماماً، وصلت الرسالة. أصبحت المكتبة مألوفة لي بطريقة غير مألوفة. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن أصف بها إحساسي. إن أحاسيسنا تجاه الأماكن تصنعها غالباً ذكرياتنا وما يمكن أن تبعثه لدينا تلك الذكريات من تفاعيات داخلية. ولكن ذكريات أيزموند عن تلك المكتبة كانت مختلفة كل الاختلاف عن ذكرياتي. وهكذا، أصبحت المكتبة - بمعنى من المعاني - مكاناً مختلفاً. ووجدت نفسي أنظر إلى رف مرتفع في أحد الأركان قريباً من النافذة. عبرت الحجرة إلى هذا الرف. كان "أيزموند" قد كاد يتلاشى الآن بالفعل. كان الرف خالياً، والخشب المشغول من خلفه كان مكشوطاً وقد بللته الرطوبة ولزوجة الطلاء الحديد. وخطر لي أنه لو كانت هناك كتب فوق هذا الرف قبل طلائه، لكانت الآن موجودة بين الأكوام المتراكمة في ركن الحجرة. ذهبت إلى تلك الأكوام ورتبتها على شكل صف طويل على الأرض، وقد قلبت كعوبها إلى أعلى. ولم يبد لي أي عنوان من عناوينها ذا أهمية خاصة: كتب صلوات، وكتب رحلات، قصائد كاوبر، بعض كتب سكوت. بل كانت هناك نسخة من طبعة توشفيتز لأحد كتب هنري جيمس. رحت أفتحها، واحداً بعد الآخر، عشوائياً، ملقياً نظرات سريعة إلى صفحات العناوين الداخلية الأولى. التقطت نسخة من كتاب "تقرير عن جزر ساندويتش" وكانت قد أفسدت بشدة الرطوبة، والصفحات تعجنت من البلل. وحينما نظرت إلى صفحة العنوان الداخلية الأولى، عرفت أنني وجدت ما كنت أبحث عنه. كان

الكتاب بقلم مورين أنجستر. وهو من نشر موراي، ناشر اللورد بايرون، في لندن عام ١٨١٣، أي في العام الذي بلغت فيه مورين عامها الثاني والأربعين. كان الكتاب مهدى إلى "ذكرى هوراس لورد جليبي". وتحت هذا الإهداء، كتب أحدهم: "طعن في عينه اليمنى بيد أحد القتلة المجهولين في ٢٨ يوليو عام ١٧٩٦". كانت الكلمات قد تبللت إلى درجة سيئة وامتزج الحبر بالياق الورق متشعباً منتشراً حتى أصبحت قراءتها عملاً على شيء من الصعوبة.

وهكذا، فقبل أن يغادر قصر جلوسي في ذلك الصباح، كنت قد عرفت شيئاً آخر عن عائلة جليبي: أن هوراس قد طعن ولم يطلق عليه الرصاص. وأن مورين أنجستر قد سافرت إلى الشرق في أيامها الأخيرة، وزارت اليابان وأستراليا وجزر ساندويتش. وقد تأكدت فيما بعد من أن الكلمات التي كتبت تحت الإهداء كان كاتبها هو ابن جليبي.

كنت مسروراً من نفسي إلى درجة كبيرة. لم تكن الزيارة قد أثمرت بالدرجة التي كنت أرحوها، ولكن كانت كل ثمارها ثمينة وذات قيمة كبيرة. كان الستير وأنجيلا سعيدين أيضاً. لم يكونا قد عثرا على بقية مذكرات دونيللي. ولكنهما كانا قد عثرا على نسخة من الكتاب المقدس تساوي عشرين ألفاً من الجنيهات.

زودتني معرفتي بأن جليبي كان قد طعن بمادة للتأمل، وخاصة بالنظر إلى ما أضافه أيزموند على خطابه الأول بعد التوقيع عليه: "إنني أرحوك أن تدمر، أو على الأقل أن تخفي هذا الكتاب عن الأنظار، ليس فقط باسم صداقتنا، ولكن من أجل سلامتك أنت وسلامتي". فهل كان أيزموند يواجه أي خطر تهدد به الجماعة؟ هل يمكن أن يكون موت جليبي نتيجة لتجاهله تحذير أيزموند؟ كانت هناك سمة واحدة غريبة - على الأقل - في جريمة القتل، إنها حدثت في حجرة صغيرة بالطابق الثاني. فإذا كان جليبي قد طعن وهو في الفراش وقتل هنا، فلماذا لم يكن نائماً في إحدى حجرات النوم الكبيرة المطلة على البحيرة والمتحجرة؟ وجدت نفسي أتمنى لو كان بوسعي أن اتصل بأيزموند لكي أسأله. ولكن لم أحظ بأي قدر من التركيز يعطيني المفتاح الذي كنت بحاجة إليه.

عدنا إلى شقة الستير في لندن في الساعة الثانية من عصر يوم الجمعة. كان يوماً مشمساً. وفي الحقيقة كان أكثر حرارة من أن يسمح بالراحة. وجدت نفسي أتمنى لو كنت قد أتيت معي بملابس الصيف. كنت أفكر في أيزموند الذي كان جسده يذوب

ويتلانى في قلب مقبرة العائلة منذ أكثر من مائة عام - فأتمنى لو أستطيع بشكل ما أن أشاركه رغبته.

كان الستير مشغولاً بعمل ما في المدينة. فتناولت أنا وأنجيلا غداء متأخراً. من المستحيل أن تقوم بين شخصين علاقة حميمة على حين فجأة وبشكل عنيف، دون أن يستمرا في التفكير أحدهما في الآخر - بمعنى من المعاني - بوصفهما عاشقين. ولكن اللقاء الذي شرع ينمو بيننا لم يكن من ذلك النوع الذي ينمو بين الرجل وبين زوجته. وجدت نفسي أخيراً بتلك التجارب الغريبة التي "أصبحت" في أثنائها أيزموند، وكيف أدت بي آخر تلك التجارب إلى العثور على كتاب مورين أنجستر. توقعت منها أن تجد في الأمر ما يبعث على الاهتمام، أو أن تنظر إليها باعتباره شيئاً مسلياً، ولكنني لم أتوقع منها أن تجده أمراً قابلاً للتصديق بشكل كامل. فقد كنت على كل حال، أغرق نفسي بشيء من العمق في أيزموند، وربما إلى درجة أكثر من اللازم. ولكن رد فعلها أدهشني. ارتبكت وبدأ عليها الانزعاج. قلت:

"لا شيء يستحق القلق. إنما نظرت إلى الأمر كشيء يثير الاهتمام".

وجدتني أحتج بوجهة النظر العقلانية التي توقعت منها أن تأخذ بها. ولكنها قالت أن الستير قد تحدث معها عن شعوره بالغربة في قصر جلوسيبي، وأنه تساءل عما إذا كانت حجرته مسكونة".

بعد الغداء بنصف ساعة، وبينما كنت أفحص مخطوطة رواية جليبي، قالت:

"هل تظن أنه يحاول أن يقول لك شيئاً؟"

"من؟"

"أيزموند".

حاولت أن أوضح لها أنني لا أشعر - أو أنه ليس لدي إحساس - بحضور أيزموند. وإنما أنا أرى الأشياء - ببساطة - بعينه هو كما لو كنت أنا أيزموند.

والمرء لا يحاول أن يخبر نفسه بشيء ما".

قالت: "ظن أننا يجب أن نتصل بالدكتور كورنر".

كنت قد قررت ذلك فعلاً قبل أن تقوله أنجيلا. ولكنني كنت أريد أن أؤجل ذلك الاتصال لمدة أربع وعشرين ساعة أخرى. كنت أريد أن أمضي أمسية هادئة في فحص الأوراق المختلفة التي جئنا بها معنا من كلوسيبي. هالت أنجيلا:

"اسمح لي بأن اتصل به".

"حسناً. إذا كنت تريد ذلك".

وبعد عشر دقائق، قالت:

"لقد دعوته لشرب كأس معنا في الساعة السادسة".

وفي حوالي الخامسة والنصف، دق جرس التليفون، فرفعت أنجيلا السماعة. وضعت يدها على السماعة وقالت:

"إنها أنا دانكلمان..."

هزرت رأسي بقوة لكي أؤكد لها أنني لا أريد محادثتها، فقالت لها أنجيلا أنني بالخارج وأنني لن أعود إلى وقت متأخر. ذهبت إلى الحمام بينما كانتا تتحدثان، واغتسلت. وحينما عدت بعد عشر دقائق كانت أنجيلا ما تزال تتحدث، ولكنها أنهت المكالمة بينما كنت أيدل ملابسني في حجرة النوم.

"تلك المرأة مرعبة تماماً. أتمنى لو أنني لم أعطيها هذا الرقم".

"ماذا كانت تريد؟"

"لأبد أنها تملك حاسة سادسة. لقد قالت أنها قد سمعت الآن توأ أن كورنر موجود في لندن وأنها أرادت أن تنصحك ألا تراه. ثم راحت تسرد علي قصصاً طويلة متشابكة عن مقدار ما يملكه من شر وقدرة على الإيذاء".

"ماذا قالت من أفعاله؟"

"أوه... مشاجرات عما كان يعنيه رايبخ وما إلى ذلك. ولكنها قالت أنه يذبح عنهما إشاعات كاذبة، وأنها تنوي أن تقاضيه بتهمة القذف. أما كل ما كانت تقصده فهو أنها تريدك أن تتجنب كورنر. فإذا حدث أن قابلته، فلا تصدق كلمة واحدة مما يقول".

كنت جالساً على الفراش، أعقد رباط رقبتي. اقتربت مني أنجيلا وغرست أصابعها في شعري للبتل. انتابتنى دهشة بسيطة، ولكنني افترضت أن هذه المكلة قد صدمتها بشكل ما وأنها تريد شيئاً من التدليل. أحطت خصرها بذراعي وضغطت عليها قليلاً. أخذت يدي بكلتا يديها وضغطت بهما على نهديهما. نهضت واقفاً، وانحنيت عليها ومنحتها قبلة لكي أطمئنها، فوجدت نفسي أضمرها بقوة حتى التصقت بي، وأصبح جسداً كتلة واحدة مندمجة. وبعد أن تبادلنا القبلات للحظة. قالت بصوت متوتر:

"إنه شيء مربع... ولكني أريدك أن تمارس الجنس معي".

"لا يكاد يكون هناك وقت".

ولكن كان باستطاعتها أن تشعر بي وأنا اتصلب في التصاقها بها.. كانت أكثر من مستعدة لممارسة الحب. وحينئذ، هجأة، انفلتت من بين ذراعي وابتعدت عني. قلت:

"ماذا حدث؟"

انفجرت باكية وقالت:

"إنني أكره نفسي".

"لماذا؟"

"إنها هذه المرأة الكريهة العفنة. أعتقد أنها تستخدم التنويم المغناطيسي. فحينما

كانت تتحدث معي..."

لم تستطع الاستمرار في الكلام. احتضنتها مرة أخرى، ولكن دون رغبة في هذه المرة. قلت لها مؤكداً أنه من الصعب القول أنه من المخجل أن يكون المرء قابلاً للتأثر بالإيحاء. وبعد قليل من الأسئلة اكتشفت أن السيدة دنكلمان قد تحدثت عن الاحتفالات الجنسية الجماعية. قالت أنجيلا:

"أعرف هذا، ولكنها مسألة تبدو كرية جداً. لقد أردت أن اغتصبك".

"لا تسمح لي بأن أطفئ شعلتك الملتهبة".

ولكننا نعرف معاً أن نوبة الحمى قد انتهت. ولكي أؤكد ذلك، أرقدتها على الفراش وقبلتها برقة، ثم ربت على نهديهما وفخذيها بيدي. استرخت مثل طفلة صغيرة. كان بوسعنا أن نمارس الجنس في تلك اللحظة، ولكنه كان سيصبح جنساً رقيقاً هادئاً مثل ما يمارسه زوجان طيبان، كما لو كان امتداداً لقبلاتنا، ولن يكون حمى مسعورة متأججة. وبعد عشر دقائق، حينما كان جرس الباب يدق، كنت أشرب كأساً من المارتيني اشتدت حاجتي إليه، وكانت أنجيلا تتحمم في الحمام.

□ كان كورنر رجلاً غريب الهيئة، طويلاً، محدودب الكتفين، رأسه يكاد يكون أصلع. وقد ذكرني على الفور بقائد الفرقة الموسيقية فورثو انكلر. لاح لي صدغه ضعيفاً، ولم ينم الوجه - بشكل ما - عن عزيمة قوية. ومع ذلك فقد كان الأثر العام الذي يخلفه هذا الشكل الغريب هو الإحساس بدكاء داخلي وقاد غير مألوف. كان صوته مرتفع النبرة إلى حد ما، ولكنه كان رقيقاً، يكاد يكون ذا تأثير مغناطيسي منوم بعد أن يتكلم عدة دقائق. كانت اللمسة الألمانية قوية، وبدت بدلتها الرمادية غالية الثمن، ولكنها ظلت تلبس منذ وقت طويل حتى علتها لعة خفيفة.

رفض أن يشرب كأساً، "إنني لا أشرب سوى قليل من عصير الفاكهة" ثم جلس على حافة مقعد كبير عميق ذو مستدين وقد وضع يديه البارزتي العظام بين ركبتيه، عاملاً على أن يبدأ في وقت واحد بمظهر فيه كثير من الاسترخاء وعدم الراحة معاً. حينما دخلت أنجيلا، ففز واقفاً على قدميه، وانحنى مقبلاً يدها بدمانة وتهذيب طبيعيين، وفي رشاقة بليت تعبيراً عن شخصيته الداخلية. اقترحت أنجيلا أن يجلس على الأريكة. وفي هذه المرة، قذف بنفسه إلى الخلف في أحد ركني الأريكة بتلقائية مبالغ فيها ثم وضع ساقياً على ساق، كاشفاً عن جوربه المصنوع من الحرير ذي الخط الأبيض الناصع الطولي. ثم بدأ يتكلم:

"حسناً، يا عزيزي مستر سورم، هذا حقاً شرف عظيم لي. إنني أعرف كتبك معرفة جيدة بالطبع. (وقد اتضح لي فيما بعد أن هذا صحيح، فقد كان يقتبس منها اقتباسات طويلة في حديثه بطريقته الألمانية التعليمية) واسمح لي أن أقول منذ اللحظة الأولى أنني أتمنى أن تجد في بعض آرائي ما يثير اهتمامك، مثلما أجد أنا في آرائك."

كان بوسعي أن أرى أن أنجيلا تكاد تموت من لهفتها إلى أن تسأله عن أسرة دانكمان، ولكن كان من الصعب أن نوقف مجرى الحديث الدائر عن الأفكار والآراء بالإضافة إلى أن الرء كان جديراً بأن يشعر بتفاهة مثل هذا الموضوع بالمقارنة إلى مناقشة أفكار هولدرلين وباسيرز."

لن أحاول هنا أن أنقل تقريراً كاملاً عن محادثته. فقد مضى في حديثه، باستمرار وثبات تقريباً، حتى غادرنا عند منتصف الليل. وبدأ حديثه من النزعة الرومانتيكية الألمانية وليتاهيزيماً الفلسفية عند فلاسفة الألمان، حتى وصل إلى أفكار رايخ وتطويره هو لتلك الأفكار. ولا يمكن هنا سوى أن أقدم صورة سريعة لأفكاره المحورية الرئيسية.

كان دانكمان وزوجته قد لخصا لنا وضع ويلهلم رايخ. ولكن كورنر وصفه بشكل أكثر اكتمالاً، فقد قسم مراحل الفكرية إلى ثلاث مراحل، بدءاً من عمله بوصفه أحد اتباع المدرسة فرويدية، ثم انفصاله وابتعاده عن فرويد إلى "تحليل الشخصية" - التي قد يعتبرها أكثر علماء النفس مساهمته العظمى في هذا العلم - وأخيراً، مرحلته "النزعة" أو الهووسة، حينما اعتبر نفسه "عالمًا طبيعياً"، وحينما اعتقد أنه قد اكتشف نوعاً غامضاً من الطاقة يدعى "الأوركون" يمكن أن يركز بطرق مختلفة. ولكن ما أدهشني كان ما أثبتته كورنر من أن رايخ كانت له نظريات مادية النزعة - بقدر ما من المادية - حول الأمراض العصبية (وقد كان رايخ عضواً في الحزب الشيوعي حتى فصل منه بسبب آرائه المعارضة لآراء الحزب حول أسباب الفاشية).

وقد بدأت أفهم كورنر بصورة أفضل حينما تحدثت عن فكرة رايخ حول "درع الشخصية". كيف ينمي الناس أنواعاً مختلفة من القشور الصلبة حول شخصياتهم لكي يغطوا أنواع قصورهم ونقاط ضعفهم والثغرات التي يخشون منها على أمتهم الداخلي، وكيف يمكن لتلك القشور في الوقت المناسب أن تتحول إلى درع قوية - مثل الحلة الفولاذية التي كان فرسان القرون الوسطى يرتدونها في الحرب - تخنق الشخص في داخلها. ومن

الواضح أن كورنر قد آمن بهذه الفكرة إيماناً مطلقاً واستقرت في أعماقه. ولاح لي أن هذه قد أصبحت الآن تكون لشخصيته أي دروع على الإطلاق، وبدأ لي كما لو كان في حالة سيولة كاملة دون حماية - أو تحصين - من أي نوع. وسرد علينا بصراحة كيف عالجه رايخ من إصابته بتصلب العضلات كانت تسبب له آلام تقلصات الياف العضلات الضنية. وكان هذا التصلب راجعاً بشكل أساسي إلى الحرج الذي يمكن أن يشعر به رجل شديد الحساسية - مثلما تبدأ كتابة تلميذ، تتصلب وتتشنج يده حينما يطل المدرس إلى كراسه من فوق كتفه أثناء الكتابة.

وبعد كل ذلك كان من الصعب أن أفهم كيف حقق كورنر تحوله إلى نظريته عن الوعي الباطن - رغم أنه هو نفسه قد اعترف بأنه لا يرى أي ترابط بين الفكرتين وفكرته - أساساً - تلخص في أن الحضارة والعقل المنطقي، قد دفعا الإنسان إلى حالة اصطناعية زائفة. وقد نظر إلى قدرة الإنسان على التفكير باعتبارها نوعاً من السقوط من حالة النعيم المبارك، شكلاً من أشكال الخطيئة الأصلية. وقد أطلق على الوعي اسم، "ضوء النهار الصناعي"، وفارقه بالضوء الكهربائي الذي ساعد الإنسان على أن يرى في الظلمة، ولكن الضوء الذي كان من نتيجته أن عزل الإنسان بحدّة عن الليل الممتد خارج نافذته، قال أن الحيوانات بشكل ما تتطابق مع الطبيعة، أما الإنسان فقد وقع في شرك حجرة وعيه ذات الضوء الكهربائي.

ويظهر هذا بشكل خاص في المجال الجنسي، لأن الجنس ينتمي بشكل أساسي إلى ذلك "الليل" الممتد خارج النوافذ. الحيوانات تنزلق إلى الجنس مثل تمساح ينزلق من ضفة النهر الرميلة إلى المياه (هذه صورة كورنر)، أما الإنسان فلا بد أن يقفز إلى المياه من فوق منصة مرتفعة. إنه يصل إلى هناك لا خلاف، ولكن إن لم يكن غواصاً ماهراً، فإن تأثير القفزة والغوص المفاجئ يمكن أن يدمره. قال أنه من الحق أن الجنس يعتمد على الانفصال القائم بين الذكر والأنثى، مثلما يعتمد مولد الكهرباء على التناثر بين قطبي المغناطيس. ولكننا بالغنا في هذا الانفصال حتى أصبح "قفلًا" آخر إضافية وضع على باب السجن. وتكاثر أنواع الإحباط والخيبة، أصبحنا معزولين غرباء عن المجتمع وأحدنا عن الآخر، بالإضافة إلى اغترابنا عن الطبيعة. وتتبدى مظاهر المرض في تزايد نسبة الجريمة، وفي الطبيعة البربرية المغيثة التي تبدو بها بعض الجرائم - وقد أشار هنا إلى بعض الجرائم المذكورة في كتابي.

الإجابة، أو الحل طبقاً لما يقوله كورنر بسيطة بسيطة جميلة، إن الجنس ينبغي أن "يظهر" حتى تصبح العلاقة الجنسية بين البشر طبيعية مثلما هي بين الحيوانات. فإذا ما تمكنا من إزاحة الحاجز الجنسي الهائل بين الناس، عادت الرابطة القوية القديمة بين الوعي والوعي الباطن إلى سابق عهدها، وسوف يستفيد الإنسان من حضارته - التي لن تعود وحشاً مثل وحش فرانكشتاين كما هي الآن - بالإضافة إلى استفادته من بساطة الحيوان الصحيح للتكوين. إن "سفر التكوين. مصيب في قوله أن "الخطيئة جاءت من وعي الإنسان أو شعوره بالخجل الجنسي. يجب أن يختفي "كل" خجل من أي نوع.

عاد الستير إلى البيت حينما كان كورنر يشرح آراء رايخ، واقتن به الستير حتى أنه نسي أن يصب لنفسه ما يشربه. وبعد ساعة، اقترحت أن نخرج جميعاً لكي نتناول طعام العشاء، ولكي نمضي في "الناقشة" (التي كانت أن تكون محاضرة تقريباً، رغم أنها كانت تلقى بأكثر الأشكال العادية وغير الرسمية سحراً و جاذبية). طلبنا عصير نبيذ تشابليس الفرنسي مع الطعام، وشرب كورنر كاسين بعد أن أضاف إليهما الماء. ثم سرنا حول الميدان مدة من الزمن - فقد قال كورنر أنه يحتاج دائماً إلى الحركة الجسدية إذا كان عقله يعمل بصورة جيدة - ثم عدنا إلى الشقة. كانت لدي تحفظات معينة إزاء أفكار كورنر، ولكن كان يوسعي أن أرى أن صاحبي الآخرين سوف ينظران إليها كشيء من المماحكة. ودون أي تردد، وصفت أنجيلا ما كانت تجده من كوابح جنسية في طفولتها، وقال لنا الستير كيف أنه لم يتخلص أبداً من الإحساس بالخجل والعار حينما نظر إليه شخص ما من فوق حاجز المرحاض في المدرسة فضبطه وهو يمارس العادة السرية. رأيت أنجيلا وهي تجفل إزاء هذا الاعتراف، واعتقد أنها لم تتخيل أبداً أن الصبية يمكن أن يكونوا على هذه الدرجة من الحيوية الجنسية. ولشدة دهشتي، مضت أنجيلا لكي تصف ما حدث لنا حينما زرنا أسرة دانكمان لآخر مرة. وظننت في البداية أنها لم تكن تريد إلا أن تخبره بأن أنا دانكمان أصرت على أن تعري نفسها، ولكنه بعد أن احمر وجهها ورمقتني بنظرة سريعة، انتقلت إلى الحديث عما حدث في السيارة. وكان هذا هو دور الستير في الجفول، إن لم يكن في الظهور بمظهر الصنوم. وانتهت بقولها، "كيف يمكنك أن تفسر ذلك؟"

لاح الاهتمام والاستغراق في الموضوع على كورنر. وظل يوميء برأسه ببطاء.

"إنهما ماسكران" ماسكران جداً. لقد كان علي أن أطردهما من مجموعتنا لأن ما أراداه حقاً كان هو أن ينظما جمعية للاحتفالات الجنسية الداعرة. (حينما قالت أنجيلا "هذا هو ما قاله عنك"، أوما برأسه في حركة أكثر وفاراً) اتفهمون؟ إنهما ليسا من البشر المتحضرين. إنهما ينتميان إلى مرحلة من مراحل تطور المجتمع أكثر بدائية - مرحلة التابو (المحرمات) والتضحية بالبشر كالقربان. سأروي لكم ما أدى إلى انفصالنا النهائي. كان علي أن أذهب إلى ألمانيا للقيام ببعض الأعمال القانونية. كنت أعرف أن رايخ كان يثق بهما، ولذلك فقد تركت لهما مسؤولية الإشراف على مجموعتنا. وجاءت أنا ذا يوم إلى الاجتماع حاملة رمزاً ضخماً لعضو التناسل الذكري مصنوعاً من الخشب - يمكن أن تطلقوا عليه صفة الشيء الخرافي. وزعمت أن هذا الرمز الخشبي الضخم كانت تستخدمه قبيلة الريفية في احتفالات اقتراع العذارى الأسيرات قبل تقديمهن ضحايا وقربان للآلهة. وأنتم تعرفون أن واحداً من أهم مبادئنا هو أن تمريناتنا على خلق الألفة بين البشر تقوم على التوقف قبل الاتصال الجنسي الكامل. وليس هذا لأننا نعتبره شيئاً سيئاً، وإنما لأنه يخفف التوتر بسرعة كبيرة، والتوتر ينبغي أن يتصاعد حتى يمكن أن يستخدم في تحويل اتجاه العقل. (فكرت في الهولنديين واحتفالاتهم مع العذارى القدسات). ولم يحاول هذان الاثنان - دانكمان وزوجته - أن يعارضا هذه الفكرة بطريقة مباشرة، ولكنهما أصرا على أن تمريناتنا على خلق الألفة ينبغي أن تتصاعد حتى تصل إلى أن يمارس شخص مثل الكاهن الجنس مع إحدى النساء باستخدام رمز خرافي لعضو الذكورة التناسلي، ثم يقذف لبنا داهناً داخلها في لحظة بلوغها ذروة النشوة. وقد استمتعوا جميعاً بهذه العملية بالطبع، وأصبحت الفتيات يصرخن من التهيج حينما تبلغ المرأة ذروة نشوتها. وكان كلاوس دانكمان بالطبع هو "الكاهن" في كل مرة. وكان دائماً يصصر على أن يرتدي ملابس كاملة، فكان يرتدي حلة كاملة فاتمة اللون، ولكنه يخرج عضوه بارزاً من فتحة بنطاله بعد أن يطلبه ببعض الألوان الزاهية مثل الثعبان. (وكان رايخ يقول أن دانكمان وزوجته يعانيان من كل أنواع الانتكاس الجنسي التي وصفها فرويد). ولحسن الحظ عدت أنا بعد بداية هذه العمليات بوقت قصير. وطلب دانكمان وزوجته بتصويت ديمقراطي بين الأعضاء لتوضيح من يريد الاستمرار في هذا "التمرين". (هنا احمر وجه كورنر، وبرزت عروق جبهته)، قلت لهما أنه لن يكون هناك تصويت. فإن هذا كان مناقضاً لأفكاري، فإذا لم يوافقا عليها كان بوسعهما أن يذهبا لتكوين مجموعتهما الخاصة. وعرضت أنا أن أستقبل لكي أكون مجموعتي الخاصة في مكان

آخر. ولكن لم يكن هناك من يريد ذلك بالطبع - فقد كنت اكتسبت شخصية الأب ووضعه بالنسبة للمجموعة. ولم يكن هناك من يظن أنها فكرة طيبة سوى دانكمان وزوجته. فكان علي أن أطردهما. وبعد ذلك حاول أن يكونا مجموعتهما الخاصة، دون نجاح. ولكنكم ترون (هنا رفع إصبعه إلى السماء) إنهما لا يملكان أي أسس فكرية. باختصار إنهما لا عقل لهما" ثم أشار بإصبعه نحوي: "وهذا هو سبب لهفتهم إلى اكتساب تأييدك. فإن الأفكار تستطيع أن تكسب لهما المؤيدين والأمنصار. إنك يمكن أن تكون عشيقاً للسيدة دانكمان..."

قلت: "معاذ الله!"

"ولكنك قد تكون. إنها تعرف كيف تسيطر على الرجال، مثلما رأيت. حينما كانت عضو في جماعتنا، كانت دائماً ترتدي أجمل الملابس الداخلية، كما لو كانت فتاة صغيرة مفرجة بالحياة هواره الرغبات بدلاً من أن تكون المرأة النصف ذات الأربعين عاماً. وأنا أعرف أنها وجدت عشاقاً عديدين..."

سالت أنجيلا، "هل تظن أنها تملك نوعاً من القدرات الغناطيسية إذن؟"

"بالطبع لا. إن ما قلته لي الآن ثوأ هو ببساطة برهان على ما كنت أشرحه لك. إن الهوية الجنسية التي تفصل بين البشر ليست هوة طبيعية. ولكن حتى أكثر الناس صحة ونفسية مليئون بأنواع الكبت. إنك فتاة طهرية مترزمة إلى حد ما. وإنني لعلني استعداد للقول بأنك لم يكن لك سوى عشيق واحد؟ (أومات برأسها). وهكذا هو الأمر. إن هذه المرأة لا تتحدث فقط بصراحة عن الجنس وعن الاحتياج إلى التخلص من كل أنواع الكبت، وإنما هي تظهر بنفسها وتتعري لكي تثبت بجسدها ما تقول وما تعني. وهكذا يختل التوازن القائم بين عقلك وبين طاقاتك الجنسية. وتنفجر الطاقات مثل الحمم المتفجرة من بركان، فتظنين أنت أنها سحرتك، بينما أنت التي تقومين بكل شيء."

ابتسم بسعادة عندما اكتملت فكرته وتلاقت خطوطه بهذا الشكل الواضح. قالت

أنجيلا،

"فماذا حدث حينما اتصلت بالتلفون هذا المساء..."

أبي حنا

"لقد حدث التأثير مرة أخرى؟ فقد تذكرت ما حدث في المرة الأولى!"

هجة أدرك ما قالت، صالح بها: "هل اتصلت بك؟ لماذا؟"

أخبرته أنجيلا بالسبب فهز رأسه وقال،

"أه، الشيطانان الماركان. هل قلت لك أنه كان قاتلاً؟ لقد كان جديراً بأن يعدم في أي بلد باستثناء سويسرا" السويسريون متسامحون جداً".

حينما دقت الساعة معلنة منتصف الليل، نظر إلى ساعته ثم قفز واقفاً على قدميه مثل أحد رجال سلاح الفرسان يهب لصيحة "انتباه". قال،

"يجب أن أترككم. أن الغد يوم صعب بالنسبة لي."

نظر إلينا مفكراً، ثم قال، "لا بد أن أكون صريحاً معكم. إن مجموعتي تربطها علاقة قوية شديدة الانسجام لأننا عملنا معاً لسنوات عديدة، ولذلك فإن الأعضاء الجدد يبقون طويلاً في مرحلة الأعداد كمرشحين للعضوية. ولكنني أشعر في حالتكم أن الإسراع له ما يبرره. ولقد قررت بالفعل أن أدعو صديقي جيرار لحضور اجتماع جماعة الألفة. فإذا راق لكم أنتما الاثنين أن تاتيا معه..."

لو أن هذه الدعوة وصلتتهما منذ ست ساعات فحسب لرفضهاها على التو دون تردد، ولكنهما الآن كانا واقعين تحت تأثيره حتى أنهما وافقا مع إبداء كثير من الامتنان للتحمس سألته عن الموعد فقال،

"غداً بعد الظهر. أتيكم سيارة؟"

أوما الستير برأسه.

"حسناً.. سوف أرسل شخصاً ما للمجيء بكم في منتصف نهار الغد. وسوف تتبينون السبب الذي يجعلني عاجزاً عن إعطائكم العنوان."

خبط بكعبيه وهو ينحني انحناء خفيفة، ثم رحل. توقع أن يسرع الستير وأنجيلا إلى فراشيهما - وكنت مستعداً للنوم. ولكنني نسيت أنهما يصغرانني بخمسة عشر عاماً على الأقل. شرعاً في مناقشة ما قاله لهما، وظلاً بطالباني بإبداء رأيي. كنت مرهقاً للدرجة

نمنعني من الحديث عن تحفظاتي. ثم سألته أنجيلا عما إذا كان قد صدم بما روته عما حدث في سيارة الأجرة. أحجم أولاً عن الكلام، ثم برز لمواجهة الحقيقة. قال،

-لَمْ تكن صدمة على وجه التحديد. إنما كانت القرب إلى الغيرة. أعتقد أنني أفكر فيك كما لو كنت أحد أفراد العائلة".

سألته: "وكيف ستفكر في الغيرة لو أننا اتبعنا جميعاً أفكار أوتو؟" (وكننا جميعاً ننادى باسمائنا الأولى).

-لا أعرف. الحيوانات أيضاً تغار. اليس كذلك؟

-ليست هذه حالة واحدة. إنها ليست نفس الغيرة. لقد قال أوتو أننا لا نحاول العودة إلى حالة الحيوان، إنما نحاول أن نمزج بين طبيعية الحيوان وذكاء الإنسان ونهنته".

كان بوسعي أن أرى كيف يمكن لها أن تكون تلميذة جديرة بالإعجاب، فقد طلعت لنفسها كل الإجابات المطلوبة على كل الأسئلة المتوقعة.

قال مسالماً لكي يتجنب المناقشة: "أعتقد أنك على صواب".

-بالطبع أنا على صواب. إنني أحب جيرار (طرقت عيني من الدهشة) وأنا أحبك أنت أيضاً. وأنت تروق لجيرار وجيرار يروق لك. فلماذا لا يعامل أحدهما الآخر كما لو كنا ننتمي لنفس العائلة؟

شعرت بأن منطقها كان قد بدأ يشوبه نوع من الاضطراب، ولكنني تمسكت بصمتي. وأخيراً، ثأبت واشعرتهم بأنني أريد أن أنام. كانت الأريكة (التي تتحول إلى سرير للنوم) موجودة في حجرة الجلوس. وعندما أبدت رغبتي في النوم اقترحت أنهما يجب أن يتركانني، وأن يذهبا لتابعة المناقشة في حجرته. فتحت الأريكة وأعدتها للنوم، وبدلت ثيابي فارتديت البيجاما، فغرت في النوم بعد دقائق. استيقظت بعد وقت لا أعرف مقداره حينما صفق الباب بخفة، على ضوء النور القادم من النافذة، رأيت جسداً لم أستطع أن أتبين إن كان جسد أليستير أم جسد أنجيلا - متجهاً إلى الحمام. ثم خرج الجسد مرة أخرى، فعاد إلى حجرة النوم. عدت فغرت في نومي. أيقظني ضوء الشمس في حوالي الخامسة صباحاً. فتحت عيني، فتملكني شيء من الدهشة حينما رأيت رأس أنجيلا إلى جوارى على الوسادة. وحينما رفعت

رأسي، تزايدت دهشتي عندما وجدت أن التفسير كان ينم إلى جانبها من الناحية الأخرى ذهبت إلى الحمام، ثم رقيت في فراش أنجيلا الخالي، هنمت لمدة أربع ساعات أخرى، إنني لا أعارض "الألفة"، ولكن لكي "أنام" أفضل أن أكون في سرير مستقل خاص بي.

دق جرس التليفون خمس مرات في ذلك الصباح. ولكننا افترضنا جميعاً أنها أنا ذلكنا فنركناه يدق دون رد. وفي المرة السادسة، أجابها الستير، فكانت أنا ذلكنا بالفعل. قال الستير إنني وأنجيلا بالخارج وأننا سنبقى خارج المنزل طوال النهار، ثم قطع المكالمة قبل نشوء المزيد من التعقيدات.

قبل ربع ساعة من منتصف النهار، دق جرس الباب. ولما فتح أحدنا، وجدنا وراء الباب شاباً قوي البنية، رأسه مثل طليقة الرصاص. دعوانه للدخول، فجلس على الأريكة يادي الخجل. رفض شرب الشاي أو القهوة. وقال أنه شرب شايه وقهوته قبل أن يأتي بقليل. سألتها عما ينبغي أن نأخذ معنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، هز رأسه بغموض وقال،

-إيه... لا شيء".

كان اسمه كريس رامزي، وكان بعيداً عن أن يشبه تصوري عن تلامذة كورنر، كانت تبدو عليه سمة من سمات البراءة تجعله محبباً إلى النفس إلى حد بعيد، ولكن كان من الصعب أن نقول أنه صاحب أفكار أو من نوع الرجال المفكرين. تحدثت عن المصارعة، والانزلاق على الماء والقفز بالمظلة من الطائرات. ألقينا قليلاً من الملابس في حقيبة واحدة، وخرجنا من المنزل مع كريس. كان يقود سيارة رياضية صغيرة، فاقترح أن أركب أنا معه، على أن يتبعنا صديقي في سيارة أنجيلا من طراز كورتينا. مضينا بالسيارتين حتى بلغنا طريق ادكار رود، ثم عبرناه في مواجهة حانة "بارنيت وبوترز". عبرنا ضاحية وبولين كاردن سيتي، ثم استدرنا إلى الطريق الرئيسي. بعد نحو ميل وصلنا إلى حائط طويل من القرميد الأحمر، تبدو وراءه بعض الأشجار. استدرنا بين نصبين على ناصيتي طريق جانبي مصنوعين من الإسمنت فدخلنا الطريق الصغير المليء بالحفر الصغيرة. كان المنزل كبيراً إلى درجة واضحة ولكنه كان يحمل علامة تقول إنه من بناء وكالة "ريجيني" للتشييد. وكانت جدران الحديقة المغطاة بالنباتات المتسلقة وأحواض الزهور - بشكل عام - في حالة أحسن من حالة المنزل.

كان عصر ذلك اليوم معتدلاً طيب الجو، تفوح في هوائه رائحة الحشائش المقطوعة، وقد سمعت أصوات المياه في مجرى صغير يجري وراء المنزل. أخبرني كريس بأن المنزل كان مملوكاً لإحدى جماعات جيوردييف، ثم أخذته جماعة كورنر منهم. ولما كان سكان القرية المجاورة قد اعتادوا على الضرائب التي تصدر من تلامذة جيوردييف، فإن فضولهم إزاء الجماعة الجديدة كان محدوداً. وكان هذا صحيحاً كما تبينت بالفعل، وإن كانت هذه الجماعة جديدة بأن تقدم مادة جيدة لتحقيق لاذع في مجلة "نيوز أوف ذي وورلدي"، ثم ثبت لي ما كنت أفكر فيه على الفور. فطالما كان كورنر ما زال مختفياً، أو أنه لم يكن قد وصل، فقد رحلت أتمشي حول المنزل، عبر الحشائش المبتلة (فقد امطرت السماء مطراً خفيفاً حينما كنا نغير ضاحية ويلومين). بالقرب من الجانب الخلفي للمنزل، وتحت ظلال الأشجار، كان هناك جسدان عازيان يتدحرجان ملتصقين على الحشائش. جلسا، وابتما لي، ثم استمرا في دحرجتهما. كان أحد الجسدين لفتاة ممتلئة - وإن كانت جميلة. في نحو السادسة عشرة من عمرها؟ وكان الجسد الثاني لرجل نحيل مفتول في منتصف العمر. قلت: "معذرة" وأنا أشرع في الابتعاد. صاحبت الفتاة: "تعال وانضم إلينا"

"انضم إليكما في ماذا؟"

"إنها دورة الألفة مع الطبيعة. الحشائش المبتلة تعطيك إحساساً للبدن".

وضحت لها أنني جئت إلى هذا المكان لأول مرة. سألتني:

"أنت خجول؟"

"كلا". كان سؤالها نوعاً من التحدي.

"إذن تعال".

لأج على الرجل أنه مرحب بانضمامي قدر ترحيب الفتاة، ولو كنت في مكانه لرفضت تفضل طرف ثالث. خلعت كل ملابس لي ولم يكن في هذا أي حرج، لأن من عادتي أن أسير في منزلي عارياً لمدة من الوقت بعد أن أستيقظ من النوم - ثم ذهبت إليهما لكي أجلس بجوارهما، قال الرجل:

"اجلس، جرب ما نفعله".

جلست ثم تمددت على الحشائش وتدحرجت، شاعراً بشيء من الغباء. ولكنه كان على صواب؟ فقد غمرني إحساس لذيد من ملازمة الحشائش المبتلة للجلد العاري. بعد أن تدحرجت حتى شعرت بشعيرة البرد، ذهبت فرقدت في الشمس التي سرعان ما جنتني كان الرجل لحظتها يرقد على ظهره، وكانت الفتاة تجذب بيدها حزاماً من الحشائش وتدللك بها جسده، تلاطفه بها. بعد دقائق قليلة من تلك اللطفة، رفدت على ظهرها، وقد باعدت ما بين فخذيها، ففعل معها نفس الشيء، وهو يجذب حزاماً كبيرة من الحشائش. ونشف التربة المبتلة ما زالت عالقة بجذورها، وظل يدلك نهديها وبطنها برفقة متناهية بدا بجذبه. قال لي:

"تعال وساعدني".

فضلت أن أجلس عافداً ركبتي أمام صدري لكي أداري اهتمامي المتزايد بالفتاة، التي كانت ساقاها المفتوحتان يثيران استجابات باهلووية. ولكن بعد أن اختفت هذه الاستجابات بمجهود خاص من جانبي قمت فذهبت إليهما وجذبت قبضة من الحشائش - وكانا قد تحركا بعد أن جردا البقعة التي كانا يرقدان فيها - فحاولت أن أدلكها مثلما كان يفعل الرجل. وسرعان ما تخلت عن هذه العملية وتبعت ما أملت علي غريزتي، فرحت أرب أطراف الحشائش المبتلة من جسدها حتى لمست نهديها، ثم هبطت بها أكثر لكي تلاطف النهدين برفقة. نجحت في تجربتي الجديدة، فسرعان ما شهقت شهقة المستمتع، وحركت ردهيها حركة شهوة واضحة. قالت للرجل:

"إن له لمسة رائعة".

استخدمت الحشائش بالطريقة التي كان يمكن أن أستخدم بها لساني لو كنت أحاول أن أستثير شهوتها. وحينما وصلت إلى السرة، زادت من تباعد فخذيها.

عند هذا، التفت الرجل إلى الناحية الأخرى وقال:

"أظن أنني سأذهب لأستحم في مجرى الماء".

سار مسرعاً وقد أولانا ظهره. قلت:

"أخشى ألا يكون على وشك الموت لهفة إلى خطايا الجسد".

فانفجرت في صكر ككرة من الضحكات الطويلة، قطعتها شهقة حينما لمستها بقبضة باردة جديدة من الحشائش، قالت حالة،

"أتمنى لو كنا في حجرة نوم".

"لم أكن أظن أن مثل هذه الأشياء مسموح بها لكم".

هذه الأمور ليس مسموحاً بها، ولكننا لا نتمتع جميعاً بسيطرتك على نفسك".

تحركت على مرفقيها وهي تتنهد، ثم دهنت رأسها بين فخذي. كان دهن فمها من حولي للبدأ، ولكنني كنت متوتراً خشية أن يأتي أحد إلينا. كنا مكشوفين تماماً دون غطاء أو حجاب، والنزل على أحد الجوانب - مكشوفين لأي شخص يمكن أن يطل من أحد النوافذ - والرجل الذي يمكن أن يعود من مجرى الماء في أي لحظة. وضعت يدي بين شعرها ثم أبعثتها برفقة وقلت لها، "فيما بعد، ليس الآن".

قالت، "هذا وعد؟".

قلت أجل، فراجعت إلى الحشائش لترقد من جديد. وسمعت سيارة تتوقف عند الجانب الآخر من النزل. وكان الرجل قد لاح عائداً من المجرى. قلت،

"أظن أن علي أن أذهب لكي أرى الدكتور كورنر".

وبينما كنت ارتدي ملابس ثانية، لاحظت أن فقدانني للسيطرة على نفسي قد خفف من درجة التوتر الذي شعرت به من قبل. رقلت الفتاة في مكانها تحت الشمس، وقد اغمضت عينيها، وبدت ابتسامة على شفثيها المنفردتين، ولاح عليها كما لو كانت تبلغ ذروة نشوة بطيئة الاشتعال.

لم يكن الدكتور كورنر هو من وصل بالسيارة، وإنما كن أربعة نسوة يرتدين النظارات، يشبهن مدرسات في مدرسة لتعليم عمال العقول الإلكترونية، ومعهن رجل نحيف يضع على عينيه نظارة رفيعة. ولكنني وجلت الدكتور كورنر داخل المنزل، في الهواء الواسع الخالي الذي بدا لي كأنه مليء بالتماثيل الصغيرة المهشمة لقاذفات البراعم والزهور، والربات الإغريقيات حاملات عناقيد العنب. لاح الانشغال على كورنر وهو يلقي توجيهاًته

عن الأماكن التي يجب أن توضع فيها التماثيل، ولكنه حينما رأيته، جاء إلي وعلى وجهه ابتسامة داهنة، وصافحني بحرارة، ثم رفع يده طالباً الصمت. جاء الآخرون والتفوا حولنا. فقدمني إليهم كورنر واصفاً إياي بالمؤلف للعروف والفيلسوف. بدا عليهم جميعاً أنهم تأثروا بتقدميه لي. وشعرت بالحرج في داخلي يتزايد ويشتد، كانوا ينظرون إلي كما لو كانوا يتوقعون مني أن أرتفع ببطاء فوق الأرض لكي أطفئ في الهواء. أخذني كورنر من ذراعي وقال،

"أحد أعضاء جماعتنا سمسار للعاديات القديمة، وقد أهدانا تلك التماثيل: إن بعضها ليس على قيمة فنية كبيرة، ولكننا سوف نخصصها كرموز لشخصيات بعض الأعضاء".

"رموز؟"

"لكي يجعلوها موضوعاً لتأملاتهم" ومن الواضح أنه شعر أن جملة كانت واضحة وضوحاً كافياً لأنه أضاف يقول، "سمح لي بأن أطلعك على بقية المنزل".

كان المنزل كبيراً أشبه بمعسكر مهيا لنزول العشرات، من النوع الذي لا يمكن إلا لليونير أن يجعله مريحاً للساكين. كان كورنر وتلاميذته يحاولون إنجازه بأنفسهم. ومن المؤكد أن عدداً قليلاً من الحجرات كان مؤثناً تائناً مريحاً للغاية، مما يشير إلى أن بعض التلاميذ على الأقل يستطيعون أن يدفعوا ثمن هدايا من الأثاث الجيد.

أطلعني كورنر على حجرة نوم تضيئها أشعة الشمس وقال،

"هنا ستنام أنت. إلا - بالطبع - إذا كنت تفضل أن تنضم إلى جماعة خلق الألفة بالطابق الأسفل".

"هل ينامون معاً؟"

"أجل، ولكن مع روح خيرة كاملة بالطبع. ليس صعباً عليهم أن يكبحوا جماح رغباتهم. إنهم يعرفون أنهم يربحون عمقاً جيداً لدواتهم بهذا العمل".

استمر يتحدث بطريقة التي تشبه أسلوب إلقاء المحاضرات، وهو يلتقط حزمة من الأسلاك الكهربائية كان أحد عمال الكهرباء قد تركها على مقعد تحت النافذة.

"انظر إلي، إن السبب الذي يجعل الجنس مخيباً للآمال بالنسبة لمعظم الناس بهذا الشكل، هو أنهم يشبهون سلكاً رقيقاً لا يتمكن من حمل أي تيار. هل ستوافق على أن النشوة الجنسية تشبه تياراً كهربائياً. فإذا كنت صحيح الجسم ثم كبحت رغباتك لمدة طويلة فإن التيار سيصبح ذا شحنة عالية. وهذا هو كل هدفنا - أن نتحول إلى سلك سميك ثقيل، مثل هذا". ولوح تحت أنفي بالسلك السميك الثقيل النحاسي. ثم مضى يقول، "إذا استطاع السلك أن يحمل التيار، فإننا لن نشكو من نقص التيار نفسه. أظنك جديراً بالواقعة على هذا؟"

قلت إنني أوافق، كنت أعرف أن التنظيم الذاتي الكثيف يزيد من قدرة المرء على بلوغ النشوة والاستمتاع بها. ولكن قبل أن أتمكن من طرح بعض التحفظات، وضع كورنر يده على ذراعي.

"والآن، أريد أن أتحدث إليك. سوف تدرك أن لي هدفاً من الإتيان بك إلى هنا. تعال فاجلس". من الواضح أنه كان يشعر بجدية حديثه. جلسنا في ضوء الشمس على الأريكة تحت النافذة.

قال:

"ليس الأمر ببساطة هو أنني أريدك عضواً في جماعتنا - فهذا واضح دون حاجة إلى سؤالك. إنك مؤهل تماماً لهذه العضوية. إنني أحب أن تكون نائبي في القيادة، خلفي، والرجل الثاني من بعدي في الوقت المناسب".

رفع يده لكي يمنعني من مقاطعته، واستمر يقول:

"ليس عليك أن تتخذ قرارات الآن، بل ولا حتى في الأسبوع التالي أو الشهر التالي. إنما أريدك أن ترى كيف تعمل، انظر إن كان بوسعنا أن نساعدك، أو إذا كان بوسعك أن تساعدنا. اسمع إنك تملك ما يكفي من التناسق والانسجام. إن أكثر من حولي تلاميذ جددون، ولكنني حتى الآن لا أعرف المميزات التي يحتاج إليها القائد. لقد أراد دانكمان وزوجته أن يكونا قائدين - ولكنهما كانا جديرين - ببساطة - بأن يحولا مجموعتنا إلى بيت للعزلة، حريم خاص لكل منهما. إن عملاً مثل هذا يحتاج إلى تكريس خالص للنفس، يحتاج إلى الروح العلمية. وانت تملك هذه القدرة وتلك الروح".

أطلقت بعض الأصوات الدالة على الاعتذار، ثم قلت إنني بحاجة إلى بعض الوقت للتفكير واتخاذ القرار. ولكن في أعماقي، كنت أعرف أن هذا ليس من الأمور التي يمكن أن يناقشها. إنني وحيد منفرد، ليس ببساطة بحكم ميولي، ولكن بحكم طبيعتي. إنني لم أزد إن اختلط بكل هؤلاء الناس.

ربت على كتفي وقال، "بالطبع، خذ من الوقت ما تشاء. ولكن هناك شيء واحد من الأفضل أن أقوله لك بصراحة. فقد حاولنا حتى الآن أن نحافظ على ابتعاد نشاطاتنا عن الأنظار، لأنها من الممكن أن يساء فهمها. ولكن ربما قد أن أوان الخروج وإظهار أنفسنا بوضوح. لكي نكتسب الأنصار، ولكي نعلن أهدافنا على العالم. لأن هدفنا هو أن نثبت أن الحضارة لن تستقر أبداً حتى يفكر كل إنسان بالطريقة التي نفكر بها".

كان قد أصبح جاداً كالمجدبة، ولم أكن أنا خالياً من كل تعاطف معه، ولكنني رحبت فجأة الفكرة في الصورة التي رسمتها أنا دانكمان عن الغرباء الذين يتبادلون جلد عميرة في السيارة العامة، فوجدت أنه من الضروري أن أطل قليلاً من النافذة حتى أتمكن من السيطرة على تعبير وجهي، وبينما كنا نهبط إلى الطابق الأسفل، قلت،

"أظن أن هذه فكرة عظيمة. لقد امتلأ الستير وأنجيلا بالحماس إلى حد الانفجار في الليلة الماضية. لقد اكتسبت أمس نصيرين متحمسين".

"هذا شيء جيد. ولكننا لن نقنع حتى أتمكن من أن أقول نفس الشيء عنك".

وحينما اقتربنا من الجماعة الذين كانوا ما يزالون مشغولين بترتيب التماثيل، قبض على ذراعي وقال "مؤقتاً" احتفظ بسرية ما قلته لك بشكل كامل".

□ في الساعة الثانية ظهراً، أعلن أن الغداء قد أعد. في حجرة الطعام، التي تصل على الحديقة الكبيرة الخضراء، كانت وجبة بسيطة قد وضعت على اللوائد الخشبية البسيطة الخشنة - كان هناك صحنان كبيران عميقان مملوؤان بالحساء، وصحون صغيرة فيها

أكوام من مكعبات الجبن، وكعك من طحين القمح وكعك آخر مزود بالسكر. قدمني كورنر إلى رجل شاب ذا لحية كبيرة اسمه بول. بدا لي أنه مساعده. كان بول يضع نظارات ذات إطار صنع من قرن حيوان، لكنته شمالية واضحة، وأسلوب في التعامل بالغ الجبلة.

قال،

"إننا نحاول أن نأكل وجبات خفيفة، وإلا واجه الجسم مشاكل كثيرة في هضم الطعام، فيفسد النظام ولا يؤدي إلى أية فائدة. أما هذه الوجبة فهي وجبة كبيرة إلى حد بعيد. أما مجموعتنا الأخرى - وهي مجموعة من تعلوا الأربعين - فتأكل أقل من هذا بكثير."

فهمت أن كورنر يحافظ على الفاصل بين المجموعتين، وأن لكل من المجموعتين موعداً خاصاً لاجتماعها كل أسبوعين. قال بول،

"لا بد أن تكون عمليين في هذا الصدد. نظرياً، ليس هناك بالطبع حد يفرضه السن. ولكن تجربتنا دلت على أن المتقدمين في السن يهتمون بالجنس أكثر من اهتمام الشباب. فإذا سمحنا لما هو أكثر من اللازم منهم بالانضمام إلينا لركنا الشباب. إن الكثير من الفتيات الصغيرات لا يبدو عليهن الانزعاج من الرجال الأكبر عمراً، ولكن ليس كثيراً أن يختار الأولاد الأقل عمراً نساء يزيد عمرهن على الأربعين. من الطبيعي أن المجموعتين تستطيعان الاختلاط فيما بينهما، ولكن هذا يحدث في حدود معينة، وبدعوات خاصة."

وكان واضحاً أن هذا يفسر حضور عدد من الرجال والنساء يزيدون على الأربعين، بل على الخمسين.

كان عدد الحاضرين في البهو يبلغ الستين تقريباً، مع أغلبية قليلة من النساء. وبدت لي المجموعة عينة عادلة من الناس. لاحظت أن هناك ما يشبه الرزي الشائع بين نساء المجموعة، تغلب عليه الثياب ذات الأكمام الطويلة والنظارات ذات الأطر الثقيلة إلى حد ما، الأمر الذي يعطيهم مظهر الدارسات المجدات. لم يكن هناك مرافقون يقل عمرهم عن العشرين، وكانت الفتاة التي رايتها في الحديقة تبدو واحدة من أصغر الحاضرين. لاحظت أن نسبة كبيرة من الرجال يبدوون ذوي بنية قوية، أو يرتدون صدارات صوفية مغلقة مرتفعة

الأعناق عريضة الصدر لكي تعطي انطباعاً بضخامة حجم من يرتديها. ولم يكن سوى عدد قليل جداً من الحاضرين هو من يبدو وسيم الطلعة بشكل ملفت. ولكنني لم أر شخصاً واحداً يمكن أن يقال عنه أنه غير جذاب من الوهلة الأولى. وبشكل عام، كان للنساء مظهر الذكاء وارتفاع المستوى الذهني بشكل يزيد عما يتمتع به الرجال. لقد رايت عدداً قليلاً جداً - بينهم - من الرجال، يمكن أن يقال أنهم من النوع العصبي في النشاط الذهني الزائد. وبسبب ما بدا عليهم من سمات تدل على أنهم مجموعة "متوسطة"، مثل عينة عادلة، أحسست بأنهم ربما جاؤوا نتيجة اختيار دقيق بأكثر مما يظهر لمن يراهم للمرة الأولى.

لاح عليهم أنهم يعرف أحدهم الآخر معرفة جيدة جداً، كان هناك قدر كبير من الضحك، ومن التجاذب والمساكنات، من المصافحات والقبلات بين المعارف والأصدقاء، ومن قيام بعضهم بتقديم صحاف الطعام وأطباق الحساء للآخرين. أحسست بالتأثير القوي لهذا الجو الودي، رغم أنني شعرت بأن من وراء هذا الجو يكمن توتر من نوع ما، ويوشك أن يكون افتقاراً إلى التلقائية والتصرف بطريقة مستريحة.

ذهب بول لكي يتحدث إلى شخص ما. قال صوت في مقابلي، أهلاً، فوجدت نفسي أصل نحو العينين البنيتين للفتاة التي قابلتها وسط حشائش الحديقة الخضراء المبتلة. كان الزحام يحيط بنا معاً، وبينما رفعت وجهها وأدارته نحوي مبتسمة لي، امتدت يدها من ورائها وفرصت عضوي فرصة ودية. قالت،

"اسمي تيسا" ثم أشارت إلي لكي אחني رأسي نحوها، همست،

"لا أريد تناول الغداء، فلنذهب إلى الفراش."

"إنني أشعر بالجوع."

"إلى جانب أنهم قد يلاحظون انصرافنا معاً. إنني أتلقى تدريباً خاصاً."

عاد بول، ورمى الفتاة بنظرة مقطعية تدل على عدم موافقته.. أحسست أنهم يعتبرونها ذات تأثير مفسد وغير صحي.

أكلت خبزي وقطعة الجبن وشربت حساني. ثم خرجنا من نوافذ الشرفة الفرنسية ومنها إلى الحديقة الكبيرة. كانت مجموعة من النساء تقف على شكل دائرة، وبدا أنهم

يؤدون نوعاً ما من التمرينات. وضع كل منهم يده على كتف الشخص الذي يجاوره، ثم تحركوا إلى الأمام حتى تلاصقوا، ثم انحنى كل منهم إلى الأمام بحركة واحدة حتى أصبحوا كالعقدة على هيئة البداية في لعبة "الركبي" ذات الخمسة عشر لاعباً. قال بول،

"هذه جماعة من جماعات الألفة في مرحلة التسخين. إنهم يحاولون التخلص من صغوب الحياة المننية - يلمس أحدهم الآخر، يقومون ببعض الأشياء معاً. يحاولون التخلص من الإحساس بالانفصال والعزلة".

كان رجل شاب يرتدي صداراً ذا عنق مرتفع يلقي بالتعليمات للجماعة، ويتحرك من حين إلى آخر وسطهم ويصفع بعضهم برقة على الكتفين أو على الظهر. وبينما كنت وأنا في مكاني، اتجه إلى امرأة في نحو الأربعين، وفعل شيئاً ما يتهديها - من الواضح أنه كان يعدل من وضع مشد صدرها من فوق صدارها الصوفي - وانتهى بأن صفع رذفيها صفعة حادة كما لو كانت بقرة تقاد إلى الحقل. قال بول،

"هأنست ترى، إنهم يحبون أن تلقى عليهم الأوامر. إنها تساعدكم على التخلص من الإحساس بالمسؤولية - مرض الحضارة العصابي. والغرض هو جعلهم يشعرون مثل شعور الأطفال الأبرياء مرة أخرى".

لاحظت أن كل المشتركين في هذه الجماعة من "جماعات الألفة" كانوا يرتدون ملابس ثقيلة إلى حد ما، بالنسبة لحرارة الجو. وفسر لي بول ذلك بأنه جزء من عملية التدريب، فبينما يشجعون في التخلص من إحساسهم بالقهر، يمكنهم أن يرتدوا ملابس أخف نقلاً. وقال في النهاية، "سوف ترى ما أعنيه بعينيك في المساء".

ذكرت له الفكرة الأساسية التي ساورتني، وهو أنه طالما يأتي الجنس للبشر بشكل طبيعي إلى هذا الحد، فإن كل الأهداف الشديدة التعقل لجماعة مثل هذه - لابد أن تتجه نحو تبادل الاستنارة الجنسية في النهاية، ورغماً عن الجميع. أو ما برأسه موافقاً، وقال،

"في مجموعة بهذا الحجم، لابد أن يحدث هنا في حدود معينة بالطبع.. ونحن نحاول أن نتخذ الاحتياطات اللازمة. ولكنك سوف تدهش إذا عرفت مقدار قلة حدوثها. ليست هنا محرمات، ولا كوابت أو موضوعات للكبت، وهذا يؤدي إلى فرق كبير".

عندنا قد دخلنا المنزل، سألته عما كان يعنيه بكلمة "احتياطات" فقال، "سوف أطلعك عليها".

صعدنا إلى حجرة في الطابق الأول. كنت قد عرفت أنها حجرة نوم جماعية للنساء، دخلها بول دون أن يطرق الباب. كان هنا ست من النساء يرقدن على الأسرة، أو جالسات يعدن ترتيب زينتهن، وكانت إحدهن جالسة بسروالها الداخلي ومشد صدرها وهي تلخج جوربها. ابتسمت لنا، ولم يبد عليهن الاهتمام. اتجه بول إلى سرير فوقه حقيبة مفتوحة فقلب محتوياتها على السرير. نثر المحتويات وبعثرها على سطح الفراش - ثوب قصير رمادي من الصوف، مشدات، زوج من الملابس الداخلية، بعض أدوات التجميل - ثم ألقي نظرة على حقيبة غسيل قمرزية اللون. لم يبد على إحدهن أنها نظرت نحوه أو انتبهت إلى ما يفعله. قال،

"إنني أبحث عن موانع للحمل. إنها أفضل طريقة لتأكيد أن شخصاً ما يتوحي أن يكسر القواعد المتبعة".

التقط حقيبة المراة التي كانت ما تزال ترتدي ملابسها. قالت،

"أوه. بحق السماء لا تبعثر كل شيء. دعني أطلعك على ما فيها".

أخرجت الثياب من الحقيبة قطعة وراء أخرى، وفردت كل قطعة ونفضتها. أنار بول إلى سروال طويل فرنسي وردي اللون وقال،

"لبس هذا جميلاً جداً".

"أعرف هذا. ولكنني غادرت المنزل في عجلة وألقيت في الحقيبة بآول شيء رأيته أمامي".

وفي خارج الغرفة قال موضحاً،

"لدينا نقاط تفتيش كل عطلة من عطلات نهاية الأسبوع، لكي نرى إن كانوا قد جاءوا معهم بموانع الحمل أم لا. وبالطبع، ليست لدينا وسيلة نعرف بها إن كانت النساء قد تناولن "قرصاً" قبل مجيئهن أم لا".

- "ألا يفسد هذا من تأثيره بشكل ما؟"

- "أوه، لا. إن أوتو يتحدث إليهم ضد "أقراص منع الحمل" على أي حال، لأسباب

صحية".

- "وماذا عن الرجال؟"

"النساء تفتشهم. من المسموح لكل واحد أن يقتش أي شخص آخر، إننا نحاول أن نكون أسرة واحدة".

- "لماذا اعترضت على السروال الوردي لتلك الفتاة؟"

- "فتحات الساقين واسعة. ليست هناك قاعدة بشأنه بالطبع، ولكن إذا كان في نية الناس أن يمارسوا الجنس، فإن هذا النوع من السراويل هو النوع المثالي - فإذا اضيئت الأنوار فجأة، بدت الفتاة في كامل ملابسها".

- "إذن فإن من المفترض أن تظل النساء مرتديات سراويلهن الداخلية؟" هكذا سألت وأنا أفكر في تيسا وهي رائدة على حشائش الحديقة الخضراء المبتلة.

لاح أنه قد صدم تقريباً. صاح، "أوه، لا. إن هذا جدير بأن يبعدك تماماً عن الهدف الأساسي لمجموعتنا - الألفة. ولكن إذا شرعنا في تلقي الملاحظات من أحد الرجال، فإن عليهن أن ينزلن سراويلهن، على الأقل حتى الأفخاذ" واستمر يتحدث بإخلاص شديد، "لا يبدو عليك أنك تفهم. إننا لا نحاول أن نجند الناس أو أن ننظمهم في كتائب صارمة النظام كالجنود. ولكنك تعرفت بنفسك أنه كلما زادت العقوبات كلما زاد ما تثيره من اهتمام. ولهذا فإننا نحاول أن "نصف" لنساء مجموعتنا أن يرتدين السراويل الحريرية ذات فتحات السيقان الضيقة المحكمة إلى حد كبير، وبذلك فإذا حدث أن رغبت الفتاة في ممارسة الجنس فإن عليها أن تخلعه تماماً. إننا لا نحب السراويل المصنوعة من النايلون أو السراويل الفرنسية الواسعة لأنها يمكن أن تجلب جانباً بسهولة كبيرة. وبعض هذه الأشياء لا تشكل أية حماية على الإطلاق".

سمع صوت جرس نحاسي صادر من البهو. سألته، "ماذا يحدث الآن؟"

سيت محاضرات حتى الساعة الخامسة، وأنا نفسي ينبغي أن ألقى محاضرة، ولذلك سيكون علي أن أتركك. إن حضور المحاضرات إجباري بالناسبة. وأي شخص "يزوغ" من المحاضرات لا يكون جاداً حقاً. ونحن لا نقول ذلك للقادمين الجدد، لأن هذا يساعدنا على التخلص ممن يأتون لدوافع لا تتفق مع أهدافنا".

نصحتني بأن أتجول بين قاعات المحاضرات المختلفة، وأن ألقى الأسئلة إذا رغبت في هذا.

عملت بنصيحته، انقسم "الطلبة" إلى أربعة مجموعات. تحدث كورنر إلى المجموعة الأولى، وبول إلى المجموعة الثانية، وكريس لمجموعة الثالثة، وتحدثت للمجموعة الرابعة امرأة جذابة، وإن كانت تبدو عليها مسحة طفيفة تجعلها أشبه بمدرسات المدارس الثانوية، تدعى جوينيث. كنت سعيداً بأن أرى الستير وأنيجلا يجلسان بلهفة في الصف الأول من مجموعة كورنر، التي كانت تجلس في الحديقة، جلست في الصف الأخير من تلك المجموعة لمدة عشرين دقيقة أو نحوها، وسمعتة يشرح الأسباب التي تجعله مادياً. قال،

"يعتقد المثاليون أن أشياء مثل الحياة والفكر والأفكار يمكن أن توجد "بمعزل عن" المادة، بمعنى من المعاني". وكانت حججه ضد هذا الرأي كاسحة، ومقنعة تماماً بالنسبة لي. ولكنها لم تبلغ هدفها، بقدر ما يتعلق الأمر بما أهتم أنا به. إنني أوافق على أنه لا يمكن أن تنفصل العقول والعمليات العقلية عن المادة. ولكنني ما زلت أعتقد أن الحياة - بشكل ما - قد دخلت المادة من "خارجها"، وليست هيضاً منبثقاً عن المادة، مثلما تنبثق النار عن الفحم.

أحسست بأن كورنر لن يرحب بتوجيه أية أسئلة، ولذلك فقد انتقلت إلى المجموعة لتالية، التي كانت تحاضرها السيدة المدعوة جوينيث. كانت تقدم ملخصاً متحمساً - وإن كنت قد رأيته منشوفاً - لأفكار رايخ. ولاح لي حديثها عن "السائل الحيوي" الذي يتراكم بين الفخذين لحظة الاستثارة الجنسية، لاح لي قريباً إلى درجة خطيرة من الطاقة العضوية التي قال بها رايخ. تساءلت في داخلي عما يمكن أن يحس به كورنر إزاء هذا. حاولت جوينيث نشاط أن تجرني إلى المناقشة، التي سرعان ما دببت فيها الحياة. بدت لي مجموعتها مقنعة الذكاء والفهم، وأكثر استقلالاً عقلياً مما توقعت - فقد رفضوا الاتفاق معها حول عدد كبير من النقاط. بذلت بعض المحاولات لشرح نظرياتي الخاصة عن أصل الدافع الجنسي، نظرتي حول الاستجابة الرمزية، ولكن كان بوسعي أن أرى كيف نظروا إلى هذه الأفكار استغراب كامل، وإنها - كما قالت إحدى السيدات، "مجردة بشكل لا ضرورة له". أصبحت

للناقشة ساخنة حتى لقد دهشنا جميعاً حينما زحف أعضاء المجموعات الأخرى إلينا في الحديقة وقالوا أن وقت الشاي قد أزف.

ولكننا في الحقيقة لم نشرب شايًا - وهو الذي يمقته كورنر - وإنما شراب السانكا، وهي قهوة منقاة من الكافيين. أكلنا أيضاً معجنات مسكرة دهنت بطبقة خفيفة من الزبد. هجمت عليّ جوينيث وقالت لي أنها اقتصت بأفكارها. وراقبت لي هي جداً. كانت في نحو الأربعين من عمرها، ذات مزاج دموي حار، وأسنان كبيرة بيضاء أضفت على ابتسامتها لطفاً وجاذبية، وكانت تميل إلى المبالغة في صورة المدرسة المسجدة التي لاحظت لي أنها الصورة التي وصفتها "قيادة" المجموعة لنسائها، بثوبها الأسود الطويل الأكمام، وعقدها ذي الوريقات الذهبية والصليب في وسطها. أدركت أنها عضو في المجلس البلدي الذي يتبعه مسكنها، وأنها تشغل وظيفة حسنة في مكتب للعلاقات العامة. كانت تتمتع بطريقة حماسية مشوشة قليلاً في مناقشة الأفكار ذات الجاذبية الخاصة أو السحر بالنسبة لها. ولكنني لم أستطع أن أخجل كيفية انضمامها إلى مجموعة كورنر.

بعد شرب الشاي، ذهبنا إلى جميعاً إلى الحجرة الرئيسية، لم يكن فيها سوى اثاث قليل، لكنها كانت مزودة بأبسطه جيدة، بنت كما لو كانت قد كلفت المجموعة ثمنًا يساوي ثمن كل اثاث الوجود في المنزل. (قالت جوينيث أن هذه الأبسطه كانت "هبات" قدمها الأعضاء الأكبر سنًا، وقد انتابني شكوك حول أن بعض الأعضاء الكبار السن قد اشتروا عضويتهم في المجموعة بالهدايا الغالية التي تزيد كثيراً - وبالإضافة - إلى الرسوم المقررة).

ورغم أن البرد كان يتزايد بالخارج، فإن هذه الغرفة كانت دافئة بسبب مدفأة الخشب الذي كان يحترق في نارها الكبيرة.

انقسم الناس في الحجرة إلى جماعات ألفة صغيرة، ورحلت أتقل من مجموعة إلى أخرى، مراقباً نشاطاتهم باهتمام. وسرعان ما اتضح لي أن القسم الأول من النهار لم يكن سوى مقدمة مبدئية مثل افتتاحية الأوبرا الموسيقية. أما هذا القسم الآخر فكان هو القسم الجدي والهام. تشابكوا في حلقات ضيقة، متلاصقين بشدة أحدهم إلى الآخر، ويرى كل منهم بيديه على أجساد الآخرين، يادئين من الكاحلين، متجهين إلى الرؤوس. انقسمت جماعات كثيرة إلى أزواج، وكرروا عمليات الضغط والتدليك. لم تكن هناك تصرفات جنسية بشكل خاص في هذه العملية، ولاحظت أن الأيدي لا تلبث إلا قليلاً عند المناطق

الحساسة، ولكنها بليت أكثر اهتماماً بالرؤوس والأذرع. جذبتني فتاة نحيلة طويلة إلى داخل إحدى المجموعات حينما كنت واقفاً أراقبها، وبدأت تربت علي، ضاغطة بكلتا يديها على بطني أو صدري ثم تباعد بينهما وتضغط بقوة أكثر. بعد ذلك فعلت معها نفس الشيء، وأنا واقف ورائها، ضغطاً بيدي الاثنتين بقوة على بطنها، ثم مدلكاً جسدها حتى أصل الردين. كررت هذه العملية على نهديها وعلى الفخذين. ثم - طبقاً لتعليماتها - بدأت أربت على ظاهري الساهقين، بدأت من الخصر، جازياً بيدي فوق ثوبها، هابطاً إلى القدمين. لاحظت أنها كانت ترتدي حزاماً لرفع الجوربين مع الجورب نفسه. وبعد ذلك بدأت تلاطف كتفي وذراعي ورأسي، جارية بأصابعها في شعري، وعلى صدغي، فاتحة فمي لكي تدس طرف أصبعها داخله، ثم تدس إصبعها الصغير (بنصرها) في أذني. كانت ما تفعله هو ملاطفتي كما لو كنا عاشقين، ولكن لما كنا قد بقينا بكامل ملابسنا، فقد كان للعملية خاصية غريبة من الاستثارة، وقدرة غريبة على إبراز ما هو محرم وممنوع. ولو أننا كنا مفردين، وقد خلعنا بعض ملابسنا، لانتتهت العملية بالجماع في خلال دقائق. ولكن هذا التدليك الطويل الذي في حجرة بشاركك فيها أكثر من خمسين شخصاً، أدت إلى خلق مجموعة جديدة من الاستجابات، محطمة كل العادات القديمة.

لاحظت أن بعض الأزواج الآخرين قد جاؤوا بأوان مليئة بالماء وراحوا يتبادلون غسل الوجوه والشعر، قاموا بذلك بالقرب من نوافذ الشرفة المفتوحة، حيث لم تكن هناك أبسطه كثيراً ما اخترق الأزواج وتبادلوا الشكر. وبعد عشر دقائق من ملاطفة الفتاة النحيلة الطويلة، حصلت على امرأة ثقيلة البنيان متوسطة العمر. شعرت في البداية أن التغيير لم يكن مفيداً، ولكن بعد خمس دقائق من الملاطفة لاحظت أننا حققنا الألفة المطلوبة، ووصلنا إلى أن يعرف أحدهما الآخر وأن يروق أحدهما للآخر. بعد ذلك حصلت على نيسا التي ابتسمت وهمسرت لي بطريقة فيها قدر من التفكه، "أخشى أن لابد أن يكون هذا ذروة مضادة، هوذة مقابلة للذروة anticlimax". كانت على صواب إلى درجة ما. لم يخف بنطالي عنها أي سر. كما لم يخف ثوبها عني أي سر. ولكن الإحساس بنعومتها تحت الثوب كان مثيراً. اختلقت شيئاً كالفاكهة من هذا الموقف، فندست يديها تحت صدري الصوفي وقرصت ثديي بقوة، وحينما دلكتها ودفعت ثوبها بين فخذيهما قالت، "أرجو ألا يفحصني الآن أحد إنني مبتلة". سألته

- "هنا من المحرمات؟"

- "بالطبع. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ إذا لمسني الناس مجرد لمسة هنا، بلغت ذروة نشوتي على الفور. لقد بلغت مرتين الآن".

بعد بضع دقائق قالت: "إنني جائعة إلى درجة لعينة. عندي كثير من الشوكولاته في جبرتي، إذا كنت تريد بعضها".

- "هذا مسموح به؟"

"ليس بشكل حقيقي. ولكن كل هذه الألفة تثير نهمي إلى الطعام".

في الساعة السابعة والنصف ارتفع صوت الجرس النحاسي فقالت نيسا،

"الحمد لله على ذلك".

اتجهنا جميعاً في حركة واحدة كالتيار إلى حجرة الطعام. كنت بحاجة إلى طعام، وكانت كل هذه الاستثارة تجعلني أشعر كما لو كنت قد سرت عشرين ميلاً. كان العشاء أقل قليلاً في شح من الوجبة السابقة؛ صحاف ضخمة من لحم البقر والخنزير البارد، وصحاف عميقة صغيرة من حساء الطماطم، وخضراوات ساخنة. ولدهشتي، لاحظت أنه كان ثمة مشرب للخمور أيضاً، وقالت لي جرينويث - التي تولت أمر رعايتي - بأن في وسعي أن أحصل على بيرة أو على نبيذ. قالت أنه ليست هناك مشروبات ثقيلة قوية، ولكن قليلاً من الكحول يساعد أكثر الناس على الاسترخاء والاستمتاع بوجبتهم. لاحظت باهتمام أن "الألفة" استمرت في قاعة الطعام. فقد انتهز الرجال والنساء المتمازحة الفرصة لكي يلاطف أحدهم الآخر، بل وأن يتبادلوا القبلات. كان هناك قدر معين من القبلات في المرحلة السابقة، وأغلبها كان على الأذرع والأعناق، أما الآن فقد رأيت أنهم يحيون بعضهم البعض غالباً بالتقبيل على الفم. ورغم أن الألسنة لمعت دوراً في بعض هذه القبلات، فإن أحداً لا يستطيع أن يصفها بالشهوانية، بمعنى دلالتها على الرغبة في الذهاب إلى الفراش.

- "أكلت بشكل جيد، وأنعشتني كأس من البيرة إنعاشاً كبيراً. وبعد تناول الطعام، شققت طريقي إلى المرحاض، ولكنه كان مشغولاً. شققت طريقي إلى الطابق العلوي إلى مكان تذكرت أنني رأيته - وهو مكان ملحق بغرف النوم تذكرت أنني رأيت على بابيه

قبعة رجل وحقيبة يد نسائية، مع سهم تحتها يشير إلى نهاية الدهليز. سرت في الاتجاه للشار إليه، فوصلت إلى مرحاض من الواضح أنه كان قد بنى حديثاً، مع عدد من الأبواب للأماكن الخاصة مثل مرحاض عمومي. ولكن لم تكن هناك إشارة على الباب تدل ما إذا كان المرحاض للرجال أم للسيدات. وبينما كنت واقفاً هناك، سمعت صوت خطوات تأتي من آخر الدهليز، وتنفس الصعداء حينما رأيت أن نيسا كانت هي القادمة.

- "أنا مسرور لرؤيتك. أيهما للرجال؟"

- "أوه، أيهما أرئت، فليس لدينا اثنان. إنها الألفة، أترى؟ هل ستأتي؟"

- "أعتقد هذا".

يجب علي أن أعترف بأنني أحسست بالخجل، ولكن كان بوسعي أن أرى عدم منطقي هذا الإحساس. ذهبت إلى المحل الأخير بين المحلات الصغيرة المتجاورة، ولشدة دهشتي اكتشفت أن الجدار الذي كان يفصله عن المحل المجاور كان مصنوعاً من الزجاج. ذهبت نيسا إلى المحل المجاور وابتسمت لي. ثم - ودون أي إحساس بنفسها - جذبت ثوبها إلى أعلى. ثم جذبت سروالها الداخلي إلى ركبتها، وجلست.

قلت،

- "يا الهي الرحيم. هذا أكثر مما ينبغي. أليس كذلك؟"

- "ظننت هذا حينما جئت لأول مرة. ولكنك سرعان ما تتعود عليها".

- "ولكنني لا أحب أن أتخفف من هوائي الفاسد حيث يمكن أن يسمعني أحد".

- "لماذا تهتم بذلك؟ الدكتور كورنر يقول أنه صوت طبيعي من أصوات الجسم، مثل صوتك وأنت تتكلم".

شعرت بالبلاهة وأنا واقف في مكاني، فأنزلت بنطالي وجلست. لم أشعر من قبل أبداً بعدم الراحة التي شعرت بها في تلك اللحظة. ثم سمعت صوت مزيج من الأصوات بالخارج، ثم دخلت امرأتان أخريان. اتجهتا إلى المكانين في الطرف الآخر، وكشفتا عن مؤخرتيهما، وجلستا - وكان الزجاج نقياً بصورة غير عادية. لم تلتفتا إلينا أقل التفاتة، وإنما استمرت في

الحدث عما قاله كورنر عصر ذلك اليوم. أراحني صوتهما، فأنفجر الينبوع الحبوس في داخلي. ولما راقت تيسا وهي تنظف نفسها بالورق فكرت في أننا جميعاً مخلوقات مليئة بالكوابيت والرغبات المكبوتة أو المحبطة بأكثر مما نعرف عن أنفسنا، وأنه من المحتمل أن يكون كورنر على صواب مرة أخرى. ولكنني صممت على أن أستخدم مرحاض الطابق الأرضي في المستقبل، لأن له جدراناً عادية.

هبطت إلى الطابق السفلي مع تيسا.

عندما عدت ثانية إلى القاعة الرئيسية، وجدت معظم الطلبة جالسين على الأرض فوق وسائد متناثرة. وحينما دخلت، أشار كورنر الذي كان واقفاً إلى جدار اللهاة. ذهبت إليه. ضرب على المائدة بإحدى الزجاجات طالباً الصمت، ثم قال:

"والآن أريد أن أقدمكم جميعاً إلى الروائي والفيلسوف البارز جيرادسورم، الذي وصف بأنه أكثر كاتب بريطاني إثارة للاهتمام منذ الدوس هكسلي ود. ه. لورنس. (واعتقد أنه اخترع تلك المقارنة من وحي اللحظة). إن آراء مسر سورم حول الجنس تختلف عن آرائنا في نواح متعددة، وأنا الآن أريد أن أطلب منه أن يلقي بضعة كلمات عن آرائه تلك. ويجب علي أن أقول أنني لم أئبته قبلاً بأنني سأطلب منه مثل هذا الطلب، وهكذا فإن كلمته سوف تكون مرتجلة تماماً".

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لكي أدهش فيه أو لكي تتوتر أعصابي. وقفت ولخصت بسرعة نظريتي عن الدافع الجنسي، وطبيعته العمدية، والطريقة التي يطور بها الدافع الجنسي نظريتي الظاهرية (الفينومينولوجية) على كل تفاعل الإنسان مع العالم. وحينما شعرت بأنني أوشك أن أتوه بهم في دهاليز هوسرل^(١)، تحدثت عن إحساسي بالدافع الجنسي باعتباره "مفتاحاً لحاملي مفاتيح الوجود" وعن العلاقة بين الجنس والتجربة الصوفية. انتهيت بمحاولة شرح النقطة الأكثر جوهرية عندي: وهي أن الجنس يمنحنا لمحة خاطفة من تركيز العقل يمكن أن تجعلنا أشبه بالآلهة لو استطعنا أن نبتعها إرادياً في مجالات أخرى وأن نسيطر عليها. ذكرت فكرتي عن أن الكائنات البشرية تشبه ساعات

(١) إدموند هوسرل (١٨٩٥-١٩٣٨) فيلسوف ألماني، ولد في موراخيا من أسرة يهودية، وبعد اكتشاف النهج الظاهري في الفلسفة الحديثة لوصف وتعريف للعنى الحقيقي لمادة الوعي.

الأجداد التي كانت تديرها القوافل المضغوطة، وأن الجسد أثقل من أن يحركه القافر الضئيل الذي تمثله قوة الإرادة. ولا يحدث إلا في الجنس أن نتمكن من تنمية قافر يتمع بالقوة الكاهية لتحريك ساعة الأجداد الثقيلة. وانتهيت بقولي أن اهتمامي الرئيسي كان يتركز في التساؤل عن كيفية تعلم إدارة وتقوية قوافل الإرادة.

كان المناقشة التي تلت كلمتي ممتعة ومثيرة للاهتمام، ولكنها لم تصل الحد الأقصى. فقد اعترض الكثيرون على أساس أنه من الخطورة الشديدة السماح بمثل تلك الأهمية الكبيرة للإرادة. كانوا يحتجون بوجهة نظر تشبه نظرية لورنس وكورنر. واستطعت أن أرى أن تلك كانت النقطة التي اختلفت فيها معهم جميعاً، إنني لم أنزع فني عن الإرادة ولا الذهن.

كان يوماً طويلاً، وكنت أشعر بالتعب. كانت الساعة الآن قد قاربت التاسعة. وكان الوقت قد مر بسرعة شديدة. وكنت قد بدأت أشعر بالرغبة في النوم. كان الأمر كله بالغ الإمتاع مليئاً بالوعود الكثيرة، وشعرت بأن كورنر كان في طريقه إلى شيء هام دون شك، ولكن كان الأمر يتطلب قدراً كبيراً من التفكير لتوضيح موقفني من المسألة كلها. وأملت أن ينجلي المساء عن شيء أكثر اجتماعية بشكل نقي، وأنني أتمنى لو اندس في الفراش. وقد كان هذا على بُعد كبير من الموقع الذي بدأ منه، حيث كان إيرموند وهوراس جليبي.

شكرني كورنر وقال أنه يأمل أن يتمكنوا من رؤيتي كثيراً. ثم قدم المجموعة إلى الستير وأنجيلا، اللذين كان عليهما أن يقفا، وقد بدا عليهما الحرج. صفق الجميع بأدب، ثم شرعوا في الوقوف والتحرك للخروج من الحجرة. سألت كورنر، "ثم ماذا بعد؟"

"أه، الآن يبدأ القسم الأكثر أهمية. سنمر الآن بمرحلة أخرى من مراحل الألفة".

لم أسعد بذلك سعادة كاملة. كانت الرحلة السابقة ممتعة ولكنها متعبة، فإني لم أشعر برغبة في أن أثير توتر ملكاتي مرة أخرى. أشار إلي فتبعته إلى خارج الحجرة، متسائلاً بييني وبين نفسي إن كان سيتمتع إذا اقترحت ألا أتشارك في تلك الرحلة. بدأت أتحدث، ثم غيرت رأي. وبدلاً من هذا، سألته،

"أود لو أسألك عن إيرموند دونيلي".

نظر إلي وابتسم.

قال، "أظن أن بوسعي أن أخبرك ببعض الأشياء الهامة. ولكن يمكننا أن نتناقش ذلك فيما بعد. فإن لدينا الآن أشياء أخرى يجب أن نقوم بها".

تبعته، بشيء من الإجهاد، على السلم. استدرنا إلى اليمين، وظننت أننا ذاهبان إلى مهجع الفتيات المخصص لنومهن. ولكنه فتح باباً علياً لباب حجرة النوم، ودخل. تبعته. كانت الحجرة صغيرة المرتفعة. كان لأحد الجدران نافذة واسعة. ولدهشتي، رأيت جوينيث واقفة أمامها، تعيد ترتيب شعرها وتحقق نحونا.

"هذه مرآة عاكسة ذات اتجاهين، بالطبع".

كانت هذه أول مرآة من نوعها أراها في حياتي. سألتها،

"أنت واثق من أنها لا تستطيع أن ترائنا؟"

"ليس إلا إذا فعلت هذا" مد يده وأدار ذراعاً صغيرة. وعلى الفور، أصبحت النافذة مرآة كان بوسعي أن أرى وجهي على سطحها. قال،

"تستطيع هي الآن أن ترائنا. لقد قلبت اتجاه الانعكاس في المرآة".

أدار الذراع مرة أخرى، فابتسمت جوينيث لنا، ولوحت بيدها عبر النافذة. لوحت رداً عليها، ناسياً أنها لم تعد تستطيع أن ترائنا.

"ما الغرض منها؟"

"للملاحظة. سوف ترى أن النساء يبدلن ملابسهن الآن".

كان هذا صحيحاً. ففي المهجع المزدحم، كانت النساء يخلعن ثيابهن، وهمصاتهن الداخلية، والأحزمة رافعة الجوارب. أما جوينيث، فإنها دون وعي بما تفعله قد مدت يدها إلى ظهرها وفكت زرّاً في ثوبها، ثم جلبت الزمام. خلعت الثوب بعناية ثم فردته على القرائش. كانت ترتدي قميصاً داخلياً أسود اللون ذا حافة حريرية مشغولة بدت مغرية جداً وجذابة. بدا عليها أنها نسيئنا. خلعت حمالة القميص عن كتفها، ثم تركه يسقط حول قديمها. من الواضح أنها لم تكن تفضل اللون الأسود وحدها للابسها الداخلية. كانت ترتدي حمالة صدر

بيضاء، وحزاماً أسود اللون يرفع الجوربين وسروالاً داخلياً أبيض من النايلون الناعم. من الواضح أنها كانت مستثناة من القاعة التي توجب على النساء ارتداء سروايل داخلية لا يمكن أن تمط إلى درجة كبيرة. أما أكثر النساء اللواتي كان بوسعي رؤيتهن فقد التزم من هذه القاعدة. لم تكن إحداهن ترتدي السروايل الصغيرة الحجم. كانت أكثريتهن يرتدين تلك الأشياء الوردية أو الزرقاء التي تغطي كل المعدة، والمزودة بشريط مطاطي عند الوسط، رغم أن تجربتي الخاصة مع ذلك النوع أثبتت لي أن اللطاط عند فتحة الساق يمكن أن يخضع للتمط بدرجة كبيرة، فإذا ما جلب إلى أسفل بوصة واحدة أو اثنتين، لم يعد يمثل أي مشكلة.

اتضم إلينا عدد آخر قليل من الرجال بينما نحن واقفان أمام المرآة. ورأيت أنهم جميعاً كن يرتدين الآن ثنانير قصيرة جداً رمادية من الصوف من النوع الذي كنت قد لاحظت وجوده في كل الحقائب التي فحصها بول أمامي. وكان الرجال الذين جاءوا للوقوف معنا قد أصبحوا يرتدون الآن زياً مماثلاً يتكون من بنطال رمادي من الصوف وقميصاً رياضياً أبيض اللون. ذهبنا نحو عنبر نوم الرجال في الطابق التالي. حصلت على إجابة السؤال الذي كنت على وشك أن أطرحه حينما فتح باب مجاور لباب العنبر فראيت عدة نساء واقفات هناك ومن الواضح أنهن كن يراقبن الرجال أثناء خلعهن للابسهم من خلال مرآة أخرى ذات اتجاهين. نادى كورنر بجدة.

"هيا يا سيدات. لا فرجة أكثر من هذا. لقد آن وقت تغيير الملابس".

أسرعن كلهن إلى الخروج، ولاحظت أن تيسا كانت بينهن. وبينما كنا ندخل العنبر، رأيت أنها تسلت عائدة إلى حجرة المراقبة.

قال كورنر، "تعال. لقد آن وقت استبدال ملابسنا".

في عنبر نوم الرجال، بدا أكثر الرجال عراة تقريباً، وكان الشخص الواقف بالقرب من المرآة عارياً تماماً بالفعل. سألت كورنر،

"ما الهدف من هذه المراقبة؟"

"أكثر الناس يتسمعون بصفات الرغبة في الاستعراض، حتى أكثرهم شباتاً ووزناً. وأكثر الناس كذلك يحملون صفات "توم البصاص". وهنا يمكنهم إشباع هذه الرغبات دون

إحساس بالإثام. لا تكاد تكون هناك أية رغبة جنسية لا بد من إخفائها هنا في هذا المكان. إننا نحاول أن ندفعها جميعاً إلى السطح المكشوف، أن نجعلها صريحة مباشرة وتحت الأنظار المتطلعة. والآن، اضن أن هذا البنطال الذي ترتديه سيكون مناسباً. إنك لا تحتاج إلا إلى قميص".

استدعى بول، الذي كان يرتدي ملابسه كاملة لكي يعثر لي على قميص. وبعد بضع دقائق، عاد بول حاملاً قميصاً رياضياً دون "ياقة" من القطن. لاحظت أنه كان طويلاً بشكل غير عادي، فادخلته في فتحة بنطالي. لاحظت أن أكثر الرجال كانوا يرتدون سروايل داخلية - من النوع الصغير الذي تجد إعلاناته في مجلات الصحة والقوة، وكانوا يرتدون أحذية "التنس" البيضاء. كان الكثيرون منهم يستحمون في الحمام المجاور. صفق كورنر يديه وصاح قائلاً:

"هيا يا سادة. آن وقت ارتداء الملابس. ليست هناك سيدات في الحجرة المجاورة الآن".

تذكرت - مجفلاً - أن تيسا كانت هناك، وأنني كنت أخلع ملايسي على بعد أقدام قليلة من المرأة. تمنيت أن تكون قد استمتعت بالنظر. أو ربما كانت تراقب الرجال الآخرين.

في الحجرة الرئيسية، كانت شاشة ضخمة قد وضعت أمام اللهاة، التي كانت منخفضة الارتفاع. رأيت أنجيلا وقد بدت حلوة جداً في تنورتها القصيرة الرمادية. لاحظت أنها كانت ترتدي جورباً مثل نساء أخريات كثيرات. وكان من الواضح أن ارتداء لجوارب إجباري. اقتربت مني وامسكت يدي. قلت:

"بم تشعرين؟"

"إنني بحالة طيبة. ولكنه أمر يؤدي قليلاً إلى الصدمة إذ تفقد الكثير من الكوابيت في عطلة نهاية أسبوع واحدة. ولكنها تجربة رائعة. لا أستطيع أن أقول لك كم أنا ممتنة لمقابلتك كورنر".

"تري، ماذا سيحدث الآن؟"

"لا تعرفين مزيد من الألفة. كانت الفتاة التي تنام على السرير المجاور لي تصفها الآن. هذه هي اللحظة الكبرى. أرجو أن أحصل عليك. لا أستطيع أن أحتمل واحداً من الرجال الآخرين، فانا أكره الذكور ذوي الشعر الكثيف".

"ولكن ماذا؟"

قبل أن أتمكن من إكمال سؤالي، صاح كريس قائلاً:

"هل نحن هنا جميعاً؟"

قالت أصوات عديدة: "أجل".

"حسناً. كونوا الدائرة. بول، هل لك أن تطفئ النور بالتدريج؟"

تساءلت عن الماهية الحقيقية في إطفاء بول للنور وبالتدريج. وبينما كنا نتحرك لكي نشكل الدائرة، والأيدي فوق الأكثاف، أخذت الأضواء تخفت تدريجياً. رتب الرجال أنفسهم في سرعة لكي يصبح كل رجل تالياً لامرأة، ولكن لما كان عدد النساء يزيد قليلاً عن عدد الرجال، فقد كان من اللازم أن تصاحب بعض النسوة نساء أخريات. ثم أطيقت ظلام كامل. سألت أنجيلا:

"ماذا نفعل الآن؟"

ولكن صوتاً غريباً أجابها:

"إننا نتحرك الآن جميعاً نحو المركز، نختلط ببعضنا، ثم نختار أول من نصادفه من الجنس الآخر".

بدأنا نتحرك إلى الأمام، حلت لحظات قليلة من الفوضى. عجبت كيف أميز الرجال من النساء، وانتهيت إلى أن لمس الصدر هو الوسيلة المناسبة لذلك. (واكتشفت فيما بعد أن هذه كانت هي الوسيلة المعتادة). عثرت على فتاة فامسكت يدها بقوة. صاح صوت بول:

"الكل مستعد؟"

تعاليت صيحات متضاربة، "أجل، لا".

ولكن الأضواء راحت تسطع بالتدريج. اكتشفت أنني كنت أمسك يد فتاة ضئيلة الحجم. شعراء الشعر كنت قد لاحظتها من قبل. لم تكن جميلة جداً، ولاحت لي عيناها مصابتين بقصر النظر، ولكن وجهها كان جذاباً ساحراً مفعماً بالحياة. سألتها:

"ثم ماذا الآن؟"

"يمكننا إما أن نشترك مع الأزواج الآخرين، أو أن نبقى منفردين. أيهما تفضل؟"

"فلنبقى منفردين الآن".

"وهو كذلك".

نظرت إلى جارتني الملاصقة لي - الفتاة النحيلة الطويلة التي كنت معها في لحظة سابقة من النهار - فجعلت حينما رايت أنها كان توشك أن تخطو لكي تتخلص من سروالها الداخلي الذي كان ساقطاً عند قدميها. وكان الرجل الذي يقابلها يفعل نفس الشيء، وهو رجل وسيم إلى درجة ملحوظة، عصبي، يكاد يبلغ منتصف عقده الرابع، بينما احمر وجهه. ناولته سروالها وأخذت سرواله، وأخذ كل منهما يرتدي سروال الآخر وهما متواجهان.

"ما الغرض من كل هذا؟"

"هذه هي بداية الألفة. يمكننا أن نتبادل الملابس دون تقيد بأي حدود. وهذا هو القسم الذي رسم من أجل اللولعين جنسياً بأشياء معينة، فيما أظن. هل تعني السراويل الداخلية شيئاً بالنسبة لك؟"

"إن لها دلالة جنسية محددة".

"في هذه الحالة، يحسن أن نتبادل سراويلنا".

ودون أن يبدو عليها أي حرج، خلعت بسرعة سروالاً وردياً من النوع الطويل، ثم ناولته لي. استغرقت أنا وقتاً أطول في خلع بنطالي ثم في خلع سروالي الداخلي.

قالت: "وماذا عن قميصك؟"

"إذا راق لك ذلك".

كان ملتقى ساقي سروالها مبتلاً، وولد احتكاكاً بما بين فخذي ومضة من التهيج الجنسي قضت على آخر آثار التعب. ومن الواضح أن مثل هذا الاحتكاك إنما هو أساساً احتكاك بين الأعضاء التناسلية الذكرية والأنثوية يتم بحركة واحدة. وبدأت أدرك ما عناء كورنر بتعبير "النشوة الجنسية المعلقة". كان ما فعله هو أن ملأ حجرة بالرجال والنساء، وجعلهم يعيشون لحظة احتكاك جنسي - فعلي أو رمزي - أحدهم بالآخر، حيث يكون التأثير الجنسي في أقصى حالات قوته، ولكن الانضباط الجماعي يضع كل شيء تحت المراقبة. وقف كورنر إلى جوار المدفأة، يرقبنا بعينين طبيبتين سعيدتين ووجدت نفسي أتساءل عما يشعر به الآن أو ما يفكر فيه.

أعطيت زميلتي - وكان اسمها نورما - قميصي الرياضي، وأخذت منها قميصها القصير الذي كان بنفس الطول تقريباً. لاحظت حينما خلعت ثوبها أن حمالة صدرها كانت من النوع ذي الفتحة الهابطة التي تكاد تسمح للثدي بالخروج منها.

ارتديت بنطالي ثانية، وأحكمت خفاف حزامه. قلت:

"لا أعرف لماذا تهتم بأن ترتدي هذه الملابس ثانية. هذه القمصان القصيرة طويلة بما يكفي للاحتفاظ بمظهر حسن".

"أعرف ذلك. ولكن الدكتور كورنر يظن أن عملية خلعها الفعلية لبنطاله تدمر الكوابت لدى الذكر. أما لدى الفتيات فإن العملية تتم بخلع سراويلها الداخلية".

أدركت ما كانت ترمي إليه. بدا لي أن بعض الآخرين يريدون أن يتبادلوا الملابس وما أن انتهى الرجل الوسيم المجاور لنا من ارتداء بنطاله حتى اقتربت فتاة أخرى. ورايت أنه في هذه المرة - لم يتبادل الملابس مع الفتاة، ولكن مع زميلها الذي كان - أو المفترض أنه يرتدي بالفعل سروالها وقميصها الداخلي.

قالت نورما: "هذا القسم من العملية يضرني. دعنا نبتعد عنهما".

تحركنا حتى أصبحنا عند طرف الجماعة. قالت:

"هل أبداً أنا معك، أم تبدأ أنت معي؟"

قلت: "من الأفضل أن تهدئي أنت معي. إنني لا أثق في كيفية قيامي بالعمل".

"هل تفضل أن تقف أم ترقد؟"

"سيان، لا يهم".

رايت أن بعض الأزواج كانوا يأخذون مناظير مطوية، من كومة كانت في الركن، ثم يقيمونها في المساحات الخالية. كانت للمناظير مصنعة من الألنيوم، وبدا أن طولها يبلغ ستة أقدام. كان الرجل أو المرأة يرفد على المنضدة، كما لو كان يوشك أن يتلقى علاجاً قوامه التدليك، ثم تبدأ "الألفة" بنفس الصورة السابقة. أثبتت نورما أنها أكثر خبرة من كل شريكاتي السابقات، أو ربما كنت أنا أكثر استنارة. وقفت أمامي، وجرت بيديها على صدري، ومعدتي وفخذي حتى هبطت إلى القدمين. وحينما وقفت، حلت حزام بنطالي، وللحظة تساءلت أنا إن كانت ستمضي إلى أبعد مما ينبغي. ولكنها لم تفعل أكثر من أن مدت يده إلى الداخل ودستها إلى أسفل حتى لمست ساقي، وهي تقرصني برقة أو تربت بلطف حتى بلغت ركبتي. جعلتني أجلس، ووقفت ورائي، وجرت بيديها في شعري، وداخل القميص - أو بالأحرى ثوبي النسائي - وفوق صدغي، وداخل شفتي. مددت يدي إلى زمام البنطال لكي أغلقه، ولكنها جذبت يدي بعيداً وقالت:

"أزيد من الكوابيت؟"

"أسف".

انحنيت إلى الأمام، ومدت يدها إلى الداخل، ووصلت إلى فخذي فربتتها، وتركت يدها تتجول بحرية. كنت قد تخلت عن كل محاولاتني لكبت ردود فعلي الطبيعية، مدت يدها فدستها في خصر بنطالي، وتركت أطراف أصابعه تجري بقرعة صاعدة هابطة فوق معدتي، ثم إلى أسفل أكثر. سيطرت على صوتي لكي أسألها:

"هذا مسموح به؟"

"أوه، أجل، الأمر كله متروك لنا. هل اتوقف؟"

"ظن أنه يكون من الأفضل لو توقفت".

انفجرت فقهقات ضاحكة إلى جوارنا. كانت امرأتان ورجل يضحكون على الرجل الذي استبد به الخجل واحمر وجهه. وبدا آخرون يضحكون بينما وجهه يزداد احمراراً. ولكن كورنر، الذي كان يقف إلى جوار اللهاة بدت عليه الصرامة وهو يهز رأسه ببطء. استبد الرجل وأسرع خارجاً من الحجرة. قالت نورما:

"مسكين مسر ماك كان. إنه لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبداً. أخشى أن تكون النساء يتبادلته لكي يجعلنه يفقد سيطرته على نفسه".

كان الأمر الغريب هو أنني لم أعد أشعر بأي إرهاق. كان تيار متوهج غريب قد بدأ يجتاحني من الداخل.

قاطعتنا مجموعة من ستة أشخاص، أربع نساء ورجلان، أرادوا أن يتبادلوا الملابس مرة أخرى. بدأ الامتعاض على نورما، ولكنها خلعت سروالها الداخلي على مضض، وتسلمت بدلاً منه سروالاً نسائياً صغير الحجم أسود اللون. أما أنا فاخذت السروال الفرنسي الطويل الذي عرفته عصر ذلك اليوم. استبدلت الثوب النسائي القصير بأخر أطول منه، وكانت ترتديه فتاة شاحبة عميقة النظرات. وحينما انتهت عملية الاستبدال قالت نورما:

"هيا. لقد حل دوري".

وحينئذ، اعتصرتني صدمة حينما تبينت أنني كنت أيزموند خلال النقائض الخمس السابقة، وأن هذا هو ما يفسر السبب فيما شعرت من ارتباك إزاء تلك الثياب الغريبة الشكل بالنسبة "لي". كان الأمر كما لو أن أيزموند قد برز طاقياً من قلب أعماق وعيي أنا لكي يكتشف لنفسه ما يجري. وحالما أصبحت واعياً بوجوده، تزايد تأثير النظرة المزوجة، حتى أنني للحظة شعرت بأنني موشك على الغثيان، واختفى التهيج الجنسي.

كنا قد عثرنا على مكان هادئ عند حافة الجماعة المتراخمة. كانت جوينيث التي لم تعد تحمل أقل سمة من سمات المدرسة الثانوية، منحنية إلى الخلف مستندة إلى الجدار، وقد أغمضت عينيها وارسم على وجهها تعبير يكاد يكون مزيجاً من النشوة للتألة. وكان رجل راكعاً أمامها، ورأسه مستند إلى فخذهما. حينما أدار رأسه عرفت أنه الستير. قال له أيزموند، "تحباتي، أيها الصديق". وبدا الستير كمن حفل فجأة. هبطت جوينيث فجأة إلى

ض، فأصبحت نصف جالسة نصف راقدة، وقد أغمضت عينيها، وانفجرت ركبتيها.
تند غمز لي التسمير بعينه وقال،

- لا بد أن تجربها. إنها رائعة".

كان التعبير الشهواني للامرأة الذي علا وجهه - أشبه بوجه آله الرعاة الروماني هون -
بيدا علي، ولكنه لم يكن جديداً على أيزموند. تحققت أنه كان سلباً مباشراً لهوراس
يني.

لم يعد تأثير الرؤية المزودة سيئاً ولا مضاداً للسرور، كما لو كنت أنا وأيزموند قد
تتنا صفة نحتل بمقتضاها جسداً واحداً دون معاكسة ولا نزاع. كان الإحساس الآن
كثير وضوحاً مما كان من قبل في أي مرة، ولم أعد قادراً على الاعتقاد بأنه لعبة غريبة
يوم بها وعمي الباطن في الخفاء.

وضعت ذراعي حول نورمان من الخلف، وداعبت نهدتها، ثم بحركة سريعة من
يدي، حررتهم من قيد المشد الذي يمسكهم. ألقت بنفسها برقة لتستند علي، فشعرت
خشونة ثوبها على لحمي العاري. أحنيت رأسها حتى استندت إلى كتفي، ورفعت وجهها،
انحنيت عليها ولمست شفيتها. وحينما فعلت ذلك مدت يدها وراء ظهرها وامسكتني بقوة.
الت: "إنك تزداد تهيجاً أكثر من اللازم".

مضيت أربت عليها، مستمتعة باستجاباتها، وكانت مثل قطعة قوست ظهرها حتى
ستني وهزت في اطمئنان. تبينت، في جزع مفاجئ، أنها قد بلغت "النشوة للعلة"، ثم تبينت
عد لحظة، أن أيزموند هو الذي عرف ذلك، وليس أنا. لقد كان أكثر خبرة مني بشكل لا
يأتي في مثل تلك الأمور.

هجأة قالت نورما، "انظر، هناك منصدة خالية. فلنذهب إليها. لا يمكنني الوقوف
كثير من هذا".

وفي الحقيقة، لقد بدت ركبتيها وكأنهما تصطكان. ساعدتها حتى تسلمت منصدة
بالقرب من المدفاة، حيث كان يقف كورنر، ناظراً بارتياح ومحبة إلى الحجر، يومئ برأسه
من حين إلى آخر ويبتسم. ربت على كتفي كورنر. قال له أيزموند،

- "تحياتي أيها الدناكن البشرية"

سقطت يد كورنر، وشحب وجهه شحوباً شديداً. انحنى إلى الأمام وحقق في وجهي

- "أكنت تعرف هذا من البداية؟"

- "إنني لست أبله، أيها المشرف". كذلك قال أيزموند. فقال كورنر بهدوء؟

- "أذن فقد كنت تلهو بي".

لم يكن هذا سؤالاً. فأضاف قائلاً: "ولكن، لماذا؟"

أثارني تعبيره اللعوم بالوقار الحزين. أردت أن أشرح له الحقيقة، ولكنها كانت ستبدو
امراً يدعو إلى السخرية. ثم لاح على كورنر أنه يتماسك. لوى شفتيه، وابتسم ابتسامة
مريرة، وهز كتفيه. ثم خرج من الباب وترك الحجر ومضى. قلت،

- "ماذا تعني بحق الشيطان؟"

كنت أسأل أيزموند. ولكنه تجاهلني.

كانت نورما راقدة على المنضدة، وتبدو كالنائمة. ذهبت إليها، وخلعت حذائها.
بدت قدمها الصغيران أبيضين جداً. انحنيت وقبلت باطن قدمها، ثم أخذت أطراف أصابعها
في فمي. جفلت وتنهت. حركت رأسي إلى أعلى وقبلت فخذيها، وفي نفس الوقت دسست
يدي في وسط سروالها. في هذه المرة، شهقت ولم تبدل أية محاولة لكي توقف عمليات
اكتشاف. وعلى الرغم من وجود الناس حولنا، فقد كان من الصعب مقاومة الإغراء
بالصعود فقها.

درت ببصري حول الحجر، فرأيت أنني وأيزموند، كنا من بين آخر من ظلوا على
أقدامهم. أدركت الآن لماذا كان البساط سميكاً إلى هذا الحد. كانت الأجساد الممددة راقدة في
كل مكان. استطعت أن أرى أنجيلا راقدة على ظهرها، وساقها مفتوحة، دون سروال
داخلي، وبدا أنها غارقة في النوم. كان بول راقداً إلى جوارها، وإحدى يديه على فخذه، وقد
أغمض عينيها هو الآخر. أما جوينيث - التي بدت غير قابلة للتعجب - فكان عارية في تلك
اللحظة، راقدة على البساط، ورجل يرضع نهدتها، وآخر يربت على ساقها وبطنها، بينما

راحت أردافها ترتفع وتنخفض برقة. كانت أجساد أخرى متداخلة في أشكال وتكوينات لا معنى لها، قبلت كما لو كانت صورة تخيلها رسام صور داعرة لحظة إحساس ساخر منهم.

كانت نورما تمسك يدي بشدة، لكي تمنعها من الهرب، وراحت تحرك فخذيها مساعدة هابطة ويدي ممسوكة بينهما. حينما نظرت إليها، سطعت في ذهني ذكرى قديمة. حاولت أن أثبتها، ولكنها راوغتني. بذلت مجهوداً آخر، وأنا أحرق بقوة في لحم فخذيها النحبي للنحني. خطر لي أن أيزموند نادراً ما مارس الجنس مع نساء لوحتن أشعة الشمس. ورغم أن عصره لم يكن يتميز إلا بالقليل من الاحتشام، كما هو عصرنا، فإن الثياب كانت تعتبر جزءاً رئيسياً من إنسانية الرجال والنساء، وكان التعرض العاري لأشعة الشمس يمكن أن يعتبر نوعاً من الحنطة القريبة والخروج عن المألوف. ولذلك فإن افخاذ عشيقات أيزموند كانت دائماً بيضاء ناعمة.

حينذاك، وبشكل فشلت في فهمه، لم أعد أنا وأيزموند رجلين يحتلان جسداً واحداً، وإنما تطابقنا فجأة وأصبحنا رجلاً واحداً. إن تفسير هذا لا بد أن يكون أكثر أهمية من وصف مجرد الأحداث الجنسية التي وقعت خلال الساعات القليلة التالية، ولكني لا أستطيع في الواقع تفسير ذلك. إن اللغة لم تصنع لكي تعبر عن أحوال الروح الإنسانية البالغة الشفافية والشفافية. لا يمكن إذن أن أقول سوى التالي: يكاد يكون من المستحيل - ابتداءً - أن تنسى الكائنات الإنسانية نفسها، ولا أن تغفل من انشغالها الغلاب والمسيطر بنفسها، ولا من أن تتحقق من أن ثمة عالماً يقع خارجها. لقد أدرك بليك أن كل طائر يقطع الطريق الهوائي هو "عالم هائل من البهجة، قريب من حواسنا الخمس". ولكنني في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، كنت فجأة وبسرعة الومض الخاطف، قد أصبحت داخل وعي شخص آخر، كائن إنساني كانت حياته وتجربته مختلفة من كل جوانبها عن حياتي وتجربتي. وقد جاءني هذا الوضع بإحساس هائل من البهجة والحرية، كان أشبه بالخروج من منجم فحم متناثر. وكان الشيء الذي اختفى فجأة. اختفاء كاملاً - هو ذلك الخوف الأساسي الذي يتسلل إلى عقول كل الأذكىاء والمتفكرين من الناس في لحظة ما من لحظات حياتهم: الخوف من أن الواحد منهم هو حقاً الشخص الوحيد في الكون، وأن الحياة فكاهة محكمة، عرض سينمائي يقدمه رب تملكه الضحجر يعرف أنه وحيد تعاضى - أو أعطى لنفسه - عقاراً ينسى به وحدته.

ذلك أنه في تلك اللحظة، كان هناك وعي أيزموند، حقيقي ومكتمل بصورة لا تقبل النكاح الإنكار مثل وعي أنا، ممزوج بوحي ومتداخل فيه.

وفي ومضة خاطفة أدركت معنى الجنس. إنه سعي حقيقي إلى تداخل الوعي وامتزاجه، رمزه هو تداخل الأجساد. ففي كل مرة يروي فيها رجل أو امرأة عطشه - أو عطشها - في مياه شخصية أخرى غريبة - فإنهما يلقيان نظرة بارقة على ضخامة حريتهما الشاسعة.

كانت ذاكرة أيزموند أكثر من قوة ذاكرتي بكثير. فبسبب القدرات التي استطاع أن يطورها في نفسه، كان يستطيع أن يستعيد المراحل الماضية من حياته في صورة من الحيوية لا يمكن تصديقها. وقد عرفت الآن أن هذا هو السبب الذي دفعه إلى اختياري. لقد كنت أعرف دائماً أن الحياة الإنسانية شبيهة بالحلم لأن أكثر الكائنات الإنسانية تعيش بشكل سلمي. إن وعيهم لا يزيد إلا قليلاً عن كونه انعكاساً لبيئتهم. وعند حدوث نشوة الجنسية، تشتد قوة تيار عقولهم فجأة إلى حد الاصططاب، فيدركون اللحظة - مؤقتاً - أنهم لم يعودوا مضطحين كهربائياً لا تتجاوز قوته الأربعين "واط"، وإنما مائتين وخمسين خمسمائة، ألفاً... ثم ينخفض التيار، فيعودون ثانية إلى مستوى الأربعين "واط" دونما احتجاج. إنهم مثل البلهاء الفارغي العقول الذين لا يستطيعون تذكر شيء ما لأكثر من ثوان قليلة. إن الكائنات البشرية كائنات متوسطة القدرة والذكاء حتى ليكاد يكون من الصعب القول بأنهم يملكون عقولاً بأي معنى حقيقي. في ومضة خاطفة أدركت الحقيقة الواضحة العابثة: لا شيء يستحق أن تمتلكه إلا عمق الوعي. هذه هي الحقيقة التي نلحها لحظة النشوة الجنسية. فإذا أدركتها الكائنات الإنسانية - لو أن عقولهم لم تكن بهذا العجز عن فهم حتى أبسط الأشياء - لكانوا جديرين بأن يهجروا كل مطمخ آخر من أجل تحقق هذا الهدف. ما الذي يهم حقاً في أن تكون، وماذا تفعل، وكيف تملك، إذا كان عقلك محدوداً ضعيفاً قاصراً؟ تماماً مثلما لا تعني أكثر الأشياء جمالاً أي معنى بالنسبة لرجل يعاني من الحمى. ومن الجانب الآخر، ولأن أيزموند قد أدرك هذا، وراح يضارده السر ويسعى وراءه، فإنه قد دخل المشكلة التي شغلت بروست طوال الإثني عشر مجلداً من روايته "البحث عن الزمن الضائع"، مشكلة الكيفية التي تفتح بها المخازن الهائلة غير التالفة التي تمثلها ذاكرتنا. إنني إذ حاولت أن أتذكر طفولتي، فإن ذاكرتي سوف تكون نسخة معتمدة بالكربون عن الشيء

لحقيقي الأصلي. ومع ذلك فإن حادثة ما، مثل كعكة بروسست المغموسة في الشاي، تستطيع للحظة مؤقتة أن تبعث إلى الحياة زمناً بعيداً بصورة تماثل في حيويتها تذكري لحادثة وقعت بالأمس. فلماذا تكون الذاكرة بهذا الضعف؟ لأن الوعي قانع بأن يجري بقوة أربعين "واط". بينما كل ما في الكون من طاقة وقوة قريبة منه وفي تناول يده.

في هذه اللحظة، تذكرت فجأة حادثة كان من الممكن أن تعلمني ما عرفه أيزموند. فمئذ سنوات قليلة، أرسلت إلي تلميذة صغيرة خطاباً عن أحد كتبي. شعرت من الخطاب بذكائها، فقابلتها في كورك - حيث كانت تدرس في مدرسة داخلية. كانت فتاة تسبب الدوار - واحدة من تلك المنتجات الجميلة، المعافاة الواثقة بنفسها والتي ينتجها بيت ثري مزود باصطبلات الخيول والحدائق الواسعة كاللروج. وقد سحرتني - لا لأنها كانت تؤثر أي تأثير على عواطفني التي كانت متعلقة كل التعلق بديانا - وإنما لأن الكمال يسحر دائماً، سواء تبدى في صورة منظر جواد سباق جميل، أو سيمفونية قوية. وكان من الواضح أنني سحرتها أيضاً، لأنها أعلنت عن أنها تنوي أن تتزوجني، رغم أنها كانت كاثوليكية وكانت تعرف أنني متزوج. وقد توقعات أن تستخدم أسرتها نفوذها للحصول على إذن من البابا بذلك.

وفي أثناء العطلة السنوية، أرسلتها أسرتها إلى دبلين لكي تقيم مع عمه لها، فأصبحت قادراً على أن أجد فرصاً لرؤيتها مرة واحدة كل أسبوع تقريباً. كانت المسألة كلها بريئة بكل البراءة، من الناحية الجنسية. فإنها وهي في السادسة عشرة، كانت عذراء رومانتيكية. كانت مفتتنة بي، ولكنها تخاف من الجنس. وذات يوم، وقبل الموعد المحدد لعودتها إلى المدرسة بوقت قصير، بدا عليها بوضوح أنها قررت أن الوقت قد حان للسماح للعلاقة بأن تتقدم إلى الأمام خطوة واحدة. كان عصر يوم ممطر من أيام اغسطس، وكنت قد أوقفت السيارة في غابة ما على حافة مزرعة كبيرة. وبعد عشر دقائق أو نحوها من بداية جلوسنا متعانقين في مقعد السيارة الخلفي، تبينت أنها قد قررت أن تسمح لي بأكثر قدر ممكن من الحريات دون أن تسلم عنريتها تسليماً فعلياً، ولكن هذا التحديد نفسه - الذي حددته لنفسها - غرس الخوف في قلبها. سمحت لي بأن أحل رباط حمالة صدرها، وأخلع سروالها الداخلي، ثم فجأة بدأت تبدي خشيتها من أن يتطلع أحدهم من زجاج السيارة - الذي كان مجللاً بالبخار إلى درجة تمنع الرؤية تماماً، متوجعاً من الإحباط والشعور بالخيبة، أحكمت إغلاق أبواب السيارة لكي أطمئنها. ثم شرعت أعمل لكي أنسيها إحساسها بالإثم بسبب تهيجها الجسدي.

واستغرق هذا وقتاً طويلاً - وقتاً طويلاً جداً - وخطر لي أنها قد شعرت بأنها أصبحت كالعاهرة دون سروالها الداخلية - وهكذا فقد البستها السروال مرة ثانية. وجعلها هذا تنزع بالاطمئنان الكافي لكي تسمح لي بالرفاد فوقها، وقد ارتفع ذيل ثوبها حول وسطها ولكن حينما حاولت أن أتحرّك لكي أتخذ وضعا يمكن للاحتكاك فيه أن يشبع استئارتي كما يشبع استئارتها، شار خوفها مرة أخرى، وكان علي أن أعود قائداً من البداية. كنت قد وجدتني لليلة للدرجة أنني كنت على استعداد لأن أبدأ من جديد مائة مرة، لقد أثارت في شهية الرجل الجائع. ولاح لي وجودي في هذا الموقف، الأطف أجمل فتاة قبلتها في حياتي، لاح لي أكثر شيئاً يحمل بقطة جنسي منه بالحقيقة. ولم تكن عملية ممارسة الجنس النهائية أمراً هاماً، فقد كان امتصاص أنوثتها كافياً لإرواء عطشي. وبعد ساعة، حينما تحققت من أنها قد بلغت حالة من التهيج أزاحت كل العقبات، تعمّدت أن أحافظ على وعدي، فتركت نتائج استئارتي التراكمية لكي تنفجر دون ضرر. وكان هذا كافياً لجعلها تسحب كل أواصر التحريم السابقة.

ولكن بينما كنت أفود السيارة عائداً إلى البيت. بعد أن أنزلتها في طريق العودة عند "كوليج جرين"، كنت أعرف أن وعيي لم يعد مستقراً عند مستواه القديم من الإجهاد. كانت الساعتان اللتان قضيتهما في تركيز مكثف قد غرستا في "إعادة" التكثيف العميق. عادة رفض السماح لطافاتي بأن تغرق ثانية لكي تختفي في منبعها من الوعي الباطن. وبينما كنت أسير بالسيارة ببطء في الظلام، كنت أعرف أن عقلي قد بلغ مستوى جديداً من القوة. كانت ضربات قلب حيويتي أكثر عمقا وقوة، وكانت ذاكرتي تعمل بشكل أحسن من المعتاد، وكانت قدرتي على الحُدس قد تعمقت... ولم يستطع طريق العودة الطويل أن يقلل من هذه الكثافة العميقة، ووصلت المنزل عند الفجر، شاعراً بنفس الانتعاش الذي أحسست به حينما بدأت رحلتي للذهاب من دبلين.

وعلى الرغم من ذلك فقد سمحت لنفسني بالانتكاس ثانية إلى المستوى القديم. فقد ضاع اكتشافي هكذا هدرًا، معرفة أن ساعتين من الجهود المركّز يمكن أن تعمق العقل وأن تكثفه حتى يقترّب من رؤية المتصوفين. ولكني الآن، في هذه الحجرة، وأنا محاصر بالرجال والنساء الممددين على الأرض، أعدت اكتشاف هذه الرؤية الداخلية التي أبصرتها ذات مرة. لم تكن هذه الحجرة مألوفة لي. إن التعود على شيء (أو الألفة، بمعنى مختلف عن معنى

تدريبات كورنر) وظيفية أو نتيجة من نتائج إجهاد الوعي، إما بالنسبة لعقل مكتمل لبقطة، فإن كل شيء يبدو جديداً وطازجاً.

كنت متحرراً من التهييج الجنسي. وكان إحساسي الرئيسي إزاء هؤلاء الناس هو الاحتقار للتسلي. وحينما كانت نورما تتحرك حركة متشنجة محتكة بيدي، شعرت بأنها وقعت في قبضة فعل انعكاسي لا سيطرة لها عليه. وفي نفس الوقت، بدا واضحاً بقوة عظيمة أنني أملك زمام رغبتني الجنسية بشكل كامل. وسواء اجتذبتني هؤلاء النسوة أم لا، فسوف يكون بوسعي أن أقوم بوظيفتي الذكرية بصورة كاملة تماماً. كانت هذه فكرة مثيرة للاهتمام، رغم أنها لم تكن جذابة بشكل خاص. كان الأكثر إثارة للاهتمام بكثير أن استعيد ذكرى تنغيم صوت الدكتور جونسون والكيفية التي مط بها شفته السفلى في تعبير عدواني واضح حينما قال: "سيدي..."، أو أن أتذكر الالتواء الماسكة الخبيثة التي جعلت الركن الأيسر من هم فولتير يتشنج قبل أن يطلق واحدة من تعليقاته اللاذعة الذكية، أو صوت شيللي المرتفع المتوتر وهو يقرأ لي قصيدته "أدونيس" بصوت مرتفع النيرة. ولكن كان لأيزموند هدف أراد أن يصل إليه، وطالما أنه كان معلمي الخاص، فقد كنت على استعداد للانتظار. في هذه اللحظة، أراد أن يظهر لي أن الرغبة الجنسية بشكل كامل مرجعها إلى الخيال - أو إلى "العمد" كما يحق لي أن أقول، إن اتجاهي إزاء نورما يمكن أن يتغير تبعاً لإرائتي الخاصة، كان بوسعي أن أراها في صورة فتاة غبية شقية لا تستطيع أن تفكر في شيء أبعد من اللذة التي تحسها بين فخذيها، أو في صورة تجسيد لرغبة الأرض، فإذا اخترت أن أنظر إليها على هذا النحو، فسوف يكون علي أن أسدي لها لاحتزام والتوفيق اللازمين، مثل كاهن يقف أمام المذبح. وتبعاً لهذا، فقد خلعت سروالها، ثم خلعت سروالي، وصعدت فوقها. فتحت عينيها دهشة للحظة واحدة، ثم شهقت بحدة حينما ونجتها... ولما كان هذا عملاً من أعمال طقوس العبادة، وليس من الأعمال التي تدل على الرغبة، فقد ركزت على إعطائها أقصى قدر ممكن من اللذة، موافقاً بين حركتي إلى الأمام وبين حرركاتها.

ورغم الفاصل القائم بيني وبين ما أفعله، فقد كنت أشعر كما لو أنني أمارس الجنس للمرة الأولى في حياتي. وأكثرنا يعرف أن الجنس يكون أحياناً أفضل منه في أحيان أخرى. ومن الممكن أن يولد ولوح فتاة صدمة كهربائية تماثل الصدمة التي تحدث إذا وضعت إصبعك داخل توصيلة كهربائية بالصدفة، أو يمكن أن تبدو هذه العملية كنيبة وعادية،

عملاً جسدياً لا يختلف عن أي عمل غيره. وهذا يرجع إلى القدرة الإنسانية على الدخول في حلة من البلادة أشبه بحالة النوم مغناطيسياً، حالة من تقبل كل شيء على علته. ولم أكن أتقبل نورما على علاقتها فقط، كما مر بيدي من السلطات، بل كنت مدرسكاً لأنها في نفس الوقت تشبه كل فتاة أخرى في العالم. شعرت كما لو كنت نسرأ يحوم ثابتاً في الهواء دون حركة، محمداً إلى أسفل نحو فجوة هائلة بين الجبال.

كانت الطاقة التي ولدها عملنا قد أثرت على الآخرين في الحجرة. شعروا بها كما لو كانت مهيجاً غامضاً، "عطراً خاصاً تحمله الريح" كما قال بليك. كان بعضهم يراغبوننا وراح آخرون يقلدونني متجاهلين قواعد كورنر التي وضعها ضد الجماع الفعلي. شعرت بيد تجري برقعة على ظهري، وعلى ردي، ثم بين ساقي. كانت تيسا، منحنية فوقي وعلى وجهها تعبير حالم بشكل غريب ومناقض لما كانت تفعله. تذكرت من كانت تذكرني بها، إنها مينو بوير، أولى عشيقات أيزموند، لم أكن قد عرفت اسم أسرتها من قبل، ولكنني تذكرته الآن. زنت من سرعتي وأنا أشعر يتصاعد استثارة نورما، ثم بينما كان بطنها ينحني إلى أعلى وتضغط بقوة على بطني، تظاهرت بأنني بلغت ذروة نشوتي، شاعراً في نفس الوقت بأصابع تيسا وهي تنغرز وتقبض على لحمي. استرخت نورما ببطن، فسهبت نفسي. قال شخص ما،

"يا الهي". كانت جوينيث، التي كانت تقف إلى جوارنا من الجانب الآخر محملة بإعجاب في العضو الذي بدا - حتى لعيني - منتفخاً بشكل غير عادي. أما الستير، الذي كان لتوه قد نهض من فوق فتاة ظننتها للوهلة الأولى أنجيلا فقد صاح مذهوشاً،

"غير معقول!"

أمسكت تيسا بمرقعي وقال،

"والآن، أنا".

دفعتها جوينيث جانباً، ممسكة بي حتى لا أنهض تماماً وقالت بتصميم،

"كلّا، أنا".

لم يكن عندي أي فرق بينهما. كان أيزموند - لأسباب تتعلق به... مصمماً على أن يمضي في المظاهرة حتى يبلغ بها نهايتها. ورغم أن ذاكرته كانت واضحة لي، فإن وعيي لم يستطع أن يدرك الغاية القصوى من نواياه. لم أعرف سوى أنه قد تولى أن يستخدم جسدي لكي يشبع أكمرك عند ممكن من النساء اللواتي قد يخترن أن يطلبن منه خدماته. وهكذا، فحينما استندت جوينيث بظهرها إلى الجدار، ضاعطة أداة المتعة... مددت يدي من ورائها، وأرشدته إلى المدخل الضيق... لم يكن الوضع مريحاً بشكل كامل، لأنني كنت أطول منها. كانت هناك مائدة قريبة خلفي، تحركت إلى الوراء وأرحت نفسي على ركنها، جاذباً المرأة معي. أنت وهي تنضغط إلى أسف، ثم رفعت نفسها وهبطت مرة ثانية بسرعة. جذبتها حتى التصقت بي، ممسكاً بها بقوة أمامي، وقد شعرت بشكل ما بأنها قد أصبحت مثل أداة موسيقية مألوفة لي. كان في نيتها أن تبقى في مكانها لأطول وقت ممكن. فقد كانت قد نزعها على التماسك الجنسي دون حدود تقريباً، وقد تجاوب للوقف الحالي مع نزع الاستعراض الكامنة في غلمتها. ولكن أيزموند كانت له خطط أخرى. كان متمرساً في استخدام مبدأ رد الفعل للنعكس الشرطي. دفعت حساسة رقيقة قليلة دمرت سيطرته، ثم جاءت دفقة لا يسعني أن أصفها إلا بأنها نوع من الكهرباء الجنسية جعلت نقاط اتصالها الحساسة - نقاط الحلمتين وفتحة الشرج الممتدة تتوهج بقدر من اللذة لا يمكن احتمالها حتى اقتربت من الألم. أطلقت صيحة ألم، وهي تتلوى وتتقبض، وكان علي أن أمنعها من السقوط من أمامي. وبينما أمسكت بها ملتصقة بي، خفت حدة التقلصات، وتحولت الأنات إلى تنهيدة عميقة. أبعدتها برفقة عن حجري، وأمسكت بها بينما كانت تهوي ببطة على البساط.. ففزع رأس الإله الذي لا يكل إلى أعلى مثل "عفريت العلية"، وجفلت حينما سمعت انطلاق التصفيق. جالساً وقد أوليت ظهري إلى بقية الحجرة، لم أكن واعياً بجمهور الشاهدين الذي تجمعوا للفرجة. كان بول وأنجيلا يقودان التصفيق ويصيحان. قال بول، "إنك استاذ"، فتبينت مصدوماً أنه كان يعرف عن جماعة العناء أكثر مما كنت أعتقد. كبحت جماح التعليق غير المتواضع الذي كان أيزموند قد شرع يطلقه. اندفعت أنجيلا تجاهي، ولكن تيساً كانت قد وصلت قبلها وهي تقول:

"كلا. إنها أنا". ثم دفعتني إلى الوراء على المنضدة، وهي تحاول أن تصعد فوق أعنتها على ذلك - طالما أنها كانت أصغر حجماً من جوينيث. ورفعتها قليلاً قبل أن أتركها تسقط فوقي. انحط رأسها فوق كتفي، وأطلقت تنهيدة طويلة، ثم بدأت تتحرك ببطة، كما لو

كانت متعبة، وهي تطلق صيحات خفيفة. مثل حيوان ضئيل الحجم يتلقى الضربات دسست إحدى يدي تحت قميصها الرياضي وفحصت حلمتها اختلصت برفقة واندفع لسانها الصغير في فمي وراح يدفعني من داخل فمي. وبينما كنت أدفعها برفق بعيداً عني، صاح رجل بلكنة اسكتلندية وصوت مرتفع، "إن الرجل فتنة عجيبة لا تتكرر".

كانت أنجيلا هي صاحبة النور التالي، جذبتني حتى أرفدتني على البساط. أمام المدفأة، وألقت بنفسها إلى أسفل وقد ننت ركبتيها. ومعها، اكتشفت اكتشافاً جديداً. كانت العملية مثيرة مثلما كانت بعد زيارتنا لأسرة دانكمان. من الواضح أنها كانت تتمتع بشيء ما، أو إنه كانت هناك صفة خاصة في تركيبة كل منا الجنسية النفسية، جعلت كلاً منا قادراً إلى درجة عجيبة على إعطاء صاحبه الحد الأقصى من المتعة. وهذا عنصر نادر ما لاحظته الكتاب الذين كتبوا عن الجنس، الذين يبدو أنهم يشعرون بأن اختلاف بين عملية جماع وأخرى إنما هو بشكل كامل مسألة تتعلق بالمعاني التي يختار الشخص أن يسقطه عليها. كانت العملية مبهجة مع أنجيلا حتى أنني شعرت بما يغريني أن أهدئ من سيطرتي على نفسي وأن أكف عن حبس رغبتي في المشاركة، على الأقل بدافع من التهذيب. كانت خمس دقائق كافية لاسترداد طاقتي. ولكن هذا لم يكن جزءاً من العرض الذي يرمي إليه أيزموند، فقد لاح أنه مصمم على الاستمرار في العرض، لأسباب خاصة به. بدأت أشعر كما لو كنت محرك سيارة قوية وصل إلى درجة الأداء الكامل. لم يكن ثمة إجهاد أو نصب، وبدأ جسدي كما لو كان يندفع بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة، واكتسبت حركات أردائي حركة موزونة إلى درجة غريبة، كما لو كانت بتدوّل مضبوط الإيقاع زدت من سرعتي لكي أصل بأنجيلا إلى ذروة نشوتها، وأنا أجذبها لكي أضغطها على جسدي حتى خبت حدة عنفها، ثم انتقلت إلى المرأة التي كانت تنتظر بالفعل إلى جانبي من الناحية الأخرى. شيء ما كان يحدث لي، أشبه بحالة إحساس حقيقي بالانفصال عن جسدي. وكان عقلي قد انفصل عن الجسد وطار في الهواء محمداً فوقنا. إنني حينما أفكر متذكراً حياتي الجنسية العادية، فإنها تبدو لي ضائعة لا نظام فيها. فهي كل مرة يلج فيها رجل فتاة، يستيقظ آله في داخله. إنه لا ترضيه الحياة الجافة ولا الوجود الشبيه بوجود الخنفساء الذي نعيشه، يعرف أن الإنسان قد صنع لكي يغزو أفاقاً شاسعة، غزوات لا نهائية ومن أجل أن يحقق بقاء سامياً وجليلاً للإرادة. وحينما يصطدم اللحم باللحم الغريب، يقع عقله في قبضة نوع حاد من وضوح الهدف يرفض أن يتسامح مع تشوش الجسد وثقله. يصبح مثل القائد

بهم، إنه يستطيع أن يجعل من هذا الركاب من الأخلاط المشوشة التي ندعوها الجسد، بمتناسقاً صلباً مثل فضيلة جيدة التدريب منسجمة الأفعال. ثم تعبر ذروة الشهوة إلى ما الوعي، ويغيب القائد في طيات النسيان، ويعود التشويش المضطرب من جديد.

لم يكن أيزموند يقوم بهذا متفكهاً أو بهدف التسلية. فعلى المستوى الأول، كانت هذه اهرة أو استعراضاً. بدون كلمات كان يقول لنا أن الهدف الحقيقي الذي سعى وراءه زلواها ودون جوان وهرائك هاريس وزملاؤهم، هو أن يجعلوا من عمليات الإغواء التي يوابها واحات من "القصد" في صحراء من الفوضى وعدم النظام، لقد حلقوا عالياً لثانية لدة كالنسور، ثم انحطوا هابطين ثانية إلى المستنقع. كان أيزموند يقول لي أن الهدف أن "بقى في الهواء". ماذا يمكن أن نقول عن قائد ساق قطعان الغزاة إلى خارج بلاده، ثم جمع من المنطقة التي احتلها وسمح لهم بأن يعودوا على الفور؟ ليس هذا سوى ما حدث شر، وقد بالغوا في تسليمهم بهذا كما يسلمون بالبيدهيات حتى أن الغزاة عادوا مباشرة في تاب المؤخرة للزاجعة، دون محاولة للتعزية أو للمساومة. وقد أراد أيزموند أن يظهر أن ثقافة الجنسية تهين لنا بصيرة داخلية في مثل حيوية الرؤية الصوفية، وأسهل في تحقيقها ثير، ولكنها - لكي تكون مؤثرة، فالأبد أن يتم تنظيمها بحرص وانفعال مساو لحرص من ارس اليوغا أو التنسك والصوم الطويل.

بعد المرة الخامسة، لم يعد الجنس يهمني أو يمتعني، كنت مبهوراً بالحقيقة التي كانت تحدث في وجهي طوال حياتي. ففي كل مرة نشعر فيها بسعادة عميقة، فإننا نعرف ه ليس هناك سوى خير واحد، قوة الإرادة، وأنه ليس ثمة سوى شر وحيد، أن نتنكر للإرادة. بو أن الحياة طيبة خيرة مثلما نعرفها في لحظات ابتهاجنا، لكان من الواجب أن ننظر إلى كل العقبات كما لو كانت من حصى الطريق، وكان المفروض ألا يكون الإنسان قابلاً هزيمة. وحينما كنت أنظر حولي في الحجرة إلى هؤلاء الربات العاريات، نبع في داخلي فرح ميق. هؤلاء كن الأمهات، والذات جنسنا، اللواتي استعبدن الرجال دائماً واحتقروهن. لقد يدين مثل كائنات إلهية مقدسة. إن ما بين أخاذهن هو مدخل الرجل إلى عالم الأحلام، إلى العظمة، وإلى الهدف الأول الذي يكمن وراء المادة. لم أرى فرق بين الواحدة منهن الأخرى، بين الصغيرة والجميلة وبين متوسطة العمر المجددة. الرغبة في خدمتهن جميعاً كانت رغبة غير شخصية ومتحررة من الشهوة. وقفت وأخذت يد فتاة نحيلة عصبية

الشكل كانت تنتظر، ومضينا معاً إلى ركن الحجرة. وقف جزء من كيانني خلف مذبح مغطى بقطعة قماش حمراء، شيد في مذبح مبني من الحجر الرملي المنحوت. وارتدت فتاة على شكل رأس طائر عظيم، ووقفت أربعون امرأة عارية في صف واحد أمام المذبح، أجسادهن تلمع بالزيت، وكل منهن تمسك في يدها قارورة ممتلئة بسائل هوار متوهج الخضرة أدركت أنا طبيعته وكنهه على حين فجأة.

- ٢٢ -

□ عندما استيقظت في صباح اليوم التالي، على أثر ملامسة أشعة الشمس لوجهي، اجتاحتني إحساس عارم بالسعادة، كان جسدي في أشد حالات الوهن، وكانت عضلاتي تؤلني، إلا أن جسدي كان لا يزال ينبض بطاقة عميقة مكبوتة. نظرت إلى الفتاة الراقدة إلى جوارني - فتاة لم أكن أعرف اسمها. وشعرت بنوع من الإشفاق يجتاحني. ومن الغريب تماماً أنها كانت عذراء، وكانت قد قبلتني زوجاً لها، ولكنني كنت زوج ديانا ووالد موبسي. إنني لم أذكر ديانا كثيراً في خلال سردي لهذه القصة، ولكنني كنت أطلبها بالتلفون كل يوم، وكنت أفكر فيها وقتما تكون لدي الفرصة للاسترخاء والتفكير. إنني عاشق للبيت - بعكس أيزموند. وقد أردت في تلك اللحظة أن أعود إليه.

انزلت خارجاً من الفراش برفقة، واتخذت طريقي عائداً إلى حجرتي وأخذت من حقبيتي ثوباً فضفاضاً من القطن ومنشفة من فوق للشجب، وهبطت إلى الطابق الأسفل. كان الصباح لذيذاً، مفعماً بروائح حشائش إبريل. اتخذت طريقي إلى المجرى اللاني الذي كان يجري على الجانب البعيد من صف من شجيرات الفوشيا عند حافة الحديقة الكبيرة هرع أرنب مدهوش إلى الحشائش الطويلة يختفي فيها دون إسراع. كان مجرى الماء ضحلاً، ولكن عمقه كان يبلغ خصر الرجل بالقرب من المنتصف. كان شديد البرودة حتى كان علي أن أخرج قدمي من الماء بعد لحظات قليلة، لكي أترك الألم يخفت بالتدريج، ثم هبطت بجسدي في الماء بالتدريج، وغسلت بالماء جسدي بأسفنجة جنت بها معي. بقيت في الماء حتى بدأت أشعر بالبرودة، ثم هردت للنشفة فوق الحشائش التي بللها الندى وتمددت تحت أشعة الشمس. وبعد عشر دقائق كان جسدي قد جف.

كنت اعرف ان علي ان اغادر هذا المكان قبل ان يستيقظ الآخرون.. ولو انني بقيت، لنشأت ارتباطات شخصية مع عدد كثير جداً من الناس. فكل امرأة مارست معها الجنس كانت جديرة بأن تشعر بأن من حقها ان تأخذ معها جزءاً من حياتي. واعتراضي الوحيد على هذا هو أنهم مكن كثيرات جداً. وكنت جديراً بأن أستمتع بالارتباط مع كل واحدة منهن والدخول معهن في علاقات شخصية، ولكن لم تكن لي سوى حياة واحدة.

عدت إلى المنزل هابقظت انجيلاً وقلت لها انني أريد ان أرحل. كانت نائمة في حجرها فتناوبت، وابتسمت وفتحت ذراعيها. قبلتها وهزرت راسي وقلت:

- "ليس الآن".

- "لا بد أنك متعب".

هيضت بيدها ودستها تحت ثوبي الواسع.

- "يا إلهي الرحيم!" وولج لسانها فمي. طوحت بالأغطية من على الفراش، وصعدت فوقها. كانت ما تزال ناعسة. وكانت العملية دافئة وممتعة، ولكنها لم تكن متفجرة. حاولت ان انسحب قبل بلوغ ذروة نشوتي، لكنها هزت رأسها وأمسكت بي بقوة. بعد ذلك، غطيته ثانية.

- "يمكنني ان أخذ سيارتك؟"

- "بالطبع، ولكن ليس عليك ان ترحل".

أخذت مفتاح سيارتها من حقيبتها وأخذت مفتاح باب الشقة. قلت:

- "اعتذري لكورنر، وقولي له ان يوسع ان يجلدني في الشقة اليوم، في أي وقت، وسوف يفهم".

بعد عشر دقائق كنت أقود السيارة باتجاه لندن، وقد تملكنتي سعادة مفاجئة غامرة، وعقلي يشع بالأفكار والرؤى.

كانت مسألة أيزموند هي ما شغلتنني أكثر من أي شيء آخر بالطبع. كانت دراساتي في علم النفس والظواهر الخفية ذات الطابع السحري (والتي كتبت تاريخاً لها) قد

اقنعتني بأنه من الممكن ان توجد شخصيتان في جسد واحد.. إن الحالة الغريبة التي تمثلها "وجوه حواء الثلاثة" هي حالة (كلاسيكية، نموذجية وتقليدية) في علم النفس لم يحاول أحد ان يفسرها، ربة البيت المتزوجة الهادئة الحسنة السلوك التي تتحول فجأة إلى محبة لاهية لفن العشق. وأكثر ملامح هذه الحالة غريبة وهي الحالة التي صورها كل من تينين Ingpen وكليكي Clochleg^(١) هو أنه بينما كانت ربة البيت المتزوجة جاهلة تماماً بما حدث حينما استولت على جسدها الفتاة العاهرة، فإن العاهرة، كانت مطلعة على كل نشاطات "الأنا الأخرى" التي تشاركها نفس الجسد. وقد أخبرني ديانا بحالة شهدتها نفسها في صباها الأول: فقد ذهب أحد أعمامها لكي يتسلق الجبال في سويسرا، وذات يوم بدأت شقيقة زوجته - التي كانت ديانا تقيم معها - تتحدث بصوته، مستخدمة نفس امتدادات لهجته ونغمة صوته ورغم ان صوتها بالطبع ظل صوتاً أنثوياً. واستمر هذا لمدة ثلاثة أيام، حتى عثر على جسد عمته في أخدود عميق بين الجبال، ثم توقفت عن الكلام بصوته.

إننا لا نملك أي تفسير لمثل هذه الأشياء، وقد لا يهم كثيراً أن أصبح لدينا أي تفسير أم لا. فمن المحتمل ان يكون تفسيراً خاطئاً. إن كل ما همني - بمعنى ما - هو أن أيزموند لم يكن ميتاً. كانت هذه هي الحقيقة الوحيدة اللاهتة للنظر والهامة.

كانت هناك مشاكل أخرى. ماذا كان ذلك الذي قاله أيزموند فانتج ذلك التأثير العنيف على كورنر؟ وما الذي عرفه كورنر عن أيزموند، وكيف أتى له ان يكتشفه؟

ولكن هذا لم يكن سوى جزء صغير مما شغل عقلي بينما كنت أقود السيارة عائداً إلى لندن. أما الشيء المهم حقاً فهو ما تعلمته في الليلة السابقة. لقد اكتشف أيزموند طريقة ما يتمتع بها نفسه من بلوغ ذروة نشوته، فيجعلها متوجهة طوال ساعات. وكان معنى هذا أنه قد خطا خطوة أبعد من أي إنسان شعر بالتهيج قبله. وأن ما سحرني فكرة جوانب الوعي والإرادة التي تفتحت أمامي. كنت قد شعرت بإرادتي أكثر قوة بالفعل، شعرت بأن وعيي أصبح أكثر اتساعاً وعمقاً. لقد شعرت بنفسي - طوال حياتي - بأنني واقع بشكل ما في قبضة قوى تقع خارج ذاتي، وإنها بشكل ما، تحررني بطريقة من طرق التوجيه البعيد.

(١) "وجوه حواء الثلاثة"، تأليف كورنر هـ. تينين، هيري م. كليكي. لندن سبكر وداربورج، ١٩٥٧، وكان "الوجه الثالث" هو حواء ذات الانسجام الداخليين بعد علاجها.

فإذا كنت متعباً، وشعر عقلي بالبلادة، فإنني أفقد همتي بسهولة، فأصبح أداة سينة لتلك القوى. ومن ناحية أخرى، إذا حافظت على إيماني، وسقت نفسي سوقاً شديداً، وحافظت على مستوى عالٍ من التفاؤل عن طريق الإرادة الخالصة والخيال، فإنني أشعر بأنني أستخدم لخدمته غرضاً يتجاوز أغراضني الخاصة. وأبدو كما لو كنت أحظى بقوى جديدة تفوق قوتي. هناك - لاحظتها - يكون إحساسي بالحتمية والارتياح، وأشعر بدهشة عميقة، مثل عصفور يجد نفسه هجاة طائر أيسرعة طائرة نفاثة.

في قصيدة "هيفايين في السوق" يقول براونينغ أن الإنسان يشبه السباح إذ يطفو على ظهره فوق سطح بحر هادئ. إنه لا يستطيع أن يطير مثل الفراشة، فإذا حاول أن يرفع كتفيه إلى أعلى مما ينبغي فوق سطح الماء، غرق باقي جسده. فإذا هبط برأسه تحت المياه غرق. ويقول براونينغ أن هذا هو وضع الفنان، رأسه فقط هو الذي يستطيع أن يبرز من بحر الحياة، وأن يكتشف الحرية في عالم من الخيال، أما ما بقي منه فهو محكوم عليه بأن يظل في المياه، خاضعاً لقانون الأجسام الطافية. وإني - باعتباري وجودياً ارتقائياً - لم أقبل أبداً هذه النظرة الرواقية الباردة، إنني متيقن من أن قوى الخيال والنشوة تلك، التي طورها ونماها الرومانتيكيون، كانت فاتحة مرحلة جديدة من التطور الإنساني. وفي قصيدة "هيفايين"، وهي عن "دون جوان" يقبل براونينغ فكرة أن الإنسان ليس ثابتاً مطرداً مستقر التكوين، وأن رغباته الجنسية تمنحه لمحات بارقة من حقيقة مراوغة من نوع ما، تختفي فتفاديه مذهولاً مرتبكاً مأخوذ لللب. وكان ما ظننته دائماً هو أنه ليست هناك ضرورة لأن يكون الأمر على هذا النحو. إننا نمتلك قوى نادرة ما نص وجودها في أثناء دوران الحياة اليومية الكئيبة، قادرة على أن تجعل الروح تموج مثل عاصفة، أو تغرق في هدوء ساكن الهواء متلهفة إلى النشوة المستحيلة. ومن أجل أن نكتشف تلك القوى، يجب علينا أن نلجأ أنفسنا إلى أفاق جديدة. أن الرجل الذي يتمسك بالعادة اليومية لا يستطيع أن يحصل على أية لحظة مزعجة من لمحات اكتشاف الذات. ولكن عملية ارتياد علم الجسد لا تقدم أية إمكانية لكشوف جديدة. علينا أن نتدرب - وأن نجيد استخدام - تلك الحيلة القريبة التي تؤدي إلى إتاحة الفرصة للجسد لكي يظل ساكناً أو هامداً، بينما يندفع العقل لكي يكتشف الأدغال وسلاسل الجبال الداخلية.

وفي وضوح كامل، استطاع أيزموند بمعونة الجنس أن يخطو خطوة هائلة في هذا الاتجاه. فلا عجب أنه كان قادراً على أن ينتفع بجسدي وعقلي وأن يستخدمهما. فقد كرس كل منا حياته للوصول إلى نفس المثل الأعلى. وعبر قرنين من الزمان، التقى عقلا كما تلقي يدان امتدتا للمصافحة، فتماسكا وتعانقا. هناك جوانب عديدة استطعت أذا فيها أن أتقدم إلى أبعد مما كان في مقدور أيزموند أن يتقدم فيها، لأنني حصلت على فرصة معرفة ثمار قرن ونصف قرن آخرين من تطور الثقافة الأوروبية. ولكن إرادته استطاعت أن تبلغ إلى أبعد وأعمق مما بلغته إرادتي. فما الذي يمكن أن يكون مستحيلاً بالنسبة لعقلي المتزحجن؟

- ٢٤ -

□ وصلت إلى الشقة بعد الساعة العاشرة بقليل. كنت جائعاً إلى درجة هائلة. وجدت قطعة جيدة من فخذ خنزير في الثلاجة فطهوت ست شرائح منها مع ثلاث بيضات. شعرت بتحسن بعد أن أكلتها مع الخبز الحاف والمربى وعصير التفاح والقهوة. واستمر الإحساس بالسعادة والإدراك العميق الممتد الأفاق. خطر لي أن مشكلة الوعي الإنساني الأساسية هي أنه يتركز على الحاضر معظم الوقت. وفي لحظات الاسترخاء وحدها - لحظات الإجازات - نستطيع أن نحقق حالة هي في نفس الوقت "يقظة كاملة" ولكنها "غير مركزة". وهذه حيلة، أن نقهر العادة القديمة، عادة السماح لوعي بأن يسترخي حينما لا يكون مركزاً. ها هنا أنا، مفعم بالإحساس بقدرة غريبة، وعقلي يقظ بقطعة تامة، ومع ذلك فإنه غير مركز على شيء. بالتحديد. وكانت النتيجة هي أن يملأني كل ما انظر إليه تقريباً أو ما أفكر فيه بالاستثارة والرؤى الداخلية الدقيقة إلى درجة لا يمكن القبض عليها أو إمساكها.

كان لدي الستير - على رف الكتب - طبعة جميلة من قصائد تشاترتون^(١). ولم أكن قد قرأت ما جمعه له رولاي من قصائد، ومع ذلك فحينما نظرت إليها، انتابني إحساس بالمعرفة، بالألفة. أخذت كتاب القصائد من على الرف ونظرت إلى تاريخ حياة تشاترتون.

(١) توماس تشاترتون ١٧٥٢-١٧٧٠، واحد من أشهر الشعراء الإنكليز، في عصر (الأحياء الفوطلي)، وكان يحق من أهم رواد الشعر العاطفي والوجداني، مات منتحراً في ليلة ٢٤ أغسطس عام ١٧٧٠.

١٧٥٢-١٧٧٠. كان أصغر من أيزموند بأربع سنوات، ومن الواضح أنه كان في لندن طوال
الشهور الأربعة الأخيرة من حياته - قبل أن يتناول جرعة من سم الأرسنيك. كان في وسع
أيزموند أن يقابله. جلست على القعد القريب من النافذة، والكتاب مفتوح على ركبتي،
وأفرغت عقلي. على التو كنت أنا أيزموند؛ ظهر مثل صديق قديم وراء عيني ناظراً إلى
الكتاب. عرفت إجابة سؤاله. إنه لم يقابل تشاترتون أبداً - فقد كان في غوتنغن حينما
كان تشاترتون في لندن؟ ولكن كان قد تحدث مع والبول عن تشاترتون في عيد الميلاد
السابق. وكان والبول غاضباً بعنف لأن الصبي كان قد أرسل إليه بعضاً من شعره نسبها إلى
شخص يدعى جون أبوت. وخدع والبول بالقصائد حتى أعلن الشاعر غراي أنها قصائد
منحولة ومنسوبة خطأ إلى جون أبوت. وكتب والبول إلى تشاترتون، وأشار له برقة إلى أن
من واجبه أن يستخدم مواهبه من أجل أغراض أحسن، فجاءه جواب وصف بأنه "مقالة
مسيئة للأدب وبذيئة". وحينما سرد والبول على أيزموند هذه القصة اغفل أن يذكر أن
غراي قد اكتشف عملية السرقة ونسب الفضل في الاكتشاف إلى نفسه.

دق جرس التليفون، فافترضت أنه لابد أن يكون المتحدث هو كورنر أو أنجيلا. ولكن
حينما سال الصوت الألماني الثقيل قائلاً: هل المستر سورم موجود؟ علمت أنني أخطأت
بالاستجابة للرنين. قلت، "إنه هو المتحدث" بخشونة مفتعلة.

- أه، شكراً لله. أنا "أناليزا دانكمان". كنت أحاول الاتصال بك طوال عطلة نهاية
الأسبوع. كيف حالك؟

تبادلنا المجاملات اللؤبية للحظة، ثم قالت،

- "اسمع. من لهما جداً أن أراك. هل يمكنك أن تأتي إلى هنا؟"

- "إنني متأسف للغاية، فإن هذا مستحيل. فانا راحل إلى أيرلندا. عصر هذا اليوم..."

بينما كنت أتكلم معها، شعرت بوخزة غريبة بين أفخاذي، وعادتي فجأة بوضوح
عظيم صورة فخذيها المفتوحين وأعضائها التناسلية تحت الحرير الوردى اللون. خطر لي أن
أيزموند جدير بأن يفهم هذا، ولكن كان شيئاً بالغ الصعوبة أن أحاول تصفية عقلي
وتركيه وهي تتحدث. فجأة انقطع الخط وانقطعت الكالة. افترضت أن عطلاً فنياً قطع
الاتصال، فوضعت السماعة. وخطر لي أن هذه اللحظة ربما كانت هي اللحظة المناسبة لكي

اتصل بيدينا في ماي كوللان - حتى إذا اتصلت أنا دانكمان مرة ثانية وجدت الخط مشغولاً.
اتصلت بعاملة الخط، وبعد بضع دقائق كنت أتحدث مع موبسي، التي قالت لي أن "مامي" في
بيت تدفئة الزهور، في الحديقة. بعد دقائق قليلة جاءت ديانا إلى التليفون، وقالت إنها كانت
تحاول الاتصال بي منذ أمس، فقد استطاع فليشر أن يحصل على عرض من شركة
سينمائية لإنتاج فيلم عن المادة التجمعة لديه عن دونيللي، وأنه يريد إجابة فورية. كان
البلغ العروض كبيراً جداً بالطبع، ولكن فليشر اقترح أن يأخذ خمسين بالمائة، وهي نسبة
بنت لي مبالغاً بها جداً. تحدثنا لمدة تقرب من العشرين دقيقة، وقلت لها أنني أرجو أن أعود في
غضون يومين، وقلت لها ألا تفعل شيئاً بخصوص الرقبة التي أرسلها فليشر. وحينئذ دق
جرس الباب. قلت لها "إلى اللقاء" بسرعة، وذهبت لكي أنظر من النافذة. كانت أنا دانكمان
تقف عند عتبة الباب الخارجي.

شعرت بما يغريني ألا أجيب، ولكن بدا لي هذا نوعاً من الجبن، إلى جانب أن من
المحتمل أن تكون قد سمعت صوتي وأنا أتحدث بالتليفون - فقد كنت فتحت النافذة -
ذهبت وفتحت لها.

ابتسمت لي بطريقة أسرة مليئة بالود.

- أه، يا عزيزي جيرارد. جميل أن أراك مرة ثانية."

أمسكت بكلتا يدي. وألصقت نفسها بي في انفعال للحظة. وجدت نفسي أتساءل إن
كانت ترتدي السروال الخرم. وشعرت بوخزة بين فخذي.

الأمر المدهش هو أنها كانت امرأة كنت جديراً بشكل طبيعي أن أراها منفرة على
الفور وبشكل مباشر. لم تكن سيئة المظهر وكان جسدها جميلاً - وإن كانت تميل إلى
البدينة - ولكنني كنت أشعر أنها ذات مظهر رجولي بشكل أساسي. وبشكل مناقض للطبيعة،
لاح أن هذا يزيد من جاذبيتها عن طريق إثارة الحاجز الطبيعي الذي يفصل بين الذكر
والأنثى، ويقيم بدلاً منه نوعاً من الصراحة الراقية، وكان عليّ أن اعترف بأنها كانت
تتمتع بجاذبية الشيطان وحسنه الظاهري.

كانت من الحكمة لدرجة أنها لم تشر على محاولاتها للاتصال بي، الأمر الذي كان من الممكن أن يتضمن نوعاً من التائب أو اللوم. كانت مفعمة بالدفء، فقد كنا - في نظرها - صديقين قديمين عادا إلى الالتقاء وقد أبهجهما أن يرى أحدهما الآخر.

سألتني عن صديقي الشابين أين هما. فقلت لها أنهما سيبقيان بالخارج طوال النهار. ظننت أنني اكتشفت على وجهها شبح ابتسامة تهني بها نفسها. قالت:

"يا للخسارة. لقد أردت أن أقابل هذا الشاب. إنه يبدو ذكياً واسع الأفق."

فكثت أزرار معطفها. فأعنتها على خلعه. كانت ترتدي ثوباً من نسيج بني ناعم، جعله تهادها الكبران مشدوداً إلى الخارج. وكان الثوب بالغ القصر.

جلست على الأريكة. بطريقة أقرب إلى الاحتشام، وقد ضمت ركبتيها ووجهتهما إلى الخارج. ولكن قصر ثوبها جعلها تعري ساقيها حتى طرقي جوربها بشكل حتمي، كما تعرت منطقة من الفخذين. عرضت عليها قديحاً من القهوة. قالت:

"كلا أشكرك. إنما أريد أن أتحدث معك عن أشياء كثيرة. ولنبدأ بمسألة هامة. إنك بإقامتك في إيرلندا تحتاج إلى مساعد أدبي "ليس كذلك؟"

قلت بحذر شديد أن هذا محتمل، ولكن لابد أن أعترف بأنني كنت قد بدأت أتساءل إن لم يكن كورنر يبالغ بشأن دانكمان وزوجته. كانت تشع بالدفء وبحيوية عاطفية عارمة. قالت:

"حسناً. إن لدي الشخص المناسب تماماً. هناك فتاة شابة تدعى كلارا فيبيج، وهي سويسرية. حينما أخبرتها بأنني قابلتك، لم يكن يوسعها أن تصدق ذلك إلا بصعوبة. إنها تملك كل مكتبك، وملفك كبيراً يضم كل ما كتبته عنك في الصحافة."

ابتسمت بثقة مطمئنة، ثم استطردت تقول:

"هذا بالطبع نوع من الافتتان الذي يحدث للفتيات الصغيرات - فإنها قد أتمت تعلمها في الكلية منذ وقت قصير جداً. وقالت أنها كتبت لك مرتين، ولكنها لم تحصل على أي جواب". (ومن الممكن أن يكون هذا صحيحاً، فإنني لا أحيب على الخطابات إلا إذا لم يكن علي

أن أكتب شيئاً آخر). "وهذه الفتاة لديها الكثير من وقت الفراغ. فإن والدها يرسل إليها مبلغاً جيداً كل شهر، وهي تقوم بالدراسة في جامعة لندن. وحالاً آخرتها عن عملك في موضوع دونيللي، عرضت أن تقوم بعمل مراسلتك الأدبية في لندن. وهي لا تريد شيئاً في مقابل هذا. إنها لا تريد إلا أن تعمل معك..."

وجدت في الأمر ما يتعلق غروري. فإنه لا يوجد كاتب أصبح متخماً بالملذات، غير مبال بها للدرجة ألا يستمتع بإعجاب النساء به. ووجدت نفسي أسيراً لسحر موضوعية السيدة دانكمان وعدم تحيزها. فمن الواضح أنها لم تكن من النوع الغيور. قالت:

"طبيب. لقد قلت لكلاً أنا قد نذهب كي نراها اليوم في أي وقت. إنها تقيم في نوتينج هيل جيت، وبهذا فإنها قريبة من هنا. لدي صورة لها."

فتحت حقيبة يدها، وأخرجت حافظة أوراق صغيرة. وقفت لكي أخذها منها، ووقفت هي أيضاً وبدأت تبحث في الحافظة. كانت تضع نوعاً خائت الرائحة وإن كان ممتعاً من العطر، وقد زادت نعومة نسيج ثوبها من استدارات نهديها وردفيها. قالت:

"أه، هاهي."

تحركت لتقترب مني، وضغطت أعلى فخذيها بخفة على فخذي. شعرت بوخزة من الرغبة كانت تجعلني أفرز. كانت الصورة التي أطلعتني عليها لفتاة في ثياب الانزلاق على الجليد، واقفة على قمة للنزلق الجليدي المرتفع. بدت الفتاة جميلة ونحيفة، ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك بسبب ثيابها الثقيلة.

ولكن ما أدهشني كان التعة التي كنت استمدها من الانحناء على أنا دانكمان. كانت ملتصقة بي التصاقاً خفيفاً، تقلب صور الحافظة الملتصقة بها، وبدأ لي أن الدفء المنطلق من خلال ثوبها يتصل مباشرة بعضوي الجنس. لاح لي أنها تحمل صوراً عديدة لكلارا فيبيج. أطلعتني على صورة قريبة لوجهها فرأيت فتاة على شيء قليل من الذكورة ذات صدغين مرتفعين - جميلة - وشعرها الأسود منسدل على كتفيها. ذكرتني بشكل غامض بمظهر أنا دانكمان نفسها.

واذ وقعت في مكاني خلفها ناظراً من فوق كتفها، أربكني عنف رغبتي. إن استجاباتنا الجنسية من التعقيد بحيث أنه من الصعب أن نقول بثقة لماذا يتمتع شخص معين بجاذبية خاصة علينا، وفي هذه الحالة لم أكن مستعداً للتسليم بالقاء كل المسؤولية على وعيي الباطن. نظرت دون وعي إلى صورة الفتاة، محاولاً أن أتذكر شيئاً ما. وفجأة قالت أنا دانكمان.

"أشعر بذلك؟"

ودون أن تعي بذاتها، مدت يدها وراء ظهرها فدهستها بين أعلى فخذي وبين فخذي. تركت يدها في ذلك المكان لحظة قصيرة، مفتوحة... حينذاك فعلت ما كنت أفكر في فعله منذ أن دخلت الشقة إذ مدت يدي إلى ذيل ثوبها، ودستها فوق طرف جوربها. قالت،

"هذا جميل. إننا صليقان. ليس هناك سبب يمنعنا من أن يعامل أحدهما الآخر بصراحة. إنني أكبر جداً من أن أكون عشيقتك، بالطبع، ولا يريد أحدهما ذلك. ولكن ما يزال هناك قدر كبير من التجاذب الطبيعي، تجاذب الأذننى والذكر - فيما بيننا. ويمكننا أن نكون صريحين فيما يتعلق بهذا."

كانت هذه هي الزاوية الصحيحة للنظر إلى المسألة، فإن فكرة حمل أنا دانكمان إلى الفراش كانت جديرة بأن تزعجني. ولكنها لم تتوقع شيئاً من ذلك. قالت،

"سوف تجد أن كلاراً أقرب جداً لأن تكون النوع الذي يروق لك. إنها فتاة حلوة. يمكننا أن نذهب لكي نراها."

فكرت في أن هذه قد تكون فكرة طيبة. كنت قد بدأت أشعر بنفس الاشتها غير الصحي الذي شعرت به في سيارة الأجرة مع أنجيلا، ذلك النوع من الشعور الذي من المحتمل أن يحس به الشخص للميل إلى الاستعراض... ومن الناحية الأخرى، دلني الحذر على أنه قد يكون من الأفضل أن أطرد هذه الفكرة من ذهني.

قالت،

"أجل. لماذا لا نذهب إلى هناك الآن؟"

"طيب، جميل. ولكنني أحب أن أقول لك شيئاً عن خططنا..."

أخذت يدي بشكل طبيعي تماماً، وقادتني إلى الأريكة. فخرجت من حقيبة يدها عدداً من الأوراق المكتوبة بالآلة الكاتبة. قالت،

"هذا الكلام بالألمانية، هل تقرأ الألمانية؟ إذن سوف أقوم الترجمة."

كانت جالسة في الوضع المألوف، مستندة بظهرها إلى السند، وفخذاها مكشوفتان فوق ذيل ثوبها المشدود إلى ما فوق أطراف جوربها. كان فخذاها بلمسانتي، وشعرت بشيء مثل صدمة كهربائي واهنة تجري منها مباشرة إلى ما بين فخذي.

حينذاك، وعلى حين هجاة تماماً، كان أيزموند في مكاني، وتغير كل شيء. شعرت كما لو كنت قد خطوت هجاة خارجاً من جسدي، ولنني أنظر إلى نفسي من جزء آخر من الحجر. عبرت موجة الحمى وابتعلت. وفي نفس الوقت، فهمت، دون أن أشعر ببذل أي جهد عقلي محدد، كانت أنا دانكمان تمتلك نوعاً من الطاقة، نوعاً غريباً بداً من الطاقة التي تملكها كل النساء بشكل غريزي. ولكن هذه الطاقة - لدى معظم النساء - تكمن تحت الطبقات التي تكونها "الشخصية"، و"الكوايت". وقد تعلمت أنا دانكمان أن تحرر هذه الطاقة وأن توجها. لن يكون تعبيراً دقيقاً أن نتحدث عن هذا الإنجاز من جانبها باعتباره شكلاً من أشكال السحر، وإن كانت الطاقات الفعلية التي تملكها الساحرات تتمتع بنفس الطبيعة. وقد رأيت في ومضة خاطفة أن هذا هو السبب الذي يجعل من التقليدي أن يكون "يوم سبت الساحرات" حيث يجتمعون بالشيطان، يوماً مليئاً بالأعمال الشهوانية، مع خلع ملابسهن كلها، والمساعدة مع ذكران الماعز، وما إلى ذلك، فالساحرة تلقي عن نفسها كل أنواع الكبت وتتعلم كيف تركز كل طاقتها الجنسية الطبيعية.

لقد فهم أيزموند أنا دانكمان، فإنه كان قد عرف الكثيرات من نوعها، بل إنه عرف من هن أكثر موهبة منها. وحلت نفسي أنظر إلى داخل عقل أنا دانكمان، فاشعر بافتتان مخيف. لم تكن مثل زوجها منحرفة جنسياً، فالانحراف ينبع بسبب عقبة سيكولوجية غائرة في نفس الإنسان. وكان كلاوس متسماً عن فكرة "المحرم" والمنوع. وكانت فكرة أن أي شيء يمكن أن يكون محرماً أو ممنوعاً كافية لكي تجعله ينتصب. إنه مثل ذي صاذ. أراد أن يكون شريراً، وأن يمضي حياته في البحث عن أشياء جديدة مدهشة يفعلها. وقد

تلاءمت نزعاً أنا دانكمان الجنسية الفياضة مع نزعته تلك وإشباعها إشباعاً كاملاً. فإن غريزة الأمومة لديها كانت قد تشوهت وتحولت إلى نوع من النهم الشره. رأيت بوضوح أنها كانت مزدوجة الرغبة الجنسية، وأن كلاراهيبج كانت عشيقتها. فإن موقفها من الجنس كان موقفاً ذكورياً بكل غريب. كانت تحب أن يأخذها كل رجل في العالم، وأن تملك هي كل امرأة جميلة. وكانت تتمتع بفضول لا يشبع. كانت تريد أن تكون "في" داخل وهوق كل شيء. وقد رأيت أن هذا هو دافعها إلى البحث عني والاندفاع نحوي. فقد كان بوسعي أن أضيف جواً من الكفاءة الثقافية على "مجموعتها" فتجذب بذلك الاتباع والتلاميذ. وكانت خطبتها أنه لا بد لي من أن أخذها هي وكلاراهيبج قبل أن ينقضي النهار، ثم تكون مهمة كلارا هي أن تحافظ علي وأن تشدد قبضتها، من خلال ما تشيعه حولها من جو التابعة المفتونة.

لا ادعي أنه كان بوسعي أن أقرا ما بداخل عقل أنا دانكمان. فقد كان كل هذا - بمعنى من المعاني - نوعاً من التأمل، ولكنه كان تأملاً قائماً على أساس من تجربة أيزموند الهائلة. وقد بدا لي كل هذا واضحاً شديد الوضوح. ثم أدركت الآن، أنه - أيضاً - قد بدا مثيراً للعاطفة إلى حد ما. كانت تمتلك الكثير جداً من الطاقة، وفرصة محدودة جداً لاستخدامها. فلماذا لا تقبض على أية فرصة تلوح لها؟ كان هذا أمراً مفهوماً.

لم تكن واعية بانها قد "فقدتني"، فقد جاء "استبصارى" الداخلي لها سريعاً كالوميض، بينما كانت لا تزال تقلب الصفحات. أمسكت بالأوراق مفتوحة بإحدى يديها، وراحت يدها الأخرى تتحرك فيما بيننا، لكي تزيد من قوة الاحتكاك. وفي تلك النقطة بدا أيزموند يسلي نفسه. كان ما فعله ببساطة هو أن ضغط على قواي الجنسية، وتوجيهها ضدها. وفي الحقيقة، لم يكن هذا غريباً علي غربة كاملة، فإنني كنت أفعل هذا دائماً دون وعي. في لحظة الاتصال بفتاة كانت قد اجتذبتني. إن امرأة - إذا رغبت في اجتذاب رجل ما - فإنها قد ترمش بجفونها أو تتأود لكي تبرز مفاصلها، ولكنها إذا كانت رزينة محتشمة فإنها ستحافظ على هدوء السطح الخارجي، ثم تستخدم السحر الداخلي القادر على الاتصال المباشر غير الظاهري الذي كانت أنا دانكمان تستخدمه الآن. أما الذكر فإنه نادراً ما يستعرض مراكز جاذبيته بشكل صريح. إن أسلوبه من البداية يعتمد على الظهور بمظهر غير المبالى

ولا لهم. وعلى ذلك فإنني - بمعنى ما - كنت متفوقاً على أنا دانكمان في هذا الصدد ولكنني ما كنت أستطيع أن أعرف هذا دون المعونة التي أسديتها إلي خبرة أيزموند.

شعرت بالإثم بسبب هذا الموقف، فإنني لم أرد حقاً أن اجتذبها. ولكن علي أن اعترف بأنه كان في سلوكي هذا نوع من "العدالة الشعرية"، العقاب الذي ينزل بالآثمين في الأساة التقليدية. كان الموقف قد تحول إلى مباراة، مبارزة بسيف خشبية.

بدأت ترجم الكلام المكتوب بالألوانية، وحينئذ ارتعشت اليد المسكة بالأوراق، كانت تقاوم. كانت قد اعتادت أن تكون هي الساحرة لا "السحرة". وفي هذا الوضع الجديد ازعجها الإحساس الجديد المصاحب له وأخافها. قلت بأدب: "استمري"، وزدت من التيار الضاغطة. بدأت تقرا:

"إن القواعد التي تتبعها جماعة تعاونية من تلامذة رايخ..." ثم توقفت، وقالت:

"يجب أن نعتز على اسم آخر لهم".

قلت: "أجل، يجب أن نفكر في اسم آخر..." فاستعادت ثقتها وعادت تقرا.

كنت قد لاحظت أن لثوبها زماماً من الخلف، وأن الزمام يعلق عند قمته بزر ضخم. وقد أدركت في تلك اللحظة أهميته. كان فخذها سلاحاً عدوانياً، فحاً للذكور أشبه بفخ العناكب للذباب، ولكن نهديها كانا جزءاً من أنوثتها، الجزء الأموي منها. اشرت إلى جملة في الورقة تقول: "ماذا يعني هذا؟" فلمست عظمة ساعدي قمة نهديها. حقلت حفلة ضئيلة وابتعدت. وضعت يدي بقوة على النهدي وأمسكته، للحظة فقلت السيطرة على نفسها وحاولت أن تبعد يدي بعنف دون حساب مثل فتاة صغيرة. ثم استعادت سيطرتها على نفسها مرة أخرى، وقالت بصوت ثابت بدرجة ملحوظة:

"إنها اقتباس من رايخ..." وشرعت ترجم الجملة كاملة. مددت يدي وراء ظهرها،

وفي حرص حلت الزر الضخم، كبتت هي رغبتها في إيقافي، فقد كانت هي - على كل حال - التي تحدثت عن "ضرورة أن يعامل أحدنا الآخر بصراحة"، جذبت الزمام إلى أسفل، فرائت أن ظهرها كان عارياً، باستثناء شريط حمالة الصدر. حلت رباط حزام صغير عند خصرها، وجذبت الزمام إلى أسفل حتى أقصى مجراه، تحت الطرف العلوي لسروالها الداخلي، قالت:

"إنك شئت انتباهي"، "إنك شئت انتباهي".

حاولت أن تضغط بظهرها على مسند الأريكة، ولكن محاولتها كانت متأخرة جداً، فقد كنت نجحت في فك مشبك حمالة الصدر. ضغطت بظهرها على مسند الأريكة بقوة، وفقدت سيطرتها على نفسها تماماً للمرة الأولى، أصبحت فجأة غير واثقة من نفسها، وهي تشعر بما يفريها على قتالي، دون أن أنظر إلى وجهها، أمسكت بكتفي ثوبها، وجذبتها إلى الأمام، ابتعد الثوب عن كتفها للذين كانا أبيضين مستديرين مثل كتفي تمثال. كانت جديرة بأن تبدو في هيئة ممتازة وهي ترتدي ثوباً دون اكتاف في بهو حفلة راقصة في عصر الإمبراطورية الثانية. كان نهديها كبيرين، وما زال بحالة جيدة. أدعشتني بياضهما، واحمرار الحلمتين الناقض لذلك البياض. وضعت كل من إحدى يدي على أحد النهدين وشعرت بالدفء يتسلل طافياً في داخلها. كان هناك شيء يدعو إلى الإعجاب بالطريقة التي حاولت بها أن تستعيد سيطرتها على نفسها، ونجحت في ذلك جزئياً. كنت أعرف ما كان يحدث لها، من الطريقة التي انفرجت بها ساهاها. كانت تشعر بنفس الوخز المموم الذي شعرت أنا به من قبل. مدت يدها ووضعتها فوق بنطالي.. فقلت، "ففي". ترددت ثم فعلت كما أمرتها. سقط الثوب على الأرض، ووقفت في مكانها بسروالها الداخلي الوردي، وحزام الجوربين فوقه، مع الجوربين. جذبتها حتى التصقت بي... أرقبتها على الأريكة، وخلعت كل ملابسها...

جفلنا كلانا عند سماع صوت جرس التليفون...

قال صوت رجل، "مستر سورم؟"

"يتحدث".

"إنك لا تعرفني. اسمي نيجيل سانت ليجير. ترى، هل يمكنني أن أجيء لك أراك؟"

"أنت الـ"نيجيل سانت ليجير"؟"

أطلق ضحكة تدل على الحرج وقال،

"أعتقد أن بوسعك أن تقول هذا. هل يمكنني أن أتي لك أتحادث معك عن موت

هوراس جليبي؟"

"طيب، نعم، بالطبع. متى؟"

"إنني قريب منك جداً هذه اللحظة. أيمكنني أن أجيء إليك الآن؟"

"بالطبع. هل تعرف العنوان؟"

أوه، أجل. سأكون معك بعد دقائق قليلة."

حينما التفت ورائي فكانت أنا ذاتكمان تشبك حمالة صدرها بالفعل... ثم قالت،

"أعتقد أنك تظنني بالغة الغباء؟"

"كلا". ولكنني لم أعرف ما أقوله عدا هذا.

كان بوسعي أن أشعر بها وهي توشك أن تغضب. أمسكت بمعطفها. قالت،

"لماذا لم تخبرني؟"

قتل أول شيء خطر على ذهني.

"ربما لم يكن هذا ممسوحاً لي به."

حدثت في وجهي، وقد ناز اهتمامها فجأة. وللحظة طويلة ظلت عيناها تحدقان في عيني. قالت،

"أظنني أفهم".

وكان هذا أكثر مما بوسعي أن أقول.

تحركت متجهة إلى الباب.

قالت بأسلوبها الدافئ الودي المخادع،

"حسناً، إننا نظل صديقين".

كانت قد عادت إلى سيطرتها على نفسها مرة أخرى. وقفت في مكانها، معطفها مفتوح، ويدها ممدودة، وساهاها منفرجتان ثابتتان على الأرض. ولكن الموقف بدا سخيلاً ولا

معنى له. نظرت إلى النهلين البارزين، وخفضت بصري إلى الفضلين، كانت امرأة تتظاهر بأنها رجل.

حينئذ، احمر وجهها فجأة. لم أكن قد تبينت أن نظرتي واضحة ككل هذا الوضوح، أنزلت يدها، واستدارت دون كلمة، وجذبت الباب بعنف ففتحته. لم أبذل أية محاولة لتابعها. فإني أولاً، كنت مسروراً لرؤيتها ترحل. وثانياً، شعرت فجأة بالأسف. فربما كانت مباراة أيزموند لعبة ممتعة، ولكنها غادرتها مكشوفة ومعرضة للاختراق من أي نقطة. ماذا عساها تستطيع أن تفعله الآن؟ أتحاول أن تنمي جانبها الأنثوي؟ هذا أمر لن يؤدي فقط إلى الإحباط لو حاولته. طرا على ذهني فجأة أن هناك قارقاً واحداً أساسياً بيبي وبين أيزموند. لقد كان ينتمي إلى القرن الثامن عشر، قبل عصر "الحساسية". لم تكن هزيمة أنا دانكمان بالنسبة إليه سوى شيء مضحك، والأكثر من هذا، لا أهمية لها.

ذهبت إلى النافذة حينما سمعت السيارة تتوقف بالخارج، تعرفت على نيجيل سانت ليجير قبل أن يخطو خارجاً منها إلى الرصيف. لم أكن قد رأيته أبداً في السلسلة التلفزيونية التي جعلته معروفاً لعدد كبير جداً من الناس. ولكن كان لدي كتاب عن قضايا وحالاته، مزود بعدد كبير جداً من الصور. كان أصغر حجماً مما توقعت، ولكن مشيته كانت تتسم بنوع من التدفق القوي إلى الأمام دلت على شيء ما في شخصيته.

قابلته عند الباب. سألتني، "مستر سورم؟"

صافحتني ولكن ابتسامته بدت لي باردة قاسية. تقدمته إلى داخل الشقة. كان رجلاً وسيماً، قوي البنية، في أوائل عقده السادس. وكان بوسعي أن أتخيل أن نظرتة المحدقة النافذة الباردة قد أخافت عدداً كبيراً من المساجين في قفص الاتهام.

قلت: "من أخبرك بأنني هنا؟"

نظر إلي بجدية، كما لو كان يشعر بما يغريه لأن يقول: "أنا الذي ألقى الأسئلة" ثم أضاف قائلاً:

"الدكتور كورنر، بالطبع."

أخرج علبة سيجار من جيبه، وقدمها إلي. هزرت رأسي. اقرب مني وأنا واقف بالقرب من النافذة وحلق في وجهي. قال:

"لنني لم أقرأ أي كتاب لك من قبل، ولكن سوف أحرص على أن أفعل ذلك الآن."

لم أقل شيئاً. اتجه إلى منضدة للعب الشطرنج عند النافذة، ودون وعي، حرك أحد بيادق الشطرنج. قال:

"هل تلعب الدومينو، يا مستر سورم؟"

لم أقل شيئاً. كنت أحاول أن أحتفظ بنقاء عقلي. وقف سانت ليجير ينظر إلي، مثبتاً إياي بأفضل ما يملكه من نظرات الاتهام.

قال أيزموند:

"تحياتي، أيها اللشرف."

جفل سانت ليجير، وبان عليه الانزعاج. ولكنه استرد سيطرته بالذهاب إلى الأريكة والجلوس عليها. قال:

"أفهم من هذا أنك تعرف الكثير يا مستر سورم. ولكنك لا تنتمي إلى منزلنا. والأستاذ الأعظم لم يسمع بك من قبل أبداً."

كنت أعرف أن من الأفضل لي أن أترك هذا الموضوع لأيزموند، فلم يكن هناك وقت أضيق في محاولة الاعتماد على نفسي. قال أيزموند:

"إذن فلا بد أن عليك أن تسمع عني. أليس كذلك؟"

أشعل سانت ليجير سيجارة.

"هذا هو الواضح، إن كان كل ما أسمعه صحيحاً. حاول أن يسترخي، ثم استطرد بالقول:

"سمح لي بأن أوضح موقفي. إنني لا أنكر حقك في الانتماء إلينا. إن مؤهلاتك عظيمة بشكل مثير واضح. وبهذه المناسبة، أين تعيش؟"

"في إيرلندا".

"هـ".

ظننت أنه قد بدا عليه الانسراح والتفاؤل. قال:

"طبعاً. لم يكن هناك أي شيء في إيرلندا منذ سبعين عاماً. ربما كان علينا أن نفعل شيئاً ما هناك".

نظر في طرف سيجارة، كان لدي إحساس بأنه ليس واثقاً من الكيفية التي يعالج بها هذا الموقف. ثم نظر إلي. قال:

"كيف استطعت أن تكتشف الأمر، يا مستر سورم؟"

لم يقدم أيزموند إلي أي معونة. فقررت أن أقول الحقيقة.

"لقد طلب مني ناشر أمريكي أن أكتب عن أيزموند دونيللي. وطوال الشهور القليلة الماضية كنت أحاول أن أكتشف مذكراته وأوراقه".

"ولم تكن تعلم شيئاً قبل هذا؟"

"كلا".

"أرى ذلك".

بدا عليه الارتياح. دق جرس الباب، فتحرك كل منا لدى سماعه. قال:

"هل تتوقع مجيء شخص ما؟"

"كلا".

"جميل. إذن اظنني أعرف من يكون. هل تسمح؟"

ولكن كانت أنجيلا هي القادمة. قالت:

"لقد أوصلني كريس، وقد اشتبك في مناقشة عنيفة مرعبة مع أوتو..."

دخلت إلى الحجرة، ورات سانت ليجير الذي وقف بأدب لكي يحييها. تعرفت عليه على الفور وبان عليها ذلك. قدمت أحدهما إلى الآخر، فتصافحا، وأظهر هو قدرأ من التهذيب أكبر بكثير مما كان قد أبدى. حتى الآن. قال لها:

"أنت عضو في جماعة الدكتور كورنر. شيء ساخر اعتقد أنك أنت التي قدمت المستر سورم إليه؟"

سألته، "هل تعرف بأمرهم؟"

"أوه، أجل أنا أعرف بأمرهم".

نظرت إلي أنجيلا، تراجو الحصول على بعض المعلومات لكي تفهم الموقف.

قلت:

"إن السر نيجيل هو الشرف على المنزل الإنكليزي لجماعة العنقاء".

شحب وجه سانت ليجير. للحظة ظننت أنه على وشك أن يفقد سيطرته على نفسه. قالت أنجيلا:

"أهو يمزج؟"

بدا على سانت ليجير أنه فقد شهيته للكلام تماماً. قال:

"من المؤكد أن لديه إحساساً فكاهياً سبب التقدير والخط".

قالت أنجيلا:

"يظن كورنر أنك من جماعة العنقاء. ماذا قلت له؟"

قطع سانت ليجير كلامها بالقول:

"إذا سمحتما لي. اظن أن هذا موضوع من الواجب ألا نتحدث فيه. إنه قد يكون خطيراً".

قالت أنجيلا، "خطيراً؟"

حلق فيها سانت ليجير لعدة ثوان، ثم وقف واتجه إلى النافذة. تولد لدي انطباع بأنه شعر براحة أكبر وهو واقف على قدميه. أطل من النافذة ثم قال،

"لقد سألتني عن اغتيال اللورد جليبي. وهذا موضوع لا أعرف عنه الكثير، ولكن بوسعي أن أقول لك شيئاً واحداً. إن جليبي لم يكن هو الضحية المقصودة. كان المقصود هو أيزموند دونيلي".

حينما قال هذا، عصف بي إحساس عابر بالدوار، كما لو كان قد احترق شيء ما داخل عقلي. وليس بوسعي أن أفسر ما حدث، إنما كان صوت سانت ليجير وهو يقول، أيزموند دونيلي "هو ما فعل بي هذا. لقد قلت أنني كثيراً ما شعرت بنوع من الخلل في الأسبوع السابق كما لو كنت أنا وأيزموند نحتل عقلاً واحداً. ولكننا كنا كالقريبين، ولم تكن ذاكرته في متناولي. ولكن حدث في تلك اللحظة شيء ما جعل كل تلك الذكريات واضحة ومعروفة، مثلما ينضبط مجهر حاجة لكي يكرر الكائنات الدقيقة تحت عدساته، كما لو كان عقلي عقل أيزموند قد ارتبطا حاجة بمشبك فولاذي إذا بهما معاً. كنت قد عرفت أن هذا من الممكن أن يحدث منذ نحو أسبوع، ولكن التكيف النهائي بين العقل والواقع كان ما يزال مطلوباً. أما الآن فلم يعد هناك المزيد من الأسئلة، فقد امتزجت ذاكرة أيزموند بذاكرتي. وفي تلك اللحظة، حينما سألت أنجيلا سانت ليجير عن كيفية معرفته بهذا، وجلت نفسي أقول،

"يمكنني أن أخبرك بذلك".

قال سانت ليجير، "ليس من المحتمل أن تستطيع معرفة هذا".

قلت، "كان خطأ جليبي الأكبر هو أنه حدد الأسماء. ففي النسخة الأصلية من كتابته "خطابات من فوق أحد الجبال" حدد أسماء عبدالله يحيى والأستاذ الأعظم، وذكر أن هندريك فان جريس كان هو الشريف على هولندا. وافنعه أيزموند بأن يغير الأسماء في النسخة المطبوعة، ولكنها ظلت تسبب تمرناً وانفجاراً داخل الحركة. وأراد فان جريس أن يتم اغتيال أيزموند. ورفض يحيى ذلك. وفي عام ١٧٩١ سمع فان جري يحيى وقتله. ومنذ ذلك الحين عرف أيزموند أنه لابد مقتول في أي وقت. وقد استيقظ ذات صباح في باريس، فوجد خنجرًا مغروساً في وسادته. وكانت هذه إحدى حبيلهم للفضلة - لكي يحطموا

معنويات الرجل بالخوف قبل أن يقتلوه. وقد استخدم الحشاشون الأصليون - الإسماعيلية. هذه الخدعة على سبيل التهديد. وقد أجبروا صلاح الدين مرة على رفع حصار كان قد ضربه على قلعة الأستاذ الأعظم بأن غرسوا خنجرًا في وسادته. وأدرك أيزموند هذا التحذير، فذهب إلى روسيا، ثم إلى اليونان. وحينما عاد، اكتشف أن جليبي قد ارتكب حماقته النهائية، كان قد نشر نشرته التي يهاجم فيها الجماعة، ويحدد اسم فان جريس بوصفه الأستاذ الأعظم الجديد. وكانت هذه هي القشة الأخيرة التي قصمت ظهر الجمل في عرف فان جريس، وكان لديه قاتل فرنسي محترف كان قد تدرب في تركيا - وهو رجل يدعى جاك كريفيا - فأرسله لطاردة أيزموند. وكان كريفيا هو الذي قتل هوراس جليبي - في فراش أيزموند".

"ولكن ما الذي كان يفعله هوراس في فراش أيزموند؟"

"كان قد سرد على أيزموند قصة سخيفة عن رؤيته لشبح في حجرته هو. ووافق أيزموند على أن ينام في الحجرة لمدة أسبوع - فقد كان لا يؤمن بالأشباح. ولم يكن جليبي بالطبع يصدق أنه يعرض نفسه لخطر حقيقي - فقد كانت الحجرة على ارتفاع سبعين قدماً، وكان يوصد الباب من الداخل. ولم يكن يعرف أن كريفيا معروف باسم الدبابة".

كان سانت ليجير ينظر إلي مذهوشاً. قال،

"قد يكون كل هذا صحيحاً، ولكنني أشك في ذلك. لا أحد يعرف التفاصيل. فقد أصبحت هذه التفاصيل بعضاً من أكثر أسرار الجماعة يُعدّ عن متناول الناس وأشدّها حماية. ومن المحتمل ألا يكون هناك في العالم الآن من يعرفها سوى شخص واحد".

انتظرت منه أنجيلا أن يستمر في الحديث، ثم لما رآته يصمت، سألت،

"ومن هو ذلك الشخص؟"

قلت، "الأستاذ الأعظم الحالي".

قالت، "أذن فإنها مازالت موجودة؟" ونظرت إلى سانت ليجير، وأضافت،

"ولم يكن يمزح؟"

صرفت سانت ليجير نظره عنها، وادار رأسه بغضب وهو يقول:

"يا سيدتي الشابة العزيزة، نصيحتي لك أن تلقي أقل قدر ممكن من الأسئلة. إنني أسف جداً لعودتك في الوقت الذي عدت فيه، وإنني لأكثر أسفاً لأن مستر سروم لم يكن مكتوماً إلى هذه الدرجة".

كنت قد بدأت أشعر بالغضب من سانت ليجير، أن أسلوبه اللئيم بالتفاخر قد بدأ يضغط على أعصابي. كنت قد أدركت الكثير وفهمت عنه الكثير. كان يتمتع بالاحتياج الرئيسي الذي يحتاجه مشرف في الجماعة، خضوعه للجنس كهاجس متسلط. وكان هذا ماثلاً في سلوكه وأسلوبه في التعامل مع أتباعه، كانت بالنسبة له وسادة هراش مناسبة، وكان بالفعل يتخيلها رائدة تحته وعيناها مغمضتان. كان رجلاً جذاباً، جنسياً وشخصياً. وكان بعيداً جداً عن البلاهة. ولكنه كان ممثلاً. وقد ظهر هذا في الطريقة التي سار بها عبر الحجرة قبل إعلانه عن اغتيال هوراس جليبي. وكنت أنا أمثل تهديداً جدياً له، هذا يفسر السبب الذي جعل أسلوبه معي حاداً إلى هذه الدرجة، شعرت بخيبة أمل لأن أول اتصال لي بالجماعة يتم عن طريق رجل مثله.

سمعت سيارة تتباطأ بالخارج. قال سانت ليجير:

"والآن، أظن أن علي أن أترككما".

ذهبت فوقفت إلى جواره. كانت سيارة أجرة من مطار لندن. وكان هو قد شرع يتحرك نحو الباب.

قلت:

"لا أظن أن رحيلك يغير شيئاً. فطالما أنك كنت تتوقع حضوره، يمكننا نحن أيضاً أن

نراه".

قال بهدوء: "هل تسمحان لي؟" ثم استدار إلى أتباعه وقال: "ارجو أن نلتقي ثانية".

تقدمت فتجاوزته، وذهبت إلى الباب. جاء خلفي وهو يقول بغضب: "حقاً يا مستر

سروم، إن هذا..."

كان رجل قد خرج من سيارة الأجرة وراح يتطلع إلى أرقام المنازل. كان بالغ الضخامة، وجهه بني اللون مليء بالنحب. التقت عيناه بعيني، ثم رأى سانت ليجير بلهجة متسلطة:

"سوف أكون ممثلاً إذا انتظرتماني هنا لحظة واحدة". ثم تجاوزني وهبط الدرج. لم أجد نفعاً في محاولة الإمساك به أكثر من هذا، فدخلت المنزل مرة أخرى. كانت أتبعها تقف وراء النافذة. قالت:

"ماذا يحدث الآن بحق الجحيم؟ من هو هذا الرجل؟"

"أعتقد أن له علاقة بجماعة العنقاء. ولا أعرف شيئاً أكثر من هذا".

من وراء الستائر، راقبت سانت ليجير وهو يتحدث إلى الرجل الأسمر. قلت:

"إنه منزعج من وجودك هنا".

"أتحب أن أنصرف؟"

"قد يكون هذا هو أبسط الحلول".

اقترب الرجلان في تلك اللحظة من المنزل. خرجت أنا لاستقبالهما. قلت:

"السيدة الشابة سوف تخرج الآن، إذا كنتما تريدان الدخول".

حلق في الرجل الضخم بطريقة مبهمة. ظننت أنه يوشك أن يتجاهلني. وحينئذ قال سانت ليجير:

"هذا هو المستر سورم. مستر السيد نوري".

وهنا مد الرجل يده ليصافحني وقال كيف حالك. تبين أن صمته كان نوعاً من الحرص الشرقي على الشكليات. قال نوري:

"لا أظن أن هناك حاجة إلى إزعاج صديقك. إن مستر سانت ليجير لديه سيارة. ويمكنه أن يأخذنا إلى بيتي".

"إن هذا ليسعدني" كذلك قال سانت ليجير في عصبية ظاهرة. لم يكن هذا يوم

سعد.

قلت، "هل تسمح لي بلحظة؟"

عدت فدخلت المنزل وأخبرت أنجيلا بأنني ذاهب معها. ثم سألتها عما إذا كانت سمعت في حياتها عن رجل يدعى السيد نوري. بدت كما لو كانت قد جفلت، وقالت: "بالطبع".

"من هو؟"

"إنه مليونير من نوع ما. البترول فيما أظن. إن اسمه يذكر دائماً مع أسماء أوناسيس وبول جيتي. لا بد أنك رأيته".

قلت لها إن عالم الشؤون المالية العليا هو أبعد شيء عن اهتماماتي. قالت:

"انظر إليه. إنه شخص من النوع الذي يملك سلطة حقيقية".

خرجت ثانية وأغلقت الباب خلفي. تحركت سيارة "ديملر" رمادية يقودها سائق خاص فاخرت من المنزل، فتح السائق الباب لنا. وبينما كنا نجلس، قال نوري بطريقة تنم عن عدم موافقته، "بعيد جداً عن اللياقة".

احمر وجه سانت ليجير وقال: "إنني استخدمها دائماً".

رأيت ظل أنجيلا من وراء الستائر الشفافة بينما كنا نبتعد. من المحتمل أنها كانت تتسائل إن كانت جماعة العنقاء ما تزال تحتفظ بفرقة من القتلة المحترفين.

لم يتكلم أحدهما حتى استدرنا متجهين إلى بارك لين. ثم قال سانت ليجير:

"كان عطفاً منك أن تقطع كل هذه المسافة لكي تأتي".

اعتبر نوري أن هذه كانت مجاملة، فقبلها بهزة من رأسه. ثم قال:

"ربما كان الأمر كما تقول، هاماً".

ولم يكن فيما قاله إساءة أو غلظة، ولكن وجه سانت ليجير احمر ثانية.

كان إحساسي بخضور أيزموند قد اختفى كان تلك الأحداث شيئاً غير مألوف لدرجة لا بد معها أن تدفعني إلى التوتر، وهذا التوتر هو ما جعل شخصيتي أنا هي الغالبة بشدة. استرحت بالتفكير في أنا دانكمان. فقد كانت تجربة مرضية دون شك. لقد كانت إحدى تلك التجارب التي أستطيع خوضها بنجاح باهر من دون أيزموند. كانت شخصيته تتمتع بنوع من الثقة، بدافع لا يفتأ يدفعه إلى الأمام، وجدته أنا دافعاً مساعداً على التحرر الحقيقي.

كنا قد توقفنا أمام منزل في شارع بروك. قال نوري: "لقد وصلنا" ثم نظر إلى سانت ليجير وقال: "شكراً لك على توصيلنا إلى هنا". كان ما يرمي إليه واضحاً. قال سانت ليجير:

"هذا يسعدني..." ثم فتح الباب لنا.

وقفت على الرصيف، أرمش بعيني تحت ضوء الشمس الساطع، ناظراً إلى ثياب الصيف الريحة التي ترتديها النسوة في ميدان كروزهيتور، شاعراً بأن ما يحدث الآن، غير مناسب بشكل ما مع هذا الانطلاق الحيوي الفياض. انفتح الباب الأمامي قبل أن نصل إليه. بشكل ما كنت أتوقع خادماً شرفياً وراء الباب. ولكن الرجل الذي رأيته كان رئيس خدم إنكليزياً عادياً، انسحب وراء مصراع الباب لكي يسمح لنا بالدخول. وبدا أن نوري أصبح أكثر راحة وانطلاقاً بعد اختفاء سانت ليجير. قال:

"إنني لا أعيش هنا، ولكنني احتفظ بهذا المكان للإقامة فيه إذا قضيت عطلة نهاية الأسبوع في لندن" إنه مناسب لي".

ثم ضغط على زر جرس.

كان منزلاً نموذجياً للرجل الثري، بما بدا عليه من راحة وتأنث فاحر. ولم بشر إلى انتماء صاحبه إلى الشرق سوى سياج الدرجات الداخلية، فقد كان مصنوعاً من الحديد المشغول بشكل دقيق، ربما كان قد أتى به من "حريم" أحد السلاطين.

صعدنا الدرجات إلى الطابق العلوي، وعبرنا حجرة للجلوس مزودة بآلة بيبانو من النوع الكبير وبعض لوحات لماتيس^(١) على الجدار، ودخلنا مكتبة أشار إلي للجلوس على مقعد كبير عميق ذي مسندين.

"يمكنني أن أقدم لك كاساً؟ أم ربما تفضل الشاي أو القهوة؟ إنني لا أشرب سوى القهوة".

نظرت في تلك اللحظة إلى نوري عن قرب، وبدأ لي أنني لا أزال أحاول أن أعرف عليه. ربما كنت قد رأيت بعض الصور له. كان طول له يزيد على ستة أقدام، ووجهه وملامحه أقرب إلى وجه وملامح جندي محترف. كان يرتدي بذلة رمادية، سترتها ذات صفين من الأزرار. وكان شعره قصيراً - وقد تعمد هو ذلك - وبدأ الشيب بغزوه. وكانت في وجهه بعض الندوب، ولكن كان وسيماً بتلك الجاذبية الباردة التي يتميز بها طائر من الجوارح. كانت حركاته اقتصادية، مختصرة كما لو كان يحس بالرشاقة إذا تشبه بالنساء.

جلس في مواجهتي وعرض علي سيجارة رفقتها. أخرج سيجارة روسية سوداء ذات طرف ذهبي ونقر بها على علبة السجائر. قال:

"لقد جئت من باريس لكي أراك يا مستر سورم. لأنه إذا كان نصف ما أخبرني به سانت ليجير صحيحاً، يكون لدينا الكثير الذي يمكن أن يقول أحدهما للآخر. إذن هانت تعرف من أنا؟"

"أجل. إنك الأستاذ الأعظم الحالي".

"لقد خمنت ذلك. بالطبع".

"لقد كان هذا استنتاجاً عادلاً. إنك لست مشرفاً، وإلا لما كان سانت ليجير قد أصبح عصبياً من وجودك بهذا الشكل".

ضحك فابدى اسناناً بيضاء في حالة ممتازة. قال:

(١) هنري أميل بينوا ماتيس ١٨٦٩-١٩٥٤. من أهم الرسامين الفرنسيين في القرن العشرين، عرف عنه أنه أحد رواد حركة فن الطليعة، إلى جانب جورج روو والتدريه دهران.

"إن هذا الرجل أبله. لا ينبغي له أن يكون مشرفاً".

"إذن، فلماذا يحتل هذا المنصب؟ إنك تملك سلطة إبعاده".

"لم يعد هذا ممكناً، فيا للخسارة، إن منظمنا قد أصبحت أكثر ديمقراطية مما كانت عليه أيام آيزموند دونيللي".

دخل رئيس الخدم، وهو يدفع "عربة تقديم" صغيرة أمامه، ثم خرج على الفور. وبينما كان نوري يصب القهوة، قال:

"لا ينبغي لنا أن نضيع الوقت يا مستر سورم. فإن لدينا الكثير الذي ينبغي أن نقوله، وعلي أنا أن أعود إلى باريس هذه الليلة. هناك الكثير مما يحيرني بشأنك. إنك تبدو كما لو كنت تعرف قدر كبيراً من المعلومات. وهذا يعني إما أن شخصاً ما لم يكن كتوماً كما ينبغي، وإما أنك حصلت على بعض الوثائق التي لم تكن تعرف بوجودها".

لم أقل شيئاً، فمضى يقول:

"كان من الممكن - حتى الآن - أن تكون أي إنسان بالنسبة لي. ولكنني أعرف الآن أنك أشبه بالعبقري، أو بالطفل المعجزة. لقد أخبرني صديقنا كورنر أنك أنهيت عملاً استمر عامين بصبر ودأب بما يشبه ضربة خط عبقرية مستحيلة. وأنا أزعم أنه لم يكن ببالغ".

لم أقل شيئاً أيضاً، فاستمر هو يتكلم:

"إنني أفهم من صمتك أنه لم يكن ببالغ".

وضع قديم القهوة التركية الصغير أمامي، وهو يقول:

"من أنت؟ من أين جئت؟ وكيف عرفت كل ما تعرفه؟"

"أسمي جيرارد سورم، وأنا كاتب. أما عن كيف أعرف كل ما أعرفه، فالإجابة هي أنني لا أعرف شيئاً".

قدم إلي نوري صحناً مليئاً بحلوى صغيرة مستديرة، وكانت فيها نكهة القرفة، راق لي طعمها كثيراً.

قال:

"هذا قول غريب. اتعجب إن كان يزعجك أن اتحقق من صحته؟"

لم أفهم ما عناءه بقوله هذا، ولكنني قلت أن هذا لا يزعجني، بالطبع. مد يده وضغط على زر جرس آخر. لم يتحدث أحدنا طول الدقائق القليلة التالية. كان الجلوس في صمت بولد لدي إحساساً مريحاً، كانت هناك سمة في شخصية نوري تجعل من هذا الوضع طبيعياً إلى حد كبير. فتح الباب بهلوء شديد، ودخل الحجرة رجل. كان علي أن أنظر إليه بتدقيق شديد لكي أتبين أنه رجل. كان شعره ذو اللونين مجعداً وطويلاً، والوجه يبدو كما لو أن شخصاً ما قد امتص من جسده كل قطرة من الدم، لكي تنهار العروق وتجف. كانت عيناه شاحبتين اللون حتى بدا لا لون لهما. ورغم أنه كان يرتدي ثوباً عربياً - عباءة صفراء قلدة - فإنه كان غريباً دون مشقة الشك. لم يولد نوري أي اهتمام. جلس الرجل على مقعد صغير واطن يكاد يكون بيننا نحن الاثنين. رأيت أصابع قديمه طويلة بارزة العظام، مثل شيء خارج من قلب فيلم من أفلام الرعب، وكانت أظافرها صفراء ملتوية مليئة بالنقاط البيضاء.

قال نوري: "هذا هو بوريس كاهن".

تجاهلنا الرجل، وهو يحدق في الفضاء. قال نوري:

"لقد كان يكسب رزقه بالعمل في الملاهي قارئ لأفكار الناس. ثم تطورت قدراته إلى درجة أخافته هو نفسه. فأصبح مدمناً على الهيروين. وقد عثرت عليه ذات ليلة يزحف عند مدخل النزل وعنقه مكسور - وكان قد سقط من نافذة في الطابق الثاني. وهو الآن يسافر معي حينما يكون لدي عمل هام. إنه بلا عقل على الإطلاق، ولكنه يعرف الحقيقة حينما يتكلم الناس، ليكنون أم يصدفون".

أخذ سيجارة أخرى من العلبة، ثم قال:

"هل أخبرك سانت ليجير أنني الأستاذ الأعظم؟"

"كلا".

"إنني لم أضن هذا. ولكنني أردت أن أتأكد".

كنت أنظر إلى "بوريس" بفضول شديد. كان برمقي شطائر القرحة في صحن بلهفة. قلت:

"كيف يفعل حينما يكذب أحدهم؟"

"قد يكون من السهل أن أظعلك على نموذج عملي".

أشار بيده إلى النافذة وهرقع بأصابعه. أسرع روبيس فعبير الحجرة، وانحنى مرتين على الأقل مثل كلب مذعور، ثم اندس فاختفى وراء ستارة ثقيلة من القطيفة. ضغط نوري على زر ثالث على المائدة. بعد حوالي ثلاثين ثانية سمعت صوت خطوات رقيقة تزحف على البساط في الحجرة المجاورة. فتح باب، واندفعت فتاة تجري إلى داخل الحجرة. وقفت عند الباب، ورمقتني بنظرة غريبة مليئة بالشك، ثم اندفعت تجري نحو نوري وطوحت ذراعيها فاحاطت عنقه وهي تصدر أصواتاً غريبة كالصياح ولا معنى لها سوى الترحيب بمقدمه. كانت ترتدي سروالاً عربياً طويلاً وصدراً صغيراً من نفس الطراز، ولكنهما كانا من الشفافية بحيث كان الأفضل أن تكون عارية. يمكنني أن قول أنها كانت في نحو السادسة عشرة من عمرها، ولكن جسدها كان نامياً نمواً معقولاً، وشعرها طويل داكن اللون. كانت تقبل نوري وتعود إلى تقبيله، مثل طفلة صغيرة ترحب بعمها الذي تحبه. ابتسم في صفاء وتركها تستمر في تقبيله للحظة، ثم قال لي:

"هذه هي كريستي، طفلة جماعتنا للدلة".

أجلسها على ركبته وقال: "وكيف حال طفلتنا؟" واندست يده داخل سروالها الشفاف. فتحت ساقيها طائعة، فتسللت يده بينهما ولمست ملتقى فخذيها. قال:

"هل كانت طيبة؟"

أومأت الفتاة برأسها بحماس، ووجهها خال من أي تعبير مثل دمية. خطر لي أن نوري يفضل من لا عقل لهم من الناس. سألها:

"هل كان لها أي عشاق منذ كنت هنا آخر مرة؟"

ارتسم على وجهها تعبير ينم عن الفضيلة، وهزت رأسها بتأكيد. من وراء الستار جاء صوت غريب، "شاك، شاك، شاك" كما لو كان حيواناً يسعل. اندفعت الفتاة نحو الستار، وجلبته جانباً، وجذبت بوريس من شعره فأخرجته، صرخت، "كذاب".

رقد مستسلماً على الأرض، وخده ملتصق بالبساط، وردفاه مرفوعان في الهواء. وحينما رجعت بقدمها الفصلى بجذائنها الرقيق إلى الوراء وركلته في ضلوعه لم يتحرك. اندفعت عائدة إلى نوري وألقت ذراعها حول عنقه، وقالت،

"الطفلة ليست كذابة. هو الكذاب".

لاطف نوري ظهرها بحنان، وسألها: "كم كانوا؟"

"لا أحد" عاد تعبير الفضيلة الكاملة مرة ثانية وهي تهز رأسها. عاد الصوت للبحوح مرة أخرى يتعالى من حلق بوريس. كانت على وشك أن تقفز لكي تندفع إليه مرة أخرى، ولكن نوري أمسك بها من معصمها، وكرر سؤاله: "كم كانوا؟".

تجهمت ومطت شفرتها استياء. قالت،

"ثلاثة".

سمعت الصوت للبحوح المتقطع ثانية. صرخت في بوريس،

"سوف أقتلك".

قال نوري باستياء،

"طفلتنا بها شيء من الغلظة الشبهة السيئة، أليس كذلك؟"

قالت الفتاة، وهي تبدو في صورة إحدى بنات الطائفة المهترئين المترمة، الذي يرعيبهم ذكر الخطيئة، "لا. ليست كذلك".

"طفلتنا تستحق الضرب بالحزام. أليس كذلك؟"

"كلا". كانت تتوسل، "إنه كذاب".

"كم كانوا؟"

نظرت إلى بوريس بحقد وهي تقول، "سبعة".

لم يصدر عنه أي صوت. قال نوري،

"سبعة رجال، أم سبع مرأت؟"

"رجال".

"سبع ضربات بالحزام، إذن".

وقفت، وجذبت سروالها إلى أسفل حتى ركبتها، ثم رقدت على بطنها فوق ركبتها. وجذب هو من تحت المقعد شريطاً من الجلد، ورفعه في الهواء، وهوى على الردف المستدير الوردي بضربة قوية. صرخت دون حرارة، أصبحت صرخاتها أعلى وأكثر تعبيراً مع توالي الضربات الست التالية. وعند الضرب السابعة قفزت من فوق ركبتها. هز رأسه وقال،

"واحدة أخرى".

انحنى أمامه، فهوى عليه نوري بضربة واحدة قوية. ثم قال،

"الآن، اجري".

حينما اختفت، قال نوري،

"والآن يا مسر سورم، اتقول أنك لا تعرف شيئاً عن جماعة العنقاء؟"

"إنني لم أقل ذلك. إنما قلت أنني أعرف أقل بكثير مما تعتقد".

"إنني لا أفهم كيف يمكن أن يكون هذا صحيحاً".

نظر حوله إلى بوريس. ونظرت أنا أيضاً إلى بوريس، الذي كان يجلس الآن على البساط، محتضناً بركبتيه. كانت الحيرة تبدو على بوريس.

كان نوري ينظر إلى بوريس. قال، "ماذا يعني يا بوريس؟"

نظر إليه بوريس دون تعبير بعينييه الشاحبتين، كما لو كان يحاول أن يتجنب السؤال بأن يتظاهر بعدم الفهم. ولكن حينما ظلت نظرة نوري الجامدة مثبتة عليه، قال بصوت متلعثم فيه هافاة:

"إنه.. أنه.. إنه يو.. يو. يعني أنه، أك، أك، أك، أكثر من شخص و.. و.. واحد."

قال نوري، "هذا ما تعنيه يا مستر سورم؟"

قلت، أخشى ألا يؤدي الشرح إلى أي نتيجة. إنك قد تشك في عقلي."

نظر إلي بوريس، وقال في صوت مثل قحیح سوط يهوي:

"ماذا يعني؟"

جفل بوريس، وقال في صوت ضعيف خارج من الحلق:

"إنه شخص ما، يدعى أيزموند."

زحفت عينا نوري إلي وراحتا تتفحصان، كان بوسعي أن أرى أن وجهه يستطيع أن يكون معبراً عن التهديد العنيف. قال:

"ألسنت أنت جيرارد سورم؟"

"أجل."

"من هو أيزموند؟"

"إنك تعرف. أيزموند دونيللي."

حدق في بقوة بالغة، كما لو كان يتساءل إن كان قد فهم ما قلته على الوجه الصحيح. ثم، لدّهشتي، انسحب الدم من وجهه، وشحب لونه، وأصبحت نظرته ثابتة لا حركة فيها. قال:

"هذا مستحيل."

ولكن صوته كان قد أصبح عريضاً مشروخاً.

حينئذ، راح أيزموند ينظر إليه بعيني، محذقاً في عينييه بقسوة. تغير وجه نوري. لكم كنت أحب أن انظر من مرآة لحظتها لكي أرى ما كان يراه. وأياً ما كان ذلك الذي رآه، فقد رأيت أنه القنعه. تطلب منه الأمر يضع ثوان لكي يستعيد السيطرة على نفسه. كانت شفاهه قد شحبتا حتى أبيض لونهما، وبرزت الندوب الحمراء على وجهه الرمادي.

قال:

"إذن فقد كنت على حق. لقد عرفت كيف تعود."

لم يفعل أيزموند إلا أن أوما برأسه (براسي). كان بوريس ينظر إلى نوري نظرة خائفة، مثل حيوان لا يعرف ماذا حل بسيد. وقف نوري وعبر الحجرة إلى خزنة جانبية. التقط قنينة الخمر وراحت يده تهتز وهو يصبها في كأس المزج الكبيرة، ثم ابتلع كل ما صبه دفعة واحدة. وأياً كان نوع ما شربه - كانت خمراً صافية مثل العرق - فقد جعلت عينييه تغييمان مثل المياه العكرة، وحسبت أنفاسه للحظة. مسح العرق عن وجهه، ثم جاء فجلس ثانية، وجعل يرمي أيزموند بنظرات خائفة كما لو كان يأمل أن يكون الأمر كله خطأ من الأخطاء. قال:

"سامحني. إنك لا تتوقع مني أن أقبل هذا الأمر بسهولة."

أسند ظهره إلى مسند القعد منحنياً إلى الوراء وأغمض عينييه. وإذا كنت أصدق من خلال عيني أيزموند وجئت نفسي متحيراً مما أبداه من اقتناع سريع. انتظر أيزموند. كانت هذه هي لحظة انتصاره. اعتدل نوري في جلسته وأشار إلى بوريس قائلاً: "أخرج" فأسرع بوريس خارجاً من الباب. قال نوري:

"ماذا تريدني أن أفعل؟ أن استقبل من الأستاذية؟"

"كلا. لا أستطيع أن أكون استاذاً إذا أردت... فإن لدي مستر سورم أشياء أخرى ينبغي عليه أن يقوم بها. ولكن لا بد أن تكون هناك عودة إلى اتفاقية عام ١٩٢٠."

ذهب نوري إلى الخزنة الجانبية مرة أخرى، وصب لنفسه كأساً أخرى دون اعتذار.

قال:

- "لا أرى كيف يمكن ذلك. سيعني هذا أن نحدث في قسمنا".

- "هذا هو الطريق الوحيد. صدقني".

كان أيزموند قد أصبح صبوراً يحاول أن يخرس الثقة في صدر نوري. قال:

- "إصغ إلي يا السيد، إنني لا ألومك. لقد كنت استاذاً ممتازاً. ولكن هناك أشياء هامة تحدث. وحتى هذا الأبله كورنر "ليس سوى نذير - أو بشر - بالمستقبل. هناك بشر من نوع جديد في طور النشوء الآن. إن العقل الإنساني يكاد الآن يبلغ الأفاق والطاقت التي لم أستطع أنا إلا أن ألحها من بعيد. وفي جوانب عديدة، يعرف سورم هذا أكثر جداً مما أعرف أنا. وإن عليكم أن تكونوا مستعدين لأن تلعبوا دوراً هاماً... وأنتم لن تستطيعوا القيام بهذا الدور وأنتم جمعية سرية".

قال نوري: "المشرفون الآخرون لن يوافقوا بأي حال".

- "لن يكون أمامهم خيار. هذا الرجل سورم يعرف كل شيء عنا. وسوف ينشر كل ما يعرف. وسوف يكون عليك أنت أن تحميه".

اعتدل نوري في جلسته مرة ثانية. كان على وشك أن يستعيد سيطرته الكاملة على نفسه، ولكنني ظننت أنه قد كبر في العمر عشرة أعوام دفعة واحدة. قال أيزموند بعطف:

- "اسمع يا سيد، اسمح لي بأن أشرح لك. حينما انضمت إلى الجماعة، منذ مائتي عام، كانت جمعية من الفاسقين الفجار. وكانت فكرتهم الأساسية هي أنه لا بد أن تملك أقلية ممتازة صغيرة الحرية الجنسية الكاملة. وكانت هذه فكرة جيدة حتى ذلك الحين وقد قبلتها أنا. ورحت أفعل كل ما فعله الآخرون - فرحت أتجول متغنياً بالسحر والشعر والنشوة الصوفية التي تنزل كلما غرست ذكري في عضو امرأة غريبة. وامتلكت طاقة داخلية، وتطورت تلك الطاقة حتى لم يعد في وسع أي امرأة أن تقاومني لأكثر من يوم أو بعض يوم. وأنت تعرف بعض ما قمت به. لقد أقنعت فتيات مذعورات في مدارس الأديرة الداخلية بأن يسلمن عذريتهن خلال أمسية واحدة. لقد نمت مع ثلاث ملكات، وثماني أميرات. وقد امتلكت نساء بعد أن عرفتهن بعشر دقائق فقط - نساء مكبوتات تخيلن بعد ذلك أنني سحرتهن. وفي سن الخامسة والثلاثين، صار من المحتمل أنني عشت تجربة جنسية أكثر اكتمالاً من أي

تجربة مماثلة عاشها أي رجل قبلي. ثم بدأت أنمو وأشب عن طوق هذه التجربة. تعبت من الاستمرار في أن أكون مجرد أداة في يد قوة لم أفهمها. حينما شعرت بأنني شبيه برب من الأرباب في لحظة التحقق الجليل، طرحت على نفسي ذلك السؤال: هل هذا هو أيزموند دونيللي الحقيقي؟ أم أنه الأفاق من النوع الجديد الذي يستخدم ذكائه وإخلاصه كي يوقع بالنساء للآهرات؟ لقد رايت، ذات يوم في موسكو، سائق عربية يضرب حصانه، وقبل أن أضربه حتى أطرت أسنانه من فكه، كنت قد شعرت بنوع من الغثيان بسبب "ساديته" الطافحة. وفي وقت متأخر من نفس هذا اليوم، أخذت صغرى بنات القيصر إلى منزل صيغي صغير في مروج حدائق القصر، وأقنعتها بأن تدعني استولي على عذريتها. وبينما كنت أخذها، استولت علي فجأة رؤية رأيت فيها وجه سائق العربية، فعرفت أنني كنت أفعل الشيء نفسه، استمد المتعة من خلال "فرض إرادتي" على مخلوق أضعف، فاستمتعت بالإحساس بالقوة وتبينت لحظتها أنني كنت أقوم بعمل نفس الشيء طوال عشرين عاماً، مكرراً نفس الفعل الذي كما لو كنت أسعى إلى أن أؤكد لنفسي أنني لست الأبله المضجر الذي يشبه بقية النبلاء - أصحاب الدم الأزرق - الشبان. وفجأة شعرت بنفسني بانساً مجللاً بالعار. واتخذ انقلابي النفسي هذا شكل الإحساس بالأسف على الفتاة، وهكذا فقد اندفعت حتى إلى التفكير في أن أسألها أن تهرب معي، ولكنني اكتشفت في اللحظة المناسبة أن هذا لن يكون سوى طريق مسدود آخر. هذه هي نهاية أكثر الأفاقين شهرة، إنهم يحاولون أن يجعلوا أنفسهم يشعرون بالسمو الأخلاقي بأن يعاملوا الفتاة كما لو كانت إنسانة بدلاً من معاملتها كمدينة تحت الحصار. ولكن هذا السلوك لا يزيد أخلاقية في الحقيقة عن إلقاء قطعة نقد معدنية في صندوق شحاذ لكي ترضي ضميرك وتهذه. لم يكن الحل هو أن استبدل نوعاً من الغباء نوع آخر، بل كان هو أن أحاول أن أفهم طبيعة الأمل السرابي الخادع الذي ظللت أطارده تحت أذيال النساء.

"وحينما عدت إلى إيرلندا، رايت فتاة كنت قد عرفتها منذ سنوات طويلة، فتاة كنت قد اغويتها منذ خمسة عشرة عاماً. ودفعت رؤيتها إلى ذاكرتي بصورة ذلك الصيف في الحظيرة خلف منزلنا. وقفت في الحظيرة وتذكرت كل شيء. وحينذاك عرفت الخطأ الذي وقع منذ البداية واستمر بعد هذا على الدوام. فحينما امتلكت في البداية مينو ودلفين، توقعنت لنفسي مستقبلاً من القدرة اللانهائية على الامتلاك. توقعنت أن تعاملني الحياة مثل طفل مدلل مفضل. ولقد عاملتني الحياة بهذا الشكل بالتأكيد. ولكنني سمحت لنفسي بأن

أصبح سلبياً أكثر من اللازم. لقد قبلت الحصول على المتعة، ولكنني فشلت في أن أبذل في سبيلها أي مجهود. في أول مرة ولجعت فيها مينو، شعرت بأنني مثل إله من الآلهة القديمة. ولكن منة انتصار آخر، وولوج منة امرأة أخرى لم تفعل شيئاً لكنني تفتدي هذا للوعود بالآلوهية. على العكس، لقد دمرت انتصاراتي وعدي القديم، لأنها لم تكن انتصارات حقيقية، وإنما أصبحت عادة تمارس مثل بقية العادات الباردة".

كف عن الكلام. وكان لصوته - الذي لا يسعني أن أقول أنه صوتي، لأنه كان يبدو مختلفاً حتى بالنسبة لأذني أنا - التأثير الذي أراده بالضبط على نوري. ولابد أيضاً أن نتذكر أن أيزموند كان يستخدم دماغه وأنا ولغتي وتداعيات ذاكرتي، ولما كانت هذه الأدوات - أدواتي - تستطيع أن تعبر عن أفكاره بدقة أكبر من لفظة هو الخاصة فإن الكلمات كانت تنطلق من لسانه بسرعة فائقة حتى لكان من الصعب أحياناً أن يتابعه من سمعه. كان مجهود التركيز قد هذا نوري، وجعله يستعيد سيطرته على نفسه. قال أيزموند:

"هل تتابع سلسلة تفكيري؟"

"ليس ما تقوله غريباً بالنسبة لي، كثيراً ما تخطر لي أفكار مشابهة، وكنني لا أستطيع أن أعثر على أي حل".

"الحل أقرب مما تظن. ويكاد مستورم أن يكون قد عثر عليه بنفسه. لقد كانت لي ميزة طبيعية واحدة عظيمة - فقد فكرت في نفسي دائماً باعتباري الطفل للفضل. وهذا شيء مهم - التفاؤل، الدافع المحرك إلى الأمام. وكانت لدي الجرأة الكافية التي تدفعني إلى التساؤل عما إذا كانت حالات التشبه بالرب تمثل حقيقة وجودي الداخلي أم لا تمثله. وحينما قررت الإجابة على أن ذلك السؤال هي "جل"، لم يبق أمامي - ببساطة - سوى سؤال واحد، لماذا إذن يعود العقل فيغرق في حالة من البلادة الكثيبة حينما تنتهي لحظة ذروة النشوة الجنسية؟"

"بالتأكيد لأننا لا نستطيع الصمود أمام مثل هذه الكثافة، ليس لدينا ما يبقينا لنا، وليس لنا ما يحفظها في أيدينا. إن إناء ماء لابد أن يفرغ سريعاً إذا ترك على النار".

"كلا. هذا تفكير مختلط مشوش. إن نشوة الذروة الجنسية ليست نتيجة انطلاق الطاقة المحبوسة، وإنما نتيجة الرؤية التي تصاحبها. يمكنك أن تحصل على الذروة الجنسية

دون الرؤية، إذا كان عقلك متعباً. أو يمكنك أن تحصل على الرؤية دون الذروة الجنسية، إذا كان العقل مشبعاً بالشعر أو الموسيقى. هل يمكن أن تصبح مشبعاً أكثر من رجل أعمى لأنك ترى الأشياء التي لا يراها؟ كلا، العكس هو الصحيح، لأن الرجل الأعمى أكثر قريباً من احتمال الضجر، والضجر يؤدي إلى التعب. والسالة هنا هي مسألة الرؤية وسرعان ما اكتشفنا أننا نفقد الرؤية لأننا تكف عن محاولة رؤيتها. إننا نسترخي، ننصرف عنها ونوليها ظهورنا، مثل رجل يتناوب ويقمض عينيه".

"لقد عرفت في حياتي رجالاً مقدسين، رجالاً ساروا فوق الجبال وعبر الصحاري كانوا يبحثون عن نفس الرؤية، الإدراك الدائم للعلم باعتباره لغزاً عاماً. ولقد عرفت الآن لماذا تسلط عليهم عشق الخلاء المكشوف. لقد طور الإنسان قدرته على التركيز على الأشياء الصغيرة، مثل صانع ساعات سويسري. ومثل صانع الساعات، أصبح قصير النظر، وتزايد قصر نظره حتى لم يعد بإمكانه أن يحدق في المسافات البعيدة. وكان الرجال المقدسون يحاولون تصحيح نظرهم بالبحث عن مساحات الخلاء المفتوح. وإنني لأرى الآن لماذا كان سعيهم إضافة للوقت والجهد، لقد كانوا يحاولون أن يستبدلوا ملكة بملكة أخرى، ويبحثون عن الجبال بنفس الطريقة للتعثرة للتكررة التي كنت أبحث بها عن النساء.

"هل تفهمني؟ أصبحت واعياً مكتمل الوعي بإمكانية الحصول على رؤية أكثر اتساعاً. اعترفت بأن هذا لابد أن يعتمد على تطور ملكات أخرى وقدرات جديدة للإرادة. في البداية، فعلت أوضح شيء يمكن أن أفكر فيه. ففي اللحظة التي كانت تفيض فيها قوة الذروة الجنسية يتفرق عقلي، كنت أحاول أن أمسك بها فلا أدعها تفلت، وأرفض أن أسمح لها بالهبوط ثانية إلى المستوى العادي. وسرعان ما اكتشفت أنني كنت أحاول أن أطور قدرة كبيرة على التركيز. من الحق أنني لا أستطيع أن أتمسك بكثافة لحظة الذروة الجنسية أو أن أمسك بها. ولكن حالما يتحول عقلي إلى الخارج، مثل نسر صغير يحدق في السماء من عشه المرفوع فيحاول أن يقذف بنفسه إلى الهواء، فقد كان بوسعي أن أركز على توسيع نطاق رؤيائي. إن مشكلة الإنسان الرئيسية هي أنه جبان خائر العزم. ففي كل مرة يفقد فيها إحساسه بوجود هدف أمامه، يقف ساكناً، ثم يتراجع. ويجعله الضجر يسير دون هدف وفي دوائر مغلقة، فيضيع معظم حياته في هذه الحالة. إن سعيه وراء الحب يمنحه اتصالاً واحتكاماً مؤقتاً بالينابيع الخفية للقصد أو الهدف، وقد كان هذا هو أعمق تعبير لوجود

جماعتنا. ولكن احتياحنا الحقيقي بوضوح، هو أن تحول تلك الينابيع الصغيرة إلى منابع كبيرة لا يمكن أبداً أن تجف. لا بد أن يصبح الضجر مستحيلاً. إنه المعادل الوحيد لفقدانك الطريق في الصحراء. ولكن حالما يمكن ابتكار البوصلة التي تحدد الاتجاه، فإن هذا لن يكون مشكلة بعد. ولقد رأيت أن مهمتي هي أن أركز حتى أتمكن من أن أطور هذه البوصلة، وهي المعرفة الواضحة لهدف. لقد رأيت أن الضجر هو عدو شبيه الرعب، وأن كل هوائي ينبغي أن توجه نحو القضاء على هذا العدو.

قال نوري: "ولقد انجزت هذا. لقد نجحت".

- "أجل. وسوف تنجح أنت أيضاً، الآن، وقد رأيت أنه ليس بالهدف المستحيل. وسوف ينجح سورم. وحينما ينجح اثنا عشر رجلاً، سوف تتبعهم بقية الجنس البشري. إن ينابيع القصد أو الهدف ليست مدفونة إلى عمق كبير تحت الأرض. وحتى هذه الفتاة الصغيرة التي كانت هنا تملك القدرة اللازمة إذا عرفت فقط كيف توجهها. إنها حيلة عقلية، مثلها مثل القفز من الأرض لامتطاء حصان يجري".

كانت الصورة التي وضعتها في عقل أيزموند هي صورة رجل يستفيد من موجة قوية لكي تحمل لوحة الطفلي فوق الماء، ولكنه لم يستطيع أن يفهم الصورة. كان أيزموند يقتصر إلى التصورات والافاهيم اللازمة للتعبير عما يريد تعبيراً كاملاً، فكرة "الارتقاء" من مستوى للوجود إلى مستوى آخر، ومعرفة أن الشخصية الإنسانية سلسلة من المستويات. ولكنني كنت أملك تلك التصورات والافاهيم.

قال نوري: "هل لي أن أطرح بعض الأسئلة؟ أين أنت الآن؟ هل هناك عالم آخر - بالمعنى الحرفي لكلمة العالم - وراء أو تحت هذا العالم الذي نحياه؟"

ضحك أيزموند. قال:

- "إن ما تدعوه "هذا العالم" هو ما يمكنك أن تراه من خلال شق صغير في الباب المغلق. وهذا يماثل أن تسمي هذه الغرفة التي تجلس فيها الآن عالماً بأكمله. بوسع مستر سورم أن يشرح لك هذا بشكل أفضل مني. إنه يتحدث عن حياة - العوالم - أما فيما يتعلق بأين أنا الآن، فليس بوسعي أن أوضح هذا بسهولة. فحينما استطعت أن أطور قوة إرادتي، بدأت أفهم أشياء لا بد أن تكون واضحة من تلقاء نفسها كالبداهيات. فحينما يملكك التعب، تصبح الروح

مقيدة بشدة بين أضلاع الجسد. وكلما زدت صحة وحيوية، كلما زدت إحساساً بأنك تسيطر على جسدك من مسافة بعيدة، مثلما يسيطر مدرب الصقور على صقره الطائر في الفضاء. وعند نقطة معينة من الدائرة العقلية، يصبح من الممكن أن نحقق درجة من السيطرة على هذا الجسد لا يمكنك حتى أن تتخيلها. وحينما يحدث هذا، تصبح كل الأشياء الغريبة ممكنة الوقوع - فإني أستطيع، على سبيل المثال - أن أعرض ما تدعوه أنت بجسدي الوهمي من على مسافة عظيمة".

- "وكان هذا هو ما حدث حينما ظهرت في اجتماع برلين عام ١٩٣٠؟"

- "بالضبط. ولكن لا تبالغ في تقدير أهمية تلك القدرة، إنها ليست سوى منتج ثانوي. إن ما يهم حقاً هو درجة السيطرة الجديدة على الجسد. لأن هذه القدرة إذا ما تحققت مرة، يكاد يكون من المستحيل أن تموت بعد ذلك".

قال نوري: "ولكنك مت".

- "مثلما ترى".

- "ولكن جسدك مات في عام ١٩٣٢. ودفنت في "سرداب مدفن الأسرة في إيرلندا".

لم يقل أيزموند شيئاً، كانت ذاكرته مغلقة مطبقة ثانية حتى بالنسبة إلي أنا. قال بعد لحظة:

- "لا تدعنا نضيع وقتنا على ما لا أهمية له. ولنصرح فقط بأن مستر سورم قد كان أداة ثمينة لا تقدر، وأنت ينبغي أن تعامله بنفس الثقة التي تعاملني بها. وسوف يكون قادراً في مقابل هذا، على أن يقدم لك الكثير من العونة. إن مستر سورم، مثلي أنا، ليس مهتماً بالجنس بصورة أساسية. إنه رجل كالتطهرين. ولكنني أظنه قد اكتشف بعض الإمكانيات ذات الأهمية في جماعة كورنر. وتستطيع أنت أن تطلعه على أشياء أكثر أهمية بكثير، إنني أعتمد عليك".

- "وماذا عنك أنت؟ هل سترحل الآن؟"

- "كلا. ولكنني حقاً لا أستطيع أن أظل أفرض نفسي على مسر سورم. إن لديه عمله الخاص الذي ينبغي عليه أن يقوم به".

قلت بصوت مرتفع - لصالح نوري: "إنني أرحب بمقدمك وهتما تحب ذلك".

- "أشكرك. إنك مضياف حقاً".

قال نوري: "ما الذي تريد مني أن أفعله على الفور؟"

- "لا شيء. ركز على تعلم حيلة القفز فوق صهوة الجواد المسرع. وتذكر شيئاً واحداً. التشاؤم أفضل من الرصاص يحيط بالقدم. الهزيمة دائماً نتيجة اختيار ذاتي. يستطيع مسر سورم أن يشرح تلك الأشياء بشكل أفضل مني - إن له نسقه الخاص في الفلسفة الذي يقوم على أفكار رجل يدعى هوسرل. والآن يا عزيزي السيد. سوف أغادرك. وإنني سأكون أيضاً في غاية الامتنان لك لو أنك مددت حمايتك كي تشمل لورد جليبي الحالي، ابن ابن صديقي هوارس. إنه يملك عدداً كبيراً من نفس العناصر التي كان هوراس يمتلكها وبذلك فإنك تستطيع بمعنى ما أن تعتبره تجسيدا جديداً لجدد الأكبر وتلك العناصر. لا تقل شيئاً عما حدث لذلك الأبله سانت ليجير. إنه ليس جديراً بالثقة".

بعد ذلك اختفى، وأصبحت أنا ونوري وحيدين. لم يكن نوري واثقاً من أنك حتى قلت: "لقد رحل".

وقف وقال، "حسناً يا مسر سورم. اظننا نستحق كأساً. ويسكي؟"

- "كأساً صغيرة. مع الشكر".

وبينما كان يصب الكاسين، سألت: "كيف عرفت أن أيزموند كان ينوي أن يعود مرة أخرى؟"

"هناك قصة تقول يا مسر سورم بأنه لم يمت أبداً، وأن الجسد الذي دفن في سرداب مدفن الأسرة كان جسد شحاذ عجوز. ولقد قال هو نفسه شيئاً يقرب من هذا في يومياته للوجود الآن في منزلي على جزيرة هيندورابي. وسوف تكون أنت وأسرتك ضيوفاً مكرمين

هناك إذا شئت أن تأتي لكي تفحص تلك اليوميات. وهذه اليوميات تتوقف بعد عام ١٨٠٠، الأمر الذي حيرني دائماً. ولكنني أفهم ما حدث الآن".

- "هناك شيء واحد أحب أن أسألك عنه. هل أفلح عن الجنس بعد ما حققت من استبصار وإدراك؟"

- "أظنني أستطيع أن أجيبك على هذا السؤال. إنك تعرف أنه قد اختار صغرى الشقيقات أنجست لكي تكون شيئاً مثل الكائن المقدس، وقد أصبحت فيما بعد كاهنة في قيادة الجماعة القسطنطينية؟ يمكنك أن تقرأ عن هذا في اليوميات. وأنا أعتقد أنه قد اختارها لأنه قال عنها أنها تمتعت بنوع سري خاص من النعم الإلهية جعلها أكثر نقاء في أنوثتها من أي امرأة عرفها من قبل. وعاملتها الجماعة باعتبارها كائناتاً مقدساً، بعد أن أصبح أيزموند استاذاً أعظم في عام ١٨١٠، وبعد ذلك احتلت ابنتها ثم حفيدتها مكانها. ومما يصدق كل العارفين أن أيزموند كان والد ابنتها الحقيقي".

- "من الذي كتب الكتب النسوية إلى أيزموند، "أفراع العذارى" وما إلى ذلك؟"

- "لقد كتب جليبي نفسه هذا الكتاب، في وقت أراد فيه أن يزعم ثقة أيزموند بالجماعة، ولكن كانت هناك تزييفات أخرى كثيرة بعد هذا. فإن أيزموند باعتباره استاذاً أعظم كان جديراً بأن ينحل أعمالاً مزيفة مثلما نحل كتاب عصر اليزابيث الصغار أعمالهم لشيكسبير، وخاصة المسرحية منها".

- "ماذا كان السبب المباشر لموت أيزموند؟"

قال: "هذا شيء يحيرني، فالقصة التي يوردها كاتب ترجمته، عصمت الاصطخري، تقول بأنه أصيب بتزيف دموي في الدماغ بعد احتفال ضاحك فيه خمس عشرة امرأة. وهذا بالطبع محتمل، فباعتباره استاذاً أعظم، كان من مهامه أحياناً أن يشترك في مثل تلك الاحتفالات. ومع هذا فإنني لم أكن قادر أبداً على أن أقبل هذه القصة قبولاً كاملاً. وأنا الآن أقل ثقة منها مما كانت من قبل".

- "هل هذه الترجمة مكتوبة بالإنكليزية؟"

- "إنه بالعربية لسوء الحظ. ولكن يمكنني أن أمر بترجمتها لك".

المشرف الألماني الذي كان أيضاً نازياً سابقاً. وقد أدار بينديج "العسكر الجنسي" المشهور، الذي أنكر المؤرخون الألمان المعاصرون وجوده).

لجاننا إلى أسرتنا، منهكين إلى أقصى حد متمنين أن ننام عميقاً، وفي ساعات الصباح الباكرة. وحينما استيقظنا، كان نوري قد رحل إلى باريس. وفي وقت متأخر من نفس اليوم طرت عائداً إلى شانون حيث قابلتني ديانا. وحينما عدنا إلى البيت، وجدنا برفية من نوري يسألنا فيها إن كان بوسعنا أن نلحق به في منزله في هيندورابي في عطلة الأسبوع التالي. اقلتنا طائرته الخاصة من شانون. وفي الشهور الأربعة التالية منذ ذلك الحين، تمتعنا بأشعة الشمس، وكتبت أنا هذا التقرير عن بحثي عن أيزموند.

أما أبحاثي في محفوظات السيد نوري - التي ساعدني فيها منظم مكتبته الممتاز الدكتور هانق خصه فقد أجابت على معظم ما تبقى من أسئلة حول أيزموند وحول تاريخ الجماعة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وسوف تنشر هذه النتائج في موعدها اللاتم. أما أنجيلا التي تعمل هنا هي الأخرى، لقد جمعت المواد الأساسية المطلوبة لتأليف ترجمة حياة أيزموند، هذه الترجمة التي من المحتمل أن نتعاون في كتابتها.

وقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهتني في عملية الكتابة عن "بحثي" هي مقدار ما أستطيع أن أستخدمه من الصراحة في بعض المواقف أو الأحداث. ولقد قبلت اقتراح هوارد فليشر بأن أكتب كل شيء كما حدث، ثم أترك له مهمة تقرير كمية التغييرات ونوع ما قد يكون ضرورياً منها^(*). وعلي أيضاً أن اعترف بأنني لم أسمح لديانا - حتى الآن - بأن تقرا المخطوطة، وإنها - لحسن الحظ - فتاة قادرة على الفهم، ويمكنني أن أقي أكثر اللوم على أيزموند.

وماذا عن أيزموند؟ فمنذ عصر ذلك اليوم في شارع بروك، لم أحس بحضوره إلا على فترات متباعدة. ولكنني لا أستطيع أن أكون وثقاً من أن هذا الحضور ليس من وحي خيالي. إنني كثيراً ما أجد نفسي أفكر في حادثة غريبة حدثت في بيت نوري في تلك الليلة. كان

(*) حينما كان هذا الكتاب في مرحلة تجارب الطبعة، سمعت أن بهابا كوكولونيل دونيللي قد عثر عليها في منزل مزرعته الذي احترق عن آخره، ولم يكن ثمة أي شكوك في وقوع عمل إجرامي متعمد. وعلى ذلك فقد اعتلت كتابة الفقرة الخاصة بالكولونيل دونيللي ووضعها بالشكل الذي كتبتها به هنا.

نظرت إلى ساعتني فدهشت حينما وجدتني قد تجاوزت السادسة. خطر لي أن أنجيلا ستكون الآن قلقة بشدة علي. ولذلك فقد سألت إن كان يمكنني أن أطلبها بالتليفون. وقد كنت على حق، فقد كان أنجيلا أستمير يتناقشان في تلك اللحظة حول إن كان عليهما أن يتصلا بالشرطة أم لا، فإن تلميحات سانت ليجير العتمة حول اغتيال جليبي أزعتتهما. وبينما كنت ما أزال أتحدث في التليفون، تسلل إلى جانبي رئيس الخدم الصامت وقال:

"اعذرني يا سيدي، ولكن مستر نوري اقترح أنك قد تحب أن تدعو صديقك لتناول لعشاء هنا".

بلغتهما الاقتراح، فقبلاه على الفور.

حينما عدت إلى المكتبة، كان نوري يرتدي عباءة فضفاضة مزخرفة بشكل جميل، وقد وقفت خلف مقعده، أربع فتيات في ملابس شفاقة، قال:

"أه، مستر سورم، أرجو أن يكون صديقك قد قبلا الدعوة؟ ما زال أمامنا ساعة أخرى حتى يحين موعد العشاء. هل حدث أبداً أن جريت ما يتمتع به حمام الأمراء من قدرة على بعث الراحة في الجسد والاسترخاء في الأوصال؟ لقد اخترعه أستاذ أعظم تركي في القرن السابع عشر. وهؤلاء السيدات الصغيرات قد تعلمن فن الكمال. إنني أقترح أن نستحم الآن على طريقة الأمراء، قبل العشاء، وربما أمكنك في أثناء ذلك أن تروي لي كيف حدث أن سمعت بأيزموند دونيللي".

□ كانت هذه هي المقدمة التي أدت إلى واحدة من أمتع الأمسيات التي قضيتها في حياتي، ولكن ليس هذا هو مكان وصفها بالتفصيل. إن تاريخ جماعة العنقاء موضوع يبلغ من التعقيد والثراء حداً يجعلني أشعر بأنه ليس من العدل أن أتحدث عنه هنا. وحينما يكتمل إعداد أوراق دونيللي للنشر، سوف أرجو أن أقوم بهذا العمل بنفسني. وقد سرد علينا نوري أيضاً جانباً من تاريخه هو، وإنه يأن استعرض أمامنا بعضاً من تلك القدرات الهائلة التي أدت إلى تعيينه أستاذ أعظم. (وقد حدث هذا بعد صراع مشهود مع لودفيج بينديج،

بوريس يستعرض قدرات حاسته السادسة امام أنجيلا وألستير. وان نوري قد نومه تنوياً
مغناطيسياً، وكانت إجاباته على أسئلة حول حياة كل منا الخاصة دقيقة إلى حد مخيف.
وقبل أن يوقفه نوري، سألنا إن كان لدينا أية أسئلة نحب أن نطرحها على التائم. قالت
أنجيل:

- "أجل. هل يمكن أن يخبرنا أين أيزموند في هذه اللحظة؟"

استدار وجه بوريس المغمض العينين إلي، وقال:

- "إنه هو أيزموند".

* * *